ابن رجب الحنبلي

وأثره في توضيح عقيدة السلف

تأليف

الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي
الأستاذ المشارك بكلية الدعوة وأصول الدين
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

تقديم

الشيخ صالح بن فوزان الفوزان و الشيخ حماد بن محمد الأنصاري

دار المسير

ابن رجب الحنبلي
وأثره في توضيح عقيدة السلف
الدكتور عبد الله الغفيلي

ابن رجب الحنبلي

وأثره في توضيح عقيدة السلف

تأليف

الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي

الأستاذ المشارك بكلية الدعوة وأصول الدين
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

تقديم

الشيخ صالح بن فوزان الفوزان و الشيخ حماد بن محمد الأنصاري

المجلد الأول

دار المسير

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

دار المسير

المملكة العربية السعودية

الرياض : ١١٤٧٨ - ص ب : ٣٤٨٥٣

هاتف وفاكس : ٤٣٠٠٥٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ فضيلة الشيخ: صالح بن فوزان الفوزان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. نبينا محمد وعلى آله وصحبه وبعد: فقد قرأت الكتاب الذي ألفه فضيلة الشيخ الدكتور: عبد الله بن سليمان الغفيلي بعنوان: «ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف» فوجدته كتاباً وافياً في موضوعه مفيداً في محتواه حيث تناول شخصية علمية من أعظم الشخصيات في الإسلام، ألا وهي شخصية الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي وما قدمه ذلك الإمام من آثار علمية في مجالات مختلفة مما أثرى المكتبة الإسلامية ونقل علم السلف النقي الخالص إلى أتباعهم من الخلف الذين اتبعوهم بإحسان ورفضوا السير خلف غيرهم فكان هذا الكتاب الذي أعده أخونا الشيخ: عبد الله الغفيلي بمثابة المنظار الصافي الذي يطلع من قرأه على مكانة الإمام ابن رجب رحمه الله وقيمة مؤلفاته العلمية في أعظم أبواب العلم وهو باب العقيدة. وتبقى آثاره الحديثية، وآثاره الأصولية، وآثاره الفقهية مجالات أخرى لمن يريد إبرازها من الباحثين وإنها لمفخرة عظيمة أن يقوم الباحثون منا بتجلية مواقف أئمتنا وبيان آثارهم العلمية حتى يحذو حذوهم ويقتدي بهم كل من أراد أن يدعو إلى الله على بصيرة. ومن أراد أن يبين الطريق الصحيح الذي كان عليه سلف الأمة وأئمتها في وقت كثر فيه أدعياء العلم ومن ينتحلون الدعوة وهم على غير بصيرة وإنما ينتهجون مناهج من هنا وهناك مخالفة لمنهج الكتاب والسنة في الدعوة إلى الله

ومخالفة لمنهج السلف حتى أصبحت في الغالب دعوة إلى الفتنة والاختلاف. ورحم الله الإمام مالك حيث قال: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها،ـ وأخيراً نقول للشيخ عبد الله الغفيلي ولإخوانه المتبصرين من شباب هذه الأمة مزيداً من البحث عن مواقف الأئمة المصلحين وآثارهم المفيدة. ليتضح الطريق الصحيح أمام من يريد الحق. ولكم من الله المعونة وجزيل المثوبة ودعوات المخلصين ـ وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

وعضو هيئة كبار العلماء

تقريظ فضيلة الشيخ: حماد بن محمد الأنصاري

بسم الله الرحمن الرحيم. وبه ثقتي.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

هذا فرسالة الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي التي تحمل العنوان التالي: «ابن رجب الحنبلي وأثره في العقيدة السلفية» قد بذل فيها الباحث جهداً مشكوراً على أن هذه الرسالة تعد أول دراسة من نوعها لعقيدة الحافظ عبد الرحمن بن أحمد أبي الفرج الدمشقي الحنبلي السلفية.

وكانت هذه الرسالة قد شملت في دراستها لعقيدة أبي الفرج وجوهاً عديدة:

١ ـ حصر مؤلفات الحافظ ابن رجب في العقيدة وغيرها مطبوعة ومخطوطة.

٢ ـ تركيزه على ما يتعلق بالعقيدة السلفية من مؤلفات ابن رجب إضافة إلى البحوث التي أخذها الباحث من مختلف كتب ابن رجب.

وقد توج الرسالة بفهارس فنية شاملة تساعد القارئ على ما يريد في هذه الرسالة القيمة الفريدة في موضوعها بيسر وسهولة وأسأل الله العلي القدير أن يجزي جامعها خير الجزاء وأن ينفع بها قارئها وكاتبها والله ولي التوفيق.

كتبه أبو عبد اللطيف حماد بن محمد الأنصاري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«المقدمة»

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[3][4].

أما بعد: فإن علم التوحيد أشرف العلوم وأجلها قِدراً، وأوجبها

---

(١) سورة آل عمران آية (١٠٢).

(٢) سورة النساء آية (١).

(٣) سورة الأحزاب الآيتان (٧٠ ـ ٧١).

(٤) هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة، وهي تشرع بين يدي كل حاجة وهي مأثورة عن رسول الله ﷺ. أخرجها مسلم (٢/ ٥٩٣) وأبو داود (١/ ٦٥٩) والنسائي (١/ ٢٠٨) وابن ماجه (١/ ٦٠٩) وغيرهم. وانظر تخريجها للشيخ ناصر الدين الألباني بعنوان «خطبة الحاجة التي كان الرسول ﷺ يعلمها أصحابه».

مطلباً لأنه العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وحقوقه على عباده، ولأنه مفتاح الطريق إلى الله تعالى، وأساس شرائعه، ولذا أجمعت الرسل على الدعوة إليه قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[١].

وشهد الله لنفسه تعالىٰ بألوهيته وحده وشهد بها له ملائكته وأهل العلم قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[٢].

ولما كان هذا شأن التوحيد كان واجباً على كل مسلم أن يعتني به تعلماً وتعليماً واعتقاداً وعملاً ليبني دينه على أساس سليم وطريق قويم يسعد بثمراته ونتائجه في الدنيا والآخرة، فالعقيدة الإسلامية هي قوام المجتمع المسلم الذي لا يمكن أن يكون له بناء بدونها.

وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أن منهج أهل السنة والجماعة في فهم العقيدة الإسلامية هو المنهج الصحيح الذي يجب السير عليه والعمل بمقتضاه في كل زمان ومكان لمن أراد أن يسلك سبيل النجاة والفلاح، لأن أعداء الإسلام والمسلمين قد بذلوا كل ما يستطيعون لإبعاد المسلمين عن دينهم الحق وعقيدتهم السليمة كي يستطيعوا تحقيق أغراضهم الفاسدة، فابن سبأ[٣] اليهودي الذي أدخل على المسلمين عقائد تشوه جمال دينهم وتحطم بنيانه، كان من أول أعداء المسلمين الذين بثوا

---

(١) سورة الأنبياء آية (٢٥).

(٢) سورة آل عمران آية (١٨).

(٣) هو عبد الله بن سبأ رأس الطائفة السبئية، وكانت تقول بألوهية علي، أصله من اليمن، كان يهودياً، وأظهر الإسلام لتفريق كلمة المسلمين، وكان من غلاة الزنادقة، وكان يقال له «ابن السوداء» لسواد أمه. قال الذهبي: ضال مضل أحسب أن علياً حرّقه بالنار، هلك سنة ٤٠هـ.
ميزان الاعتدال (٢/ ٤٢٦) ولسان الميزان (٣/ ٢٨٩) والأعلام للزركلي (٤/ ٨٨).

العقائد الفاسدة في صفوف المسلمين، الأمر الذي أصبح له الأثر الكبير على ما أصاب المسلمين فيما بعد من محن.

وقد تبع ابن سبأ أناس آخرون ساروا على نهجه في تحطيم كيان الأمة الإسلامية بما يقومون به من أعمال فاسدة أمثال بشر المريسي(١) والجعد بن درهم(٢) والجهم بن صفوان(٣) وغيرهم.

وقد حاول هؤلاء جميعاً القضاء على الإسلام والمسلمين، ولكن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ هذا الدين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾(٤).

---

(١) هو بشر بن غياث المريسي العدوي، معتزلي، عارف بالفلسفة، وإليه تنتسب الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء، وكان أبوه يهودياً وهو من أهل بغداد ينسب إلى درب المريس، قالوا في وصفه: كان قصيراً دميم المنظر، وسخ الثياب، وافر الشعر، وقد رد عليه الدارمي رحمه الله في كتاب «النقض على بشر المريسي» هلك سنة ٢١٨هـ.

ميزان الاعتدال (١/ ٣٢٢) والأعلام للزركلي (٢/ ٥٥).

(٢) هو الجعد بن درهم أصله من خراسان، مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى، وقال بخلق القرآن ونفى القدر، قتله خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٨هـ يوم النحر.

ميزان الاعتدال (١/ ٣٩٩) والرد على الجهمية للدارمي (١١٣) والأعلام (٢/ ١٢٠).

(٣) هو الجهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، رأس الجهمية وإليه ينتسبون لأنه أول من نشر المذهب.

قال الذهبي: الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان أصغر التابعين وما علمته روى شيئاً، ولكنه زرع شراً عظيماً، قتله سلم بن أحوز سنة ١٢٨هـ.

ميزان الاعتدال (١/ ٤٢٦) والكامل لابن الأثير (٥/ ٣٤٣) والخطط للمقريزي (٢/ ٢٤٩).

(٤) سورة الحجر آية (٩).

فقد هيأ تبارك وتعالى من يرد كيد هؤلاء الحاقدين المفسدين في نحورهم إذ تصدى لهم علماء السنة وردوا كيدهم ودحضوا باطلهم بالحجج القوية القاطعة من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ كالإمام أحمد والبخاري وغيرهما، وأمثال الدارقطني وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهم رحمهم الله جميعاً.

وكان من جملة هؤلاء الأئمة المهتدين والدعاة المصلحين الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري العلامة الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي طيب الله ثراه وأكرم في الجنة مثواه، فقد عرف عنه رحمه الله تعالى الورع والعبادة والزهد، وقد ابتدأ في طلب العلم والحديث بصفة خاصة منذ نعومة أظفاره، فقضى حياته رحمه الله تعالى كلها في علم وعمل ودعوة وعبادة وتهجد ووعظ وإرشاد، وقد بارك الله له في أوقاته وعمله، فقد استفاد منه خلق كثير في حياته، ولا زال طلاب العلم ينتفعون بمؤلفاته القيمة حيث أن له رحمه الله تعالى ما يربو على ستين مؤلفاً في فنون مختلفة.

وقد استفاد رحمه الله تعالى كثيراً من كتب من سبقه من علماء الإسلام وخاصة شيخه ابن قيم الجوزية وشيخ شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

فقد تتلمذ على الحافظ ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى وسمع عليه بعض مؤلفاته وقرأ عليه النونية في السنة الأخيرة ولازمه حتى الممات مما كان له الأثر الكبير في علمه وثقافته.

ولما كان نظام الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية يطلب من طلاب الدراسات العليا الذين يريدون الحصول على شهادة العالمية العالية «الدكتوراه» أن يكتبوا بحثاً علمياً في مجال تخصصهم رأيت أن أقوم

بدراسة علمية لمنهج هذا العالم الجليل وجهوده في توضيح عقيدة السلف، فاستخرت الله سبحانه وتعالى وشاورت في ذلك أهل العلم من مشايخنا الأفاضل في هذه الجامعة المباركة فوجدت منهم استحساناً وتأييداً لهذا الموضوع فعزمت عليه وجعلت عنوانه «ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف» للحصول على درجة «الدكتوراه» في العقيدة وكان سبب اختياري لهذا الموضوع الأمور التالية:

١ ـ أنه لم يسبق أن كتب أحد عن الحافظ ابن رجب في مجال العقيدة وجهوده فيها حسب علمي.

٢ ـ إن إبراز عقيدة هذا الإمام وغيره من أئمة السلف فيها إبراز لعقيدة السلف الصالح.

٣ ـ بيان أن عقيدة ابن رجب رحمه الله تعالى هي عقيدة السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

٤ ـ الحرص على بيان عقيدة السلف الصالح ونشرها بين الناس وذلك بإبراز علماء السلف مما يجلي عقيدتهم ويوضحها لدحض ما عداها من عقائد أهل البدع والضلال، فإن العمل في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة ومحاربة البدع وأهلها وإبراز علماء السلف من الأعمال الواجبة على أهل السنة والجماعة والفرقة الناجية ليكون ذلك نوراً يهتدي به من أراد أن يسلك الطريق المستقيم طريق الكتاب والسنة. وسلاحاً بأيدي الدعاة والمصلحين يدحضون به كيد أهل الباطل ويدمغون به شبههم الذين نراهم الآن جادين في إخراج تراثهم الباطل ونشر كتبهم الفاسدة وترويج أفكارهم الضالة وكل هذا وراءه أعداء الإسلام والمسلمين الذين يدعمون كل رذيلة وينشرون الكفر والإلحاد، والله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد

والعاقبة للمتقين ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾[١].

وقد سرت في الموضوع على الخطة التالية:

قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة:

أما المقدمة فقد اشتملت على ما يأتي:

١ - أسباب اختيار الموضوع.

٢ - خطة البحث.

٣ - عملي الذي سرت عليه في هذا البحث.

وأما الباب الأول: فقد خصصته للحديث عن العصر الذي عاش فيه ابن رجب رحمه الله تعالى وعن حياته الشخصية والعلمية علماً أنه قد كتب عن تاريخ ابن رجب وحياته ومؤلفاته وأقوال الناس فيه بعض الدراسات السابقة[٢] من قبل بعض الباحثين، وقد استفدت من ذلك كثيراً.

ولكن أردت بهذا الباب أولاً أن أدلي بدلوي مع الدلاء وأسهم بسهم مع الفضلاء وإني وإن لم أكن في مقامهم وسبقهم لأن اللاحق يتبع السابق.

ثانياً أردت أن أبرز بعض الجوانب التي رأيت أنها بحاجة إلى اهتمام أكثر وهي:

---

(١) سورة الصف آية (٨).

(٢) كتب الأستاذ الدكتور محمد بن حمود الوائلي رسالة دكتوراه بعنوان (ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه) سنة ١٣٩٦هـ، وكذلك كتبت الدكتورة أمينة الجابر رسالة دكتوراه بعنوان (ابن رجب الحنبلي وآثاره الفقهية) سنة ١٤٠٤هـ، وكلاهما من الأزهر.

١ ـ زيادة التحقيق في تاريخ ولادة ابن رجب رحمه الله تعالى خصوصاً وأن الدكتورة أمينة الجابر قد جعلت ذلك موضوع شك ووهمت الدكتور الوائلي في ترجيح تاريخ معين في ولادة ابن رجب رحمه الله تعالى.

٢ ـ تتبع شيوخ وتلاميذ ابن رجب رحمه الله تعالى من كتب التراجم المختلفة وحصرهم، وهذا لم يحصل منه شيء في الدراسات السابقة.

٣ ـ حصر كتب ومؤلفات ابن رجب رحمه الله تعالى مع بيان المطبوع منها والمخطوط مع الإشارة إلى أماكن المخطوط منها بقدر المستطاع.

٤ ـ الإشارة إلى الكتب التي تنسب إلى ابن رجب وهي ليست له أو هي مأخوذة من بعض كتبه ولم يؤلفها هو استقلالاً.

وقد اشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: العصر الذي عاش فيه، وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأوّل: الحالة السياسية.

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية.

المبحث الثالث: الحالة العلمية.

الفصل الثاني: حياة ابن رجب الشخصية وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: اسمه ونسبه.

المبحث الثاني: كنيته ولقبه.

المبحث الثالث: مولده.

المبحث الرابع: شهرته.

المبحث الخامس: أسرته.

المبحث السادس: أخلاقه وصفاته.

المبحث السابع: ابن رجب والتصوف.

المبحث الثامن: وفاته.

الفصل الثالث: حياته العلمية ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأول: طلبه للعلم.

المبحث الثاني: رحلاته في طلب العلم.

المبحث الثالث: شيوخه.

المبحث الرابع: تدريسه.

المبحث الخامس: تلاميذه.

المبحث السادس: ثقافته ومؤلفاته.

المبحث السابع: عقيدته ومذهبه.

المبحث الثامن: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

الباب الثاني: أثره في توضيح عقيدة السلف في التوحيد وأنواعه ونواقضه ويشتمل على خمسة فصول:

الفصل الأول: تعريف التوحيد وبيان أقسامه والعلاقة بينها وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التوحيد لغة.

المبحث الثاني: تعريف التوحيد شرعاً.

المبحث الثالث: أنواع التوحيد.

المبحث الرابع: العلاقة بين أنواع التوحيد.

الفصل الثاني: توحيد الربوبية وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: تعريفه لغة.

المبحث الثاني: تعريفه شرعاً.

المبحث الثالث: دلائل توحيد الربوبية:

١ ـ دلالة الفطرة.

٢ ـ دلالة النعم.

٣ ـ دلالة خلق السموات والأرض.

٤ ـ دلالة خلق النبات.

الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الثاني: مذهب السلف في أسماء الله وصفاته وترجيح ابن رجب له.

المبحث الثالث: أدلة توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الرابع: بيانه أن مذهب السلف أعلم وأسلم وأحكم.

المبحث الخامس: بيانه أن سورة الإخلاص فيها صفة الرحمن.

المبحث السادس: بيانه أن الاشتراك في الاسم لا يقتضي الاشتراك في المسمى.

المبحث السابع: ذكر جملة من الصفات التي ذكرها ابن رجب رحمه الله تعالى:

المطلب الخامس: شروط الانتفاع بـ «لا إله إلا الله».
المبحث الثالث: تعريف العبادة، وذكر بعض أنواعها.
المبحث الرابع: بيانه أن العبادة لا تقبل إلا بشرطين.
الفصل الخامس: نواقض التوحيد، وما يلحق بها من المسائل. ويشتمل على المباحث الآتية:
المبحث الأول: الشرك وكلام ابن رجب عليه. ويشتمل على عدة مطالب:
المطلب الأول: تعريف الشرك لغة.
المطلب الثاني: تعريف الشرك شرعاً وبيان أقسامه.
أمثلة للشرك الأصغر.
كلامه في حكم عمل المرائي.
حمد الناس العبد على الخير لا يعد من الرياء.
المبحث الثاني: النفاق وكلام ابن رجب عليه، وفيه عدة أمور:
١ - تعريف النفاق.
٢ - أقسام النفاق.
٣ - خوف السلف من النفاق لخطورته وخفائه.
المبحث الثالث: البدع وكلام ابن رجب عليها وفيه عدة مطالب:
المطلب الأول: معنى البدعة في اللغة والشرع والأدلة على التحذير من البدع والبعد عنها.
المطلب الثاني: أنواع البدع.
المطلب الثالث: الرد على محسني البدع وكلام ابن رجب على ذلك.

المطلب الرابع: نماذج من البدع وكلام ابن رجب عليها.

المطلب الخامس: حكم البدع وأهلها.

المبحث الرابع: الغلو وكلام ابن رجب عليه.

المبحث الخامس: مسائل متفرقة متعلقة بهذا الفصل.

١ - التنجيم.

٢ - التطير والتشاؤم.

٣ - الجمع بين قوله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة» وقوله: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، وقوله: «لا يورد ممرض على مصح».

٤ - معنى قوله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث».

٥ - النهي عن البناء على القبور واتخاذها مساجد.

٦ - النهي عن سب الدهر.

الباب الثالث: أثره في توضيح عقيدة السلف في مباحث الإيمان وما يتعلق بها من مسائل:

الفصل الأوّل: معنى الإيمان وبيان أهميته وما يتعلق به من مسائل ويشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: أهمية الإيمان.

المبحث الثاني: تعريف الإيمان لغة.

المبحث الثالث: تعريف الإيمان شرعاً.

المبحث الرابع: زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الخامس: العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام.

المبحث السادس: حكم مرتكب الكبيرة.

المبحث السابع: مسألة تكفير الكبائر بالأعمال الصالحة.

الفصل الثاني: الإيمان بالرسل والملائكة والكتب. ويشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: تعريف النبي والرسول لغة وشرعاً.

المبحث الثاني: معنى الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الثالث: الغرض من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الرابع: التفاضل بين الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الخامس: بعض خصائص الرسل عليهم الصلاة والسلام.

المبحث السادس: الإيمان بنبوة نبينا محمد ﷺ.

المبحث السابع: كلامه في دعوة نبينا محمد ﷺ.

المبحث الثامن: بيانه فضل إرسال النبي ﷺ.

المبحث التاسع: النجاة والسعادة في طاعة الرسول ﷺ.

المبحث العاشر: الإيمان بالملائكة والكتب.

الفصل الثالث: الإيمان بالقضاء والقدر. ويشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: تعريف القضاء والقدر.

المبحث الثاني: معنى الإيمان بالقضاء والقدر والأدلة على ذلك.

المبحث الثالث: مراتب الإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الرابع: النهي عن الخوض في القدر.

المبحث الخامس: الرضا بالقضاء والقدر.

المبحث السادس: حكم تمني الموت وعلاقته بالقضاء والقدر.

المبحث السابع: القضاء والقدر وفعل الأسباب.

المبحث الثامن: الاحتجاج بالقدر على المعاصي وبيان معنى حديث «فحج آدم موسى».

الفصل الرابع: الإيمان باليوم الآخر، وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: أهمية الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الثاني: الإيمان بأشراط الساعة.

أولاً: العلامات الصغرى: ومنها:

١ - بعثة النبي ﷺ.

٢ - ظهور الفتن.

٣ - انشقاق القمر.

٤ - ظهور نار بالحجاز.

٥ - ولادة الأمة ربتها وتطاول الحفاة العراة في البنيان.

٦ - خراب البيت ورفع القرآن وبعث ريح طيبة لقبض أرواح المؤمنين.

ثانياً: العلامات الكبرى: ومنها:

١ - طلوع الشمس من مغربها.

٢ - فتنة المسيح الدجال.

٣ ـ نزول عيسى بن مريم عليه السلام.

٤ ـ خروج نار تحشر الناس.

المبحث الثالث: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وفتنته: أنواع من عذاب القبر.

المبحث الرابع: الأعمال التي يعذب أو ينعم بها العبد في القبر.

المبحث الخامس: مستقر الأرواح.

المبحث السادس: الصراط.

المبحث السابع: بيان المراد بالورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

المبحث الثامن: الشفاعة.

المبحث التاسع: الجنة ونعيمها.

المبحث العاشر: رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة.

المبحث الحادي عشر: النار وعذابها.

المبحث الثاني عشر: خلق الجنة والنار.

المبحث الثالث عشر: الجنة والنار باقيتان لا تفنيان أبداً.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

هذا وقد كان منهجي الذي اتبعته في إعداد رسالتي هذه ما يأتي:

١ ـ قمت بجمع مؤلفات ابن رجب رحمه الله تعالى وذلك عن طريق البحث والسفر والسؤال والمراسلة لأهل الخبرة والشأن حتى استطعت بحمد الله وتوفيقه أن أحصل تقريباً على جميع مؤلفات ابن رجب المطبوع منها والمخطوط الذي لم يفقد.

٢ ـ حصرت مباحث العقيدة التي اشتملت عليها كتب ابن رجب وذلك بعد قراءة جميع ما تيسر لي من كتبه المطبوعة والمخطوطة، ثم جمعت الأقوال التي تتعلق بكل مبحث على حده في بطاقات، وجعلت لها عنواناً يتناسب مع ما تدل عليه، ثم بينت ما تدل عليه من مسألة اعتقادية حسب جهدي ـ وهو جهد مقل ـ مستعيناً في ذلك بأقوال أهل العلم الذين لهم جهود في توضيح العقيدة الإسلامية من علماء سلفنا الصالح.

٣ ـ أحياناً أكرر الكلام الواحد لابن رجب في أكثر من موضع وذلك لاشتماله على أكثر من مسألة من مسائل العقيدة، فأضطر إلى إعادة الكلام وتكراره في عدة مواضع من مباحث الرسالة.

٤ ـ التزمت عند النقل من أي مرجع أو الاستفادة منه الإشارة إلى رقم جزئه وصفحته بالإضافة إلى ذكر طبعات هذه المراجع في فهرست المصادر والمراجع في آخر الرسالة.

٥ ـ بينت مواضع الآيات التي وردت في الرسالة بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٦ ـ عزوت الأحاديث التي وردت في هذه الرسالة إلى مصادرها من كتب السنة المعتمدة بذكر الجزء والصفحة مع الإشارة في الغالب إلى درجة الحديث من خلال أقوال المحدثين إذا كان الحديث في غير الصحيحين أو أحدهما، لأن مجرد العزو إلى الصحيحين أو أحدهما معلم بالصحة.

٧ ـ ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في الرسالة ما عدا المشهورين، فإني لم أترجم لهم لعدم خفاء أحوالهم وذلك ككبار الصحابة والأئمة الأربعة وأصحاب الكتب الستة وغيرهم.

٨ ـ عرفت بالفرق والطوائف التي ورد ذكرها في الرسالة تعريفاً موجزاً.

٩ ـ شرحت المفردات الغريبة التي وردت في الرسالة مستعيناً في ذلك بكتب الغريب والمعاجم اللغوية.

١٠ ـ إذا تكرر الحديث في أكثر من موضع فإني أخرجه أول مرة ثم أحيل عليه في المرات التي تليه.

١١ ـ ضبطت الكلمات التي قد يشكل على القارئ ضبطها، وقد حاولت أن أضبط كل كلمة مرت عليّ في هذا البحث وأرى أن قراءتها تشكل على القارئ.

١٢ ـ وضعت فهارس علمية عامة للرسالة تعين على الرجوع إلى المراد منها بيسر وسهولة، وقد اشتملت على ما يلي:

أ ـ فهرس الآيات القرآنية حسب ترتيب سور القرآن.

ب ـ فهرس الأحاديث الشريفة ورتبتها على الحروف الهجائية.

جـ ـ فهرس الآثار ورتبتها على الحروف الهجائية.

د ـ فهرس الأعلام المترجم لهم ورتبتهم حسب الحروف الهجائية.

هـ ـ فهرس الفرق والطوائف والمصطلحات.

و ـ فهرس المصادر والمراجع وقد رتبتها على الحروف الهجائية.

ز ـ فهرس الموضوعات وقد بينت فيه أبواب الرسالة وفصولها ومباحثها وما تتضمنه من فروع وجزئيات.

وبعد فإني أحمد الله تعالى وأشكره وأثني عليه الخير كله، لا أحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، فله الحمد والشكر كله حيث وفقني لاختيار هذا الموضوع الذي شعرت بفائدته الكبيرة منذ أن بدأت

فيه، ذلك لأنني قرأت وعرفت كثيراً من كتب العقيدة المفيدة النافعة.

وبعد حمد الله وشكره أتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني إلى فضيلة شيخي العلامة حماد بن محمد الأنصاري حفظه الله المشرف على هذه الرسالة فقد قرأت عليه هذه الرسالة من أولها إلى آخرها، فاستفدت كثيراً من توجيهاته العلمية الهادفة وإرشاداته القيمة، وآرائه السديدة، وأعطاني من علمه ووقته الشيء الكثير بدون تقييد بزمن الإشراف المحدد، ووجدت منه كل الإخلاص والنصح والمحبة فجزاه الله عني وعن العلم وأهله خير الجزاء، وتقبل منه جهده وإخلاصه ووهب له مزيداً من التوفيق وأمده بالصحة والعافية، وبارك له في عمره إنه القادر على ذلك وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل والثناء الحسن لفضيلة الدكتور محمد بن حمود الوائلي الذي وجدت منه تشجيعاً كبيراً لهذا الموضوع والذي أعطاني كل ما عنده من كتب ومخطوطات تتعلق بهذا الموضوع فأسأل الله عز وجل أن يجزيه خير الجزاء كما لا يفوتني أن أشكر كل من له سمات بارزة في النهوض بهذه الجامعة وأخص منهم معالي رئيس الجامعة الإسلامية.

كما أشكر المسؤولين في الدراسات العليا على ما قدموه لي من تسهيلات وعلى رأسهم فضيلة رئيس الدراسات العليا الشيخ: عبد الله بن محمد الغنيمان كما أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذين الفاضلين فضيلة الدكتور: محمد بن حمود الوائلي الأستاذ بكلية الشريعة ورئيس قسم الفقه فيها، وفضيلة الدكتور: أحمد بن سعد الغامدي الأستاذ المشارك بقسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين اللذين قاما بقراءة الرسالة وتقويمها.

وأخيراً أتوجه بالشكر وفائق الاحترام والتقدير إلى جميع الإخوة الذين ساعدوني وتعاونوا معي على إنجاز هذه الرسالة، والله أسأل أن

يتقبل من الجميع تعاونهم وأن يوفقنا وإياهم إلى العمل المستمر في التعاون على البر والتقوى، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

  

الباب الأول

حياة ابن رجب وآثاره العلمية

ويشتمل على الفصول التالية:

١ ـ الفصل الأول: العصر الذي عاش فيه ابن رجب الحنبلي.

٢ ـ الفصل الثاني: حياة ابن رجب الشخصية.

٣ ـ الفصل الثالث: حياة ابن رجب العلمية.

الفصل الأول

العصر الذي عاش فيه ابن رجب رحمه الله تعالى

ويشتمل على المباحث التالية:

تمهيد.

المبحث الأول: الحالة السياسية.

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية.

المبحث الثالث: الحالة العلمية.

تمهيد

من المعلوم أنه من أراد أن يعطي فكرة عن شخصية من الشخصيات وبياناً لأثرها في المجتمع لا سيما إذا كان لتلك الشخصية آثار وأعمال يتوارد ذكرها متناثراً في كتب العلماء أن يدرس الظروف المحيطة بها والبيئة التي عاشت فيها حتى يتمكن الباحث من الوقوف على العوامل والمؤثرات التي أدت إلى ظهور تلك الشخصية ونبوغها واتجاهها وذلك أن الشخص عادة يتأثر بالأحوال المحيطة به كما يتأثر بالبيئة وبمن حوله من شيوخه ومعلميه كما يؤثر هو في تلاميذه وطلابه ومن يحيطون به ويعاشرونه، وللأحوال السياسية والاجتماعية والعلمية وغيرها أثر كبير في تكييف اتجاهه ومنهجه الذي يسلكه، من أجل ذلك كله كان لا بد ونحن ندرس شخصية ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى من أن نعطي فكرة موجزة عن العصر الذي عاش فيه من النواحي التالية:

١ ـ الناحية السياسية.

٢ ـ الناحية الاجتماعية.

٣ ـ الناحية العلمية.

المبحث الأول
الناحية السياسية

وقع في العالم الإسلامي قبيل مولد ابن رجب رحمه الله تعالى ـ حادثان رهيبان تحطمت على إثرهما دولة الإسلام وزالت معالمها وكان لها أكبر الأثر في تنبيه المسلمين من رقدتهم وغفلتهم ـ وهذان الحادثان هما:

١ ـ استيلاء التتار الذين جاءوا من شمال الصين إلى بغداد، وقتلهم للخليفة والعلماء، وتدميرهم الشام وتهديد مصر، وكان سقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ[١].

٢ ـ الحروب الصليبية التي استمرت نحو قرنين من الزمن من سنة ٤٩٠هـ ـ ٦٩٠هـ وراح ضحيتها أعداد هائلة من الأرواح.

يقول **ابن الأثير**[٢] رحمه الله تعالى في أحداث ذلك العصر: «لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بعصائب لم يبتل بها أحد من الأمم منها ظهور هؤلاء التتر قبحهم الله، أقبلوا من المشرق ففعلوا

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٧/ ٥٠) والذيل على الروضتين (ص١٩٨، ١٩٩).

(٢) عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني الإمام المحدث الأديب، كان إماماً في التاريخ، له مؤلفات مفيدة منها: الكامل في التاريخ، ومعرفة الصحابة، توفي سنة ٦٣٠هـ.

وفيات الأعيان (٣/ ٣٤٨) وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٥٣).

الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها... ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من الغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم»(١).

وقد استمر زحف التتار على بلاد المسلمين وتخريبهم لها فأثاروا الرعب في قلوب الناس بما قاموا به من أعمال التخريب والتدمير والقتل يقول ابن كثير وهو يصف الحال: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشباب ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقُنِي الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب ففتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك المساجد والجوامع، والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير **ابن العلقمي الرافضي**(٢) وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم، وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها

(١) الكامل في التاريخ (١٢/ ٣٦٠).

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن العلقمي البغدادي الرافضي وزير المستعصم، كان رافضياً خبيثاً رديء الطوية على الإسلام وأهله، كان ذا حقد وغل على أهل السنة وقد فعل ما فعل بالإسلام وأهله ليحقق أهدافه ويبلغ غايته ولكن لقي جزاءه في الدنيا حيث أن التتار الذين ساعدهم أهانوه ثم مرض ومات غماً وغبناً، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وكان هلاكه سنة ٦٥٦هـ. العبر (٣/ ٢٨٤) والبداية والنهاية (١٣/ ٢٠١، ٢٠٢).

خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة...» اهـ[(١)].

وقد هيأ الله سبحانه وتعالى للمسلمين رجلاً صالحاً هو الملك قطز[(٢)] الذي خاض المعركة ضد التتار وانتصر عليهم في معركة عين جالوت[(٣)] ودخل قطز دمشق ورفرفت راية الإسلام فحكم مصر والشام معاً.

وقد وصف ابن كثير رحمه الله تعالى ذلك فقال في حوادث سنة ٦٥٨هـ: «إن الملك المظفر قطز صاحب مصر لما بلغه أن التتار قد فعلوا بالشام ما ذكرنا، وقد نهبوا البلاد كلها حتى وصلوا إلى غزة، وقد عزموا على الدخول إلى مصر وقد عزم الملك الناصر صاحب دمشق على الرحيل إلى مصر ـ وليته فعل ـ وكان في صحبته الملك المنصور صاحب حماه وخلق من الأمراء وأبناء الملوك... والمقصود أن المظفر قطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه، فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه، حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغانوين، وكان إذ ذاك في البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجير ابن الزكي، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) هو: قطز بن عبد الله العزي، سيف الدين ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام، قتل وهو في طريق عودته من الشام إلى مصر سنة ٦٥٨هـ.
البداية والنهاية (١٣/ ٢١٤) والنجوم الزاهرة (٧/ ٧٢) وذيل الروضتين (ص٢١٠).

(٣) عين جالوت: هي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين.
معجم البلدان (٤/ ١٧٧).

يستمد هولاكو[١] فأبى إلا أن يناجزه سريعاً، فساروا إليه وسار المظفر إليهم، فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فكانت النصرة ولله الحمد للإسلام وأهله، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته.... وهرب من بدمشق منهم... فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه، فجاوبتها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً، وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون»[٢].

وقد تولى خلافة المسلمين بعد سقوط بغداد بثلاث سنين أبو القاسم أحمد[٣] بن الخليفة الظاهر وذلك سنة ٦٥٩هـ[٤] غير أن حالة الضعف التي تعانيها البلاد الإسلامية نتيجة الصراع على السلطة قد شجعت التتار على العودة إلى بلاد المسلمين ومهاجمتها وفعلاً عادوا وكان آخر موقعة

---

(١) هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان، كان ملكاً جباراً قتل من المسلمين ما لا يعلم عددهم إلا الله، وكان لا يتقيد بدين من الأديان، وإنما كانت همته في تدبير مملكته حتى أباده الله سنة ٦٦٤هـ.
البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥) وجامع التواريخ (٢١٩ ـ ٣٤١).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٣) أحمد ابن الخليفة الظاهر بن الناصر المستضيء أبو القاسم العباسي يعتبر أول الخلفاء العباسيين بمصر، ولقب بالمستنصر، قتل سنة ٦٦٠هـ في معركة ضد التتار.
البداية والنهاية (١٣/ ٢١٩) والنجوم الزاهرة (٧/ ٢٠٦) والسلوك للمقريزي (١/ ٤٤٨).

(٤) انظر: الذيل على الروضتين (ص٢١٣).

منهم حين التقت جيوشهم بقيادة غازان مع جيوش المسلمين بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١] ومعه الخليفة في موقعة مرج الصفراء سنة ٧٠٢هـ على مقربة من حمص فهزم التتار فيها شر هزيمة ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك[٢]. وأما الصليبيون فقد استمرت غاراتهم وهجماتهم على المسلمين نحو قرنين من الزمن، فهم في حملتهم الأولى سنة ٤٩١هـ استولوا على القدس والرُها وقتلوا فيها آلاف المسلمين واستمروا على هذه الحال يعيثون في الأرض فساداً بحملاتهم المتتالية على بلاد المسلمين حتى هيأ الله سبحانه وتعالى للمسلمين حكاماً أقوياء تمكنوا من استرداد ما استولى عليه الصليبيون أمثال زنكي[٣] الذي استرد الرها سنة ٥٣٩هـ[٤] وصلاح الدين الأيوبي[٥] الذي طهر بيت المقدس منهم سنة ٥٨٣هـ[٦] وكانت نهايتهم وانقضاء دولتهم على يد الملك

---

(١) محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي أبو الفتح، من كبار ملوك الدولة القلاوونية، توفي سنة ٧٤١هـ.
الأعلام (٧/ ١١).

(٢) انظر: النجوم الزاهرة (٨/ ١٦٠) والسلوك للمقريزي (١/ ٩٢٨).

(٣) زنكي بن الحاجب الملك عماد الدين قال الذهبي: استولى على البلاد وعظم أمره، وافتتح الرها، وكان بطلاً، شجاعاً مقداماً كأبيه، عظيم الهيبة، توفي سنة ٥٤١هـ.
سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٨٩) والنجوم الزاهرة (٥/ ٢٧٨) وشذرات الذهب (٤/ ١٢٨).

(٤) انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٢٣٤).

(٥) السلطان الكبير الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذى الدويني. قال الذهبي: محاسن صلاح الدين جمة لا سيما الجهاد، فله فيه اليد البيضاء ببذل الأموال والخيل، وله عقل جيد، وفهم وحزم وعزم، توفي سنة ٥٨٩هـ.
سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٧٨) والبداية والنهاية (١٣/ ٣).

(٦) انظر: الكامل لابن الأثير (١١/ ٥٤٦) والبداية والنهاية (١٢/ ٣٤٠).

الأشرف[1] بن المنصور قلاوون جزيرة الروضة الواقعة في نهر النيل، وأسكنهم فيها وقد دامت مملكتهم قرناً وثلثاً[2] وقد أدرك الحافظ ابن رجب طرفاً كبيراً من عهدهم سنة ٦٩٠هـ[3].

هذه الحوادث غيرت مجرى التاريخ وأيقظت العالم الإسلامي من سباته العميق.

ولا شك أن تلك الحوادث وإن كانت سابقة من حيث الزمن على ميلاد ابن رجب رحمه الله تعالى إلا أنها تركت أثراً كبيراً في نفسه، فالصراعات المذهبية العنيفة بين أهل السنة والرافضة من جهة، وما صنعه النصارى واليهود والرافضة من مساعدة للتتار للقضاء على الإسلام وأهله من جهة أخرى كان لها أثر في الناحية الاجتماعية والعلمية كما سيأتي.

ولقد عاش ابن رجب رحمه الله تعالى كما يظهر من تاريخ حياته خلال القرن الثامن الهجري وهو القرن الذي كان يحكم فيه المماليك الذين قامت دولتهم على أنقاض الدولة الأيوبية الذين كانت دولتهم من أعظم مراكز القوى في العالم الإسلامي بسبب قدرتها على إيقاف التقدم المغولي المدمر الذي قضى على الخلافة الإسلامية ببغداد.

وتبدأ فترة حكم المماليك من سنة ٦٤٨هـ وتنتهي في سنة ٩٢٣هـ.

---

(١) خليل بن قلاوون الصالحي الملك الأشرف، ولي بعد وفاة أبيه، واستفتح الملك بالجهاد وقاتل الإفرنج، وكان شجاعاً مهيباً عالي الهمة، قتله بعض المماليك سنة ٦٩٣هـ.
النجوم الزاهرة (٨/ ٣) والأعلام (٢/ ٣٢١).

(٢) انظر: النجوم الزاهرة (٦/ ٣١٩) وحسن المحاضرة (٢/ ٣٤) والعصر المماليكي في مصر والشام (ص٥).

(٣) انظر البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٤ وما بعدها)، والنجوم الزاهرة، من ص٦ إلى ص٧.

وهم ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: المماليك البحرية وحكموا من سنة ٦٤٨هـ إلى سنة ٧٨٤هـ. وسموا بذلك لأن الملك الصالح نجم الدين أيوب[١] اختار لهم بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة.

القسم الثاني: المماليك البرجية أو الجراكسة وحكموا من سنة ٧٨٤هـ إلى سنة ٩٢٣هـ. وسموا بالبرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلهم بها قلاوون، يقول ابن العماد في حوادث سنة ٧٨٤هـ: «فيها كان ابتداء دولة الجراكسة فإنه خلع الصالح القلاووني وتسلطن برقوق[٢] ولقب الظاهر وهو أول من تسلطن من الجراكسة»[٣].

وقد أدرك ابن رجب من هذا العهد ١١ سنة من سنة ٧٨٤هـ وهي السنة التي حكموا فيها إلى سنة ٧٩٥هـ وهي السنة التي توفي فيها ابن رجب رحمه الله تعالى.

وقد كانت بلاد الشام تابعة في إدارتها إلى نظام الحكم في مصر ويطبق فيها نفس نظام مصر في تقسيم البلاد إلى ولايات، ولكن دمشق كانت هي الولاية الرئيسية بين تلك الولايات، لأن واليها هو الذي يوقع عن السلطان في أكثر الأمور. إلا أنه في هذا العصر كان يسود العالم عدم استقرار في الأوضاع السياسية التي يعد سمة بارزة في هذا العصر

---

(١) هو أيوب بن محمد بن عادل بن أيوب أبو الفتوح نجم الدين من كبار ملوك الأيوبيين بمصر توفي سنة ٦٤٧هـ.
انظر شذرات الذهب (٥/ ٢٣٧) والأعلام (٢/ ٣٨).

(٢) برقوق بن أنص العثماني أبو سعيد، الملك الظاهر، أول من ملك مصر من الجراكسة، توفي سنة ٨٠١هـ.
الضوء اللامع (٣/ ١٠) والأعلام (٢/ ٤٨).

(٣) شذرات الذهب (٦/ ٢٨٢) وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي (٥/ ١٩٩).

لكثرة الفتن والاقتتال على السلطة حتى أصبح ذلك أمراً مألوفاً[١].

  

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٧/ ٥٥، ٨٣) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (٣٢٣) وما بعدها.

المبحث الثاني
الحالة الاجتماعية

لقد اتضح لنا فيما سبق أن الحالة السياسية في ذلك العصر الذي عاش فيه ابن رجب رحمه الله تعالى مليئة بالفتن والصراع على السلطة وعدم الاستقرار، ولذا لا يتصور أن تكون هناك حالة اجتماعية ثابتة مستقرة، لأن الحالة السياسية كان لها تأثير بالغ على الحالة الاجتماعية، وإن من أبرز الأمور التي تتضح فيها الحالة الاجتماعية في هذه الحقبة من الزمن أمرين:

١ ـ فئات الناس وأوضاعها الاجتماعية.

٢ ـ الأوبئة والمجاعات التي كان يتعرض لها المجتمع.

١ ـ فئات الناس وأوضاعها الاجتماعية:

كان المجتمع في العصر المملوكي يتكون من طبقات ثلاث لها وزنها وتأثيرها فهناك طبقة الحكام وهي الطبقة التي لها سلطان القوة والنفوذ، وكانت هذه الطبقة لها عدة أصول فمنهم التركي، ومنهم المغولي، ومنهم الجركسي، ومنهم الصيني وغير ذلك من الجنسيات العديدة التي حملها تجار الرقيق إلى مصر[(١)].

---

(١) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام (ص٣٠٨) وموسوعة التاريخ الإسلامي (١٩٧/٥).

وكانت هذه الفئات لا تشعر بالازدراء لحسن المعاملة التي كانوا يلقونها عند الأسياد لأن سلاطين المماليك قد حرصوا على العناية بمماليكهم وأتاحت الفرص لهم فقد كانوا يتعلمون القرآن وغيره من العلوم الشرعية وإذا كبر أحدهم تعلم الفروسية وفنونها، وكانوا يدخلون في مناصب الدولة ويترقون حتى يصلوا إلى رتبة الأمراء، والسلاطين(١).

وقد كان الأمراء حريصين على أن يبقى المماليك منفصلين عن باقي المجتمع، وكانوا يؤيدون ذلك بالتحذيرات وإيقاع العقوبات بمن يخالفها(٢).

وكان هؤلاء المماليك يتقلبون في رغد من العيش لأنهم استغلوا نفوذهم وانتصاراتهم على التتار والصليبيين فتمتعوا بخيرات البلاد وعاشوا عيشة الترف (٣).

الطبقة الثانية: طبقة العلماء: وهذه الطبقة تستمد قوتها من الدين نفسه، وقد حاول كثير من سلاطين المماليك أن يكرم العلماء ويحوز على رضاهم لأن هؤلاء السلاطين يشعرون بأنهم غرباء على البلاد وأهلها، ولذا فهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب، ولم يكن أمامهم إلا العلماء لأن هؤلاء السلاطين عندما كانوا يقدمون على عمل كبير كالحروب مثلاً فإنهم يحتاجون إلى من يستندون إليه لفرض أمور على الناس وهم العلماء ولذلك كانوا يحترمونهم ويسمعون كلامهم إضافة إلى أن غالب العلماء كانوا يعتمدون في حياتهم على الله تعالى ثم على الوظائف التي تسند

---

(١) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام (ص٣٠٩، ٣١٠).

(٢) انظر: النجوم الزاهرة (٩/ ٩٢) وموسوعة التاريخ الإسلامي (٥/ ١٩٨).

(٣) انظر: العصر المماليكي في مصر والشام (ص٣٠٩).

إليهم، ومع ذلك فقد كان العلماء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصدعون بالحق بل كانت لهم مواقف في وجوه السلاطين جعلت هؤلاء السلاطين يخشون العلماء ويرهبون جانبهم، ومن ذلك موقف الظاهر بيبرس(١) من العز بن عبد السلام(٢) فقد كان يرهبه ويخضع لنصيحته ولذا لما مات العز بن عبد السلام رحمه الله قال الظاهر بيبرس: «ما استقر ملكي إلا الآن»(٣).

كما كان للإمام النووي وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله تعالى وغيرهم من العلماء مواقف مشرفة تدل على الجرأة والثبات في قول الحق.

وكان إلى جانب هؤلاء العلماء الأبطال الذين وقفوا في وجه الباطل غير عابئين بما يلاقونه في سبيل كلمة الحق نجد آخرين لهم مواقف مغايرة سببها الحاجة أو حب الدنيا، ومن ذلك ما ذكره السيوطي عن بعض هؤلاء العلماء حيث قال: «من غريب ما رأيت على كراريس من تسهيل الفوائد بخط الشيخ جمال الدين بن مالك صورة قصة رفعها الفقير إلى رحمة ربه محمد بن مالك يقبل الأرض ويهنئ السلطان أيد الله

---

(١) هو بيبرس العلائي **البندقداري** الصالحي، الملك الظاهر، كان شجاعاً يباشر الحروب بنفسه، وله الوقائع الهائلة مع التتار والإفرنج وله فتوحات عظيمة، توفي في دمشق سنة ٦٧٦هـ.
البداية والنهاية (١٣/ ٢٦٠) والأعلام (٢/ ٧٩).

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي، الدمشقي عز الدين الملقب بسلطان العلماء. قال الذهبي: برع في الفقه والأصول والعربية ودرس وأفتى وصنف وبلغ رتبة الاجتهاد، توفي سنة ٦٦٠هـ.
العبر (٣/ ٢٩٩) وطبقات الشافعية لابن هداية (٢٢٢).

(٣) انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٢/ ٩٥) والعصر المماليكي في مصر والشام (ص٣١).

جنوده، أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة، وفنون الأدب، وأمله أن يعينه سلطان السلاطين، ومبيد الشياطين خلّد الله ملكه، وجعل المشارق والمغارب ـ على ما هو بصدده من إفادة المستفيدين والمسترشدين ـ بصدقة تكفيه هم عياله، وتغنيه عن التسبب في صلاح حاله، وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية الناصرية خصوصاً وعموماً وكشف بها عن الناس أجمعين غموماً ولمّ بها شعث الدين ما لم يكن ملموماً، فمن العجائب أن يكون المملوك من مرتدي خياراتها، وعن يمين عنايتها غائباً محروماً مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها، وأقوم المواليد بمراعاة زمامها لا برحت أنوارها زاهرة، وسيوف أنصارها قاهرة ظاهرة، وأياديها مبذولة موفورة وأعاديها مخذولة مقهورة»[١].

وقد كان ابن رجب رحمه الله من العلماء العاملين الذين لم يتزلفوا إلى الحكام ويقفوا بأبوابهم، وإنما كان منقطعاً عنهم لا يتردد إليهم ولا يقبل هباتهم منشغلاً بالعلم والتعليم ودفع الأمة إلى ما كان عليه سلفها الصالح ولا غرو في ذلك فهو تلميذ ابن قيم الجوزية تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يعد بحق علماً شامخاً في تاريخ الأمة الإسلامية ومفخرة عظيمة للمسلمين وموسوعة علمية نهل منها كل طالب ما يريد.

الطبقة الثالثة: طبقة عامة الناس من زراع وتجار وصناع فهذه الطبقة كانت مغلوبة على أمرها يعيشون في الفقر، وكانت الحالة الاقتصادية من أسوأ ما يكون حيث مرت على البلاد الإسلامية في تلك الأيام نوبات من القحط والمجاعة حتى أن الناس أكلوا ما وجدوا من الجمادات والحيوانات والميتات وباعوا أولادهم وأهليهم[٢]، وكانت تقع عليهم

---

(١) حسن المحاضرة (٢/ ٩٦) وما بعدها.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٢٩٠) وحسن المحاضرة (٢/ ٢٩٢).

معظم المظالم من ضرائب ومكوس، وهؤلاء هم الذين عصفت بهم التيارات المنحرفة ونشطت بهم الطرق الصوفية.

الأمر الثاني: الأوبئة والأمراض التي تعرض لها المجتمع:

لم تسلم البلاد في عهد المماليك من الأوبئة والأمراض الفتاكة التي كان لها أثر بالغ على النفوس، أدى ذلك إلى موت الآلاف من الناس وقلة الأيدي العاملة لأن عدم التحكم في مياه النيل كان يترتب عليه فساد الزراعة وقلة المحاصيل وبالتالي انتشار المجاعات المصحوبة بالأمراض والأوبئة ومن تلك الأوبئة والمجاعات: الطاعون الذي وقع سنة ٧٤٩هـ وما أصاب الناس في تلك السنة من أثره منقطع النظير حتى أنه إذا ما حل في أهل بيت من البيوت لا يكاد يخرج منه حتى يقضي عليهم بل إن هذا الوباء قد عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في وصفه: «وتواترت الأخبار بوقوع البلاء في أطراف البلاد فذكر عن بلاد القرم أمر هائل وموتان فيهم كثير، ثم ذكر أنه انتقل إلى بلاد الفرنج حتى قيل أن أهل قبرص مات أكثرهم أو يقارب ذلك، وكذلك وقع بغزة أمر عظيم، وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من يوم عاشوراء إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفاً...... وفي هذا الشهر أيضاً كثر الموت في الناس بأمراض الطواعين وزاد الأموات كل يوم إلى مئة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا وقع في أهل بيت لا يكاد يخرج منه حتى يموت أكثرهم..... وقد توفي في هذه الأيام من هذا الشهر خلق كثير وجم غفير، ولا سيما من النساء، فإن الموت فيهن أكثر من الرجال بكثير كثير، وشرع الخطيب في القنوت بسائر الصلوات والدعاء برفع الوباء من المغرب ليلة الجمعة سادس شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وحصل للناس بذلك خضوع وخشوع وتضرع وإنابة، وكثرت الأموات في هذا

الشهر جداً، وزادوا على المائتين في كل يوم، فإنا لله وإنا إليه راجعون[١].

وزاد الأمر أنه في يوم الاثنين ثاني عشر من شهر رجب جاءهم ريح شديدة أظلمت الدنيا منه ولقي الناس منه تعباً شديداً وهرعوا إلى المساجد يدعون الله ويستغفرونه يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في وصف هذه الريح: «وفي يوم الاثنين ثاني عشرة بعد أذان الظهر حصل بدمشق وما حولها ريح شديدة أثارت غباراً شديداً اصفر الجو منه ثم اسود حتى أظلمت الدنيا، وبقي الناس في ذلك نحواً من ربع ساعة يستجيرون الله ويستغفرون ويبكون مع ما هم فيه من شدة الموت الذريع، ورجا الناس أن هذا الحال يكون ختام ما هم فيه من الطاعون، فلم يزدد الأمر إلا شدة، وبالله المستعان، وبلغ المصلى عليهم في الجامع الأموي إلى نحو المائة والخمسين، وأكثر من ذلك، خارجاً عمن لا يؤتى بهم إليه من أرجاء البلد وممن يموت من أهل الذمة، وأما حواضر البلد وما حولها فأمر كثير، يقال إنه بلغ ألفاً في كثير من الأيام، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[٢].

كما أنه في سنة ٧٦٢هـ كثرت المستنقعات من فيض النيل في الديار المصرية فانتشرت الأمراض والأوجاع وغلت الأسعار لقلة من يتعاطى الأشغال[٣].

وفي سنة ٧٦٥هـ حلت بالبلاد موجة من الجراد أتلفت المحاصيل الزراعية فغلت الأسعار واستمر الفناء، وكثر الضجيج والبكاء، وحل بهم الهم والغم[٤].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٢٣٧).
(٢) المصدر السابق (١٤/ ٢٣٩).
(٣) انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٢٩٠).
(٤) المصدر السابق (١٤/ ٢٩٤).

وقد انتشرت الأمراض والأوبئة في جميع أرجاء البلاد فما أن يتنفس الناس الصعداء مما هم فيه من بلاء إلا ويحل بهم أمر آخر، والله غالب على أمره وله في أفعاله حكم لا يعلمها إلا هو عز وجل، وهو سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].



(١) سورة الرعد آية (١١).

المبحث الثالث
الحالة العلمية

خالفت الحالة العلمية كلاً من الحالة السياسية والاجتماعية فقد كان هذا القرن تقريباً من القرون الذهبية من الناحية العلمية، ذلك أن العصر المماليكي بشكل عام شهد حركة علمية نشطة ويرجع هذا النشاط إلى عدة عوامل هي:

١ ـ وفود العلماء إلى مصر والشام حيث أن كثيراً منهم يمم إلى هذه البلاد فراراً من الزحف التتري المغولي الذي أوقع بالناس الكثير من البلاء والأذى وصنوف التعذيب والتقتيل، وليس بأدل على ذلك ما حدث ببغداد على أيدي التتار، فرأى كثير من العلماء أن مصر والشام خير حمًى لهم، إليها يفرون وإلى رحابها يلجأون.

٢ ـ تعظيم السلاطين والأمراء لأهل العلم والعلماء وتشجيعهم للنشاط العلمي حيث أن المماليك عرفوا أن العلم سياج الدولة فقربوا العلماء وأجزلوا لهم العطاء وأنزلوهم من أنفسهم المكانة اللائقة بهم وبمراكزهم، وهذه الحفاوة التي لقيها العلماء من الحكام رغبت الكثير من أبناء الشعب على طلب العلم والسعي في تحصيله عن حب وإخلاص لكي يصل الأواخر منهم إلى ما وصل إليه الأوائل.

٣ ـ شعور العلماء بواجبهم وتنافسهم في أدائه لأنه لما حطم التتار بغداد وأبادوا العلماء وكتبهم، رأى العلماء في مصر والشام أنهم أمام مسؤولية ضخمة تقتضي منهم القيام بواجبهم في نشر الدين وتجديد

العلم، وإحياء ما أبادته أيدي الغزاة الغاشمين فقاموا بذلك قياماً مشكوراً وسعوا إليه سعياً حميداً، فكانت حركة إحياء علمية جليلة وكان بينهم في هذا المجال تنافس شديد في ميدان العلم والتعليم.

هذه الأسباب أدت إلى حركة علمية نشطة فانتشرت المدارس العلمية وملئت المساجد بحلقات التدريس بشكل عام.

ومن أبرز هذه المدارس في مصر: المدرسة الناصرية التي أمر بإنشائها السلطان زين الدين كتبغا[(١)] ولكنه خلع قبل إتمامها وعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك مصر فأمر بإتمامها فتمت سنة ٧٠٣هـ[(٢)].

ومن أبرز المدارس في الشام: المدرسة الشريفية الحنبلية وقفها شيخ الحنابلة بدمشق شرف الإسلام عبد الوهاب[(٣)] بن أبي الفرج الحنبلي الفقيه، وممن درس بهذه المدرسة الحافظ زين الدين بن رجب رحمه الله تعالى[(٤)].

أما المساجد التي كانت فيها حلقات العلم والتعليم فمن أبرزها:

١ - جامع عمرو بن العاص في مصر وهو أول مسجد أسس بديار

---

(١) هو كتبغا بن عبد الله المنصوري زين الدين، الملقب بالملك العادل من ملوك المماليك البحرية في مصر والشام، توفي سنة ٧٠٢هـ.
الأعلام (٥/ ٢١٩).

(٢) انظر: حسن المحاضرة (٢/ ٢٦٥) وخطط المقريزي (٣/ ٣٤٦).

(٣) العلامة الواعظ شرف الإسلام أبو القاسم عبد الوهاب بن أبي الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي شيخ الحنابلة بالشام بعد والده ورئيسهم، وهو واقف المدرسة الحنبلية بدمشق، توفي سنة ٥٣٦هـ.
العبر (٢/ ٤٥١) وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٣٦٨).

(٤) انظر: الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٦٤) ومنادمة الأطلال (٢٣٤).

مصر بعد الفتح بمدينة الفسطاط سنة ٢١هـ وكان هذا الجامع بمثابة الجامعة التي يتلقى فيها طلاب العلم جميع فنون العلم وقد ذكر المقريزي(١) في الخطط أن شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ(٢) أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء الكائن في سنة ٧٤٩هـ بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه(٣).

٢ ـ الجامع الأموي بدمشق الذي بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك(٤) وهو أعظم جوامع دمشق.

قال النعيمي(٥): وذكر إبراهيم بن الليث الكاتب في رسالة: وقد أفضيت إلى جامعها فشاهدت ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه ولا الرائي أن يعرفه، وجملة ذلك أنه بكر الدهر ووحيد الدهر، ونادرة الأوان وأعجوبة الزمان، وغريبة الأوقات وعجيبة الساعات، ولقد أبقت أمية ذكراً

---

(١) أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم المقريزي، الإمام المحدث المؤرخ، له عدة مؤلفات منها: الخطط وتجريد التوحيد، توفي سنة ٨٤٥هـ.
الضوء اللامع (٢/ ٢١) والبدر الطالع (١/ ٧٩).

(٢) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي الصائغ، برع في الفقه والعربية والأدب، وله تصانيف في فنون مختلفة، توفي سنة ٧٧٧هـ.
حسن المحاضرة (١/ ٤٧١).

(٣) الخطط للمقريزي (٣/ ١٢٥).

(٤) الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي، أحد خلفاء بني أمية، تولى الخلافة بعد أبيه سنة ٨٦هـ، كثرت في عهده الفتوحات، وكان يكرم طلاب العلم، توفي سنة ٩٧هـ.
سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٧).

(٥) عبد القادر بن محمد بن عمر أبو المفاخر النعيمي، مؤرخ دمشق وأحد محدثيها، ألف كتباً كثيرة منها: الدارس في تاريخ المدارس، توفي سنة ٩٢٧هـ.
شذرات الذهب (٨/ ١٥٣).

ما يدرس، وخلفت أثراً لا يخفى ولا يدرس[١].

وكانت تدرس في هذه المدارس والمساجد مختلف أنواع المعارف في مقدمتها التفسير والفقه والحديث والنحو والصرف وغير ذلك من علوم الدين واللغة، وقد تخرج من هذه المراكز علماء وفقهاء كانت لهم مؤلفات قيمة، وذخيرة علمية عظيمة تعتبر موسوعات علمية في مختلف العلوم والفنون.

ومن أعلام ذلك العصر البارزين على سبيل المثال لا الحصر شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨هـ) ومؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ) وابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥١هـ) والحافظ عماد الدين بن كثير الدمشقي المتوفى سنة (٧٧٤هـ) وغيرهم ممن عرفوا بسعة انتاجهم وأصالته وأثروا التراث الإسلامي بكثير من مؤلفاتهم وعلومهم، إلا أننا رغم هذه النهضة العلمية الواسعة يجب أن لا نغفل أنه في هذا العصر استولت فيه عدة أوهام، وأحاطت به جملة معتقدات لا تتفق ومذهب السلف، وذلك بسبب البطش والجبروت والقلاقل التي سبقت حياة ابن رجب، فالصوفية قد انتشرت بطرقها بل وأصبحت لها مكانة في المجتمع ودليل ذلك اعتبار الخوانق[٢] والربط من دور التعليم، وكذلك المؤولة قد انتشروا من جهمية ومعتزلة وأشاعرة ورافضة وغيرهم من الفرق المخالفة لأهل السنة.

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٣٧١، ٤١٣) ومنادمة الأطلال (٣٥٧).

(٢) الخوانق مفردها خانقاه: وهي كلمة فارسية معناها المعبد أو البيت الذي ينقطع فيه الصوفية للذكر والعبادة وتجري عليهم الأرزاق فيها وهي حدثت في الإسلام حوالي سنة ٤٠٠هـ.

انظر: الخطط للمقريزي (٣/ ٣٩٩، ٤٠٠) والعصر المماليكي في مصر والشام (ص٤١٠).

وقد عاش الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في غمرة هذه الأحداث السياسية والاجتماعية والعلمية، وكان لكل ذلك أثره المباشر في تكوين شخصيته حيث نجده بعيداً عن التقلبات السياسية الكثيرة مؤثراً الانصراف إلى تلقي العلوم ومجالسة العلماء ومن ثم التدريس والتأليف.

وكان للحياة الثقافية الزاهرة في دمشق ما يدعوه إلى الاهتمام بعلوم الشريعة والعناية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ حيث نشأ وتعلم - كما سيأتي فيما بعد - على شيوخ وعلماء عصره البارزين في علوم الشريعة المختلفة، فاستطاع أن يأخذ من كل هؤلاء ويبرز علماً من أعلام المسلمين في ذلك العصر في علوم مختلفة رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

  

الفصل الثاني

حياة ابن رجب الشخصية

ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأول: اسمه ونسبه.

المبحث الثاني: كنيته ولقبه.

المبحث الثالث: مولده.

المبحث الرابع: شهرته.

المبحث الخامس: أسرته.

المبحث السادس: أخلاقه وصفاته.

المبحث السابع: وفاته.

المبحث الأول
اسمه ونسبه(١)

هو الإمام الحافظ زين الدين عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام المقرئ

---

(١) مصادر ومراجع ترجمته:
يمكن تقسيم ما وقفت عليه من المصادر والمراجع التي ترجمت للحافظ ابن رجب الحنبلي إلى قسمين، مطبوعة، ومخطوطة:
القسم الأول: المصادر والمراجع المطبوعة:
١ ـ الرد الوافر لابن ناصر الدين (ت٨٤٢هـ): ١٠٦.
٢ ـ إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر (ت٨٥٢هـ): (٣/ ١٧٦).
٣ ـ الدرر الكامنة لابن حجر (ت٨٥٢هـ): (٢/ ٤٢٧، ٤٢٨).
٤ ـ لحظ الألحاظ لابن فهد المكي (ت٨٧١هـ): ١٨٠.
٥ ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تغري (٨٧٤هـ): (١/ ٣٩٨).
٦ ـ المقصد الأرشد لابن مفلح (ت٨٨٤هـ): (٢/ ٨١).
٧ ـ الجوهر المنضد لابن عبد الهادي (ت٩٠٩هـ): ٤٦.
٨ ـ ذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي (ت٩١١هـ): ٣٦٧.
٩ ـ طبقات الحفاظ للسيوطي (ت٩١١هـ): ٥٣٦.
١٠ ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (ت٩٢٧هـ): (٢/ ٧٦).
١١ ـ الشهادة الزكية لمرعي الكرمي (ت١٠٣٣هـ): ٤٩.
١٢ ـ كشف الظنون لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ): (١/ ٥٩، ٧٩) (٢/ ١٠٩٧، ١٤٠٠).
١٣ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ): (٦/ ٣٣٩).
١٤ ـ صلة الخلف بموصول السلف للروداني (ت١٠٩٤هـ): ٢٧٦.
١٥ ـ البدر الطالع للشوكاني (ت١٢٥٠هـ): (١/ ٣٢٨).
١٦ ـ السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة لابن حميد (ت١٢٩٥هـ): (١٩٧). =

المحدث شهاب الدين أحمد ابن الشيخ الإمام المحدث أبي أحمد رجب[١] عبد الرحمن بن الحسن[٢] بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي[٣]

= ١٧ ـ التاج المكلل لصديق حسن خان (ت١٣٠٧هـ): ٣٢٥.
١٨ ـ إيضاح المكنون لإسماعيل باشا (ت١٣٣٩هـ): (١/ ١٢٢، ٣٥٥).
١٩ ـ هدية العارفين لإسماعيل باشا (ت١٣٣٩هـ): (١/ ٥٢٧).
٢٠ ـ الرسالة المستطرفة لمحمد بن جعفر الكتاني (ت١٣٤٥هـ): ١٤٧.
٢١ ـ منادمة الأطلال لابن بدران (ت١٣٤٦هـ): ٢٣٦.
٢٢ ـ مختصر طبقات الحنابلة للشطي (ت١٣٧٩هـ): ٧١، ٧٢.
٢٣ ـ الأعلام للزركلي (ت١٣٩٥هـ): (٤/ ٦٧).
٢٤ ـ فهرس الفهارس لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: (٢/ ٦٣٦).
٢٥ ـ معجم المؤلفين لعمر كحالة: (٥/ ١١٨).
٢٦ ـ معجم المؤرخين الدمشقيين لصلاح الدين المنجد: ٢١٨.
٢٧ ـ المستدرك على معجم المؤلفين لعمر كحالة: ٣٤٥.
القسم الثاني: المصادر والمراجع المخطوطة:
١ ـ التبيان شرح بديعية البيان لابن ناصر الدين (ت٨٤٢هـ): ورقة ١٥٩.
٢ ـ تاريخ ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ): (١٤٠/ أ).
٣ ـ المنهل الصافي لابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ): (٢/ ١٩٧/ أ).
٤ ـ المنهج الأحمد للعليمي (ت٩٢٨هـ): ورقة ٤٧٠، ٤٧١.

(١) وهم ابن فهد رحمه الله تعالى في لحظ الألحاظ (ص١٨٠) حيث جعل الاسم الواحد اسمين فقال: رجب بن عبد الرحمن، والصواب أن رجب لقب عبد الرحمن، وقد تبعه على هذا الوهم الدكتورة أمينة الجابر في رسالتها للدكتوراه «ابن رجب الحنبلي وآثاره الفقهية» (ص٣٧).
(٢) جميع المصادر تذكر الحسن إلا المقصد الأرشد في تراجم أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح (٢/ ٨١) والدارس في تاريخ المدارس للعليمي (٢/ ٧٦) والرسالة المستطرفة للكتاني (ص١٤٧). فإنها تذكر الحسين بدل الحسن.
(٣) قال السمعاني رحمه الله تعالى: السلامي بفتح السين المهملة واللام ألف المخففة وفي آخرها الميم. هذه النسبة إلى رجل وموضع.
أما الرجل فهو منسوب إلى بني سلامان وهو بطن من قضاعة، وفيهم كثرة من الصحابة فمن بعدهم. . . =

البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي[١].

  

= وأما المنسوب إلى موضع فهو مدينة السلام بغداد...
الأنساب (٧/ ٢٠٨).

(١) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٨) والرد الوافر (ص١٠٦) والتبيان لشرح بديعية البيان (ص١٥٩) ولحظ الألحاظ (ص١٨٠) وذيل تذكرة الحفاظ (ص٣٦٧) والمقصد الأرشد (٢/ ٨١) والدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٧٦) والرسالة المستطرفة (ص١٤٧).

المبحث الثاني
كنيته ولقبه

كنيته المشهور بها: «أبو الفرج».

وقد كناه ابن تغري بردي[١] بأبي العباس[٢] ولكن المشهور أن هذه كنية أبيه وليس كنية له.

وأما لقبه المشهور به فهو: «زين الدين».

ولقبه ابن العماد الحنبلي: «زين الدين وجمال الدين»[٣] ولقبه ابن فهد[٤][٥] وابن تغري بردي[٦] بشهاب الدين، والمشهور أن هذا لقب أبيه.

---

(١) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن **تغري بردي** الظاهري الحنفي، العلامة المؤرخ، له عدة مؤلفات منها: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الدليل الشافي على المنهل الصافي، توفي سنة ٨٧٤هـ.
الضوء اللامع (١٠/ ٣٠٥) وشذرات الذهب (٧/ ٣١٧).

(٢) المنهل الصافي (٢/ ١٩٧).

(٣) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

(٤) محمد بن محمد بن محمد المكي تقي الدين المعروف بابن فهد العلامة المحدث، قال السخاوي: «أكثر من المسموع والشيوخ وجد في ذلك»، توفي سنة ٨٧١هـ.
الضوء اللامع (٩/ ٢٨١) والبدر الطالع (٢/ ٢٥٩).

(٥) لحظ الألحاظ (ص١٨٠).

(٦) المنهل الصافي (٢/ ١٩٧).

المبحث الثالث
مولده

ولد ابن رجب رحمه الله تعالى في بغداد سنة ٧٣٦هـ وهذا ما ذكرته أغلب مصادر ترجمته.

وذكر ابن حجر في الدرر الكامنة[١] أنه ولد في سنة ٧٠٦هـ، وتبعه على ذلك السيوطي في طبقات الحفاظ[٢] وإسماعيل باشا في هدية العارفين[٣].

وقد ذهب الدكتور: محمد بن حمود الوائلي في رسالته (ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه) إلى أن القول الأول هو القول الصحيح وذلك للأمور التالية:

١ ـ ما ذكره ابن العماد في شذرات الذهب فيه «قدم من بغداد مع والده إلى دمشق وهو صغير سنة ٧٤٤هـ»[٤].

وهذا يكشف لنا تاريخ ولادته وأن سنه حين قدم دمشق ثماني سنوات، وهذا يؤيد ما ذكره ابن حجر في إنباء الغمر وهو خلاف ما ذكره في الدرر الكامنة، ولعل سبب اختلاف التاريخين يعود إلى أن ناسخ الدرر

---

(١) الدرر الكامنة (٢/ ٣٢٩).
(٢) طبقات الحفاظ (ص٥٤٠).
(٣) هدية العارفين (١/ ٥٢٧).
(٤) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

أسقط كلمة «الثلاثين» لأنه ليس من المعقول أن يضع ابن حجر لولادة ابن رجب تاريخين متغايرين في كتابيه دون أن يذكر سبباً لذلك.

٢ ـ ما ذكره ابن رجب في كتابه الذيل على طبقات الحنابلة فقد أزال اللبس وكفانا عناء البحث من أنه حضر درس الشيخ شرف الدين أبي محمد فقال: «حضرت درسه وأنا إذ ذاك صغير لا أحققه جيداً»[١] وكان ذلك سنة ٧٤١هـ وبذلك نستطيع القطع بأن مولده كان عام ٧٣٦هـ[٢].

أقول: ويضاف إلى ما ذكره الدكتور الوائلي للدلالة على صحة أن ولادة ابن رجب رحمه الله سنة ٧٣٦هـ الأمور التالية:

١ ـ أن سنة ٧٠٦هـ هو تاريخ ولادة والده أحمد كما جاء ذلك في الرد الوافر[٣] والمنهج الأحمد[٤].

٢ ـ أن ما ذكره ابن العماد في الشذرات من أنه قدم مع والده من بغداد إلى دمشق سنة ٧٤٤هـ وهو صغير، قد ذكره قبله ابن مفلح[٥].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٣٦).

(٢) ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة (ص١١٢، ١١٣).

(٣) الرد الوافر (ص٧٩).

(٤) المنهج الأحمد ورقة (٤٧١).

(٥) برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح الحنبلي الشيخ الإمام الأصولي المؤرخ المعروف بابن مفلح، له عدة مصنفات منها: المقصد الأرشد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، الآداب الشرعية، توفي سنة ٨٨٤هـ.
الدارس (٢/ ٥٩) والضوء اللامع (١/ ١٥٢).

في المقصد الأرشد[١] والعليمي[٢] في المنهج الأحمد[٣] والنعيمي في الدارس في تاريخ المدارس[٤] وهذا يدل على أن صحة ولادته كانت ٧٣٦هـ إذ لو كانت ولادته سنة ست وسبعمائة لكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة ٧٤٤هـ ومن كان هذا عمره لا يسمى صغيراً.

٣ ـ أن ابن حجر رحمه الله تعالى ذكر في إنباء الغمر تاريخ ولادته بالحروف وفي الدرر الكامنة بالأرقام، وما كتب بالأرقام عرضة للسقط والسهو من النساخ وغيرهم بخلاف الكتابة بالحروف فالخطأ فيها بعيد مما يدل على صحة ما في إنباء الغمر.

وهذه الأمور كلها تقطع لنا بأن ولادة ابن رجب كانت سنة ٧٣٦هـ، وفيها رد على من توقف في تعيين تاريخ لولادة ابن رجب رحمه الله تعالى أو جعل تعيين تاريخ معين لولادته من الأمور العسيرة.

ومنهم الدكتورة أمينة محمد الجابر حيث قالت في مقدمة رسالتها «ابن رجب الحنبلي وآثاره الفقهية»: فإن بحثي العلمي المتواضع يثبت عدم القطع بتاريخ مولد ابن رجب لعدم وجود مصدر أو قرينة ترجح أي التاريخين أنسب لذكر مولد ابن رجب، وعلى هذا فمن قطع وجزم بتاريخ المولد فهي شبهة علمية ليس عليها دليل[٥].

---

(١) المقصد الأرشد في تراجم أصحاب الإمام أحمد (٢/ ٨١).

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي العلامة القاضي المؤرخ، له عدة مصنفات منها: المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، الأنس والجليل بتاريخ القدس والخليل، توفي سنة ٩٢٨هـ.
السحب الوابلة (ص٣١٢) ومختصر طبقات الحنابلة للشطي (ص٨١).

(٣) المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد (٤٧١).

(٤) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٧٦).

(٥) ابن رجب الحنبلي وآثاره الفقهية (ص٩).

بل الأعجب من ذلك أنها وهمت الدكتور الوائلي في قطعه بصحة مولد ابن رجب وجعلت ذلك من الأمور العسيرة حيث قالت: «وعلى هذا فمن العسير عقلياً أمام هذا التعكير القطع بتاريخ مولد ابن رجب وهو الوهن الذي وقع فيه الدكتور الوائلي حيث أنه جعل من رواية ابن رجب «وأنا إذ ذاك صغير لا أحققه جيداً» دليلاً على ترجيح أنه ولد سنة ٧٣٦هـ، ولو قارنها بمقالة ابن رجب عن شيخه صفي الدين أنه أجازه غير مرة لأدرك أن القطع هنا قطع وهمي لا يسعفه علم ولا يسانده مصدر»[١].

وهذا الكلام في الحقيقة من قلب الحقائق والنظر إلى الأمور بخلاف ما هي عليه، لأن ما قاله الدكتور الوائلي هو الحق والصواب الذي يتعين الأخذ به وعدم الالتفات إلى غيره في تاريخ ولادة ابن رجب لوجود القرائن والدلائل التي سبق ذكرها والتي من خلالها نقطع ونجزم بصحة تاريخ ولادة ابن رجب وأنه سنة ٧٣٦هـ.



(١) ابن رجب الحنبلي وآثاره الفقهية (ص٤٠).

المبحث الرابع
شهرته

اشتهر زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بـ(ابن رجب الحنبلي)، ورجب هو اسم جده عبد الرحمن، وقيل له رجب لأنه ولد في شهر رجب ونسب إليه الحفيد رحمه الله.

وقد كان هناك من يسمى بابن رجب غيره ومنهم:

١ ـ والده شهاب الدين بن رجب ويقال له ابن رجب المقرئ، وستأتي ترجمته[١].

٢ ـ أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن رجب الطوخي الشافعي يعرف بابن رجب ولد سنة ٨٤٧هـ وتوفي سنة ٨٩٣هـ[٢].

ولكن غلبت هذه الشهرة عليه رحمه الله تعالى فإذا قيل ابن رجب أو ابن رجب الحنبلي يتبادر إلى الذهن عند العلماء وطلاب العلم أن المراد ابن رجب الحنبلي زين الدين ما لم يكن دليل أو قرينة تدل على أن المراد غيره وهذا يدل على فضله وسمو مكانته التي جعلته يشتهر على من سواه.

---

(١) ترجمته في (ص٦٥).

(٢) الضوء اللامع (٢/ ١٢١).

المبحث الخامس
أسرته

نشأ ابن رجب رحمه الله تعالى في أسرة علمية عريقة كان لها أثر واضح في تنمية مواهبه ومن ثم أصبح عالماً تمت شهرته الآفاق، وتجمع المصادر على أن أسرة ابن رجب بغدادية وأنها أسرة علم وطهر وفضل وصلاح، بل عريقة في الإمامة العلمية ومنهم:

أولاً: جده أبو أحمد رجب بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود البغدادي، واسمه عبد الرحمن ورجب لقبه، وقيل له رجب لأنه ولد في شهر رجب كان فقيهاً عالماً له حلقة علمية في بغداد يفد إليها طلاب العلم من كل مكان، وقد ولد سنة ٦٧٧هـ وسمع ثلاثيات البخاري وحدث بها وسمع من المعيد ابن المجلح وابن غزال وغيرهما[(١)].

وصفه ابن العماد بقوله: «الشيخ الإمام المحدث»[(٢)].

وقد أدرك ابن رجب رحمه الله تعالى جده وحضر مجلسه وهو يقرأ عليه قال في الذيل على الطبقات: قرأ على جدي أبي أحمد رجب بن الحسن غير مرة ببغداد وأنا حاضر في الثالثة والرابعة والخامسة: أخبركم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم البزاز سنة ست وثمانين وستمائة أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر القطيعي أخبرنا أبو

---

(١) انظر: الدرر الكامنة (٢/ ١٩٩).

(٢) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

الوقت عبد الأول بن عيسى أخبرنا أبو الحسن الداوودي أخبرنا أبو محمد السرخسي أخبرنا أبو عبد الله الفربري حدثنا البخاري حدثنا المكي بن إبراهيم حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يقل علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار»[١][٢].

وهذا يدل على أن جده أبا أحمد كان عالماً ويقرأ الناس عليه وقد توفي في صفر سنة ٧٤٢هـ[٣].

ثانياً: أبوه أحمد بن رجب بن الحسن بن محمد بن أبي البركات السلامي البغدادي الحنبلي، نزيل دمشق ولد في بغداد صبيحة يوم السبت الخامس عشر ربيع الأول سنة ٧٠٦هـ[٤] ونشأ بها، وقرأ بالروايات وسمع من مشايخها، وطلب الحديث، وخرج لنفسه معجماً مفيداً.

قال ابن ناصر الدين[٥] في وصفه: «الإمام العالم الصالح المقرئ المجود المحدث المفيد... قرأ القرآن بالروايات وأخذ عن جماعة من الشيوخ كثيراً من المرويات وخرج لنفسه مشيخة مفيدة بتراجم ملخصة فريدة، وذكر ابن تيمية بشيخ الإسلام، وأثنى عليه وكان يحبه ويميل بالمودة إليه»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم ـ باب إثم من كذب على النبي ﷺ (١/ ٣٥).

(٢) الذيل على الطبقات (٢/ ٢١٣).

(٣) الدرر الكامنة (٢/ ١٩٩).

(٤) المنهج الأحمد ورقة (٤٧١) والرد الوافر (ص٧٩).

(٥) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد الدمشقي الشهير بابن ناصر الدين، الحافظ المحدث كان عارفاً بالنسب والرجال، له مؤلفات كثيرة منها: الرد الوافر، وبديعة البيان وشرحها، توفي سنة ٨٤٢هـ.
الضوء اللامع (٨/ ١٠٣) وشذرات الذهب (٧/ ٢٤٣).

(٦) الرد الوافر (ص٧٩).

وقال ابن حجر: «ولد في بغداد ونشأ بها، وقرأ بالروايات وسمع من مشايخها، ورحل إلى دمشق بأولاده فأسمعهم بها وبالقدس وجلس للقراء بدمشق وكان ذا خير ودين وعفاف...»[١].

وقال العليمي: «العالم الصالح المقرئ المحدث شهاب الدين..»[٢] مات سنة ٧٧٤هـ رحمه الله[٣].

وقد أقبل ابن رجب يتتلمذ على أبيه، وينتفع منه، وينهل من معينه وكان أبوه حريصاً على تزويده من مناهل العلوم والمعارف المختلفة فكان يصطحبه معه في السماع على الشيوخ وذكر العليمي أنه قدم مع والده من بغداد إلى دمشق وهو صغير سنة ٧٤٤هـ فاشتغل بسماع الحديث باعتناء والده[٤] فلا ريب أن ابن رجب استفاد من جده المحدث (رجب) ثم من والده الإمام المقرئ لأنه ما دامت أن هذه هي أسرته التي عاش فيها وتلك مكانتها العلمية فلا عجب حين نرى ابن رجب ينشأ وهو محاط بجو علمي ديني تعبدي.

ولا شك أن نشأة ابن رجب في مثل هذه الأسرة قد هيأ له مناخاً مناسباً لطلب العلم والجد في تحصيله.

تلك هي أسرة ابن رجب رحمه الله تعالى أسرة علم وتقى وطهارة نالت من العلم حظاً وافراً.

---

(١) إنباء الغمر (١/ ٤٢).
(٢) المنهج الأحمد (٤٧١).
(٣) شذرات الذهب (٦/ ٢٣٠).
(٤) انظر: المنهج الأحمد ورقة (٤٧٠).

المبحث السادس
أخلاقه وصفاته

إن علماء السلف كانوا أحرص الناس على التحلي بالأخلاق الفاضلة والابتعاد عن الأخلاق السيئة.

ولقد كان الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى من أحرص الناس على التحلي بالأخلاق الفاضلة والابتعاد عن الأخلاق الرذيلة من الحسد والإيذاء والحقد وغير ذلك.

وكان رحمه الله تعالى زاهداً ورعاً تقياً، متعففاً، تعرضت له الدنيا بمفاتنها مرات عديدة فرفضها ولم يقبلها، واكتفى منها بما يصلح حاله ويسد رمقه، فلم يقبل من حاكم صلة أو عطية، وكان ينهى دائماً عن مخالطة أبناء الدنيا والنظر إليهم والاجتماع بهم، ويأمر بمخالطة الصالحين والاشتغال بالعلم، وكان له رحمه الله تعالى من الصفات والسلوك ما كان له أثر كبير في ظفره بلقب الإمام والحافظ وزين الدين وغير ذلك من النعوت التي وصفه بها كل من ترجم له، فهو حافظ لكتاب الله، وعالم بما أثر عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين، وذو بصر تام بمذهب الإمام أحمد رحمه الله، وهو من أئمة الحديث وحفاظه، وواسع المعرفة بمتونه وأسانيده وأحوال رجاله، وهو ذو أفق واسع، لا يتعصب لمذهب، ولا يندد بغيره، وهو حريص على معرفة الكتاب والسنة والرجوع إلى الطريقة التي جرى عليها الصحابة والتابعون ومن جاؤوا بعدهم من الأئمة الأربعة وغيرهم من السلف الصالح لا يشغله عن العبادة وطلب العلم

شيء من مطالب الدنيا وهو رضي الخلق، عذب الشمائل، حسن النية، وقد ظهر آثار ذلك كله فيما خلفه من تآليف متنوعة أثنى عليها العلماء، وتلقوها بالقبول.

وكان رحمه الله تعالى صاحب عبادة وتأله وتهجد وطول صلاة.

قال ابن ناصر الدين عنه: «أحد الأئمة الزهاد، والعلماء العباد»(١).

وقال ابن فهد: «كان رحمه الله إماماً ورعاً زاهداً، مالت القلوب بالمحبة إليه، وأجمعت الفرق عليه»(٢).

وقال الحافظ ابن حجر: «وكان صاحب عبادة وتهجد»(٣).

وكان مائلاً إلى اعتزال الناس والابتعاد عن مخالطتهم لا سيما في أواخر أيام حياته قال ابن حجي: «كان لا يخالط أحداً ولا يتردد إلى أحد»(٤).

وقال ابن قاضي شهبة(٥): «وكان منجمعاً عن الناس لا يخالطهم ولا يتردد إلى أحد من ذوي الولايات ويسكن بالمدرسة العسكرية بالقصاعين، وكان لا يعرف شيئاً من أمور الدنيا، فارغاً عن الرياسة وأسبابها، ليس له شغل إلا اشتغال بالعلم... وكان فقيراً متعففا غني

---

(١) الرد الوافر (ص١٠٦).
(٢) لحظ الألحاظ (ص١٨١).
(٣) إنباء الغمر (٣/ ١٧٦).
(٤) إنباء الغمر (٣/ ١٧٦).
(٥) أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الدمشقي الشافعي الشهير بابن قاضي شهبة، الفقيه، العالم المؤرخ، سمع من أكابر عصره ودرس وجمع وصنف مصنفات كثيرة منها: ذيل على تاريخ الإسلام للذهبي واسمه: «تاريخ ابن قاضي شهبة» «شرح منهاج الطالبين للنووي»، توفي سنة ٨٥١هـ.
الضوء اللامع (١١/ ٢١) وشذرات الذهب (٧/ ٢٦٩) والبدر الطالع (١/ ١٦٤).

النفس، وبالجملة لم يخلف بعده مثله»[١].

وكانت مجالس تذكيره ووعظه الناس للقلوب صادعة، وللناس عامة مباركة ونافعة، قال ابن العماد: «وكانت مجالس تذكيره للقلوب صادعة، وللناس عامة ومباركة نافعة»[٢].

تلك الصفات التي وصف بها تدل على ما وصل إليه ابن رجب رحمه الله تعالى من مكانة عالية خلقاً وزهداً وورعاً وعلماً فهو المحدث الذي أتقن فنون الحديث وطرقه، وصار قدوة وعلماً تخرج على يديه كثير من أهل العلم في زمانه، وبخاصة الحنابلة، وهو المصنف الذي ترك لنا آثاراً منوعة في العقيدة والفقه والحديث والتاريخ تدل على غزارة علمه وحضور حافظته واجتماع النصوص بين يديه ويجعلها أداة طيعة فيما يريده من شرح وتبسيط للأفكار، بحيث يقترب من العامة، ولا يبعد عن الخاصة من أهل العلم. وهو الواعظ المحبب إلى القلوب تجد الإخلاص والصدق في حديثه ووعظه، وهو الزاهد فيما به الناس مشغولون، المنقطع للعبادة والتصنيف.

  

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة ورقة (١٤٠/أ).
(٢) شذرات الذهب (٦/ ٣٤٠).

المبحث السابع
ابن رجب والتصوف

إن المطلع على كتب ابن رجب رحمه الله تعالى وكثرة نقوله عن السابقين وخصوصاً من اشتهر بالتصوف يظن أن ابن رجب رحمه الله تعالى علم من أعلام المتصوفة البارزين الذين يشار إليهم بالبنان، وهذا يدل على عدم معرفة هذا الإمام، بل الحقيقة أن ابن رجب رحمه الله تعالى ليس كما ظن هؤلاء وإن نقل بعض أقوال المتصوفة وحكاياتهم لأنه رحمه الله تعالى عنده من العقيدة السليمة الصافية عقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله ﷺ مع السلوك الحسن ما عصمه من الوقوع فيما وقع فيه أولئك القوم من زلات فضلاً عن الأمور التي وصلوا فيها إلى حد الشرك والحلول وغيرها من الأمور البعيدة عن دين الله عزّ وجلّ التي سببها الجهل بالكتاب والسنة ويكفيه فخراً في ذلك أنه تلميذ من تلاميذ العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى أبرز تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

إضافة إلى ذلك أنه انتقد القوم ورد عليهم في عدة مسائل بل ذكر بعض بدعهم وبيّن أن ما هم عليه في هذه المسائل بعيد كل البُعد عن دين الله سبحانه وتعالى.

ولا يعني هذا أني أقول بعصمة ابن رجب رحمه الله تعالى من الأخطاء والزلات، حاشا وكلا إنما هو بشر يصيب ويخطئ.

ولا أريد بهذا طرح جميع ما عند القوم بل لا بأس بالاستشهاد

ببعض أقوالهم ما دامت موافقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكم من الكتب التي ألفها علماء بارزون من أهل السنة والجماعة فيها شيء من أقوال بعض الصوفية، وأقرب مثال على ذلك شيخه العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى. وهذا منهج سليم وصحيح لأن المسلم الحق الذي يسير على نهج الكتاب والسنة يجب عليه أن يقبل الحق لأنه هو بغيته ومراده بغض النظر عمن قال به. روى البيهقي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خذ الحكمة ممن سمعت، فإن الرجل يتكلم بالحكمة، وليس بحكيم فتكون كالرمية خرجت من غير رام(١).

إلا أن الإنسان المؤمن الحق يجد في أقوال أهل السنة والجماعة ما يغني عن أقوال غيرهم من الذين يوهم النقل عنهم الرضا بسيرتهم وما هم عليه.

فابن رجب رحمه الله تعالى يعد من علماء السلف الذين كان لهم فضل في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، والذين جعلوا ابن رجب رحمه الله تعالى من الصوفية إنما هو بسبب خلطهم بين الزهد والتصوف، فالصوفية ومن سار على نهجهم حتى يكثروا سوادهم ويدللوا على صحة منهجهم ضموا إليهم كل من كان من العلماء زاهداً متعففاً ومنقطعاً للعبادة وسموه صوفياً.

والحقيقة أن هذا من قلب الموازين والمفاهيم السليمة لأن قلة الرغبة في الدنيا مع العبادة في ديننا دين الإسلام زهد وورع وتقوى، أما تسميته بذلك صوفياً فهذا غلط لأن لفظة صوفي لفظة محدثة كما بيّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وذكر أنها نسبة إلى الصوف ولبسه(٢).

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص٤٤٧).
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٦/١١).

والحقيقة أن ابن رجب رحمه الله تعالى بريء من المتصوفة ومن مناهجهم التي خالفوا فيها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومع ذلك فهو ليس بمعصوم فقد يوجد في بعض كلامه أو بعض ما ينقله ما لا يسلم من الهفوات والأخطاء التي وقع فيها أولئك القوم، وهذا لا يقدح في علمه وفضله لأنه كما يقال: «لكل جواد كبوة».

والإنسان مهما تعلم وقرأ لا يسلم من الخطأ، والأخطاء منها ما هو فاحش لا يمكن السكوت عنه، ومنها ما هو خطأ غير فاحش لا يلام صاحبه.

وقد تتبعت كتب ابن رجب رحمه الله تعالى التي بين يدي صغيرها وكبيرها فلم أجد ولله الحمد كلمة أو مقالة فيها رد لما ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى أو سنة رسوله ﷺ أو مخالفة لما كان عليه سلف هذه الأمة من أهل السنة والجماعة سوى ما ذكرت من كثرة نقوله من أقوال الصوفية خصوصاً في أنواع العبادة كالمحبة والتوكل.

والخلاصة في هذا أن الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى من علماء السلف الأفاضل المشهود لهم بالخير والصلاح وسلامة المعتقد كما سيتضح ذلك فيما أنقله من ثناء العلماء عليه وشهادتهم له بالإمامة والفضل إن شاء الله تعالى.

وما أحسن مقولة للحافظ الذهبي قال فيها: إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعلم تحريه للحق، واتسع علمه وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه يغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه، نعم لا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك(١).

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧١)، ترجمة قتادة بن دعامة السدوسي.

المبحث الثامن
وفاته

ظل ابن رجب رحمه الله تعالى يعمل ويجد في ورع وزهد ويدعو إلى الله سبحانه وتعالى بصدق وإخلاص حتى أدركته المنية بعد هذه الحياة الجهادية سنة خمس وتسعين وسبعمائة للهجرة، وهذا التاريخ قد اتفقت عليه جميع المصادر التي ترجمت لابن رجب، وشذ عن هذا الاتفاق ابن تغري بردي في المنهل الصافي إذ قيد وفاته سنة خمس وسبعين وسبعمائة[(١)] وهو غلط وتصحيف ظاهر.

وقد اختلفت المصادر في تحديد الشهر الذي توفي فيه رحمه الله تعالى.

فذكر ابن حجي[(٢)] [(٣)] وابن مفلح[(٤)] والنعيمي في الدارس[(٥)] وابن

(١) المنهل الصافي لابن تغري (٢/ ١٩٧/ ب).

(٢) أحمد بن حجي بن موسى الدمشقي الشافعي شهاب الدين الشهير بابن حجي، كان فقيهاً ومؤرخاً له عدة مصنفات منها: شرح المحرر لابن عبد الهادي، توفي سنة ٨١٦هـ.
الضوء اللامع (١/ ٢٦٩) وشذرات الذهب (٧/ ١١٦).

(٣) ذكر قوله ابن حجر في إنباء الغمر (٢/ ١٧٦).

(٤) المقصد الأرشد (٢/ ٨٢).

(٥) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٧٧).

قاضي شهبة[١] والعليمي[٢] وابن العماد[٣] أن وفاته ليلة الاثنين رابع رمضان.

وذهب ابن حجر في الدرر الكامنة[٤] وابن ناصر الدين[٥] والسيوطي[٦] والشوكاني[٧] إلى أنه توفي في شهر رجب.

ويبدو لي أن القول الأول أرجح لأن القائلين به أكثر ولزيادة الوصف فيما ذكروا حيث حددوا تاريخ يوم وفاته، ولأن القائلين به أكثرهم من الحنابلة وهم أعرف وأعلم بشيوخ وعلماء مذهبهم من غيرهم، علماً أن الاختلاف في تحديد الشهر فائدته ليست كبيرة ما داموا يتفقون على تحديد السنة، وقد توفي رحمه الله بأرض الحميرية ببستان كان استأجره، وصلي عليه من الغد، ودفن بمقبرة الباب الصغير بجوار قبر الشيخ أبي الفقيه الزاهد أبي الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي ثم المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ست وثمانين وأربعمائة[٨] والذي يرجع الفضل إليه في نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل بالقدس ودمشق رحمه الله تعالى.

وفي قصة وفاته ودفنه ما يشير إلى زهده وانتظاره للموت، قال ابن ناصر الدين: ولقد حدثني من حضر لحد ابن رجب أن الشيخ زين الدين ابن رجب جاءه قبل أن يموت بأيام فقال له: احفر لي هاهنا لحداً،

---

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة ورقة (١٤٠/أ).

(٢) المنهج الأحمد ورقة (٤٧١).

(٣) شذرات الذهب (٦/ ٣٤٠).

(٤) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٨).

(٥) الرد الوافر (ص١٠٧).

(٦) ذيل تذكرة الحفاظ (ص٣٦٨).

(٧) البدر الطالع (١/ ٣٢٨).

(٨) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥١ ـ ٥٣).

وأشار إلى البقعة التي دفن فيها، قال: فحفرت له، فلما فرغ نزل في القبر، واضطجع فيه فأعجبه، وقال: هذا جيد ثم خرج. قال: فوالله ما شعرت بعد أيام إلا وقد أتي به ميتاً محمولاً في نعشه، فوضعته في ذلك اللحد، وواريته فيه ـ رحمه الله تعالى[١].

رحم الله ابن رجب ورضي عنه ونفعنا والمسلمين بعلمه وهديه آمين.

  

(١) الرد الوافر (ص١٠٧).

الفصل الثالث

حياته العلمية

المباحث التي يشتمل عليها هذا الفصل:

المبحث الأول: طلبه للعلم.

المبحث الثاني: رحلاته في طلب العلم.

المبحث الثالث: شيوخه.

المبحث الرابع: تدريسه.

المبحث الخامس: تلاميذه.

المبحث السادس: ثقافته ومؤلفاته.

المبحث السابع: عقيدته ومذهبه.

المبحث الثامن: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

المبحث الأول
طلبه للعلم

تعلم مبادىء القراءة في الكتاتيب كغيره من أبناء عصره، ثم عكف على طلب العلم فقرأ القرآن العظيم على أبيه وعلى جماعة من شيوخ عصره.

ثم أقبل على العلم وأجهد نفسه في تحصيله ورحل إليه مراراً وقرأ الفقه والحديث وغيرهما فحفظ أصولهما وقرأهما على مشاهير علماء عصره.

وقد قرأ على كثير من العلماء حتى برز في كثير من العلوم كالتفسير والحديث وأصول الدين وعلم السلوك والفقه وغير ذلك.

وقد قيض الله لابن رجب عوامل كثيرة أسهمت في تكوين شخصيته العلمية الفذة منها: أسرته الكريمة التي توارثت العلم أباً عن جد، ومنها أن مدينة بغداد التي ولد فيها كانت عاصمة الخلافة الإسلامية، ومركز العلم والثقافة آنذاك، وكان أهلها يتمتعون بفوائد الرحلة وهم في بلدهم لكثرة علمائها في مختلف العلوم والفنون، ولترداد أهل العلم وطلبته من كل حدب وصوب إلى بغداد، شأن كل مركز حيوي للعلم والثقافة في كل زمان ومكان.

ومنها عصره المزدحم بالثقافة الموسوعية والمعرفة المتنوعة ونوابغ العلماء في كل مضمار.

هذه العوامل وجهت ابن رجب في مرحلة مبكرة نحو طلب العلم وقبل سن التمييز، فحضر مجالس العلم والعلماء، ولقد أشار هو رحمه الله تعالى إلى هذا فقال في أثناء ترجمة شيخه عبد الرحيم بن عبد الله الزريراتي: درس بالمجاهدية ببغداد، وحضرت درسه، وأنا إذ ذاك صغير لا أحققه جيداً[١] ويبدو أن هذا كان قبل الثالثة من عمره لأنه يصرح بالتمييز في الثالثة وما بعدها فيقول: قرئ على جدي أبي أحمد وأنا حاضر في الثالثة، وفي الرابعة، وفي الخامسة[٢].

وقد حصل له في الخامسة سماعات كثيرة ذكرها بكل دقة ووعي فنجده يقول: أخبرنا أبو الربيع علي بن عبد الصمد بن أحمد البغدادي قراءة عليه وأنا في الخامسة[٣].

بل أحياناً يحدد السنة التي سمع فيها فيقول: قرئ على أبي الربيع علي بن عبد الصمد وأنا أسمع سنة ٧٤١هـ ببغداد[٤].

وهذه السماعات في هذا السن المبكر تدل على مكانة أسرته العلمية.

هذه بدايات الطلب للحافظ ابن رجب كما ذكرها المترجمون له وكما ذكرها هو في كتابه الذيل على طبقات الحنابلة، وسيكون الكلام في المبحث القادم إن شاء الله تعالى عن رحلاته العلمية التي رحلها في كثير من البلاد.

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٣٦).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢١٣)..
(٣) المصدر السابق (١/ ٦٧).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١٧٦).

المبحث الثاني
رحلاته في طلب العلم

كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على عدم مغادرة المدينة في حياة النبي ﷺ، لأن حبهم العظيم له جعلهم لا يقوون على الابتعاد عنه لذلك نجد المكثرين من رواية الحديث عن الرسول ﷺ لم يخرجوا منها حتى توفي عليه الصلاة والسلام.

ولما بدأ عهد الفتوحات الإسلامية في زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم بدأت رحلاتهم وخروجهم من المدينة، فانتشروا في الأمصار يحملون معهم حديث نبينا محمد ﷺ كلٌّ بحسبه فمنهم المكثر ومنهم المقل وقد يسمع أحدهم ما لم يسمعه الآخر، ويحفظ ما نسيه غيره.

ولذلك كانوا رضي الله عنهم هم أنفسهم يرحلون إلى بعضهم لسماع حديث من أحاديث المصطفى ﷺ اختص بسماعه واحد منهم دون سواه فهذا الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلي، فسرت إليه شهراً، حتى قدمت عليه بالشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت، أو أموت قبل أن أسمعه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة ـ أو قال العباد ـ عراة غرلاً بهماً قال: قلنا وما بهماً؟

قال: ليس معه شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه، حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف وإنا إنما نأتي الله عزّ وجلّ عراة غرلاً بهماً؟ قال: الحسنات والسيئات»[1].

فالرحلة في طلب الحديث سنة متبعة منذ ذلك العهد لأن الرحلات العلمية لها فوائد جمة في كسب العلم.

وقد كانت الرحلة لتلقي العلم ورواية الأحاديث من محدثيها في عهد التابعين أوسع منها في عهد الصحابة حتى أصبحت سمة بارزة لكثير من العلماء النابغين حيث هاجروا طلباً في اللقاء بالمشاهير والاستفادة منهم.

والحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى عالم شهد له أهل زمانه بالنبوغ في أنواع عديدة من المعرفة لم يقتصر في طلب العلم على مدينة بغداد ولكنه رحل إلى مدن أخرى.

فقد كان والده يصطحبه معه في رحلات علمية يسمع ويسمعه من أفاضل العلماء في عصره قال ابن عبد الهادي[2]: «واشتغل بسماع

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥) والحاكم (٢/ ٤٣٧) وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (٣٢٦) وذكره معلقاً في الصحيح (١/ ٢٧) وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/ ١٧٤) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤٠٤) رواه أحمد بإسناد حسن.

(٢) يوسف بن الحسن بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي المعروف بابن المبرد الشيخ العالم المصنف المحدث، له مؤلفات كثيرة منها: الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد، توفي سنة ٩٠٩هـ.
الضوء اللامع (١٠/ ٣٠٨) وشذرات الذهب (٨/ ٤٣).

الحديث ورحل فيه»[١].

فقد رحل مع والده من بلدة بغداد إلى دمشق وسمع مع أبيه عن جماعة من أكابر العلماء فيها قال ابن عبد الهادي: «قدم مع والده من بغداد إلى دمشق وهو صغير، سنة أربع وأربعين وسبعمائة وفيها ابن النقيب قال لي: قد أجزتك وولدك عبد الرحمن»[٢].

وقال ابن حجر: قدم دمشق مع والده فسمع معه من محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الخباز، وإبراهيم بن داود العطار وغيرهما[٣].

وقد صرح ابن رجب رحمه الله تعالى بسماعه من بعض العلماء في دمشق فقال: وقرأت سنن ابن ماجه بدمشق على الشيخ جمال الدين يوسف بن عبد الله بن محمد النابلسي»[٤].

ثم رحل مع والده إلى مصر وسمع فيها على أكابر علمائها.

قال الحافظ ابن حجر: «وسمع بمصر من الميدومي وبالقاهرة من ابن الملوك»[٥].

وقال ابن العماد: وسمع بمصر من صدر الدين أبي الفتح الميدومي ومن جماعة من أصحاب ابن البخاري ومن خلق من رواة الآثار[٦].

ورحل إلى نابلس وسمع بها من جماعة الحافظ عبد الحافظ بن

---

(١) الجوهر المنضد (٤٨).

(٢) المصدر السابق (ص٤٨).

(٣) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٩).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٤١).

(٥) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٩).

(٦) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

بدران[١] حيث قال في ترجمته: حدثنا عنه جماعة من أصحابه بدمشق ونابلس[٢].

ورحل إلى القدس وسمع بها من أبي سعيد العلائي وقد أشار إلى رحلته هذه بقوله: وسمعت شيخنا الحافظ أبي سعيد العلائي ببيت المقدس[٣].

ثم عاد بعد ذلك مع والده إلى بغداد مسقط رأسه وذلك سنة ٤٤٨هـ وقد أشار إلى عودته إلى بغداد في ترجمة سليمان بن عبد الرحمن النهرماري حيث قال: وتوفي في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وصلى عليه بجامع قصر الخلافة، وحضرت الصلاة عليه، ودفن بمقبرة الإمام أحمد بباب حرب[٤].

وفي بغداد قرأ على الشيخ أبي المعالي محمد بن عبد الرزاق الشيباني وفي ذلك يقول: أخبرنا أبو المعالي محمد بن عبد الرزاق الشيباني الزاهد بقراءتي عليه ببغداد سنة تسع وأربعين وسبعمائة[٥].

ثم رافق والده إلى مكة للحج سنة تسع وأربعين وسبعمائة وسمع فيها ثلاثيات البخاري من الشيخ أبي حفص عمر بن علي بن الخليل

---

(١) هو أبو محمد العماد عبد الحافظ بن بدران بن شبل المقدسي النابلسي إمام فقيه عابد، وكان مواظباً على التلاوة، من تلاميذه الحافظ الذهبي، توفي سنة ٦٩٨هـ. المعين في طبقات المحدثين للذهبي (٢٢٣) والعبر للذهبي (٣/ ٣٩٢) وذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٤١) وشذرات الذهب (٥/ ٤٤٢).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٤١).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٦٥).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٤٤١).

(٥) المصدر السابق (١/ ٢٨٩).

البغدادي، وقد ذكر هذا أثناء ترجمته له فقال: وقدم في آخر عمره إلى بغداد، فأقام بها يسيراً ثم توجه إلى الحج سنة تسع وأربعين وحججت أنا تلك السنة أيضاً مع والدي، فقرأت على شيخنا أبي حفص عمر ثلاثيات البخاري بالحلة اليزيدية[١].

وسمع كذلك بمكة من الفخر عثمان بن يوسف وغيره، قال النعيمي: وسمع بنفسه بمكة المشرفة على الفخر عثمان بن يوسف، واشتغل بسماع الحديث باعتناء والده[٢].

ثم عاد بعد ذلك إلى دمشق ولازم شيخه ابن القيم رحمه الله تعالى ملازمة أفادته كثيراً حتى مات سنة ٧٥١هـ، وفي ذلك يقول: ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها[٣].

وفي سنة ٧٦٣هـ سافر للحج مرة أخرى والتقى بالمشاهير من العلماء هناك وقد أشار إلى رحلته هذه أثناء ترجمته للشيخ محمد بن أحمد السقا حيث قال: وقد جمعت بينه وبين قاضي قضاة مصر الموفق وابن جماعة بمنى عام ثلاث وستين وسبعمائة[٤].

ثم عاد إلى دمشق حيث كانت هي مسكنه ومستقره في أثناء ذلك منها يرتحل وإليها يعود.

وقد اهتم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى بالتلقي عن أهل

---

(١) االذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٤)..
(٢) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٧٦).
(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٨).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٤٤٦).

الحديث، والسماع من كثير من رواة الآثار، وقد رافق في السماع الإمام المحدث زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي[١]، قال الحافظ ابن حجر: ورافق شيخنا زين الدين العراقي في السماع كثيراً[٢].

وظل ابن رجب يخرج الطلبة النجباء والعلماء الأكفاء حتى تخرج به غالب فقهاء الحنابلة بدمشق قال ابن العماد: وتخرج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق[٣].

فهو رحمه الله تعالى استوطن بدمشق عاصمة العلم ومهد الحضارة آنذاك وكرس جهده حتى برع ونبغ، وكان إماماً في فنون كثيرة قال عنه ابن حجر: أتقن الفن، وصار أعرف أهل عصره بالعلل وتتبع الطرق[٤].



(١) الإمام الحافظ عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن زين الدين العراقي كان عالماً محدثاً فقيهاً، له عدة مصنفات منها: تخريج أحاديث الإحياء، وألفية في علوم الحديث، توفي سنة ٨٠٦هـ.
الضوء اللامع (٤/ ١٧١) وحسن المحاضرة (١/ ٢٠٤) وشذرات الذهب (٧/ ٥٥).

(٢) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٨).

(٣) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

(٤) إنباء الغمر (٣/ ١٧٦).

المبحث الثالث
شيوخه

إن مما تدرك به مكانة الرجل، وتعرف به منزلته هو معرفة شيوخه وأساتذته الذين تلقى عنهم، وتأثر بهم، فإن للشيخ في نفس التلميذ من الأثر ما ليس لأحد غيره من الناس حتى والده.

وإن لقوة شخصية الأستاذ وقدرته العلمية لأكبر الأثر في بناء التلميذ ونضوج عقليته.

ونحن إذا عرفنا أساتذة الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى وشيوخه عرفنا أنه تلقى علومه جميعاً على أيدي كبار العلماء والأئمة في عصره.

ولقد كان لاشتغال ابن رجب رحمه الله تعالى في طلب العلم في سن مبكرة من عمره ورحلاته المتعددة إلى كثير من البلاد والأقطار التي أتاحت له الالتقاء بكثير من العلماء والأخذ عنهم أثراً في كثرة أساتذته وشيوخه.

ولقد حاولت في هذه الدراسة استقاء جميع شيوخ ابن رجب رحمه الله الذين أخذ منهم وذلك بتتبع كتب التراجم التي تناولت عصر ابن رجب أو شخصيته بالإضافة إلى كتب ابن رجب التي يشير فيها إلى بعض أساتذته وشيوخه مثل كتاب الذيل على طبقات الحنابلة.

وهذا التتبع والاستقراء الذي استطعت فيه أن أحصر هذا العدد من شيوخ ابن رجب لم أسبق إليه فيما أعلم حسب علمي واطلاعي على

الكتب التي ترجمت لابن رجب أو تناولته بالبحث والدراسة.

وسأذكر أسماء شيوخ وأساتذة ابن رجب رحمه الله تعالى الذين صار لهم الأثر في تكوينه الفكري ونضوجه العلمي مرتبة على حروف المعجم، ثم أترجم للمشاهير منهم بشيء من التفصيل: وهم على ما يلي:

١ ـ أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة الفقيه النحوي، شيخ الحنابلة المشهور بابن قاضي الجبل المتوفى سنة ٧٧١هـ[١].

٢ ـ والده شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي المتوفى سنة ٧٧٤هـ[٢].

٣ ـ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الحريري المقدسي المرداوي الصالحي، المتوفى سنة ٧٥٨هـ[٣].

٤ ـ شهاب الدين أحمد بن عبد الكريم البعلي المتوفى سنة ٧٧٧هـ[٤].

٥ ـ أبو العباس أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٥٣) والمقصد الأرشد (١/ ٩٣) والدرر الكامنة (١/ ١٢٩) والدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٤٤) وشذرات الذهب (٦/ ٢١٩).

(٢) إنباء الغمر (١/ ٤٢) والرد الوافر (ص٧٩) وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٥٣) وشذرات الذهب (٦/ ٢٣٠).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٨٦) والمقصد الأرشد (١/ ١٢٩) والمنهج الأحمد ورقة (٤٥٣) وذيل العبر للحسيني (ص١٧٥) والدرر الكامنة (١/ ١٨١) والقلائد الجوهرية (٢/ ٤١٨) وشذرات الذهب (٦/ ١٨٥).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٦٥) والدرر الكامنة (١/ ١٨٨) والمنهج الأحمد ورقة (٤٧٣).

الهادي المقدسي الصالحي المتوفى سنة ٧٥٢هـ[١].

٦ ـ علاء الدين أحمد بن عبد المؤمن النووي الشافعي المتوفى سنة ٧٤٩هـ[٢].

٧ ـ أحمد بن علي بن عبد القاهر بن الغوطي، سمع منه ببغداد[٣].

٨ ـ جمال الدين أبو العباس أحمد بن علي بن محمد البابصري البغدادي الفقيه الفرضي الأديب، توفي سنة ٧٥٠هـ[٤].

٩ ـ كمال الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن أحمد المهدي المصري الشافعي المتوفى سنة ٧٥٧هـ[٥].

١٠ ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن سليمان الحنبلي المتوفى سنة ٧٦٥هـ[٦].

١١ ـ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر بن حسين الشيرازي الدمشقي المعروف بـ «زغنش» بزاء معجمة مضمومة ثم غين ساكنة ثم نون مضمومة ثم شين، توفي سنة ٧٧١هـ[٧].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٣٩) والمنهج الأحمد ورقة (٤٥٢) والقلائد الجوهرية (٢/ ٤١٩).
(٢) لحظ الألحاظ (ص١١٨) وشذرات الذهب (٦/ ١٥٨).
(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٢٦٥).
(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٥) والمقصد الأرشد (١/ ١٤٧) وشذرات الذهب (٦/ ١٦٦).
(٥) النجوم الزاهرة (١٠/ ٣٢٤) وحسن المحاضرة (١/ ٢٣٩) وشذرات الذهب (٦/ ١٨٢).
(٦) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٣٠١) والمنهج الأحمد ورقة (٤٥٧).
(٧) الدارس (٢/ ١٢٥) والقلائد الجوهرية (٢/ ٤١٩) والمقصد الأرشد (١/ ١٨١) وشذرات الذهب (٦/ ٢٢٠).

١٢ ـ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الزهر بن عطية الصالحي الغسولي الهكاري الحنبلي، المتوفى سنة ٧٦٠هـ[١].

١٣ ـ بشر بن إبراهيم بن محمود بن بشر البعلي الحنبلي الشيخ الصالح المتوفى سنة ٧٦١هـ سمع منه بالشام[٢].

١٤ ـ صفي الدين أبو عبد الله الحسين بن بدران البابصري البغدادي، المتوفى سنة ٧٤٩هـ سمع منه ببغداد[٣].

١٥ ـ أبو سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الشافعي المتوفى سنة ٧٦١هـ سمعه في القدس[٤].

١٦ ـ عز الدين أبو علي حمزة بن موسى بن أحمد الإمام الحنبلي المعروف بابن شيخ السلامية المتوفى سنة ٧٦٩هـ[٥].

١٧ ـ جمال الدين أبو سليمان داود بن إبراهيم بن داود بن يوسف بن سليمان العطار الدمشقي، توفي سنة ٧٥٢هـ[٦].

---

(١) الذيل على العبر للحسيني (١٨٣) والمقصد الأرشد (١/ ١٧٩) وشذرات الذهب (٦/ ١٨٨).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٢٠٠) والدرر الكامنة (٢/ ١٢) وشذرات الذهب (٦/ ١٩٠).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٣) والمقصد الأرشد (١/ ٣٤٣) وشذرات الذهب (٦/ ١٦٢).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٦٥) ودرة الحجال في أسماء الرجال (١/ ٢٥٨) وطبقات الشافعية للسبكي (٦/ ١٠٤) وشذرات الذهب (٦/ ١٩٠).

(٥) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٣) والدرر الكامنة (٢/ ١٦٥) وشذرات الذهب (٦/ ٢١٤).

(٦) الدرر الكامنة (٢/ ١٨٥) والدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤٣٥) وذيل العبر للحسيني (ص١٥٨).

١٨ ـ زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية المعروفة ببنت الكمال، توفيت سنة ٧٤٠هـ سمع منها إجازة، وهو في بغداد(١).

١٩ ـ نجم الدين أبو المحاسن سليمان بن عبد الرحمن الشيباني النهرماري البغدادي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ(٢).

٢٠ ـ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بن أيوب بن سعد أخو شمس الدين ابن قيم الجوزية، توفي سنة ٧٦٩هـ(٣).

٢١ ـ جده أبي أحمد عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي الملقب رجب، توفي سنة ٧٤٢هـ(٤)، سمع منه إجازة.

٢٢ ـ شرف الدين أبو محمد عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد الزريراتي البغدادي الحنبلي، توفي سنة ٧٤١هـ سمع منه ببغداد إجازة(٥).

٢٣ ـ عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي، توفي سنة ٧٦٧هـ لقيه في مصر ومكة(٦).

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٥٣، ١٥٥) والدرر الكامنة (٢/ ٢٠٩) ودرة الحجال في معرفة الرجال (١/ ٢٧٨).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤١) والدرر الكامنة (٢/ ٢٤٨) والمقصد الأرشد (١/ ٤٢٤).

(٣) الدرر الكامنة (٢/ ٤٣٤) وشذرات الذهب (٦/ ٢١٦) والمقصد الأرشد (٢/ ٨٣).

(٤) الدرر الكامنة (٢/ ١٠٧).

(٥) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٣٥) والدرر الكامنة (٢/ ٤٦٦).

(٦) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٨٥) والعقد الثمين (٥/ ٤٥٧) وطبقات الشافعية للسبكي (٦/ ١٢٣) وحسن المحاضرة (١/ ٣٥٩).

٢٤ ـ تاج الدين عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه بن عبد الله الواسطي، الدمشقي المقرئ، توفي سنة ٧٤١هـ، سمع منه ببغداد إجازة[١].

٢٥ ـ عبد الله بن إسماعيل الأنصاري أبو محمد[٢].

٢٦ ـ تقي الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن نصر بن فهد الصالحي الدمشقي الحنبلي المعروف بابن قيم الضيائية، توفي سنة ٧٦١هـ، سمع منه بدمشق[٣].

٢٧ ـ عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الخزرجي العبادي المدني المعروف بابن المطري المتوفى سنة ٧٦٥هـ[٤].

٢٨ ـ صفي الدين أبو الفضائل عبد المؤمن بن عبد الحق بن عبد الله القطيعي البغدادي، توفي سنة ٧٣٩هـ سمع منه إجازة في بغداد[٥].

٢٩ ـ فخر الدين عثمان بن يوسف بن أبي بكر النويري المالكي المتوفى سنة ٧٥٧هـ، سمعه بمكة[٦].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٤) والدرر الكامنة (٢/ ٣٧٦).
(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٦١).
(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٢١) والدرر الكامنة (٢/ ٣٨٨) وشذرات الذهب (٦/ ١٩١).
(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٧٠) وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص٥٣٤) وطبقات الشافعية للسبكي (٦/ ١٠٣) والوفيات لابن رافع (٢/ ٢٨٢).
(٥) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٢٨، ٤٣٠) والدرر الكامنة (٣/ ٣٢) وذيل تذكرة الحفاظ (٢١).
(٦) الدرر الكامنة (٣/ ٦٧) والدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٧٦) والوفيات لابن رافع (٢/ ١٨٩).

٣٠ ـ محب الدين أبو الربيع علي بن عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر بن أبي الحسن الحنبلي البغدادي، توفي سنة ٧٤٢هـ سمع منه في بغداد إجازة[١].

٣١ ـ نجيب الدين علي بن محمد الرفاعي، روى عنه بالإجازة[٢].

٣٢ ـ علاء الدين أبو الحسن علي بن زين الدين المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخي المعروف بابن المنجا، توفي سنة ٧٥٠هـ سمعه بدمشق[٣].

٣٣ ـ أبو حفص عمر بن حسن بن مزيد بن أميلة المراغي الحلبي المزي الدمشقي توفي سنة ٧٧٨هـ، سمعه في دمشق[٤].

٣٤ ـ سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن عمر القزويني البغدادي، توفي سنة ٧٥٠هـ[٥].

٣٥ ـ سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن موسى بن الخليل الأزجي البغدادي توفي سنة ٧٤٩هـ سمعه بدمشق[٦].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٢٢١، ٢٩٣) والدرر الكامنة (٣/ ١٣٢) والذيل على العبر للحسيني (١٢٧).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٢٨٥).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٧) وذيل العبر للحسيني (١٥٥) والقلائد الجوهرية (٢/ ٤٩٧).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٩٨) والدرر الكامنة (٣/ ٢٣٥) وشذرات الذهب (٦/ ٢٥٨).

(٥) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٦٧) والدرر الكامنة (٣/ ٢٥٦).

(٦) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٤) والدرر الكامنة (٣/ ٢٥٦) وشذرات الذهب (٦/ ١٦٣).

٣٦ ـ علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي، مؤرخ الشام المتوفى سنة ٧٣٩هـ سمع منه إجازة بدمشق[(١)].

٣٧ ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الصالحي الحنبلي المعروف بالحفة، وقد يقال الحفيفة، توفي سنة ٧٥٩هـ[(٢)].

٣٨ ـ عز الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٧٤٨هـ[(٣)].

٣٩ ـ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن نجدة بن حمدان الدمشقي شمس الدين ابن النقيب الشافعي المتوفى سنة ٧٤٥هـ[(٤)].

٤٠ ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ[(٥)].

٤١ ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن تمام بن حسان التلي ثم

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ١٨٤) والدارس في تاريخ المدارس (١/ ١١٢) والنجوم الزاهرة (٩/ ٣١٩).

(٢) الدرر الكامنة (٣/ ٣٨٠) والوفيات لابن رافع (٢/ ٢٠٩) وشذرات الذهب (٦/ ١٨٧).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤١) والبداية والنهاية (١٤/ ١٩٣) وشذرات الذهب (٦/ ١٥٧).

(٤) الدرر الكامنة (٤/ ١٩) وطبقات الشافعية للسبكي (٦/ ٤٤) والمختصر في أخبار البشر (٤/ ١٤٣).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٧) والبداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤) والنجوم الزاهرة (١٠/ ٢٤٩).

الصالحي، توفي سنة ٧٤١هـ سمع منه إجازة بدمشق[١].

٤٢ ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن بن عبد الله الصالحي المقدسي الحنبلي، توفي سنة ٧٥٩هـ[٢].

٤٣ ـ تاج الدين محمد بن أحمد بن رمضان بن عبد الله الحريري ثم الدمشقي الحنبلي، توفي سنة ٧٥٨هـ[٣].

٤٤ ـ نجم الدين محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن سالم بن بركات بن سعد الدمشقي العبادي المعروف بابن الجباز، توفي سنة ٧٥٦هـ[٤].

٤٥ ـ ناصر الدين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن عبد العزيز بن عيسى بن أبي بكر العادل الأيوبي المعروف بابن الملوك، توفي سنة ٧٥٦هـ[٥].

٤٦ ـ أبو المعالي محمد بن عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الشيباني، سمعه ببغداد[٦].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٣٣) والمقصد الأرشد (٢/ ٣٥٩) ولحظ الألحاظ (١١١) والوافي بالوفيات (٢/ ١٥٤) وفوات الوفيات (٢/ ٣٧٠) والمختصر في أخبار البشر (٤/ ١٣٣).

(٢) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية (٢/ ٤٢٨) والدارس في تاريخ المدارس (٢/ ١٢٣) وشذرات الذهب (٦/ ١٨٧).

(٣) القلائد الجوهرية (٢/ ٤٢٨) والدرر الكامنة (٣/ ٤٠٥) والمقصد الأرشد (٢/ ٣٦١) وشذرات الذهب (٦/ ١٨٦).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ١٩٦، ٢٤٧) والدرر الكامنة (٤/ ٤) والوفيات (٢/ ١٨٨) وشذرات الذهب (٦/ ١٨١).

(٥) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٤١) والدرر الكامنة (٤/ ٧) وذيل العبر للحسيني (١٧٠).

(٦) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٨٩، ٣٧٦).

٤٧ ـ محمد بن عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر بن أبي الحسن الحنبلي سمع منه ببغداد سنة ٧٤١هـ إجازة[١].

٤٨ ـ محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن ذؤيب الدمشقي الأسدي، توفي سنة ٧٨٢هـ[٢].

٤٩ ـ صدر الدين أبو القاسم محمد بن علي بن أبي الفتح بن أسعد بن المنجا الحنبلي المتوفى سنة ٧٥٤هـ[٣].

٥٠ ـ صدر الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم الميدومي المتوفى سنة ٧٥٤هـ[٤].

٥١ ـ بدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الغني بن عبد الله بن أبي نصر الدمشقي المعروف بابن البطائني، توفي سنة ٧٥٦هـ[٥].

٥٢ ـ محمد بن محمد بن الكوفي الهاشمي الواعظ، روى عنه بالإجازة[٦].

٥٣ ـ فتح الدين أبو الحرم محمد بن محمد بن محمد القلانسي

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٧٦).

(٢) إنباء الغمر (٢/ ٣٧) والدرر الكامنة (٤/ ٢٢٨) والنجوم الزاهرة (١١/ ٢٠٦).

(٣) الدرر الكامنة (٤/ ١٧٦) والوفيات (٢/ ١٥٨) والمقصد الأرشد (٢/ ٤٧٩) وشذرات الذهب (٦/ ١٧٦).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ١١٨) والدرر الكامنة (٤/ ٢٧٤) ولحظ الألحاظ (ص١٨٠).

(٥) الدرر الكامنة (٤/ ٣٠٦) والقلائد الجوهرية (٢/ ٥٧٠) وشذرات الذهب (٦/ ١٨١).

(٦) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٢٨٥).

الحنبلي، توفي سنة ٧٦٥هـ(١).

٥٤ ـ شمس الدين أبو الثناء محمود بن خليفة بن محمد بن المَنبِجِي الدمشقي توفي سنة ٧٦٧هـ(٢).

٥٥ ـ ابن النباش: لم يذكر له ابن رجب لا اسماً ولا تاريخ مولد ولا تاريخ وفاة مع أنه أقر بأنه قرأ عليه مختصر الخرقي من حفظه، وسمع عليه أجزاء كثيرة من مصنفاته وصحبه إلى الممات(٣).

٥٦ ـ شمس الدين أبو المحاسن يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن نجم بن الحنبلي الصالحي، توفي سنة ٧٥١هـ سمعه بدمشق(٤).

٥٧ ـ جمال الدين يوسف بن عبد الله بن العفيف المقدسي النابلسي، توفي سنة ٧٥٤هـ سمعه بدمشق(٥).

وفيما يلي ترجمة لأشهر شيوخ ابن رجب رحمه الله تعالى وهم:

١ ـ ابن القيم:

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الحنبلي الإمام الحافظ المفسر المحدث الأصولي الفقيه النحوي المشهور بابن قيم الجوزية، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة.

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٣٥٣) ولحظ الألحاظ (ص١٤٧) وشذرات الذهب (٦/ ٢٠٦).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٨٦) والدرر الكامنة (٥/ ٩١) والنجوم الزاهرة (١١/ ٩٢) والوفيات (٢/ ٣١٠).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٣٢) والمنهج الأحمد ورقة (٤٤٣).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٦٨) والدرر الكامنة (٥/ ٢٥٦) والبداية والنهاية (١٤/ ٢٣٥).

(٥) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٤١) والدرر الكامنة (٥/ ٢٣٩) والمقصد الأرشد (٣/ ١٤١) والشذرات (٦/ ١٧٦).

وأسرته أسرة علم وفضل، سمع من أبيه وغيره ومن شيخ الإسلام ابن تيمية بل لازمه وأخذ عنه وأعجب به كثيراً[(١)].

وقد برع رحمه الله تعالى في جميع العلوم يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: تفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى[(٢)].

له مؤلفات كثيرة جداً، وكلها مفيدة ونفيسة منها: «زاد المعاد في هدي خير العباد»، «وأعلام الموقعين عن رب العالمين»، «والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»، وكلها مطبوعة ما عدا الأخير منها فالمطبوع جزء منه، توفي رحمه الله سنة ٧٥١هـ وله من العمر ستون سنة.

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء توفي صاحبنا الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية وابن قيمها وصلي عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي، ودفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله. إلى أن قال: وكانت جنازته حافلة رحمه الله، شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على حمل نعشه»[(٣)].

---

(١) ترجمته في: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٧) وذيل العبر للحسيني (١٥٥) والنجوم الزاهرة (١٠/ ٢٤٩) والدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠) وشذرات الذهب (٦/ ١٦٨).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٨).

(٣) البداية والنهاية (١٤/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

٢ ـ ابن الخباز:

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن سالم بن بركات الدمشقي الأنصاري العبادي، المعروف بابن الخباز.

ولد في شهر رجب سنة ٦٦٧هـ[١].

رحل به والده فسمع من أحمد بن عبد الدائم[٢] وعبد الرحمن بن نجم الحنبلي[٣] وغيرهم، وقد سمع منه الأئمة والحفاظ ومنهم الذهبي والمزي وابن كثير والبرزالي والعراقي وغيرهم.

وقد خرج البرزالي له مشيخة، وذكر له أكثر من مائة وخمسين شيخاً[٤].

قال العراقي عنه: «كان مسند الآفاق في زمانه، وتفرد برواية مسلم بالسماع المتصل، وكان صدوقاً مأموناً محباً للحديث وأهله»[٥]. توفي رحمه الله في ثالث شهر رمضان سنة ٧٥٦هـ[٦].

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٤) ومعجم الشيوخ الكبير للذهبي (٢/ ١٧١).

(٢) أحمد بن عبد الدائم بن نعمة زين الدين أبو العباس المقدسي الحنبلي، قال الذهبي: «كان فيه دين وتواضع ونباهة، انتهى إليه علو الإسناد»، توفي سنة ٦٦٨هـ.
العبر للذهبي (٣/ ٣١٧) والنجوم الزاهرة (٧/ ٢٢٣٠) وشذرات الذهب (٥/ ٣٢٥).

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الشيرازي الأنصاري الحنبلي الفقيه الواعظ، قال ابن رجب: «انتهت إليه رئاسة المذهب بعد وفاة الشيخ موفق الدين»، توفي سنة ٦٣٤هـ.
العبر للذهبي (٣/ ٢١٩) والذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ١٩٣) والدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٨٢) وشذرات الذهب (٥/ ١٦٤).

(٤) ذيل العبر للحسيني (١٦٩) وشذرات الذهب (٦/ ١٨١).

(٥) الدرر الكامنة (٤/ ٤) وطرح التثريب للعراقي (١/ ٩٩).

(٦) الوفيات لابن رافع (٢/ ١٨٨).

٣ ـ أبو سعيد العلائي:

هو صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي الدمشقي الشافعي الإمام العلامة الفقيه المحدث الأصولي ولد بدمشق سنة أربع وتسعين وستمائة[(١)]. وسمع الكثير ورحل في طلب العلم، قال الحسيني[(٢)]: «حدث عن القاضي تقي الدين سليمان الحنبلي، وطبقته فأكثر، وكان إماماً في الفقه والنحو، والأصول، متفنناً في علوم الحديث ومعرفة الرجال، علامة في معرفة المتون والأسانيد، فمصنفاته تنبئ عن إمامته في كل فن»[(٣)].

له تصانيف كثيرة مفيدة منها: كتاب القواعد المشهورة، وتنقيح الفهوم في صيغ العموم، والمراسيل، وغيرها[(٤)].

توفي رحمه الله في ليلة الاثنين، الثالث من شهر المحرم سنة ٧٦١هـ[(٥)].



(١) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني (٤٣) وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي (٣٦٠).

(٢) أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسين بن حمزة الحسيني، فقيه، محدث حافظ إمام مؤرخ، له عدة مصنفات منها: ذيل على العبر للذهبي، وذيل تذكرة الحفاظ، توفي سنة ٧٦٥هـ.

(٣) ذيل العبر للحسيني (١٨٦).
الدر الكامنة (٤/ ٦١) والبدر الطالع (٢/ ٢٠٩).

(٤) طبقات المفسرين للداوودي (١/ ١٦٩) وشذرات الذهب (٦/ ١٩٠).

(٥) البداية والنهاية (١٤/ ٢٢٩) والوفيات لابن رافع (٢/ ٢٢٦).

المبحث الرابع
تدريسه

لم يقتصر ابن رجب رحمه الله تعالى على التعلم وحده دون نشره وتعليم الناس له بل حرص على تدريس الناس وتوعيتهم بأمور دينهم، وهذا هو منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

فهو رحمه الله تعالى بعد رحلاته العلمية استقر بدمشق يدرس بمدارسها ويعقد المواعيد الوعظية، والحلقات العلمية وينهض بمسؤوليته نحو الدين والعلم والمجتمع.

فقد كان له حلقات من الدروس يجتمع فيها حوله عدد غفير من الطلاب يرتشفون من علومه ويسألونه ويناقشونه ويستمعون إلى محاضراته ويسمع لهم قراءاتهم عليه ليجيزهم أو يدقق عليهم.

فقد ولي ابن رجب رحمه الله تعالى حلقة الثلاثاء بعد وفاة ابن قاضي الجبل(١) سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، ودرس بالمدرسة الحنبلية بعد وفاة ابن التقي(٢) سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، قال العليمي: «درس

---

(١) تقدمت ترجمته (ص٨٨).

(٢) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن محمود بن أحمد المرداوي الحنبلي المعروف بابن التقي، اشتغل بالعلم وتميز فيه، ودرس وأفتى، وكان عالماً زاهداً تقياً ورعاً، توفي سنة ٧٨٨هـ.
الجوهر المنضد (١٤١) وشذرات الذهب (٦/ ٣٠٤).

بحلقة الثلاثاء والمدرسة الحنبلية»[١].

وقال ابن عبد الهادي: «ولي حلقة الثلاثاء بعد وفاة ابن قاضي الجبل في رجب إحدى وسبعين، ودرس بالحنبلية بعد وفاة ابن التقي، ثم أخذ منه»[٢].

كما أن الشيخ عز الدين ابن شيخ السلامية وقف درساً وعين له الحافظ ابن رجب، قال النعيمي في معرض كلامه عن ابن شيخ السلامية: «ووقف درساً بتربته بالصالحية وكتباً، عين لذلك الشيخ زين الدين بن رجب رحمه الله تعالى»[٣].

ومعنى هذا أنه اشتغل بالتدريس وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وقد تتلمذ على يديه خلق كثير من الحنابلة في وقته.

قال ابن حجي: «وتخرج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق»[٤].

وكان رحمه الله واعظاً بليغاً مفوهاً، فكانت مواعظه مؤثرة في النفوس موقظة للقلوب، قال ابن ناصر الدين: كانت مجالس تذكيره للقلوب صادعة، وللناس عامة مباركة نافعة[٥].

وهو يقتدي في مسلكه الوعظي بأسلوب الإمام ابن الجوزي الذي كانت مواعظه تضم إلى جانب الآيات والأحاديث الأشعار الرقيقة التي تقع من النفس أحسن موقع ويخلطها بعبارات مسجوعة، فتكون مواعظه محببة

---

(١) المنهج الأحمد ورقة (٤٧١).
(٢) الجوهر المنضد (ص٤٩).
(٣) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٧٦).
(٤) إنباء الغمر (٣/ ١٧٦).
(٥) التبيان لبديعة البيان (ص١٥٩).

للنفوس لا يمل من تكرارها ولا يسأم من تردادها، فلو قارنا بين أسلوبه وأسلوب ابن رجب لوجدنا بينهما توافقاً. كما كانت له معرفة بمواعظ السلف وأخبارهم، قال ابن قاضي شهبة: «وكان يحفظ كثيراً من كلام السلف»[١].

  

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة ورقة (١٤٠/أ).

المبحث الخامس
تلاميذه

ارتفعت منزلة الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في البلاد الشامية وأصبح من علمائها البارزين، ونال بذلك شهرة واسعة، وذاع صيته بين الأنام فصار محط أنظار طلبة العلم يرحلون إليه، ويأخذون منه، ويسمعون عليه، ويحضرون دروسه ومجالس وعظه.

وقد توافد عليه الطلبة من كل حدب وصوب، وقد استطعت بتوفيق من الله أن أتوصل إلى عدد من أسماء تلاميذه لم تذكر أكثرهم مصادر ترجمته ولا الدراسات السابقة لابن رجب، وقد رتبتهم على حروف المعجم وأشرت إلى المصادر التي ذكرت سماع هؤلاء الطلبة عليه أو تخرجهم به وهم:

١ ـ أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن علي الحموي الحلبي الحنبلي المعروف بابن الرسام، توفي سنة ٨٤٤هـ[١].

٢ ـ محب الدين أبو الفضل أحمد بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر البغدادي المعروف بابن نصر الله، توفي سنة ٨٤٤هـ[٢].

٣ ـ داود بن سليمان بن عبد الله الموصلي، ثم الدمشقي الحنبلي

---

(١) الضوء اللامع (١/ ٢٤٩) ومعجم الشيوخ لابن فهد (٥٤) وشذرات الذهب (٧/ ٢٥٢).
(٢) القلائد الجوهرية (٢/ ٥٠٥) والضوء اللامع (٢/ ٢٣٣) والمقصد الأرشد (١/ ٢٠٢).

المتوفى سنة ٨٤٤هـ[١].

٤ ـ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن محمد المقرئ الشهير بابن عياش، توفي سنة ٨٥٣هـ[٢].

٥ ـ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن سليمان بن أبي الكرم الصالحي الدمشقي الحنبلي المعروف بأبي شعر، توفي سنة ٨٤٤هـ[٣].

٦ ـ زين الدين أبو ذر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد المصري الحنبلي المعروف بالزركشي، توفي سنة ٨٤٦هـ[٤].

٧ ـ تاج الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن صديق الطرابلسي ثم القاهري الشهير بابن الطرابلسي، المتوفى سنة ٨٤١هـ[٥].

٨ ـ علاء الدين علي بن محمد بن عباس البعلي ثم الدمشقي الحنبلي المعروف بابن اللحام، توفي ٨٠٣هـ[٦].

٩ ـ علاء الدين علي بن محمد بن علي العلاء الطرسوسي المزي[٧].

---

(١) الضوء اللامع (٣/ ٢١٢) والجوهر المنضد (ص٣٩) ومعجم الشيوخ لابن فهد (٣٥٦).

(٢) الضوء اللامع (٤/ ٥٩) وشذرات الذهب (٧/ ٢٧) ومعجم الشيوخ لابن فهد (١٢٢).

(٣) الجوهر المنضد (ص٥٩) والضوء اللامع (٤/ ٨٢) وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢٦٦) والقلائد الجوهرية (٢/ ٤٣٣).

(٤) الضوء اللامع (٤/ ١٣٦) وشذرات الذهب (٧/ ٢٥٦).

(٥) معجم الشيوخ لابن فهد (١٣٨) والضوء اللامع (٤/ ١٨٣) وشذرات الذهب (٧/ ٢٤٠).

(٦) الجوهر المنضد (ص٨١) والضوء اللامع (٥/ ٣٢٠) وإنباء الغمر (٤/ ٣٠١) وشذرات الذهب (٧/ ٣١).

(٧) الضوء اللامع (٥/ ٣٢٨).

١٠ ـ القاضي علاء الدين أبو الحسن علي بن محمود بن أبي بكر الحنبلي المعروف بابن المغلي، توفي سنة ٨٢٨هـ[١].

١١ ـ سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري، المعروف بابن الملقن توفي سنة ٨٠٤هـ[٢].

١٢ ـ أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي بكر بن محمد السراج الشافعي الدمشقي المعروف بابن المزلق بضم الميم وفتح الزاي وكسر اللام المشددة، توفي سنة ٨٤١هـ[٣].

١٣ ـ سراج الدين عمر بن موسى بن الحسن بن عيسى بن محمد القرشي المخزومي الحمصي الشافعي، توفي سنة ٨٦١هـ[٤].

١٤ ـ فاطمة ابنة المحدث محمد بن علي بن محمد البكري، توفيت سنة ٨٥١هـ[٥].

١٥ ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن سعيد المقدسي الحنبلي المتوفى سنة ٨٥٥هـ[٦].

١٦ ـ شمس الدين أبو المعالي محمد بن أحمد بن معالي الحبتي الحنبلي المتوفى سنة ٨٢٥هـ[٧].

---

(١) إنباء الغمر (٨/ ٨٦) والضوء اللامع (٦/ ٣٤) وشذرات الذهب (٧/ ١٨٥).
(٢) إنباء الغمر (٥/ ٤١) والضوء اللامع (٦/ ١٠٠) وشذرات الذهب (٧/ ٤٤).
(٣) الضوء اللامع (٦/ ١٢٠) ومعجم الشيوخ لابن فهد (١٩١).
(٤) معجم الشيوخ لابن فهد (١٩٤) والضوء اللامع (٦/ ١٣٩).
(٥) الضوء اللامع (١٢/ ١٢٨).
(٦) الضوء اللامع (٦/ ٣٠٩) ومعجم الشيوخ لابن فهد (٢٠٤) وشذرات الذهب (٧/ ٢٨٦).
(٧) إنباء الغمر (٧/ ٤٨٠) والضوء اللامع (٧/ ١٠٧) وشذرات الذهب (٧/ ١٧١).

١٧ ـ عز الدين محمد بن بهاء الدين علي بن عز الدين عبد الرحمن بن محمد المقدسي الحنبلي المتوفى سنة ٨٢٠هـ[١].

١٨ ـ محمد بن خالد بن موسى الحمصي القاضي شمس الدين المعروف بابن زهرة توفي سنة ٨٣٠هـ[٢].

١٩ ـ محمد بن خليل بن محمد بن طوغان أبو عبد الله شمس الدين الدمشقي الحريري الحنبلي المعروف بابن المنصفي، توفي سنة ٨٠٣هـ[٣].

٢٠ ـ محمد بن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن سليمان المقدسي الصالحي الخطيب، توفي سنة ٨٢٠هـ[٤].

٢١ ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبادة السعدي الأنصاري الحنبلي، توفي سنة ٨٢٠هـ[٥].

٢٢ ـ أبو بكر بن علي بن عمر بن عبد الخالق التلعفري بفتح التاء وتشديد اللام وإسكان العين وفتح الفاء، الدمشقي[٦].

وبعد أن ذكرت أسماء من حصلت عليهم من تلاميذ ابن رجب أذكر هنا تراجم لثلاثة من المشاهير منهم وهم:

---

(١) إنباء الغمر (٧/ ٢٩٠) وشذرات الذهب (٧/ ١٤٧).
(٢) إنباء الغمر (٨/ ١٣٤) وشذرات الذهب (٧/ ١٩٥).
(٣) الجوهر المنضد (ص١٦٤) وإنباء الغمر (٤/ ٣٢٣) وشذرات الذهب (٧/ ٣٥).
(٤) الجوهر المنضد (ص١١٤) والضوء اللامع (٨/ ١٨٧).
(٥) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٤٩) والمقصد الأرشد (٢/ ٤٩١) وإنباء الغمر (٧/ ٢٩١) والضوء اللامع (٩/ ٨٨) وشذرات الذهب (٧/ ١٤٨).
(٦) معجم الشيوخ لابن فهد (٣٥٠) والضوء اللامع (١١/ ٥٦).

١ ـ ابن الرسام:

هو أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن علي الحموي الحنبلي أبو العباس المعروف بابن الرسام. ولد سنة ٧٧٣هـ[١].

ولد بحماه ونشأ بها وسمع على قاضيها أحمد بن عبد الرحمن المرداوي وغيره من الشيوخ، وقد ولي القضاء في حماه.

ورحل مراراً إلى كل من الشام والقاهرة.

وأجاز له ابن رجب وغيره ـ وله مصنفات كثيرة منها: عقد الدرر واللآلي في فضل الشهور والأيام والليالي على نمط كتاب شيخه ابن رجب المعروف بـ «لطائف المعارف» ومنها: كتاب في المتباينات.

توفي رحمه الله في شهر المحرم سنة ٨٤٢هـ[٢].

٢ ـ ابن اللحام:

علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس بن فتيان البعلي ثم الدمشقي الحنبلي المعروف بابن اللحام، وهي نسبة إلى حرفة أبيه. ولد بعد الخمسين وسبعمائة ببعلبك ونشأ بها في كفالة خاله لكون أبيه مات وهو صغير[٣].

حبب إليه طلب العلم فرحل إلى دمشق وتتلمذ على ابن رجب وغيره، ودرس وأفتى، ووعظ بالجامع الأموي في حلقة ابن رجب بعده.

ألف مصنفات مفيدة منها: القواعد الأصولية.

توفي رحمه الله في سنة ٨٠٣هـ بمصر، وقد جاوز الخمسين[٤].

---

(١) الضوء اللامع (١/ ٢٤٩) وشذرات الذهب (٧/ ٢٥٢).
(٢) المنهج الأحمد ورقة (٤٩١) والسحب الوابلة (٥٠، ٥١).
(٣) إنباء الغمر (٢/ ١٧٤) والرد الوافر (١٨٥) والضوء اللامع (٥/ ٣٢٠).
(٤) المنهج الأحمد ورقة (٤٧٧) والجوهر المنضد (٨١ ـ ٨٣) وشذرات الذهب (٧/ ٣١).

٣ ـ ابن سعيد الحنبلي:

شمس الدين محمد بن أحمد بن سعيد بن العز المقدسي الدمشقي الحنبلي، قاضي مكة. ولد سنة إحدى وسبعين وسبعمائة بكفر لبد من جبل نابلس، ونشأ بها وحفظ القرآن ثم انتقل إلى دمشق وقرأ فيها على ابن رجب وابن اللحام وغيرهم[١].

قال السخاوي رحمه الله: كان إماماً عالماً كثير الاستحضار لفروع مذهبه، مليح الخط، ديناً ساكناً منجمعاً عن الناس مديماً للمطالعة مع كبر سنه، متواضعاً حسن الخلق عفيفاً نزهاً محمود السيرة في قضائه، وله تصانيف منها: الشافي والكافي في مجلد، وكشف الغمة بتيسير الخلع لهذه الأمة في مجلد لطيف، والمسائل المهمة فيما يحتاج إليه العاقد في الخطوب المدلهمة، وسفينة الأبرار الجامعة للآثار والأخبار في المواعظ والآداب في ثلاث مجلدات[٢].

توفي رحمه الله بمكة ليلة الخميس رابع عشر صفر سنة ٨٥٥هـ[٣].

  

(١) الضوء اللامع (٦/ ٣٠٩) والجوهر المنضد (١٤٥) والمنهج الأحمد ورقة (٤٩٤).
(٢) الضوء اللامع (٦/ ٣٠٩).
(٣) شذرات الذهب (٧/ ٣٨٦) والسحب الوابلة (٣٤٥).

المبحث السادس
ثقافته ومؤلفاته

تنوعت مؤلفات الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى وآثاره العلمية فهو إضافة إلى ما ذكرنا من الأفذاذ الذين درسوا عليه وأسهم في بناء علومهم وثقافتهم، قد خلف العديد من المؤلفات التي شملت كثيراً من العلوم الإسلامية في التفسير والفقه والحديث والتاريخ والعقيدة والوعظ وغيرها، وهي تشير إلى علو همته وترفع من مكانته.

وقد أجمع المترجمون له على أنها مؤلفات نفيسة ومفيدة.

قال ابن فهد رحمه الله: له المؤلفات السديدة والمصنفات المفيدة[(١)].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: صنف شرح الترمذي فأجاد فيه في نحو عشرة أسفار، وشرح قطعة كبيرة من البخاري... واللطائف في وظائف الأيام بطريق الوعظ وفيه فوائد، والقواعد الفقهية أجاد فيها وقرأ القرآن بالروايات...[(٢)].

وقال النعيمي رحمه الله تعالى: له تصانيف شتى مفيدة[(٣)].

(١) لحظ الألحاظ لابن فهد (ص١٨١).
(٢) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٩) وإنباء الغمر (٣/ ١٧٦).
(٣) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٧٧).

وقال ابن العماد الحنبلي: له مصنفات مفيدة ومؤلفات عديدة[١].

وقد كان لابن رجب رحمه الله تعالى أسلوب متميز في كتاباته فهو يجمع بين وضوح العبارة وسهولة الأسلوب.

يقول الدكتور محمد بن حمود الوائلي في وصف أسلوب ابن رجب في كتبه ورسائله: «تميزت كتابات ابن رجب بوضوح الأسلوب وطلاوة العبارة وحسن استقامة اللفظ كل ذلك مع عمق التفكير والغوص في المعاني، وابن رجب متأثر بثقافة عصره لذا رأيناه يذهب إلى السجع حيناً ويدعه حيناً متمسكاً بعبارات الفقهاء والمحدثين، يستوي في ذلك كتبه الكبيرة وكتبه الصغيرة»[٢].

ويقول الأستاذ بشير عيون في وصف أسلوب ابن رجب أيضاً: «ولابن رجب أسلوب سهل طيع سلس، تراه يتناول موضوعه عادة بالتحليل والتقصي والإسهاب، وقد يستطرد أحياناً ولكن استطراده ممتع لا يمل منه، وتراه أحياناً يعمد إلى السجع وبعض المحسنات اللفظية، ويظهر أن ذلك كان شائعاً في عصره، ولكنه لا يلتزم ذلك، بل نراه أحياناً أخرى يتحلل من قيود السجع لينطلق متحدثاً بأسلوب الفقهاء أو المحدثين أو الباحثين وهو كثير الاستشهاد بالآيات والأحاديث والحكم والأبيات الشعرية في كتاباته»[٣].

وقد قمت بتتبع وحصر لمصنفاته فبلغت (٦٧) مصنفاً بين كتاب كبير ورسالة صغيرة فألفيتها ذات قيمة كبيرة، ولم تقتصر على ميدان

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

(٢) ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه رسالة دكتوراه مكتوبة على الآلة الكاتبة (ص١٣٣).

(٣) انظر: مقدمة كتاب اختيار الأولى لابن رجب تحقيق بشير محمد عيون.

واحد، بل وجدتها تنتظم مساحة واسعة من العلوم المختلفة.

وقد قسمت الكلام على مؤلفات ابن رجب وآثاره العلمية إلى قسمين:

القسم الأول: فيه بيان أسماء مؤلفات ابن رجب رحمه الله تعالى التي ذكرها هو في كتبه أو نسبها إليه المترجمون له.

القسم الثاني: فيه بيان بأسماء مؤلفات نسبت إلى ابن رجب وهي إما ليست له أو أنها أفردت من بعض كتبه ونسبت إليه ولم يؤلفها هو استقلالاً.

القسم الأول: مؤلفات ابن رجب التي ذكرها في كتبه أو نسبها إليه المترجمون له، وقد رتبتها على حروف المعجم مع بيان المطبوع منها والمخطوط[١] والإشارة إلى مكان النسخة الخطية حسب الإمكان لما لم يطبع منها وهي كالتالي:

١ ـ الأحاديث والآثار المتزائدة في أن طلاق الثلاث واحدة ذكرها ابن عبد الهادي[٢].

وقد استفاد من هذا الكتاب ابن عبد الهادي في كتابه: سير الحارث في الطلاق الثلاث، وهو كتاب مطبوع بمطبعة السنة المحمدية بمصر سنة ١٩٥٣ م.

٢ ـ أحكام الخواتيم وما يتعلق بها.

طبع مرتين آخرها طبعة مطابع الرحاب بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٧هـ بتحقيق الدكتور محمد بن حمود الوائلي.

---

(١) يلاحظ أن بعض هذه المخطوطات قد حققت أثناء طبع الرسالة. والله الموفق.
(٢) الجوهر المنضد (ص٥٠).

٣ ـ اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى: طبع مراراً وآخرها طبعة مكتبة دار الأقصى بالكويت سنة ١٤٠٦هـ بتحقيق جاسم فهيد الدوسري.

٤ ـ اختيار الأبرر سيرة أبي بكر وعمر: ويوجد مختصر له مخطوط في برلين برقم ٩٦٩٠.

٥ ـ إزالة الشنعة عن الصلاة بعد النداء يوم الجمعة: ذكره ابن عبد الهادي[١].

٦ ـ الاستخراج لأحكام الخراج: طبع عدة طبعات آخرها طبعة مكتبة الرشد بالرياض سنة ١٤٠٩هـ بتحقيق جندي محمود شلاش الهيتي.

٧ ـ الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان: ذكره ابن رجب رحمه الله تعالى في نزهة الأسماع في السماع[٢] وفي الخشوع في الصلاة[٣]. وذكره ابن عبد الهادي[٤] وحاجي خليفة[٥] وصاحب كتاب هدية العارفين[٦] وهو أصل كتاب ابن عبد الهادي «هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن» وهو مخطوط، وتوجد له صورة بمكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية برقم ٢٢٠٦.

٨ ـ استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس: وهو مطبوع بمطبعة الإمام بمصر سنة ١٣٦٣هـ.

---

(١) الجوهر المنضد (٥٠).
(٢) نزهة الأسماع في السماع (ص٨٤).
(٣) الخشوع في الصلاة (ص٢٩).
(٤) الجوهر المنضد (ص٥١).
(٥) كشف الظنون (١/ ٧٩).
(٦) هدية العارفين (٥/ ٥٢٧).

٩ ـ الاستيطان فيما يعتصم به العبد من الشيطان ذكره ابن حميد[(١)].

١٠ ـ إعراب أم الكتاب: ذكره ابن عبد الهادي[(٢)].

١١ ـ إعراب البسملة: ذكره ابن عبد الهادي[(٣)].

١٢ ـ الإلمام في فضائل بيت الله الحرام: ذكره إسماعيل باشا في إيضاح المكنون[(٤)].

١٣ ـ أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور: طبع مرتين آخرها بتحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ.

١٤ ـ أهوال القيامة: ذكره ابن العماد[(٥)] وابن عبد الهادي[(٦)].

١٥ ـ الإيضاح والبيان في طلاق الغضبان: ذكره ابن عبد الهادي[(٧)].

١٦ ـ البشارة العظمى في أن حظ المؤمن من النار الحمى: مخطوط ويوجد له نسخة في مكتبة جامعة الملك سعود المركزية تحت رقم ١٨١٧/٩.

١٧ ـ التخويف من النار والتعريف بحال أهل البوار: وقد طبع عدة مرات منها طبعة بتحقيق محمد حسن الحمصي ـ دار الرشيد ـ دمشق سنة ١٤٠٣هـ.

---

(١) السحب الوابلة (١٩٨).
(٢) الجوهر المنضد (ص٥٠).
(٣) المصدر السابق (ص٥٠).
(٤) إيضاح المكنون (١/ ١٢٢).
(٥) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).
(٦) الجوهر المنضد (ص٥٠).
(٧) المصدر السابق (ص٥٠).

١٨ ـ تسلية نفوس النساء والرجال عند فقد الأطفال: طبع بتحقيق وليد الفريان في مجلة الإفتاء عدد ٢٣ بتاريخ ١٤٠٩هـ.

١٩ ـ تعليق الطلاق بالولادة: مخطوط باستانبول برقم ٥٣١٨.

٢٠ ـ تفسير سورة الإخلاص: طبع مرتين منها طبعة بتحقيق محمد بن ناصر العجمي ـ الدار السلفية ـ الكويت سنة ١٤٠٧هـ.

٢١ ـ تفسير سورة الفاتحة: ذكره ابن عبد الهادي[١].

٢٢ ـ تفسير سورة النصر: طبع مرتين آخرها بتحقيق: محمد بن ناصر العجمي ـ الدار السلفية ـ الكويت سنة ١٤٠٧هـ.

٢٣ ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: وقد طبع مراراً، وقد قام الدكتور محمد الأحمدي أبو النور بتحقيقه ولكنه لم يتمه وهو كتاب عظيم النفع جدير بالعناية والاهتمام من قبل الباحثين وطلاب العلم.

٢٤ ـ الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة»، طبع سنة ١٣٤٩هـ بمطبعة المنار.

٢٥ ـ حماية الشام بمن فيها من الأعلام: ذكره ابن حميد[٢].

٢٦ ـ الخشوع في الصلاة: وهو كتاب الذل والإنكسار للعزيز الجبار وقد طبع مراراً آخرها بتحقيق علي حسن علي عبد الحميد ـ دار عمّار ـ وقد وهم بعض من ترجموا لابن رجب حيث جعلوا هذا الكتاب كتابين لاختلاف العنوان وعند التحقيق تبين أنهما كتاب واحد.

٢٧ ـ ذم الخمر وشاربها: طبع بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض سنة ١٤٠٨هـ بتحقيق الوليد بن عبد الرحمن الفريان.

---

(١) الجوهر المنضد (ص٥٠).

(٢) السحب الوابلة (١٩٨).

٢٨ ـ ذم قسوة القلب: مخطوط، وتوجد نسخة له في مكتبة جامعة الملك سعود المركزية برقم (٨/١٨١٧).

٢٩ ـ الذيل على طبقات الحنابلة: طبع مراراً منها طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

٣٠ ـ الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة: ذكره ابن عبد الهادي(١).

٣١ ـ كتاب السليب: ذكره ابن عبد الهادي(٢).

٣٢ ـ سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز: طبع بالرياض سنة ١٣٧٨هـ.

٣٣ ـ شرح حديث «إن أغبط أوليائي عندي»: مخطوط، وتوجد نسخة منه بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٥٣١٨.

٣٤ ـ شرح حديث أبي الدرداء «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً»: طبع مراراً، منها طبعة مكتبة الخافقين ـ دمشق سنة ١٤٠٢هـ، تحقيق محمد الخيمي.

٣٥ ـ شرح حديث شداد بن أوس «إذا كنز الناس الذهب والفضة» يوجد له نسخة خطية بمكتبة جامعة الملك سعود المركزية بالرياض تحت رقم (٨/١٨١٧).

٣٦ ـ شرح حديث عمّار بن ياسر «اللهم بعلمك الغيب»: طبع بتحقيق إبراهيم بن محمد العرف ـ مكتبة السوادي ـ جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ.

---

(١) الجوهر المنضد (ص٥٠).

(٢) المصدر السابق (ص٥٠).

٣٧ ـ شرح حديث «لبيك اللهم لبيك»: طبع بتحقيق الوليد آل فريان مكة المكرمة ـ دار عالم الفوائد ـ ١٤١٧هـ.

٣٨ ـ شرح حديث «ما ذئبان جائعان» ويسمى أيضاً «ذم الجاه والمال» طبع مراراً آخرها بالكويت ـ الدار السلفية ـ سنة ١٤٠١هـ، بتحقيق بدر البدر.

٣٩ ـ شرح حديث «مثل الإسلام»: مخطوط، وتوجد نسخة له في المكتبة السليمانية بتركيا برقم ٥٣١٨.

٤٠ ـ شرح حديث «يتبع الميت ثلاث» طبع بدار طيبة بالرياض سنة ١٤٠٨هـ بتحقيق سعد بن عبد الرحمن الحمدان.

٤١ ـ شرح جامع الترمذي: وهو يقع في نحو عشرين مجلداً كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر[١] وهو من الكتب المهمة ولعله احترق في الفتنة التي وقعت في الشام عندما دخل التتار دمشق سنة (٨٠٣هـ) وما وقع فيها من الفساد على يد تيمورلنك كما ذكر ذلك ابن قاضي شهبة[٢].

ولم يوجد من هذا الكتاب إلا شرح علل الترمذي وقد طبع عدة مرات أحدها بتحقيق نور الدين عتر سنة ١٣٩٨هـ ـ دار الملاح دمشق، ويوجد أيضاً عشر ورقات مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق وهي من كتاب اللباس.

٤٢ ـ شرح المحرر: ذكره ابن عبد الهادي[٣].

٤٣ ـ شرح مولدات ابن الحداد: ذكره حاجي خليفة[٤].

---

(١) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٩) وإنباء الغمر (٣/ ١٧٦).
(٢) تاريخ ابن قاضي شهبة (٣/ ٤٨٨/أ).
(٣) الجوهر المنضد (ص٥١).
(٤) كشف الظنون (٢/ ١٩١١).

٤٤ ـ صدقة السر وبيان فضلها: طبع بتحقيق الوليد بن محمد الفريان بمجلة عالم الكتب، المجلد السابع، العدد الأول.

٤٥ ـ صفة النار وصفة الجنة: ذكره ابن عبد الهادي[١].

٤٦ ـ غاية النفع في شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع: طبع مراراً آخرها طبعة مكتبة السوادي ـ جدة سنة ١٤٠٨هـ، بتحقيق: إبراهيم بن محمد العرف.

٤٧ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: قال عنه ابن ناصر الدين الدمشقي: «وشرح من أول صحيح البخاري إلى الجنائز شرحاً نفيساً»[٢]. طبع بتحقيق مجموعة من المحققين مكتبة الغرباء المدينة المنورة ١٤١٦هـ، وطبع عام ١٤١٧هـ بتحقيق طارق بن عوض الله محمد، دار ابن الجوزي الطبعة الأولى.

٤٨ ـ الفرق بين النصيحة والتعبير: طبع بتحقيق نجم عبد الرحمن خلف ـ دار ابن القيم ـ الدمام.

٤٩ ـ فضائل الشام: مخطوط، وتوجد نسخة منه في المكتبة البلدية بالإسكندرية برقم ١٠٨ تاريخ، ويقوم الآن بتحقيقه الأخ محمد بن ناصر العجمي كما أفادني بذلك شخصياً.

٥٠ ـ فضل علم السلف على علم الخلف: طبع مراراً منها طبعة الدار السلفية بالكويت سنة ١٤٠٧هـ بتحقيق محمد بن ناصر العجمي. ويذكره بعض من ترجموا لابن رجب بعنوان «العلم النافع وفضله» ويجعلون هذا كتاب وهذا كتاب وهذا وهم لأنهما في الحقيقة كتاب واحد والاختلاف في العنوان فقط.

---

(١) الجوهر المنضد (ص٤٩).
(٢) الرد الوافر (ص١٠٦).

٥١ ـ قاعدة غم هلال ذي الحجة: وقد طبعت هذه الرسالة في سنة ١٣٧٥هـ بتصحيح الشيخ سليمان الصنيع رحمه الله تعالى.

٥٢ ـ القواعد الكبرى في الفروع: وهو ما يسمى بالقواعد الفقهية، وهو كتاب عظيم، وقد استكثره عليه من لا يعرف قدره قال ابن عبد الهادي: «وكتاب القواعد الفقهية مجلد كبير، وهو كتاب نافع من عجائب الدهر حتى أنه استكثر عليه، حتى زعم بعضهم أنه وجد قواعد مبددة لشيخ الإسلام ابن تيمية فجمعها، وليس الأمر كذلك، بل كان رحمه الله تعالى فوق ذلك»[1].

وقد طبع عدة مرات منها طبعة بالقاهرة سنة ١٣٥٢هـ ـ المطبعة الخيرية ـ ولكن جميع الطبعات لا تخلو من السقط والتحريف والتصحيف، وهو جدير بأن يعنى به ويطبع طبعة علمية محررة ومحققة.

٥٣ ـ القول الصواب في تزويج أمهات أولاد الغياب: وقد طبع بتحقيق د. عبد الله الطريقي في سنة ١٤١٠هـ ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة المعارف بالرياض.

٥٤ ـ كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة: وهو شرح حديث «بدأ الإسلام غريباً...» طبع مراراً منها طبعة بتحقيق بدر البدر ـ دار الأرقم ـ الكويت سنة ١٤٠٤هـ.

٥٥ ـ الكشف والبيان عن حقيقة النذور والأيمان: ذكره ابن رجب[2] وابن حميد[3].

٥٦ ـ كلمة الإخلاص وتحقيق معناها: طبع مراراً، آخرها في دمشق

(١) الجوهر المنضد (ص٤٩).
(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٧١).
(٣) السحب الوابلة (١٩٧).

سنة ١٣٩٧هـ بتحقيق زهير الشاويش. ويعرف هذا الكتاب في بعض المكتبات بعنوان «التوحيد» ولذلك غلط بعض من ترجم لابن رجب رحمه الله تعالى في ذلك وجعلوهما كتابين وهما في الحقيقة كتاب واحد والاختلاف في العنوان فقط.

٥٧ ـ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: طبع مراراً منها طبعة دار الجيل ـ بيروت.

٥٨ ـ المحجة في سير الدلجة: طبع بتحقيق يحيى مختار غزاوي دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.

٥٩ ـ مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز: طبع بالرياض سنة ١٣٧٨هـ.

٦٠ ـ مختصر فيما روي عن أهل المعرفة والحقائق في معالم الظالم السارق حققه الوليد بن عبد الرحمن الفريان ونشره في مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس عشر.

٦١ ـ مسألة الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال وقبل الصلاة: ذكره ابن حميد[١].

٦٢ ـ مشيخة ابن رجب: قال ابن حجر: وخرج لنفسه مشيخة مفيدة[٢].

٦٣ ـ منافع[٣] الإمام أحمد: ذكره ابن عبد الهادي[٤].

---

(١) السحب الوابلة (ص١٩٨).
(٢) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٩).
(٣) لعله مناقب الإمام أحمد.
(٤) الجوهر المنضد (ص٥١).

٦٤ ـ نزهة الأسماع في مسألة السماع: طبع مرتين منها طبعة بتحقيق الوليد بن عبد الرحمن الفريان سنة ١٤٧٠هـ ـ الناشر: دار طيبة بالرياض.

٦٥ ـ نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس وهو شرح حديث «احفظ الله يحفظك»: طبع مراراً ولكن أحسن الطبعات وأكملها، طبعة مكتبة دار الأقصى بالكويت سنة ١٤٠٦هـ بتحقيق محمد بن ناصر العجمي.

٦٦ ـ وجوب إخراج الزكاة على الفور: وقد حققه الأخ عادل الجهني وقدمه موضوعاً لمادة البحث في السنة الرابعة من كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سنة ١٤٠٩هـ.

٦٧ ـ وقعة بدر: ذكره ابن حميد[١].

القسم الثاني: ويشتمل على الكتب التي تنسب لابن رجب وهي إما ليست له أو هي مأخوذة من بعض كتبه ولم يؤلفها هو استقلالاً.

١ ـ كتاب مختصر شعب الإيمان: ينسب لابن رجب وممن نسبه لابن رجب، جندي محمود شلاش الهيتي في مقدمة كتاب الاستخراج لابن رجب حينما قام بتحقيقه، والحقيقة أن هذا وهم لأن الكتاب هو مختصر شعب الإيمان للقزويني وقد قارنت بينهما فوجدت أنهما شيء واحد، إضافة إلى أنني لم أجد أحداً ممن ترجم لابن رجب نسب هذا الكتاب إليه، وهذا الكتاب المنسوب لابن رجب توجد صورة له في مكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية برقم ٦٦٦.

---

(١) السحب الوابلة (١٩٨).

٢ ـ أسباب المغفرة: وهو مطبوع بتحقيق أشرف بن عبد المقصود وهو مأخوذ من كتاب جامع العلوم والحكم.

٣ ـ بغية الإنسان في وظائف رمضان: المكتب الإسلامي سنة ١٤٠٥هـ وهو مأخوذ من كتاب لطائف المعارف.

٤ ـ مجالس في سيرة النبي ﷺ: دار ابن كثير ـ دمشق الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ تحقيق ياسين السواس ومحمود الأرناؤوط وهو مأخوذ من كتاب لطائف المعارف.

  

المبحث السابع
عقيدته ومذهبه

١ ـ عقيدته:

تتضح عقيدة ابن رجب رحمه الله تعالى من خلال هذا الموضوع بشكل عام إلا أنني رأيت أن أعطي صورة إجمالية عن عقيدته فهو رحمه الله سلفي العقيدة على طريقة أهل الحديث يقول بما قال به الصحابة رضي الله عنهم والتابعون والأئمة المشهورون من أئمة السلف الصالح رحمهم الله تعالى الذين كانوا لا يألون جهداً في نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، والذين يؤمنون بأسماء الله وصفاته التي ثبتت بكتاب الله سبحانه وتعالى، وشهد بها له رسوله عليه الصلاة والسلام كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل ولا تمثيل.

والحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى كباقي أئمة السلف رحمهم الله تعالى لم يشغل نفسه بحشو المتفلسفة والمتكلمين من أمثال الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ومن ماثلهم وسار على نهجهم، وإنما كان رحمه الله تعالى حريصاً كل الحرص على اعتماد منهج السلف الصالح في جميع أبواب العقيدة، وكلامه في ثنايا مؤلفاته أكبر شاهد على هذا.

ولم يكن ابن رجب رحمه الله تعالى على معتقد السلف فحسب بل كان من الدعاة إليه.

وسوف أشير إلى نبذة من أقواله التي تدل على معتقده.

١ ـ يقول رحمه الله تعالى: . . . والصواب ما عليه السلف الصالح من إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل، ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك البتة[(١)].

٢ ـ ويقول رحمه الله تعالى أيضاً في شرحه لحديث اختصام الملأ الأعلى «. . . وأما وصف النبي ﷺ لربه عز وجل بما وصفه به فكل ما وصف النبي ﷺ به ربه عز وجل فهو حق وصدق يجب الإيمان والتصديق به كما وصف الله عز وجل به نفسه مع نفي التمثيل عنه. . .»[(٢)].

ومما يدل على عقيدته السلفية أيضاً نقده لبعض علماء الحنابلة الذين كان لهم شهرة كبيرة ومع ذلك كان عندهم ميل إلى التأويل في بعض كلامهم كابن الجوزي، يقول ابن رجب رحمه الله تعالى وهو يذكر الوجوه التي تؤخذ على ابن الجوزي ومنها ـ أي من الوجوه التي تؤخذ عليه ـ: «وهو الذي من أجله نقم جماعة من مشايخ أصحابنا وأئمتهم من ميله إلى التأويل في بعض كلامه، واشتد نكرهم عليه في ذلك.

ولا ريب أن كلامه في ذلك مضطرب مختلف، وهو وإن كان متطلعاً على الأحاديث والآثار في هذا الباب، فلم يكن خبيراً بحل شبهة المتكلمين وبيان فسادها.

وكان معظماً لأبي الوفاء بن عقيل[(٣)] يتابعه في أكثر ما يجد في

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص٣٣).
(٢) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص٤٠، ٤١).
(٣) أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي الحنبلي، من أئمة الحنابلة، له مؤلفات عديدة منها: الفنون في شتى العلوم في أربعمائة جزء، اتهم ببعض آراء المبتدعة، ويقال: إنه رجع وتاب، توفي سنة ٥١٣هـ.
سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٣) والذيل على طبقات الحنابلة (١/ ١٤٢).

كلامه وإن كان قد رد عليه في بعض المسائل، وكان ابن عقيل بارعاً في الكلام، ولم يكن تام الخبرة بالحديث والآثار، فلهذا يضطرب في هذا الباب وتتلون فيه آراؤه، وأبو الفرج تابع له في هذا التلون»[(١)].

ومراد ابن رجب أن ابن الجوزي يتبع ابن عقيل في آرائه، لأن ابن عقيل ليس هو شيخه المباشر، فابن الجوزي ولد قبل وفاة ابن عقيل بسنة.

٢ ـ مذهبه:

وأما مذهبه فهو على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى لأن البيئة التي عاش فيها والعلماء الذين تلقى العلم عنهم من علماء الحنابلة.

وقد كانت له يد مشكورة في المذهب الحنبلي حيث ألف فيه كتابه «القواعد الفقهية» سلك فيه مسلك أهل الترجيح والاختيار في المذهب وقد كان هذا الكتاب مرجعاً لمن جاء بعده من العلماء، إضافة إلى أنه ألف كتاباً ترجم فيه لعلماء الحنابلة وهو ذيل على طبقات الحنابلة الذي ألفه العلامة ابن أبي يعلى[(٢)] رحمه الله تعالى، ومع ذلك فكون ابن رجب رحمه الله تعالى درس المذهب الحنبلي وتعلم المسائل منه إلا أن ذلك لم يحمله على التعصب المذموم الذي حدا ببعض من ينتسب إلى العلم إلى تقديم المذهب على سنة الرسول ﷺ، ولم يكن رحمه الله تعالى يندد بغيره على حين أنه حين استوت له المعرفة، وبلغ مرحلة النضج كان

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٤١٤).

(٢) الإمام العلامة أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين الفراء القاضي أبو يعلى البغدادي الحنبلي له ردود على الأشعرية والكرامية وغيرهم، ومن مؤلفاته: «طبقات الحنابلة» توفي سنة ٥٢٦هـ.

ذيل طبقات الحنابلة (١/ ١٧٦) والمنهج الأحمد (٢/ ٢٧٥)، وشذرات الذهب (٤/ ٧٩).

يدعو إلى الاعتصام بالكتاب والسنة اللذين هما أصل الدين وملاكه، وإليهما المرجع في المسائل الشرعية.

بل إنه رحمه الله تعالى ذكر في بعض مؤلفاته أن الأصل الجامع والمرجع والحكم هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهما مقدمان على قول كل أحد كائن من كان إذا تبين مخالفة القول لهما، وأقواله الدالة على هذه المعاني كلها كثيرة منها قوله رحمه الله تعالى عند قوله ﷺ: «... وإن أفتاك المفتون...»[1] يعني أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم، وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم فهذه مرتبة ثانية وهو أن يكون الشيء مستنكراً عند فاعله دون غيره، وقد جعله أيضاً إثماً وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح صدره للإيمان، وكان المفتي يفتي له بمجرد الظن أو ميل إلى هوى من غير دليل شرعي، فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي، فالواجب على المستفتي الرجوع إليه وإن لم ينشرح له صدره وهذا كالرخصة الشرعية مثل الفطر في السفر والمرض وقصر الصلاة في السفر ونحو ذلك مما لا ينشرح به صدور كثير من الجهال، فهذا لا عبرة به.

وقد كان النبي ﷺ أحياناً يأمر أصحابه بما لا تنشرح به صدور بعضهم فيمتنعون من قبوله، فيغضب من ذلك كما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة، فكرهه من كرهه منهم، وكما أمرهم بنحر هديهم والتحلل من عمرة الحديبية فكرهوه، وكرهوا مفاوضته قريشاً على أن يرجع من عامه، وعلى أن من أتاه منهم يرده إليهم.

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٩٤) عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، وقال ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذا الحديث: وهذا إسناد جيد.

جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٥٠) وقد تكلم رحمه الله عن روايات وطرق هذا الحديث في الموضع المذكور.

وفي الجملة فما ورد النص به فليس للمؤمن إلا طاعة الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1].

وينبغي أن يتلقى ذلك بانشراح الصدر والرضا، فإن ما شرعه الله ورسوله يجب الإيمان والرضا به والتسليم له كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[2].

وأما ما ليس فيه نص من الله ورسوله، ولا عمن يقتدى بقوله من الصحابة وسلف الأمة، فإذا وقع في نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان المنشرح صدره بنور المعرفة واليقين منه شيء، وحاك في صدره بشبهة موجودة ولم يجد من يفتي فيه بالرخصة إلا من يخبر عن رأيه، وهو ممن لا يوثق بعلمه وبدينه بل هو معروف باتباع الهوى، فهنا يرجع المؤمن إلى ما حاك في صدره وإن أفتاه هؤلاء المفتون[3].

ويقول رحمه الله تعالى أيضاً مبيناً أن المقصود هو إظهار الحق مهما خالف أقوال الرجال، وهذا من النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، يقول: فرد المقالات الضعيفة، وتبيين الحق في خلافها بالأدلة الشرعية، ليس هو مما يكرهه العلماء، بل مما يحبونه ويمدحون فاعله، ويثنون عليه فلا يكون داخلاً في باب الغيبة بالكلية، فلو فرض أن أحداً يكره إظهار خطئه المخالف للحق، فلا عبرة بكراهته لذلك، فإن كراهة إظهار الحق إذا كان مخالفاً لقول الرجل ليس من الخصال المحمودة، بل الواجب على المسلم أن يحب ظهور الحق

(١) سورة الأحزاب آية (٣٦).
(٢) سورة النساء آية (٦٥).
(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٥٩).

ومعرفة المسلمين له سواء كان ذلك في موافقته أو مخالفته، وهذا من النصيحة لله ولكتابه ورسوله ودينه وأئمة المسلمين وعامتهم، وذلك هو الدين كما أخبر به النبي ﷺ، وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله إذا تأدب في الخطاب وأحسن الرد والجواب فلا حرج عليه ولا لوم يتوجه إليه... وقد بالغ الأئمة الورعون في إنكار مقالات ضعيفة لبعض العلماء وردها أبلغ الرد كما كان الإمام أحمد ينكر على أبي ثور(١) وغيره مقالات ضعيفة تفردوا بها، ويبالغ في ردها عليهم، هذا كله حكم الظاهر، وأما في باطن الأمر، فإن كان مقصوده في ذلك مجرد تبيين الحق، ولئلا يغتر الناس بمقالات من أخطأ في مقالاته، فلا ريب أنه مثاب على قصده، ودخل بفعله هذا بهذه النية في النصح لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم... وأما مراد الراد بذلك إظهار عيب من رد عليه وتنقصه وتبيين جهله وقصوره في العلم ونحو ذلك كان محرماً سواء كان رده لذلك في وجه من رد عليه أو في غيبته، وسواء كان في حياته أو بعد موته، وهذا داخل فيما ذمه الله تعالى في كتابه وتوعد عليه في الهمز واللمز ودخل أيضاً في قول النبي ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»(٢).

---

(١) أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي الإمام الحافظ، قال الخطيب: كان أبو ثور يتفقه أولاً بالرأي ويذهب إلى قول العراقيين، حتى قدم الشافعي فاختلف إليه ورجع عن الرأي إلى الحديث، توفي سنة ٢٤٠هـ.
الجرح والتعديل (٢/ ٩٧) وتاريخ بغداد (٦/ ٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٤) وأبو داود: كتاب الأدب ـ باب في الغيبة (٥/ ١٩٤) والترمذي: كتاب الأدب ـ باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٤/ ٣٧٨).
وقال: هذا حديث حسن غريب، والطبراني في الكبير (١١/ ١٨٦) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٩٤) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

وهذا كله في حق العلماء المقتدى بهم في الدين، فأما أهل البدع والضلالة ومن تشبه بالعلماء، وليس منهم، فيجوز بيان جهلهم وإظهار عيوبهم تحذيراً من الاقتداء بهم، ومن عرف منه أنه أراد برده على العلماء النصيحة لله ورسوله فإنه يجب أن يعامل بالإكرام والاحترام والتعظيم كسائر أئمة المسلمين... ومن تبعهم بإحسان، ومن عرف أنه أراد برده عليهم التنقيص والذم، وإظهار العيب، فإنه يستحق أن يقابل بالعقوبة ليرتدع هو ونظراؤه عن هذه الرذائل المحرمة[١].

وهذا كله يدل على حرصه رحمه الله تعالى على التمسك بالكتاب والسنة والاعتصام بهما.



(١) الفرق بين النصيحة والتعيير (ص٣٢ ـ ٣٦).

المبحث الثامن
مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

لقد أثنى على ابن رجب رحمه الله تعالى كثير من العلماء وأشادوا بفضله ومكانته العلمية، وشهدوا له بالحفظ وسعة العلم والمعرفة والانصراف عن الدنيا والإقبال على العلم وذلك لتمكنه في علوم كثيرة، فاستحق بذلك ثناء العلماء عليه، وتقديرهم له، وأقوال العلماء التي سأذكر تبين مكانته العلمية بين علماء عصره:

وصفه تلميذه علاء الدين ابن اللحام فقال: شيخنا الإمام العلامة الأوحد الحافظ شيخ الإسلام، مجلي المشكلات، وموضح المبهمات...(١).

وقال أيضا: شيخنا الإمام العالم الحافظ بقية السلف الكرام، وحيد عصره، وفريد دهره شيخ الإسلام زين الدين...(٢).

وقال ابن حجي: أتقن الفن، وصار أعرف أهل عصره بالعلل، وتتبع الطرق، وكان لا يخالط أحداً ولا يتردد إلى أحد... تخرج به غالب أصحابنا الحنابلة بدمشق(٣).

وقال ابن فهد المكي: الإمام الحافظ الحجة، والفقيه العمدة، أحد العلماء الزهاد، والأئمة العباد، مفيد المحدثين، واعظ المسلمين... وكان رحمه الله تعالى إماماً ورعاً زاهداً مالت القلوب بالمحبة إليه،

---

(١)(٢) الجوهر المنضد (ص٤٩).

(٣) إنباء الغمر (٣/١٧٦).

وأجمعت الفرق عليه، كانت مجالس تذكيره الناس عامة نافعة وللقلوب صادعة[١].

وقال ابن ناصر الدين: كان أحد الأئمة الحفاظ الكبار والعلماء الزهاد الأخيار[٢].

وقال أيضاً: الشيخ الإمام العلامة الزاهد القدوة البركة الحافظ العمدة الثقة، واعظ المسلمين ومفيد المحدثين...[٣].

وقال الحافظ ابن حجر: مهر في فنون الحديث أسماءً ورجالاً وعللاً وطرقاً واطلاعاً على معانيه...[٤].

وقال أيضاً: الشيخ المحدث الحافظ... أكثر من المسموع وأكثر من الاشتغال حتى مهر...[٥].

وقال ابن عبد الهادي: الشيخ الإمام، أوحد الأنام، قدوة الحفاظ جامع الشتات والفضائل... الفقيه الزاهد البارع الأصولي المفيد المحدث[٦].

وقال برهان الدين بن مفلح: الشيخ العلامة الحافظ الزاهد شيخ الحنابلة[٧].

وقال ابن قاضي شهبة: الشيخ الإمام العلامة الحافظ شيخ الحنابلة

---

(١) لحظ الألحاظ (ص١٨٠، ١٨١).
(٢) التبيان لبديعة البيان ورقة (١٥٩).
(٣) الرد الوافر (ص١٠٦).
(٤) إنباء الغمر (٣/ ١٧٦).
(٥) الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩).
(٦) الجوهر المنضد (ص٤٦، ٤٧).
(٧) المقصد الأرشد (٢/ ٨١).

وفاضلهم، أوحد المحدثين...[١].

وقال العليمي: الشيخ الإمام العالم العامل العلامة الزاهد القدوة البركة الحافظ العمدة الثقة الحجة زين الملة والشريعة والدنيا والدين شيخ الإسلام وأحد الأعلام واعظ المسلمين مفيد المحدثين جمال المصنفين كان أحد الأئمة الحفاظ الكبار والعلماء الزهاد الأخيار[٢].

وقال السيوطي: الإمام الحافظ المحدث الفقيه الواعظ[٣].

وقال النعيمي: الشيخ العلامة الحافظ الزاهد شيخ الحنابلة[٤].

وقال ابن العماد الحنبلي: الشيخ الإمام العالم العلامة الزاهد القدوة البركة الحافظ العمدة الثقة الحجة الحنبلي المذهب[٥].

وقال مرعي بن يوسف الكرمي: الشيخ الإمام العلامة الزاهد القدوة الحافظ العمدة الثقة الحجة واعظ المسلمين، مفيد المحدثين... أحد الأئمة الزهاد والعلماء العباد...[٦].

ونختم ذلك بقول صاحب الروضة الغناء في تاريخ دمشق الفيحاء: هو الإمام الأصولي المحدث الفقيه الواعظ الشهير كان إماماً في العلوم له مصنفات كثيرة[٧].

وهكذا تظهر لنا هذه الأقوال والتي نقلناها من علماء كبار عاصروا ابن رجب أو تتلمذوا عليه أو قرأوا مؤلفاته، تظهر المنزلة الرفيعة التي تبوأها ابن رجب رحمه الله تعالى بين علماء عصره.

---

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة ورقة (١٤٠/أ) وانظر الجوهر المنضد (٤٧).

(٢) المنهج الأحمد ورقة (٤٧٠).

(٣) طبقات الحفاظ (ص٥٤٠).

(٤) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ٧٦).

(٥) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

(٦) الشهادة الزكية (ص٤٩).

(٧) التاج المكلل (ص٣٢٥).

الباب الثاني

أثر ابن رجب في توضيح عقيدة السلف في التوحيد وأنواعه ونواقضه

ويشتمل على الفصول التالية:

الفصل الأول: تعريف التوحيد وبيان أنواعه والعلاقة بينها.

الفصل الثاني: توحيد الربوبية.

الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الرابع: توحيد الألوهية.

الفصل الخامس: نواقض التوحيد.

الفصل الأول

تعريف التوحيد وبيان أنواعه والعلاقة بينها

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف التوحيد لغة.

المبحث الثاني: تعريف التوحيد شرعاً.

المبحث الثالث: أنواع التوحيد.

المبحث الرابع: العلاقة بين أنواع التوحيد.

المبحث الأول
تعريف التوحيد لغة

التوحيد مصدر وحد يوحد توحيداً أي جعله واحداً، وكلمة التوحيد مصدر الفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه وهي تعني الوحدة والانفراد.

قال ابن فارس(١): الواو والحاء والدال أصل واحد، يدل على الانفراد من ذلك الوحدة، وهو واحد قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله(٢).

وقال الجوهري(٣): الوحدة الانفراد، تقول رأيته وحده(٤).

وقال الراغب(٥) الأصفهاني: الوحدة الانفراد، والوحدة في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود حتى أنه ما

---

(١) هو أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي اللغوي الأديب. من تصانيفه: مقاييس اللغة، والمجمل، توفي سنة ٣٩٥هـ.
معجم الأدباء (٤/ ٨٠) ووفيات الأعيان (١/ ١١٨).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٥٨).

(٣) هو إسماعيل بن حماد الجوهري، صاحب كتاب «الصحاح» في اللغة، توفي سنة ٣٩٦هـ.
معجم الأدباء (٦/ ١٥١) وبغية الوعاة (١/ ٤٤٦).

(٤) الصحاح (٢/ ٥٤٧).

(٥) هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصبهاني، المعروف بالراغب، اشتهر في عصره وكان من المتكلمين، له كتب في الاعتقاد والتفسير منها: المفردات في غريب القرآن، توفي سنة ٥٠٢هـ.
سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٢٠) وبغية الوعاة (٢/ ٢٩٧).

من عدد إلا ويصح أن يوصف به، فيقال: عشرة واحدة، ومائة واحدة، وألف واحد.

وقال: وأحد مطلقاً لا يوصف به غير الله تعالى[(١)].

وقال ابن الأثير[(٢)]: في أسماء الله تعالى: الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر[(٣)].

وقال أبو هلال العسكري[(٤)]: . . . والواحد يفيد الانفراد في الذات أو الصفة. . . وتقول: الله واحد تريد أن ذاته منفردة عن المثل والشبه[(٥)].

وقال أيضاً: الفرق بين الواحد والأحد أن الأحد يفيد أنه فارق غيره ممن شاركه في فن من الفنون، ومعنى من المعاني كقولك: فارق فلان أوحد دهره في الجود والعلم تريد أنه فوق أهله في ذلك.

وقال أيضاً: . . . والوحدانية تفيد نفي الأشكال والنظراء ولا يستعمل في غير الله. . .[(٥)].

وقال الزجاج[(٦)]: وقال بعض أصحاب المعاني: الفرق بين الواحد

---

(١) المفردات (ص٥١٤).

(٢) أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري قرأ الحديث والعلم والأدب، وكان ورعاً ذا بر وإحسان، له مؤلفات كثيرة مفيدة ومنها: النهاية في غريب الحديث، وجامع الأصول، توفي سنة ٦٠٦هـ.
معجم الأدباء (٦/ ٢٣٨) والعبر (٣/ ١٤٣) وبغية الوعاة (٢/ ٢٧٤).

(٣) النهاية لابن الأثير (٥/ ١٥٩).

(٤) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد أبو هلال العسكري، عالم بالأدب له مؤلفات منها: الفروق اللغوية، توفي سنة ٣٨٢هـ.
معجم الأدباء (٨/ ٢٥٨).

(٥) الفروق اللغوية (ص١١٤، ١١٥).

(٦) هو إبراهيم بن محمد بن سري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة له كتب منها: تفسير أسماء الله الحسنى، توفي سنة ٣١١هـ.
معجم الأدباء (١/ ٤٧).

والأحد أن الواحد يفيد وحدة الذات فقط، والأحد: يفيده بالذات والمعاني على هذا جاء في التنزيل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[(١)].

أراد: المنفرد بوحدانيته في ذاته وصفاته تعالى الله علواً كبيراً[(٢)].

فالله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الذي انفرد بذاته وصفاته مع عدم المثيل والنظير.

وقد أشار الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذا في تفسيره لسورة الإخلاص حيث قال: وأحد اسم من أسماء الله يسمى الله به، ولا يسمى به غيره من الأعيان به، فلا يسمى شيء من الأشياء أحداً في الإثبات إلا في الأعداد المطلقة، وإنما يسمى به في النفي، وما أشبهه من الاستفهام، والنهي، والشرط، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[(٣)] وقوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾[(٤)] وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[(٥)] وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[(٦)] ونحوه.

والأحد: هو الواحد في إلهيته وربوبيته[(٧)].

ثم طرح ابن رجب رحمه الله تعالى استفساراً، وأجاب عليه حيث قال سؤال: قوله: «الله أحد» ولم يقل: الأحد كما قال الصمد؟

---

(١) سورة الإخلاص آية (١).
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (ص٥٧).
(٣) سورة الإخلاص من آية (٤).
(٤) سورة مريم آية (٩٨).
(٥) سورة الجن آية (١٨).
(٦) سورة التوبة آية (٦).
(٧) تفسير سورة الإخلاص (٨٧ ـ ٨٩) وما بعدها.

جوابه: أن الصمد يسمى به غير الله... فأتى فيه بالألف واللام ليدل على أنه سبحانه هو المستحق لكمال الصمدية، فإن الألف واللام تأتي لاستغراق الجنس تارة، ولاستغراق خصائص أخرى كقوله: زيد هو الرجل أي الكامل في صفات الرجولة، فكذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾[1] أي الكامل في صفات الصمدية، وأما الأحد فلم يتسم به غير الله، فلم يحتج فيه إلى الألف واللام[2].

هذه هي أقوال أهل اللغة التي تبين المعنى اللغوي لكلمة التوحيد ونخلص منها إلى أن المعنى اللغوي لكلمة التوحيد يدور حول شيء واحد ألا وهو الوحدة والانفراد بالشيء، والله سبحانه وتعالى واحد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك ولا مثيل ولا نظير له في ذلك كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[3].

  

(١) سورة الإخلاص آية (٢).
(٢) تفسير سورة الإخلاص (ص٨٩).
(٣) سورة الإخلاص.

المبحث الثاني
تعريف التوحيد شرعاً

مما سبق في التعريف اللغوي يتبين لنا أن الله تبارك وتعالى واحد في ذاته، وأسمائه وصفاته، وربوبيته وألوهيته.

فعلى هذا فالتوحيد هو: إفراد الله تعالى بالعبادة مع علم العبد واعترافه واعتقاده بتفرد الرب تبارك وتعالى بصفات الكمال وأنه لا شريك له واعتقاد أنه هو وحده الخالق المدبر المتصرف في هذا الكون، وله الكمال المطلق، وأنه ذو الألوهية على خلقه أجمعين، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

قال السفاريني[١] رحمه الله في تعريف التوحيد: وهو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه، ولا تشبه صفاته الصفات، ولا تنفك عن الذات، ولا يدخل أفعاله الاشتراك فهو الخالق دون سواه[٢].

(١) محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الحنبلي، محدث، أصولي، له تصانيف كثيرة منها: البحور الزاهرة في أمور الآخرة، ومنها: لوامع الأنوار، توفي سنة ١١٨٨هـ.
مختصر طبقات الحنابلة للشطي (١٤٠) ومعجم المؤلفين لكحالة (٨/ ٢٦٢).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١/ ٥٧).

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب(١) رحمه الله: سمي دين الإسلام توحيداً، لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في ألوهيته وعبادته لا ند له(٢).

وقد دلت الآيات الكثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى على هذه المعاني كلها.

فقد دل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ...﴾(٣) الآية، على أن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والرزق والإماتة والإحياء دون سواه فلا يتوجه إلى أحد سواه في جلب نفع أو دفع ضر لأن من سواه عاجزون عن فعل شيء من ذلك، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد بل هو الأحد الفرد الصمد الذي

---

(١) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الفقيه المحدث، من أئمة الدعوة المجاهدين، وكان آية في العلم، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم، له مؤلفات مفيدة نافعة منها: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، قتل سنة ١٢٣٣هـ رحمه الله تعالى.

هدية العارفين (١/ ٤٠٨) وعلماء نجد خلال ستة قرون (١/ ٢٩٣) وعنوان المجد في تاريخ نجد (١/ ٢١٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٣٢، ٣٣).

(٣) سورة الروم آية (٤٠).

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد[١].

ودل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[٢] على إفراد الله عز وجل بالعبادة وحده دون سواه فلا يصرف شيء من العبادات لغيره عز وجل.

قال ابن جرير الطبري[٣] رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «قل يا محمد لأهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل، تعالوا: هلموا إلى كلمة سواء، يعني إلى كلمة عدل بيننا وبينكم، والكلمة العدل: هي أن نوحد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه فلا نشرك به شيئاً...»[٤].

ودل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٥).

(٢) سورة آل عمران آية (٦٤).

(٣) الإمام العلم أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري. قال الذهبي: «كان ثقة، صادقاً، حافظاً، رأسا في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علاّمة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك»، له مصنفات مفيدة منها: جامع البيان في تفسير القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، وغيرهما، توفي سنة ٣١٠هـ.

تاريخ بغداد (٢/ ١٦٢) وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧) ومعرفة القراء الكبار (١/ ٢٦٤) وغاية النهاية (٢/ ١٠٦).

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (٣/ ٣٠١، ٣٠٢).

يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[١] على تفرد الرب عز وجل بذاته وأسمائه وصفاته التي لا نظير ولا مثيل له فيها، فذاته لا تشبه ذوات المخلوقين وكذلك أسماؤه وصفاته كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

والآيات الدالة على هذه المعاني كثيرة جداً، وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد من إيضاح ذلك في الفصول القادمة.



---

(١) سورة الحشر الآيات (٢٢، ٢٣، ٢٤).

(٢) سورة الشورى آية (١١).

المبحث الثالث

أنواع التوحيد

إن المتتبع للقرآن الكريم يجده من أوله إلى آخره يقرر العقيدة الصحيحة ويبينها ويوضحها خير بيان وإيضاح.

فسور القرآن الكريم متضمنة لجميع أنواع التوحيد.

وعلماء الإسلام رحمهم الله تعالى قسموا التوحيد إلى أقسام، وذلك استنباط منهم من نصوص الكتاب والسنة.

وهذه الأقسام منهم من يجعلها قسمين كالحافظ ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ومنهم من يجعلها ثلاثة أقسام وعلى هذا درج أكثر العلماء، ومنهم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى، ومنهم من يجعلها أربعة أقسام(١).

والحقيقة أن نصوص الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، لم يرد فيها تصريح بتقسيم التوحيد إلى أقسام، لكن هذه النصوص تضمنت هذا التقسيم الذي قسم العلماء التوحيد إليه، لأن المتتبع لهذه النصوص يجد قسماً منها يتحدث عن أفعال الله تبارك وتعالى من الإحياء والإماتة والخلق والرزق وإنزال المطر وجلب النفع ودفع الضر، وغيرها، وهو ما يسميه العلماء توحيد الربوبية.

---

(١) انظر مقدمة كتاب التوحيد لابن منده، تحقيق الدكتور علي ناصر فقيهي.

وقسم آخر من النصوص يتحدث عن بيان أسماء الله الحسنى وصفاته العلى التي اتصف بها الله تبارك وتعالى التي لا مثيل ولا نظير ولا شبيه له فيها وهو ما يسميه العلماء توحيد الأسماء والصفات.

وقسم آخر من النصوص يبين وجوب إخلاص العمل لله عز وجل، وإفراده بالعبادة دون سواه، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهو ما يسميه العلماء توحيد الإلهية أو توحيد العبادة.

يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى: وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه.

فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه[(١)].

والخلاصة أن أنواع التوحيد لا تخرج عن هذه الأنواع الثلاثة:

١ - توحيد الله بأفعاله كالرزق والإحياء والإماتة وغيرها من أفعاله تبارك وتعالى وهو ما يسمى بتوحيد الربوبية.

٢ - توحيد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي ليس له فيها نظير ولا

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩، ٤٥٠).

شبيه ولا مثيل عز وجل، وهو ما يسمى بتوحيد الأسماء والصفات.

٣ ـ توحيد الله بأفعال العباد وهو صرف جميع أنواع العبادة له وحده دون سواه، وهو ما يسمى بتوحيد الألوهية.

والحقيقة أن تقسيم العلماء رحمهم الله تعالى التوحيد إلى هذه الأقسام إنما هو عبارة عن تفسير وتوضيح وشرح لنصوص كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ، والخلاف الذي بينهم في تقسيم التوحيد وبيان أنواعه خلاف لفظي، لأنهم جميعاً يتفقون على أن أنواع التوحيد لا تخرج عن هذه الأنواع الثلاثة السابقة إلا أن الذين جعلوه نوعين جعلوا توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، نوعاً واحداً، وسموه توحيد المعرفة والإثبات، وجعلوا توحيد الألوهية نوعاً مستقلاً والذين قسموه إلى أربعة أنواع جعلوا التوحيد في الأسماء نوعاً والتوحيد في الصفات نوعاً منفرداً بالإضافة إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

وهناك من يجعل النوع الرابع: هو توحيد المتابعة[1] للنبي ﷺ بالإضافة إلى أنواع التوحيد الثلاثة المشهورة.

وقد تحدث ابن رجب رحمه الله تعالى في مؤلفاته عن أنواع التوحيد وبينها وأوضحها، وهو ما سأتحدث عنه إن شاء الله تعالى في الفصول القادمة لأبين ما لابن رجب رحمه الله تعالى من أثر في توضيح هذه الأنواع.

  

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص٢١٧) وكتاب القول المفيد في أدلة التوحيد للعبدلي (ص٢٠).

المبحث الرابع
العلاقة بين أنواع التوحيد

بعد أن عرفنا فيما سبق حقيقة التوحيد وأنواعه التي هي توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، يحسن بنا أن نعرف العلاقة بين هذه الأنواع، وصلتها ببعضها، وهل هي متلازمة في الوجود بمعنى أن بعضها لا يوجد بدون الآخر؟ أم أنها غير متلازمة، وهل يغني اعتقادُ بعضها فقط أم لا بد من اعتقاد جميعها.

والحقيقة أن بينها علاقة متينة، وصلة قوية.

فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، لأنه من اعترف بأن الله عز وجل هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، وأنه رب كل شيء ومليكه يحتم عليه ذلك أن يخلص العبادة له عز وجل بجميع أنواعها لأنه تبارك وتعالى ذو الألوهية المستحق للعبادة وحده دون سواه، لأن جميع الأمور بيده، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا هادي لمن أضل، ولا ضال لمن هدى سواه عز وجل، ولهذا نجد الآيات الواردة في القرآن الكريم في توحيد الربوبية تحث وترشد إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، وعدم صرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ

أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[١].

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، والسماء بناءً، وهو السقف كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾[٢].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والمراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم، ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن، ومن أشبه آية بهذه آية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[٣] ومضمونه أنه الخالق الرزاق مالك الدار وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي الصحيحين[٤] عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك...» الحديث[٥].

---

(١) سورة البقرة الآيتان (٢١ ـ ٢٢).

(٢) سورة الأنبياء آية (٣٢).

(٣) سورة غافر آية (٦٤).

(٤) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾** (١٤٨/٥).

وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٩٠/١).

(٥) تفسير ابن كثير (٥٧/١).

وقد أوضح ابن رجب رحمه الله تعالى هذا المعنى حيث قال: . . . فإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا، وبمغفرة ذنوبه في الآخرة، مستحق أن يفرد بالألوهية والعبادة والسؤال والتضرع والاستكانة. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾(١) . . .(٢).

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: . . . وتحقيق هذا يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بالخلق وعن سؤالهم واستعانتهم ورجائهم بجلب نفع أو دفع ضر، وخوفهم من إيصال ضر أو منع نفع، وذلك يستلزم إفراد الله سبحانه بالطاعة والعبادة أيضاً. . . وأن تقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعاً. . .(٣)

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: . . . فإذا تحقق العبد تفرد الله وحده بالنفع والضر وبالعطاء والمنع أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعاً، كما يوجب ذلك أيضاً إفراده سبحانه بالاستعانة به، والطلب منه. . . .(٤).

فمن أقر بتوحيد الربوبية ولم يقر بتوحيد الألوهية، فإن ذلك لا ينفعه شيئاً، لأن المشركين كانوا مقرين بهذا النوع من التوحيد كما ذكر الله تبارك وتعالى ذلك في القرآن الكريم في آيات كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ

---

(١) سورة الروم آية (١٢، ٢٢)
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٨٤).
(٣) نور الاقتباس (ص٨٠).
(٤) المصدر السابق (ص٧٩).

وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[(١)].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[(٢)] وغيرها من الآيات ومع هذا لم ينفعه هذا الاعتراف، لأنهم لم يوحدوا الله تبارك وتعالى بالعبادة كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[(٤)].

إذاً من اعترف بتوحيد الربوبية يلزمه أن يخلص العبادة لله وحده دون سواه، ومن لم يفعل ذلك فإن إقراره بتوحيد الربوبية لا ينفعه شيئاً كما لم ينفع المشركين من قبل.

وأما توحيد الألوهية الذي يسمى توحيد العبادة، ويسمى أيضاً بتوحيد القصد والطلب، فإنه متضمن لتوحيد الربوبية، ومعنى كونه متضمناً له أن توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الألوهية لأن من عبد الله وحده لا شريك له، وأخلص العبادة له لا بد أن يكون قد اعتقد بأن الله رب كل شيء ومليكه، وأنه لا رب سواه ولا مالك غيره، فهو يعبده لأنه يعلم أنه مستحق للعبادة دون سواه.

---

(١) سورة يونس آية (٣١).
(٢) سورة المؤمنون من آية (٨٤ إلى ٨٩).
(٣) سورة يوسف آية (١٠٦).
(٤) سورة الزمر آية (٣).

ولذلك نجد الآيات الكثيرة تبين أن الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله ليس بيدها شيء، وأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً فهي لا تملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾[٢].

فهذه الآيات تبين للمشركين أن آلهتهم التي يعبدون من دون الله غير مستحقة للعبادة، لأن الذي يستحق للعبادة هو من بيده الخلق والرزق والإحياء والإماتة، والضر، والنفع، وهو الله سبحانه وتعالى وحده.

فتوحيد الألوهية لا يصح بدون توحيد الربوبية لأن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً في عبادته لكنه مع ذلك اعتقد أن لغير الله تأثير في شيء من دفع ضر أو جلب نفع أو تصرف فعبادته لا تغني عنه شيئاً. يقول ابن أبي العز[٣] رحمه الله تعالى: التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية[٤].

---

(١) سورة النحل الآيتان (٢٠ ـ ٢١).

(٢) سورة النحل آية (٧٣).

(٣) هو علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي، عالم فقيه تولى القضاء بدمشق ثم بالديار المصرية، واستفاد من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم كثيراً، له كتب مفيدة نافعة منها: شرح العقيدة الطحاوية، والإتباع، توفي سنة ٧٩٢هـ رحمه الله تعالى.
الدرر الكامنة (٣/ ٨٧) وشذرات الذهب (٦/ ٣٢٦).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٢).

وأما توحيد الأسماء والصفات فإنه مستلزم للنوعين الماضيين لأن من اعترف بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى وأنه لا نظير ولا شبيه ولا مثيل له في ذلك، يلزمه أن يعترف بأنه رب واحد لا شريك له ويلزمه أيضاً أن يخلص العبادة له وحده دون سواه.

كما أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الأسماء والصفات، لأن من أخلص العبادة لله وحده يعتقد أن الله واحد في أسمائه وصفاته مع عدم المثيل والنظير والشبيه له في ذلك، وإلا فلا معنى لعبادته بدون ذلك.

وبهذا يتبين أن التوحيد الصحيح هو الإتيان بأنواع التوحيد كلها لأنها مرتبطة بعضها ببعض، ولا يتحقق التوحيد الصحيح إلا بها جميعاً. وهو ما جاءت به الآيات الكثيرة في كتاب الله تبارك وتعالى وجاءت به السنة النبوية.

وهذا ما قرره علماء السلف رحمهم الله تعالى.

يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى: وملاك السعادة والنجاة والفوز بتحقيق التوحيدين اللذين عليهما مدار كتاب الله تعالى، وبتحقيقهما بعث الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ، وإليهما دعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أولهم إلى آخرهم...[١].

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في معرض كلامه من أنواع التوحيد:... وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب...[٢].

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (ص٢٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٩٣).

الفصل الثاني

توحيد الربوبية

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريفه لغة.

المبحث الثاني: تعريفه شرعاً.

المبحث الثالث: دلائل توحيد الربوبية:

١ ـ دلالة الفطرة.

٢ ـ دلالة النعم.

٣ ـ دلالة خلق السموات والأرض.

٤ ـ دلالة خلق النبات.

المبحث الأول
تعريف توحيد الربوبية لغة

الربوبية مصدر من رب يرب ربابة وربوبية.

قال الراغب الأصفهاني: الربوبية مصدر يقال في الله عز وجل، والربابة تقال في غيره[١].

قال الجوهري: رب كل شيء: مالكه.

والرب: اسم من أسماء الله عز وجل، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة وقد قالوه في الجاهلية للملك.

قال الحارث بن حلزة[٢]:

وهو الرب والشهيد على يو ... م الحيارين والبلاء بلاء

والرباني: المتأله العارف بالله تعالى، وقد قال سبحانه: ﴿كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾[٣] وربيت القوم: سستهم، أي كنت فوقهم.

قال أبو نصر: وهو من الربوبية، ومنه قول صفوان: لأن يربني

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص١٨٤).

(٢) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي، شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات.
طبقات فحول الشعراء لابن سلام (١/ ١٥١) والشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٢٠٣).

(٣) سورة آل عمران آية (٧٩).

رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن.

ورب الضيعة، أي أصلحها وأتمها.

ورب فلان ولده يربه رباً، وتربيه، بمعنى أي رباه[١].

وقال الراغب الأصفهاني أيضاً: الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، ويقال: ربه ورباه وربيه.... ولا يقال: الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[٢] وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[٣] وبالإضافة يقال له ولغيره نحو قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤] و﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[٥].

ويقال: رب الدار ورب الفرس لصاحبهما...[٦].

وقال ابن منظور[٧]: رب كل شيء مالكه ومستحقه.

وقيل: صاحبه.

---

(١) الصحاح (١/ ١٣٠).

(٢) سورة سبأ آية (١٥).

(٣) سورة آل عمران آية (٨٠).

(٤) سورة الفاتحة (٢).

(٥) سورة الدخان آية (٨).

(٦) المفردات في غريب القرآن (ص١٨٤).

(٧) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم الأنصاري الإفريقي المعروف بابن منظور، أديب لغوي، شارك في علوم كثيرة، له مصنفات كثيرة منها: لسان العرب، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، توفي سنة ٧١١هـ.
بغية الوعاة (١/ ٢٤٨) وحسن المحاضرة (١/ ٢١٩) وشذرات الذهب (٦/ ٢٦).

ويقال: فلان رب هذا الشيء أي ملكه له.

وكل من ملك شيئاً، فهو ربه، يقال هو رب الدابة، ورب الدار وفلان رب البيت...[١].

ويطلق الرب في اللغة على معان عدة، قال ابن الأثير: الرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف فيقال: رب كذا، وقد جاء في الشعر مطلقاً على غير الله تعالى، وليس بالكثير[٢].

وقد ورد في الحديث لفظ الرب مضافاً إلى غير الله تعالى كما في صحيح مسلم عن رافع بن خديج أن النبي ﷺ أمر رب الأرض أن يزرعها أو يزرعها[٣].

وأما قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[٤] فكما قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: «... فإنه خاطبه على المتعارف عندهم، وعلى ما كانوا يسمونهم به، ومثله قول موسى عليه السلام للسامري ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾[٥] أي الذي اتخذته إلهاً.

فأما الحديث في ضالة الإبل: (حتى يلقاها ربها)[٦] فإن البهائم غير

---

(١) لسان العرب (١/ ٣٩٩).
(٢) النهاية لابن الأثير (٢/ ١٧٩).
(٣) صحيح مسلم كتاب البيوع، باب كراء الأرض بالطعام (٣/ ١١٨١).
(٤) سورة يوسف آية (٤٢).
(٥) سورة طه آية (٩٧).
(٦) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣/ ٧٩) ومسلم (٣/ ١٣٤٨) من حديث خالد الجهني أنه سأل الرسول ﷺ عن ضالة الإبل فقال: «ما لك وما لها؟، معها حذاؤها وسقاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها».

متعبدة ولا مخاطبة، فهي بمنزلة الأموال التي يجوز إضافة مالكيها إليها وجعلهم أرباباً لها»(١).

وخلاصة القول: أن الله سبحانه وتعالى هو مالكنا، وهو سيدنا ومصلحنا وهو المطاع عز وجل، والعباد كلهم له مملوكون تبارك وتعالى.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره(٢).



(١) النهاية لابن الأثير (٢/ ١٧٩).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤).

المبحث الثاني
تعريف توحيد الربوبية شرعاً

يقصد بتوحيد الربوبية الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى وحده هو رب كل شيء ومليكه، وهو الخالق الرزاق المحيي المميت الضار النافع المعطي المانع المتصرف في هذا الكون بمشيئته المطلقة، وليس له شريك في شيء من تلك الخصائص والصفات.

وربوبية الله على خلقه تعني تفرده سبحانه في خلقهم وملكهم، وتدبير شؤونهم، فلا شريك له في الخلق، ولا شريك له في تصريف الأمور ولا يتم شيء في هذا الوجود صغير أو كبير إلا بإذنه تعالى وبمشيئته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: . . . فتوحيد الربوبية أنه لا خالق إلا الله فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[١].

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذا المعنى فقال في معرض شرحه لحديث[٢] وصية ابن عباس: . . . ثم ذكر بعد هذا كله

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ٣٣١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣) وقال أحمد: إسناده صحيح، حديث رقم (٢٦٦٩) وأخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة (٤/ ٦٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وانظر طرق هذا الحديث والكلام عليها في مقدمة كتاب نور الاقتباس تحقيق محمد العجمي.

الأصل الجامع الذي يبنى عليه هذه المطالب، وهو تفرد الله سبحانه وتعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه لا يصيب العبد من ذلك كله إلا ما سبق تقديره وقضاءه له، وأن الخلق كلهم عاجزون عن إيصال نفع أو دفع ضر غير مقدر في الكتاب السابق، وتحقيق هذا يقتضي انقطاع العبد عن التعلق بالخلق، وعن سؤالهم واستعانتهم ورجائهم بجلب نفع أو دفع ضر، وخوفهم من إيصال ضر أو منع نفع، وذلك يستلزم إفراد الله سبحانه بالطاعة والعبادة. . .[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: فإنه إذا علم العبد أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر أو نفع أو ضر، وإن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد شيئاً البتة علم حينئذ أن الله تعالى وحده هو الضار النافع والمعطي والمانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل، وإفراده بالاستعانة والسؤال والتضرع والابتهال وإفراده أيضاً بالعبادة والطاعة لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ولهذا ذم الله سبحانه من يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئاً.

وأيضاً فكثير ممن لا يحقق الإيمان في قلبه يقدم طاعة مخلوق على طاعة الله رجاء نفعه أو دفعاً لضره، فإذا تحقق العبد تفرد الله وحده بالنفع والضر وبالعطاء والمنع أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعاً كما يوجب ذلك أيضاً إفراده سبحانه بالاستعانة به، والطلب منه. . .[٢].

وقال رحمه الله تعالى عند قوله ﷺ: «ما شئت كان وما لم تشأ لم

---

(١) نور الاقتباس (ص٨٠).

(٢) المصدر السابق (ص٧٨، ٧٩).

يكن ولا حول ولا قوة إلا بك، إنك على كل شيء قدير»[١]. قال: فتبرأ من حوله وقوته ومشيئته بدون مشيئة الله وحوله وقوته وإقراره بقدرته على كل شيء، فإن العبد عاجز عن كل شيء إلا ما قواه عليه ربه، ففي هذا الكلام إفراد الرب بالحول والقوة والقدرة والمشيئة، فإن العبد غير قادر على ذلك كله إلا ما يقدره عليه مولاه وهذا نهاية توحيد الربوبية[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً وهو يتكلم عن معنى لا حول ولا قوة إلا بالله: . . . فإن تحقيق هذه الكلمة يقتضي تفويض الأمور إلى الله، وأنه لا يكون إلا ما شاء، والإيمان بذلك يذهب الهم والغم. . .[٣].

وقد أوضح الله تبارك وتعالى هذا النوع من التوحيد أوضح بيان، ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من ذكره أو الإشارة إليه.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: وقد دل القرآن على هذا الأصل وهو تفرد الله سبحانه بالعطاء والمنع في مواضع كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ. . .﴾ الآية[٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (٥/ ١٩١) والحاكم (١/ ١٢٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٢) شرح حديث زيد بن ثابت «لبيك اللهم لبيك» ورقة (٥).
(٣) نور الاقتباس (ص٨٣، ٨٤).
(٤) سورة فاطر آية (٢).
(٥) سورة يونس آية (١٠٧).

هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(١).

وقوله تعالى حاكياً عن نبيه نوح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾(٢).

وقوله تعالى حاكياً عن نبيه هود ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم...﴾(٣)(٤).

ومن الآيات التي دلت على هذا النوع من التوحيد مما لم يذكره ابن رجب رحمه الله تعالى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا

---

(١) سورة الزمر آية (٣٨).

(٢) سورة يونس آية (٧١).

(٣) سورة هود من آية (٥٤ إلى ٥٦).

(٤) نور الاقتباس (ص٨١).

(٥) سورة يس الآيتان (٨٢، ٨٣).

يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾[3].

وهكذا نجد الآيات الكثيرة التي تبين تفرد الرب تبارك وتعالى بتوحيد الربوبية، سواء كان على وجه الإجمال أو على وجه التفصيل فكلها تبين أن الأمور كلها بيد الله عز وجل، وأن كل ما يحدث في الكون من صغير وكبير إنما هو بقدرته ومشيئته عز وجل.

وهذا يقتضي من العبد التعرف على ربه عز وجل وخشيته ومحبته وخوفه ورجائه إذ لا صلاح له ولا سعادة إلا بذلك لأن معرفة العبد ربه من أهم المهمات وأعظم الواجبات التي يجب على العبد معرفتها، ولا تنفع الطاعة ما لم تكن معها معرفة وتقوى.

وقد أوضح ابن رجب رحمه الله تعالى هذا المعنى فقال: فلا صلاح للقلوب حتى يستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه[4].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالعلم النافع وهو ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب من

---

(١) سورة النمل من آية (٦٠ إلى ٦٤).
(٢) سورة السجدة آية (٢٧).
(٣) سورة الحديد آية (١٧).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ١٨١، ١٨٢).

عند الله تبارك وتعالى فقال: . . . فلا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة، إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، فهو الدليل عليه، وبه يهتدى في ظلمات الجهل والشبه والشكوك، ولهذا سمى الله كتابه نوراً يهتدى به في الظلمات. قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[1] . . .[2].

كما بيّن أيضاً رحمه الله تعالى أن معرفة الله تبارك وتعالى وخشيته ومحبته والأنس به جنة معجلة في الدنيا، وهذه الجنة لا تحصل إلا لمن دله علمه عليها وهو العلم النافع الذي تكون نهايته دخول الجنة، وأما من لم يتعلم العلم النافع الذي هو معرفة الله وخشيته فإنه يحرم جنة الدنيا المعجلة ونهايته في الآخرة والعياذ بالله العذاب الأليم وما ذلك إلا بسبب عدم الانتفاع بالعلم الذي تعلمه فقال رحمه الله تعالى: اعلم أن في الدنيا جنة معجلة وهي معرفة الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك، فمن دله علمه على دخول الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة، ولهذا كان أشد الناس عذاباً في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه، وهو من أشد الناس حسرة يوم القيامة، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها فهو كمن معه جواهر نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة أو شيء

(١) سورة المائدة الآيتان (١٥، ١٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ١٠٩).

مستقذر، ولا ينتفع به، فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه بل أقبح...[١].

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى في حديث وصية ابن عباس عن معرفة العبد لربه، وذكر أن معرفة العبد لربه على نوعين حيث قال رحمه الله تعالى:... فمعرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به، والتصديق والإيمان، وهي عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه، والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون كما قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: «معرفة الله عز وجل»[٢].

كما ذكر رحمه الله تعالى أن معرفة الله لعبده نوعان فقال: ومعرفة الله أيضاً لعبده نوعان:

معرفة عامة: وهي علمه تعالى بعباده، واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾[٤].

---

(١) كتاب لطائف المعارف (ص١٩١).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٩٠، ٩١).
(٣) سورة ق آية (١٦).
(٤) سورة النجم آية (٣٢).

والثاني: معرفة خاصة: وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه: «... ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١) إلى أن قال: «وفي الجملة فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته»(٢).

وقال أيضاً رحمه الله تعالى عند قوله ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

يعني أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة، فعرفه ربه في الشدة، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه المعرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه(٣).

وقد بيّن الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى مراتب معرفة الله تعالى فقال: من الناس من يعرف الله بالجود والإفضال والإحسان، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته، وإغاثة لهفته وقضاء حاجته.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٧/ ١٩٠).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٩١، ٩٢، ٩٣).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٩٠).

وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه، فإنه يعرف رباً قد اجتمعت له صفات الكمال، ونعوت الجلال، منزّه عن المثال، بريء من النقائص والعيوب له كل اسم حسن وكل وصف كمال، فعال لما يريد، فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقادر على كل شيء، ومقيم لكل شيء، آمر، ناه، متكلم بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيء، أرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين، فالقرآن أنزل لتعريف عباده به وبصراطه الموصل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه[١].

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى أن أفضل العلم وأحسنه هو العلم بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته التي تجعل العبد يزداد خشية ومحبة وإجلالاً لله عز وجل، فقال: . . . فأفضل العلم العلم بالله وهو العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته والتبتل إليه والتوكل عليه والصبر والرضا عنه والاشتغال به دون خلقه.

وتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن جمع هذه العلوم فهو من العلماء الربانيين، العلماء بالله العلماء بأمره وهم أكمل ممن قصر علمه على العلم بالله دون العلم بأمره، وبالعكس[٢].

---

(١) الفوائد (ص٢٣٣).

(٢) شرح حديث أبي الدرداء (ص٤١).

المبحث الثالث
دلائل توحيد الربوبية

ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى أن كل ما في الكون من مخلوقات دليل على تفرد الرب تبارك وتعالى بالربوبية على خلقه أجمعين حيث قال: كل ما في الدنيا يدل على صانعه، ويذكر به، ويدل على صفاته، فما فيها من نعيم وراحة يدل على كرم خالقه، وفضله وإحسانه، وجوده، ولطفه.

وما فيها من نقمة وشدة وعذاب يدل على شدة بأسه وبطشه وقهره وانتقامه.

واختلاف أحوال الدنيا من حر وبرد وليل ونهار وغير ذلك يدل على انقضائها، وزوالها...[١].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: وفي القرآن شيء كثير من التذكير بآيات الله الدالة على عظمته، وقدرته، وجلاله، وكماله، وكبريائه، ورأفته، ورحمته وبطشه، وقهره، وانتقامه إلى غير ذلك من صفاته العلى وأسمائه الحسنى، والندب إلى التفكر في مصنوعاته الدالة على كماله، فإن القلوب مفطورة على محبة الكمال، ولا كمال في الحقيقة إلا له سبحانه وتعالى[٢].

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٣٣).
(٢) استنشاق نسيم الأنس (ص٢٤).

فالتفكر والتأمل في الكون الكبير بسماواته وأرضه وإنسانه وحيوانه ونباته وجماده بكل ما فيها من عجائب فيه دلالة تهدي الإنسان إلى ربه وتسوقه إلى الحق والخير ولذلك يقول القائل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[(١)]

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تحث على النظر والتدبر والتأمل في آيات الله تبارك وتعالى المحسوسة المشاهدة التي يراها كل أحد صغيراً وكبيراً وذكراً أو أنثى بل جميع الناس على مختلف مستوياتهم لتكون دليلاً لهم على وحدانية الله تبارك وتعالى وأنه هو الإله الحق الذي يستحق العبادة دون سواه.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى التفكر فيه أوقعك على العلم به، سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه، وعدله ورضاه، وغضبه وعقابه فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته[(٢)].

ومن تلك الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[(٣)].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾[(٤)] وغيرها من الآيات التي ترشد

(١) البيت من شعر أبي العتاهية.
انظر: أبو العتاهية أشعاره وأخباره (ص١٠٤).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/٢٣٧).
(٣) سورة الغاشية الآيات (١٧ ـ ٢٠).
(٤) سورة لقمان الآيتان (١٠، ١١).

وتلفت الأنظار إلى التفكر إلى هذا الكون وما فيه من مخلوقات عظيمة تدل على عظم خالقها، وأنه المستحق للعبادة دون سواه.

والأدلة والبراهين الدالة على عظمة الله تبارك وتعالى لا تعد ولا تحصى ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[١].

وسأقتصر على بيان وإيضاح بعض الدلائل التي تدل على توحيد الربوبية وهي الدلائل التي تعرض لها وذكرها ابن رجب رحمه الله تعالى في مؤلفاته وهي الدلائل الآتية:

١ - دلالة الفطرة.

٢ - دلالة النعم.

٣ - دلالة خلق السموات والأرض.

٤ - دلالة خلق النبات.

١ - دلالة الفطرة:

فطر الله تبارك وتعالى الخلق على توحيده وعبادته، فما من مولود يولد وإلا ويولد على توحيد الله عز وجل كما جاءت بذلك النصوص الكثيرة في كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذه الدلالة فقال عند شرحه لحديث: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك»[٢].

---

(١) سورة فصلت آية (٥٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم (٤/ ١٩٨٠).

قال: . . . وهذا يدل على أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله، وركز في الطباع محبة ذلك، والنفور من ضده ويدخل هذا في قوله في حديث عياض بن حمار: «إني خلقت عبادي حنفاء مسلمين فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[1].

وقوله: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرأوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[2] . . . »[3].

ولهذا سمى الله ما أمر به معروفاً، وما نهى عنه منكراً، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[4].

وقال تعالى في صفة الرسول ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾[5].

وأخبر أن قلوب المؤمنين تطمئن بذكره، فالقلب الذي دخله نور الإيمان وانشرح به وانفسح سكن للحق، واطمأن به، ويقبله وينفر من الباطل ويكرهه ولا يقبله[6].

---

(١) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/٢١٩٧).
(٢) سورة الروم آية (٣٠).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب «لا تبديل لخلق الله» (٦/ ٢٠).
ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤/٢٠٤٧).
(٤) سورة النحل آية (٩٠).
(٥) سورة الأعراف آية (١٥٧).
(٦) جامع العلوم والحكم (٢/٢٥٦).

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى أهمية التربية والتعليم، فبيّن أن الله سبحانه وتعالى فطر خلقه على معرفته والإيمان به، ولكن البيئة التي يعيش الإنسان فيها، والتربية التي يتربى عليها والتعليم الذي يتعلمه، كلها لها دور كبير في استمرار المولود على ما فطر عليه وهو دين الإسلام أو الانحراف عنه لأن شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض في تزيين الشبهات والشهوات التي تبعد العبد عن هذه الفطرة السليمة.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى عند شرحه للحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي...»[١] وقوله: «كلكم ضال إلا من هديته» قد ظن بعضهم أنه معارض لحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل: (خلقت عبادي حنفاء) وفي رواية: «مسلمين فاجتالتهم الشياطين»[٢] وليس كذلك، فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام، والميل إليه دون غيره، والتهيؤ لذلك، والاستعداد له بالقوة، ولكن لا بد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل، فإنه قبل التعلم جاهل لا يعلم شيئاً كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[٣].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾[٤] والمراد وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾[٥].

---

(١) هذا جزء من حديث قدسي طويل أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤) من حديث أبي ذر.
(٢) سبق تخريجه (ص١٧٣).
(٣) سورة النحل آية (٧٨).
(٤) سورة الضحى آية (٧).
(٥) سورة الشورى آية (٥٢).

فالإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق، فإن هداه الله تعالى سبب له من يعلمه الهدى، فصار مهدياً بالفعل بعد أن كان بالقوة، وإن خذله الله قيض له من يعلمه ما يغير فطرته كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه[١]. . .»[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً عند قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[٣] قال: «فأمره بإقامة وجهه وهو إخلاص قصده وعزمه وهمّه للدين الحنيف وهو الدين القيم وهو فطرة الله التي فطر العباد عليها، فإن الله ركب في قلوب عباده كلهم قبول توحيده والإخلاص له، وإنما يغيرهم عن ذلك تعليم من علمهم الخروج عنه»[٤].

٢ ـ دلالة نعم الله تبارك وتعالى:

أنعم الله تبارك وتعالى على عباده بنعم كثيرة ظاهرة وباطنة لا تعد ولا تحصى منها نعمة السمع والبصر، ونعمة الخلق والإيجاد وغيرها من النعم كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[٦].

ومن نعم الله تبارك وتعالى علينا إنزال الأمطار من السماء لتنبت

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧٣).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٨٥، ١٨٦).
(٣) سورة الروم آية (٣٠).
(٤) فتح الباري (٣/ ٢٧).
(٥) سورة المؤمنون آية (٧٨).
(٦) سورة النحل آية (٥٣).

الأشجار وتخرج الثمار كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾[١].

فالنعم الكثيرة التي أنعم الله بها علينا تبارك وتعالى تدل على تفرده بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والضر والنفع، وأنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة دون سواه.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى وهو يتحدث عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة...»[٢] الحديث.

قال: ومعنى الحديث أن تركب هذه العظام، وسلامتها من أعظم نعم الله على عبده فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه ليكون ذلك شكراً لهذه النعمة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾[٣].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[٤].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ

---

(١) سورة ق الآيات (٩ ـ ١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب فضل الإصلاح بين الناس (٣/ ١٧١) ومسلم: كتاب الزكاة ـ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٢/ ٦٩٩).

(٣) سورة الانفطار الآيات (٦ ـ ٨).

(٤) سورة الملك آية (٢٣).

ﭐلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[١].

وقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾﴾[٢].

قال مجاهد[٣]: هذه نعم من الله متظاهرة يقررك بها كيما تشكر[٤] إلى أن قال رحمه الله تعالى: والمقصود أن الله تعالى أنعم على عباده بما لا يحصونه كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[٥] وطلب منهم الشكر، والرضا به منهم[٦].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: فإذا وفّق الله عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر، كانت هذه النعمة خيراً من تلك النعم وأحبّ إلى الله عز وجل، فإن الله يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحبّ إليهم من أموالهم فهم يبذلونها طلباً للثناء، والله عز وجل أكرم الأكرمين وأجود الأجودين فهو يبذل نعمه لعباده ويطلب منهم الثناء بها، وذكرها منهم، والحمد عليها ويرضى منهم بذلك شكراً عليها، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يحب ذلك من عباده حيث كان صلاح العبد وفلاحه، وكماله فيه، ومن فضله سبحانه أنه نسب

---

(١) سورة النحل آية (٧٨).

(٢) سورة البلد الآيتان (٨، ٩).

(٣) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي شيخ القراء والمفسرين قال ابن سعد: «مجاهد ثقة فقيه عالم كثير الحديث»، توفي سنة ١٠٢هـ.
سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٩) والبداية والنهاية (٩/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩٩) من قول قتادة، وكذا عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٢١) لقتادة.

(٥) سورة إبراهيم آية (٣٤).

(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٢٧ ـ ٢٣٢).

الحمد والشكر إليهم، وإن كان من أعظم نعمه عليهم، وهذا كما أنه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال، واستقرض منهم بعضه، ومدحهم بإعطائه، والكل ملكه، ومن فضله ولكن كرمه اقتضى ذلك[١].

٣ ـ دلالة خلق السموات والأرض:

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: وإنما يعبد الله سبحانه بعد العلم به ومعرفته، ولذلك خلق السموات والأرض، وما فيها للاستدلال بهما على توحيده وعظمته كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[٢][٣].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: . . . وأخبر سبحانه وتعالى أنه إنما خلق السموات والأرض، ونزل الأمر لنعلم بذلك قدرته وعلمه فيكون دليلاً على معرفته، ومعرفة صفاته كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[٢][٤].

فخلق السموات والأرض من أعظم الآيات الواضحة الدالة على ربوبية الله تبارك وتعالى، لأن السموات جعلها الله سقفاً محفوظاً تتألف من سبع سموات، وفيها من مخلوقات الله العجيبة ما لا يعلمه إلا الله، فهي تسير بنظام دقيق بلا اختلاف، ولا خلل لأن الله تبارك وتعالى هو الذي يسيرها بقدرته وحكمته كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).
(٢) سورة الطلاق آية (١٢).
(٣) استنشاق نسيم الأنس (ص٤٥).
(٤) شرح حديث أبي الدرداء (ص١١١).

مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾(١).

كما أن الذي أقامها وأمسكها بلا عمد نراها وهي بعيدة المدى إنما هو الخالق القادر على كل شيء المستحق للعبادة وحده دون سواه يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾(٢).

ويقول عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(٣).

ولهذا لفت الله سبحانه وتعالى عباده إلى النظر في السموات والتفكر في خلقها فقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾(٤).

وخلق الأرض وما فيها من جبال وأحجار وأشجار وأنهار وبحار وغيرها من مخلوقات الله تعالى الظاهرة والباطنة التي ينتفع بها الإنسان في حياته، فإنها لأدلة واضحة على عظم خلق الله عز وجل وإبداع صنعه وقد نبه الله تبارك وتعالى عباده على ذلك فقال عز وجل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾(٥).

فخلق السموات والأرض من أعظم دلائل الربوبية كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) سورة الملك الآيتان (٣، ٤).

(٢) سورة فاطر آية (٤١).

(٣) سورة لقمان آية (١٠).

(٤) سورة الغاشية الآيتان (١٧، ١٨).

(٥) سورة الذاريات آية (٢٠).

يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٢)].

وقد ذم الله سبحانه وتعالى المعرضين عن التفكر في خلق السموات والأرض وما أودعه عز وجل فيهما من مخلوقات فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾[(٣)].

وقال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[(٤)].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره عند هذه الآية: يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق، وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء، والصمدية للأسماء والصفات وغير ذلك[(٥)].

وقال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى مبيناً عظم خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات عظيمة عجيبة تدل دلالة واضحة على عظم خالقها ومبدعها وهو الله تبارك وتعالى الذي أحكم وأحسن كل شيء خلقه عز وجل.

---

(١) سورة غافر آية (٥٧).
(٢) سورة يونس آية (١٠١).
(٣) سورة الأنبياء آية (٣٢).
(٤) سورة يوسف آية (١٠٥).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٤).

فقال عن السماء: «فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علواً كالنار، ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها، بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها، ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له»[(١)].

وقال عن الأرض: «وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت، رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال، فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد بهم، ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها، وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتاً للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات، وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها...»[(٢)].

٤ ـ دلالة خلق النبات:

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: تدقيق النظر والفكر في حال النبات يستدل به المؤمن على عظمة خالقه وكمال قدرته ورحمته فتزداد القلوب هيماناً في محبته، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٦٠).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٥١، ٢٥٢).

حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾[١].

زمان الربيع كله واعظ يذكر بعظمة موجده وكمال قدرته ويشوق إلى طيب مجاورته في دار كرامته...

سبحان من سبحت المخلوقات بحمده، فملأ الأكوان تحميده وأفصحت الكائنات، والشهادة بوحدانيته، فوضح توحيده يسبحه النبات جمعه وفريده، والشجر عتيقه وجديده...[٢].

فلو نظر الإنسان إلى عالم النبات وما فيه من عجائب مخلوقات الله لأدرك عظمة الخالق تبارك وتعالى، ولقاده ذلك إلى إفراده بالعبادة دون سواه.

فلو نظرنا إلى الحبة تكون في باطن الأرض فتنمو ويخرج ساقها شاقاً لنفسه طريقاً بين التراب ثم تكبر شيئاً فشيئاً حتى تكون شجرة ثم تخرج الثمرة تؤتي أكلها في حينها بإذن الله عز وجل.

ولو نظرنا إلى البساتين، وما تخرجه بإذن الله تعالى من ثمار مختلفة لرأينا العجب العجاب في صنع الله فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد أشار الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى إلى ذلك وأوضحه وبيّنه، فقال: هذا عود شجر الكرم يكون يابساً طول الشتاء ثم إذا جاء الربيع دب فيه الماء واخضرّ...، ثم يخرج الحصرم[٣] فينتفع الناس به

---

(١) سورة الأنعام آية (٩٩).

(٢) لطائف المعارف (ص٣٣٠، ٣٣١).

(٣) الحصرم: أول العنب، ولا يزال العنب ما دام أخضر حصرماً، وهو حامض. الصحاح (٥/ ١٩٠٠) ولسان العرب (١٢/ ١٣٧).

حامضاً، ويتناولون منه طبخاً واعتصاراً ثم ينقلب حلواً فينتفع الناس به حلواً رطباً ويابساً، ويستخرجون منه ما ينتفعون بحلاوته طول العام، وما يأتدمون بحمضه، وهو نعم الإدام.

فهذه التنقلات توجب للعاقل الدهش والتعجب من صنع صانعه وقدرة خالقه، فينبغي أن يفرغ عقله للتفكر في هذه النعم والشكر عليها.

وأما الجاهل فيأخذ العنب فيجعله خمراً فيغطي به العقل الذي ينبغي أن يستعمل في الفكر والشكر حتى ينسى خالقه المنعم عليه بهذه النعم كلها، فلا يستطيع بعد الشكر أن يذكره ويشكره بل ينسى من خلقه ورزقه، فلا يعرفه في شكره بالكلية، وهذه نهاية كفران النعم(١).

فالنبات وما فيه من عجائب من الآيات الكبيرة والدلائل العظيمة على عظم خالقه وموجده وأنه المستحق للعبادة دون سواه وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن المقصود الأول من هذه النباتات إنما هو للدلالة على معرفة عظمة خالقه وكمال قدرة موجده.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾(٣).

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٣١).
(٢) سورة الأنعام آية (٩٥).
(٣) سورة النحل الآيتان (١٠، ١١).

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾[١].

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أن اختلاف النباتات في الطعم رغم الاتحاد في التربة والماء من العلامات الكبرى لمن تأمل وعقل وتدبر، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[٢].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ والكمثرى، والعنب الأبيض والأسود، بعضها حلو، وبعضها حامض، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماعها على شراب واحد...[٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾[٥].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقوله جل جلاله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي

---

(١) سورة الحج آية (٦٣).
(٢) سورة الرعد آية (٤).
(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٩٨).
(٤) سورة الزمر آية (٢١).
(٥) سورة غافر آية (١٣).

من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى[١].

وقال محمد الأمين الشنقيطي[٢] رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه جل وعلا هو الذي يري خلقه آياته، أي الكونية القدرية ليجعلها علامات لهم على ربوبيته، واستحقاقه العبادة وحده، ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر كما قال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[٣] الآية.

ومنها السموات والأرض، وما فيها، والنجوم، والرياح، والسحاب والبحار والأنهار، والعيون والجبال والأشجار، وآثار قوم هلكوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٣).

(٢) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الجكني، العلامة الأصولي المفسر اللغوي، طلب العلم وحفظ القرآن وهو صغير، ودرس مختلف علوم الشريعة، وكان من كبار العلماء، توفي سنة ١٣٩٣هـ.
مقدمة أضواء البيان (١/ ٣ ـ ٦٤) حيث ترجم له تلميذه عطية محمد سالم.
علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب (١٦١ ـ ١٨١) والمستدرك على معجم المؤلفين لكحالة (ص٦٠٧).

(٣) سورة فصلت آية (٣٧).

بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾[٤].

وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن، من أنه هو الذي يري خلقه آياته بينة وزاده إيضاحاً في غير هذا الموضع، فبيّن أنه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد ﷺ حق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾[٥]»[٦].

والذي نخلص إليه مما تقدم أن هذه الدلالات والآيات دليل واضح على أن لهذا الكون إلهاً قادراً حكيماً يتصرف فيه كيف شاء بيده الخلق والأمر وهو الله سبحانه وتعالى المستحق للعبادة دون سواه.

---

(١) سورة البقرة آية (١٦٤).
(٢) سورة آل عمران آية (١٩٠).
(٣) سورة الجاثية الآيتان (٣ ـ ٥).
(٤) سورة يونس آية (٦).
(٥) سورة فصلت آية (٥٣).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٧٤، ٧٥).

الفصل الثالث
توحيد الأسماء والصفات

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الثاني: مذهب السلف في أسماء الله وصفاته وترجيح ابن رجب له.

المبحث الثالث: أدلة توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الرابع: بيانه أن السلف أعلم ومذهبهم أسلم وأحكم.

المبحث الخامس: بيانه أن سورة الإخلاص فيها صفة الرحمن.

المبحث السادس: بيانه أن الاشتراك في الاسم لا يقتضي الاشتراك في المسمى.

المبحث السابع: ذكر جملة من الصفات التي ذكرها ابن رجب رحمه الله تعالى.

١ ـ صفة العلم.

٢ ـ صفة الغنى.

٣ ـ صفة المعية.

٤ ـ صفة المجيء والإتيان.

٥ ـ صفة النزول.

المبحث الثامن: شبه حول صفة النزول والرد عليها.

المبحث التاسع: رده على المخالفين لمذهب السلف من المعطلة والمشبهة.

المبحث العاشر: تنزيه الله سبحانه وتعالى من نسبة الولد إليه.

المبحث الحادي عشر: علم الكلام وكلام ابن رجب عليه.

المبحث الأول
تعريف توحيد الأسماء والصفات

هو إفراد الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي وردت في الكتاب والسنة وذلك بإثبات ما أثبته سبحانه لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تحريف[١] لألفاظها أو معانيها ولا تعطيلها[٢] بنفيها أو نفي بعضها عن الله عز وجل، ولا تكييفها[٣] بتحديد كنهها أو إثبات كيفية معينة لها ولا تمثيلها[٤] أو تشبيهها[٥] بصفات المخلوقين وإنما إثبات يليق بجلاله وعظمته وكبريائه عز وجل

---

(١) التحريف هو: تغيير ألفاظ أسماء الله الحسنى وصفاته العلى أو تغيير معانيها إلى معان باطلة لا يدل عليها الكتاب والسنة.
فالتحريف اللفظي مثل نصب لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿**وكلم الله موسى تكليماً**﴾ ليكون التكلم من موسى.
والتحريف المعنوي كتحريف معنى اليدين المضافتين إلى الله عز وجل إلى القوة والنعمة ونحو ذلك.

(٢) التعطيل هو: إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات أو إنكار بعضها.

(٣) التكييف هو أن يقال بأن الصفة على هيئة كذا وكيفية معينة.

(٤) التمثيل هو إثبات مثيل للشيء.

(٥) التشبيه هو إثبات مشابه للشيء.
والفرق بين التمثيل والتشبيه أن التمثيل يقتضي المماثلة والمساواة من كل وجه والتشبيه يقتضي المشابهة في أكثر الصفات.
استقيت هذه التعاريف من: التحفة المهدية لابن مهدي (ص٢٥٩) وفتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين (ص٥٤، ٥٥).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١).

وقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى هذا المعنى في مواضع مختلفة من مؤلفاته من ذلك قوله رحمه الله تعالى: «واعلم أن التسبيح والتحميد فيه إثبات صفات الكمال، ونفي النقائص والعيوب»(٢).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً في شرحه لحديث اختصام الملأ الأعلى(٣): «... وأما وصف النبي ﷺ لربه عز وجل بما وصفه به فكل ما وصف النبي ﷺ ربه عز وجل به فهو حق وصدق، ويجب الإيمان والتصديق به، كما وصف الله عز وجل به نفسه مع نفي التمثيل عنه...»(٤).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً في تفسيره لسورة الإخلاص: ... وحقيقة الكفؤ هو المساوي والمقاوم، فلا كفوء له تعالى في ذاته، ولا

---

(١) سورة الشورى آية (١١).

(٢) تفسير سورة النصر (ص٤٧).

(٣) حديث طويل أخرجه أحمد (١/٣٦٨، ٥/٢٤٣) والترمذي (٣٢٣٥) من حديث معاذ بن جبل وحديث عبد الله بن عباس أوله: «احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة في صلاة الصبح» وفيه يقول الرسول ﷺ: «فإذا أنا بربي - عز وجل - في أحسن صورة، فقال: يا محمد، فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب قال: يا محمد، فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب، فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري، وتجلى لي كل شيء وعرفت».
قال الترمذي عقب حديث معاذ: هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا الحديث فقال: حسن صحيح. وقد أفرده ابن رجب رحمه الله تعالى بشرح مستقل في كتاب اسمه «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى».

(٤) اختيار الأولى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص١١).

في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في ربوبيته ولا في آلهيته[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً في تفسيره لسورة الإخلاص: . . . فقد تضمنت هذه السورة العظيمة إثبات صفات الكمال، ونفي النقائص والعيوب من خصائص المخلوقين من التولد والمماثلة[٢].

وقال أيضاً: . . . وتضمنت إثبات جميع صفات الكمال بإثبات الأحدية فالصمدية تثبت الكمال النافي للنقائص، والأحدية تثبت الانفراد بذلك، فإن الأحدية تقتضي انفراده بصفاته وامتيازه عن خلقه بذاته وصفاته، والصمدية إثبات جميع صفات الكمال ودوامها وقدمها فإن السيد الذي يصمد إليه لا يكون إلا متصفاً بجميع صفات الكمال التي استحق لأجلها أن يكون صمداً وأنه لم يزل كذلك ولا يزال، فإن صمديته من لوازم ذاته لا تنفك عنه بحال[٣].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «إن الله تعالى هو السلام، لأنه القدوس المبرأ من الآفات والنقائص كلها، وذلك واجب له لذاته، ومنه تطلب السلامة لعباده، فإنهم محتاجون إلى السلامة من عقابه وسخطه وعذابه . . .»[٤].

فتوحيد الأسماء والصفات هو إفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته دون تشبيه أو تحريف أو تعطيل.

يقول السفاريني رحمه الله تعالى: «توحيد الصفات أن يوصف الله

---

(١) تفسير سورة الإخلاص (ص١٠٢).
(٢) تفسير سورة الإخلاص (ص٩٧).
(٣) تفسير سورة الإخلاص (ص٩٥، ٩٦).
(٤) فتح الباري (٥/ ١٧٣ ـ ١٧٤).

تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ نفياً وإثباتاً فيثبت له ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه»[١].

وقال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: «توحيد الأسماء والصفات وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى»[٢].



(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ١٢٩).
(٢) تيسير العزيز الحميد (ص١٩).

المبحث الثاني
مذهب السلف في أسماء الله وصفاته وموقف ابن رجب منه

إن مذهب السلف في أسماء الله وصفاته هو مذهب وسط بين الجافية والغالية، بين المعطلة من الجهمية[١] والمعتزلة[٢] ومن سلك مسلكهم من الخوارج[٣]،

---

(١) هي إحدى الفرق المنحرفة عن المنهج القويم، نسبة إلى الجهم بن صفوان الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به، وزعم أيضاً أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان ونفى أسماء الله تعالى وصفاته.
الملل والنحل (١/ ٨٦) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (ص٦٨) والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٣٤) والفرق بين الفرق للبغدادي (ص٢١١).

(٢) هي إحدى الفرق المنحرفة عن الطريق المستقيم مؤسسها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، سموا معتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن البصري، وقيل لاعتزالهم منهج أهل السنة والجماعة، وقيل غير ذلك، من عقائدهم إثبات الأسماء وإنكار جميع الصفات، ومنها أن صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا وفي الآخرة خالد مخلد في النار.
الفرق بين الفرق للبغدادي (ص١١٤) والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٤٩).

(٣) الخوارج: سموا بهذا الاسم لخروجهم على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونزلوا بأرض يقال لها حروراء فسموا بالحرورية، من عقائدهم تكفير أصحاب الكبائر في الدنيا والآخرة، كما يقولون بالخروج على أئمة الجور، وهم يكفرون عثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم جميعاً.
الفصل في الملل والنحل (٢/ ١١٣) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١١٤) والمقالات (١/ ٥٦) والفتاوى (٣/ ٢٧٩).

والأشاعرة[1] وغيرهم من الذين يلحدون في أسماء الله وصفاته، ويعطلون حقائق ما وصف الله به نفسه عز وجل، حتى شبهوه سبحانه وتعالى بالعدم والموات، وبين الممثلة من الكرامية وغلاة الرافضة[2] الذين يضربون لله عز وجل الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات، وكلا المذهبين مجانب للصواب والمذهب الصحيح الذي لا معدل عنه لكل من يريد السير على الصراط المستقيم هو مذهب السلف الذين يؤمنون بأسماء الله وبما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ من صفات الجلال والكمال حقيقة على الوجه الذي يليق بكمال الله تعالى، وجلاله وعزته وعظمته.

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ من صفات لا يجوز ولا يليق أن يوصف بها سبحانه وتعالى.

---

(١) الأشاعرة: هم المنتسبون لأبي الحسن الأشعري الذين هم على مذهبه قبل أن يرجع إلى معتقد أهل السنة والجماعة، وهم في الجملة لا يثبتون من الصفات إلا سبعاً لأن العقل دل على إثباتها، ويؤولون بقية الصفات بتأويلات عقلية رغم ورود النصوص فيها من الكتاب والسنة ولو اتبعوا الحق وأنصفوا لرجعوا إلى منهج أهل السنة والجماعة كما رجع إليه من ينتسبون إليه وهو أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

الملل والنحل (١/ ١٣٨) والفتاوى (٦/ ٥١) ودعوة التوحيد للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله (٢٣٠).

(٢) الرافضة: هم جماعة غلاة الشيعة، سموا بذلك لرفضهم إمامة زيد بن علي حينما توجه إلى قتال هشام بن عبد الملك فقال أصحابه: تبرأ من الشيخين حتى نكون معك فقال: لا بل أتولاهما وأتبرأ ممن تبرأ منهما فقالوا: إذا نرفضك، وهم فرق متعددة، والغلاة منهم هم المجسمة الذين يشبهون الله عز وجل بخلقه وهم الهشامية الذين ينقسمون إلى فرقتين: فرقة تنسب إلى هشام بن الحكم الرافضي، والفرقة الأخرى تنسب إلى هشام بن سالم الجواليقي.

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٤) والمقالات (١/ ٨٩) رسالة في الرد على الرافضة لأبي حامد المقدسي (ص٦٥ ـ ٦٨) الفرق بين الفرق (ص٦٥).

وهم في ذلك يعتمدون على الأدلة الواردة في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[2].

وقد سلك ابن رجب رحمه الله تعالى المنهج الحق منهج أهل السنة والجماعة وأوضحه وبيّنه، ومما قاله في تقرير هذا المسلك قوله: وكلمة السلف وأئمة أهل الحديث متفقة على أن آيات الصفات وأحاديثها الصحيحة كلها تمر كما جاءت من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، قال أبو هلال[3]: سأل رجل الحسن[4] عن شيء من صفة الله عز وجل فقال: أمروها بلا مثال. وقال وكيع[5]: أدركت إسماعيل بن أبي خالد[6]

---

(١) سورة الشورى آية (١١).

(٢) سورة الإخلاص آية (٤).

(٣) محمد بن سليم أبو هلال الراسبي البصري، مولى بني أسامة بن لؤي. قال أبو داود: أبو هلال ثقة، أخرج له البخاري تعليقاً والأربعة، توفي سنة ١٦٧هـ.
الجرح والتعديل (٧/ ٢٧٣) وتهذيب التهذيب (٩/ ١٩٥).

(٤) الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد ـ مولى زيد بن ثابت ـ كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، وكان من أعلم الناس بالحلال والحرام، وقد عرف بالزهد والشجاعة، توفي سنة ١١٠هـ.
أخبار القضاة (٢/ ٣) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣) وتهذيب التهذيب (٢/ ٢٦٣).

(٥) وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الإمام الحافظ، محدث العراق، قال الإمام أحمد فيه: كان وكيع بن الجراح إمام المسلمين في وقته، توفي سنة ١٩٧هـ.
تاريخ بغداد (١٣/ ٤٦٦) وسير أعلام النبلاء (٩/ ١٤٠) وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣٥٧).

(٦) إسماعيل بن أبي خالد الأحمسي، مولاهم، البجلي، تابعي كوفي ثقة ثبت، قال العجلي: كوفي تابعي، ثقة وكان رجلاً صالحاً، سمع من خمسة من أصحاب النبي ﷺ، توفي سنة ١٤٦هـ.
الثقات للعجلي (٦٤) وتهذيب الكمال للمزي (٣/ ٦٩).

وسفيان[١] ومسعر[٢] يحدثون بهذه الأحاديث ولا يفسرون شيئاً. وقال الأوزاعي[٣]: سئل مكحول[٤] والزهري[٥] عن تفسير هذه الأحاديث؟ فقالا: أمروها كما جاءت. وقال الوليد بن مسلم[٦]: سألت الأوزاعي

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أمير المؤمنين في الحديث، من أئمة المسلمين وأعلام الدين مع الإتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد، توفي سنة ١٦١هـ.
التاريخ الكبير (٤/ ٩٢) وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٣) وتهذيب التهذيب (٤/ ١١١).

(٢) مسعر بن كدام ـ بكسر أوله وتخفيف ثانيه ـ بن ظهير الهلالي، أبو سلمة الكوفي، ثقة ثبت فاضل، قال يحيى بن سعيد: ما رأيت أحداً أثبت من مسعر، توفي سنة ١٥٥هـ.
الثقات للعجلي (٤٢٦) والجرح والتعديل (٨/ ٣٦٨) ومشاهير علماء الأمصار (١٦٩) وسير أعلام النبلاء (٧/ ١٦٣).

(٣) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي الدمشقي، عالم أهل زمانه، كان صاحب سنة واتباع، وله مذهب مستقل في الفقه عمل به فقهاء الشام والأندلس مدة، وقد عرف بالزهد والخشوع، توفي سنة ١٥٧هـ.
الجرح والتعديل (١/ ١٨٤) وتذكرة الحفاظ (١/ ١٧٨) وسير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٧).

(٤) مكحول بن عبد الله الدمشقي يكنى أبا عبد الله، من سبي كابل عالم أهل الشام، قال أبو حاتم: ما بالشام أحد أفقه من مكحول، توفي سنة ١١٣هـ، وقيل غير ذلك.
وفيات الأعيان (٥/ ٢٨٠) وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٥).

(٥) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أبو بكر الإمام العلم الحافظ، كان فقيهاً محدثاً، كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق «عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه»، توفي سنة ١٢٤هـ.
وفيات الأعيان (٣/ ٣١٧) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٦) وشذرات الذهب (١/ ١٦٢).

(٦) الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي مولى بني أمية، الإمام الحافظ، عالم أهل الشام، قال ابن سعد: ثقة كثير الحديث والعلم، توفي سنة ١٩٥هـ.
التاريخ الكبير (٨/ ١٥٢) وسير أعلام النبلاء (٩/ ٢١١) وشذرات الذهب (١/ ٣٤٤).

ومالكاً وسفيان وليثاً[١] عن هذه الأحاديث التي فيها الصفة والقرآن؟ فقالوا: أمروها بلا كيف. وقال ابن عيينة[٢]: ما وصف الله به نفسه فقراءته تفسيره ليس لأحد أن يفسره إلا الله عز وجل، وكلام السلف في مثل هذا كثير جداً[٣].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وأما السلف وأئمة أهل الحديث فعلى الطريقة الأولى وهي الإيمان بجميع ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو صح عن رسول الله ﷺ أنه أثبته له مع نفي التمثيل والكيفية عنه كما قاله ربيعة[٤] ومالك وغيرهما من أئمة الهدى في الاستواء، وقد روي عن أم سلمة أم المؤمنين[٥] وقال مثل ذلك غيرهم من العلماء في النزول،

---

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث، الإمام الحافظ، عالم الديار المصرية، كان فقيهاً كثير العلم صحيح الحديث مع الورع والفضل، توفي سنة ١٧٥هـ.
سير أعلام النبلاء (٨/ ١٣٦) وتهذيب التهذيب (٨/ ٤٥٩).

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، أبو محمد الكوفي، المحدث كان من الحفاظ المتقنين، قال الشافعي: ما رأيت أحداً أحسن تفسيراً للحديث منه، توفي سنة ١٩٨هـ.
الجرح والتعديل (١/ ٣٢) وسير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٤) وتهذيب التهذيب (٤/ ١١٧).

(٣) فتح الباري ورقة (١٧٣).

(٤) ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ القرشي، أبو عثمان المشهور بربيعة الرأي، الإمام الفقيه، مفتي المدينة وعالم زمانه، كان ذا فطنة وسنة، قال ابن معين: ثقة كثير الحديث، توفي سنة ١٣٦هـ.
سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٩) وتهذيب التهذيب (٣/ ٢٥٨) وشذرات الذهب (١/ ١٩٤).

(٥) قول أم سلمة في الاستواء الذي أشار إليه ابن رجب أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٧) وأبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف (ص٨١) والذهبي في العلو (ص٦٥) من طريق الحسن عن أمه عن أم سلمة في قوله =

وكذلك القول في سائر الصفات، والله سبحانه وتعالى الموفق»[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «... وأما طريقة أئمة أهل الحديث وسلف الأمة فهي إقرار النصوص وإمرارها كما جاءت، ونفي الكيفية عنها والتمثيل... ومن قال الظاهر منها غير مراد، قيل له: الظاهر ظاهران ظاهر يليق بالمخلوقين ويختص بهم فهو غير مراد، وظاهر يليق بذي الجلال والإكرام فهو مراد، ونفيه تعطيل، ولقد قال بعض أئمة الكلام والفلسفة من شيوخ الصوفية الذين يحسن بهم المتكلمون الظن: إن المتكلمين بالغوا في تنزيه الله عن مشابهة الأجسام فوقعوا في تشبيهه بالمعاني، والمعاني محدثة كالأجسام، فلم يخرجوا عن تشبيهه بالمخلوقات.

وهذا كله إنما أتى من ظن أن تفاصيل معرفة الجائز على الله والمستحيل عليه يوجد من أدلة العقول ولا يوجد مما جاء به الرسول ﷺ، وأما أهل العلم والإيمان فيعلمون أن ذلك كله متلقى مما جاء به الرسول ﷺ، وأن ما جاء به من ذلك عن ربه فهو الحق الذي لا مزيد عليه، ولا عدول عنه، وأنه لا سبيل إلى تلقي الهدى إلا منه، وأنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ الصحيحة ما ظاهره كفر أو تشبيه أو مستحيل، بل كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ فإنه حق وصدق

= تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ سورة طه آية (٥). قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر. قال الذهبي: «هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأي ومالك الإمام وأبي جعفر الترمذي، فأما عن أم سلمة فلا يصح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكر قول الإمام مالك في الاستواء: وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه.

مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥).

(١) فتح الباري ورقة (٥/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

يجب اعتقاد ثبوته مع نفي التمثيل عنه فكما أن الله ليس كمثله شيء في ذاته، فكذلك في صفاته وما أشكل فهمه من ذلك فإنه يقال فيه ما مدح الله الراسخين من أهل العلم إنهم يقولونه عند المتشابهات: آمنا به كل من عند ربنا، وما أمر به رسول الله ﷺ في متشابه الكتاب أنه يرد إلى عالمه، والله يقول الحق ويهدي السبيل(١).

هكذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ومن سلك سبيلهم كانوا متفقين على هذا المنهج، كلمتهم واحدة، لم يقابلوا الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية بالتأويل والتحريف ولم يعارضوها بعقولهم بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإجلال والتعظيم، ولم يتكلم أحد منهم في شيء من أمور الدين إلا تبعاً لما قاله الله عز وجل، ولما نطق به رسوله ﷺ.

يقول محمد بن الحسن(٢) رحمه الله تعالى: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تغيير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا(٣).

---

(١) فتح الباري (٥/ ١٠٠).

(٢) محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، فقيه العراق وصاحب أبي حنيفة، صنف الجامع الكبير والجامع الصغير وغيرهما، توفي سنة ١٨٩هـ.
وفيات الأعيان (٤/ ١٨٤) وسير أعلام النبلاء (٩/ ١٣٤).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٣٢) وإثبات صفة العلو لابن قدامة (ص١١٧).

ويقول شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني[١] رحمه الله تعالى مبيناً عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله تبارك وصفاته: «أصحاب الحديث حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم، يشهدون لله بالوحدانية، وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، أو شهد بها رسوله ﷺ على ما وردت الأخبار الصحاح به ونقلته العدول الثقات عنه، ويثبتون لله جل جلاله ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه، فيقولون: إنه خلق آدم بيده كما نص سبحانه عليه في قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[٢] ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين، تحريف المعتزلة الجهمية، أهلكهم الله، ولا يكيفونهما بكيف أو تشبيههما بأيدي المخلوقين، وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف، ومنّ عليهم بالتعريف، والتفهيم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واتبعوا قول الله عز وجل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[٣].

وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة، والقدرة والعزة والعظمة والإرادة، والمشيئة والقول والكلام، والرضا

---

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل، أبو عثمان الصابوني مقدم أهل الحديث في بلاده، كان على منهج أهل السنة ويلقب بشيخ الإسلام، توفي سنة ٤٤٩هـ.
سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٠) وتهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣١٤)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ١٠٧) وشذرات الذهب (٣/ ٢٨٢).

(٢) سورة ص آية (٧٥).

(٣) سورة الشورى آية (١١).

والسخط والحياة واليقظة[١] والفرح والضحك وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى، وقاله رسوله ﷺ من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل منكر، ويجرونه على الظاهر، ويكلون علمه إلى الله تعالى..»[٢].

وقال حافظ المغرب ابن عبد البر[٣] رحمه الله تعالى: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج، فكلهم ينكرها، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهم أئمة الجماعة والحمد لله»[٤].

---

(١) هذه اللفظة لم ترد في نصوص الكتاب والسنة، والسلف دائماً يتقيدون بما ورد في الكتاب والسنة.

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص٧٥، ٧٦) ضمن مجموعة الرسائل الكمالية في التوحيد.

(٣) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي أبو عمر، من كبار حفاظ الحديث، يقال له حافظ المغرب، ولد بقرطبة سنة ٣٦٨هـ، له مؤلفات عظيمة منها «التمهيد»، والاستيعاب، قال الذهبي: كان في أصول الديانة على مذهب السلف، ولم يدخل في علم الكلام، توفي سنة ٤٦٣هـ.
وفيات الأعيان (٧/ ٦٦) وسير أعلام النبلاء (١٨/ ١٥٣) وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص٤٣١).

(٤) التمهيد (٧/ ١٤٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فأما الأول وهو التوحيد في الصفات، فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[٢] الآية. فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه، وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣] ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد للإلحاد والتعطيل[٤].

هذا هو منهج السلف في معرفتهم لربهم عن طريق معرفة أسمائه وصفاته التي اتصف بها كما جاءت به الأدلة في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) سورة الأعراف آية (١٨٠).
(٢) سورة فصلت آية (٤٠).
(٣) سورة الشورى آية (١١).
(٤) الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام (ص٤).

وقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أن هذا هو المنهج القويم وهو الصواب الذي يجب على كل مسلم اتباعه والأخذ به، ولا يجوز العدول عنه والأخذ بما سواه.

فقال رحمه الله تعالى: والصواب ما عليه السلف الصالح من إمرار آيات الصفات، وأحاديثها، كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك البتة خصوصاً الإمام أحمد، ولا خوضاً في معانيها، ولا ضرب مثل من الأمثال لها، وإن كان بعض من كان قريباً من زمن أحمد فيهم من فعل شيئاً من ذلك اتباعاً لطريقة مقاتل[١] فلا يقتدى به في ذلك، إنما الاقتداء بأئمة الإسلام كابن المبارك[٢] ومالك والثوري والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق[٣]

---

(١) مقاتل بن سليمان بن بشر البلخي، اشتهر بالتفسير. قال ابن المبارك «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة». وذكر كل من ترجم له أنه اشتهر عنه القول بالتجسيم، وذهب ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى أن ما رمي به من التشبيه والتجسيم ليس بصحيح، وإنما هذا قاله أعداؤه من النفاة كالجهمية وغيرهم، فنسب القول إليه بالتشبيه، وهو منه بريء، والله أعلم بالصواب، توفي بالعراق سنة ١٥٠هـ.
تاريخ بغداد (١٣/ ١٦٠) ومنهاج السنة (٢/ ٦١٨) وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠١).

(٢) عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم المروزي، الحافظ شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، قال ابن معين: ذاك أمير المؤمنين في الحديث، توفي سنة ١٨١هـ.
حلية الأولياء (٨/ ١٦٢) وسير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٨) وتهذيب التهذيب (٥/ ٣٨٢).

(٣) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد التميمي ثم الحنظلي المروزي، المعروف بابن راهويه، نزيل نيسابور، سيد الحفاظ وشيخ المشرق في زمانه. قال الإمام أحمد عنه: لا أعرف لإسحاق في الدنيا نظيراً، وقال النسائي فيه: أحد الأئمة، ثقة مأمون، توفي سنة ٢٣٨هـ.
سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٥٨) والبداية والنهاية (١٠/ ٢٣١).

وأبي عبيد[(١)] ونحوهم[(٢)]..

فابن رجب رحمه الله تعالى كما اتضح من قوله هذا يرى أن منهج السلف هو المنهج الذي يجب الأخذ به وعدم العدول عنه لأنه منهج يعتمد على الكتاب والسنة، وهو يتركز على الأسس الآتية:

١ - الإثبات.

٢ - التنزيه.

٣ - عدم إدراك الكيفية.

الأول: الإثبات:

أما الإثبات فإن السلف يعتقدون ما دل عليه صريح الكتاب وصحيح السنة من أسماء الله تعالى وصفاته، ويثبتونها على ما يليق بجلاله مع اعتقادهم أنها دالة على معان ثابتة كاملة في نفس الأمر، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وقد روي عن كثير من السلف ما يدل على أن مذهبهم هو الإثبات وقد ذكرت جملة من أقوالهم في أول هذا المبحث وهي تدل على أن السلف يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن ذاته وأسمائه وصفاته ولا يفرقون بين الذات والصفات كما فعلت الجهمية والمعتزلة، كما أنهم لا يفرقون بينها، فيثبتون البعض، وينكرون الآخر كما فعلت الأشاعرة ومن نحا نحوهم.

---

(١) القاسم بن سلام بن عبد الله أبو عبيد الإمام الحافظ، اشتغل بالحديث والأدب والفقه، وكان ذا دين وسيرة جميلة ومذهب حسن. له تصانيف كثيرة منها غريب الحديث والأمثال والأموال، توفي سنة ٢٢٤هـ.
طبقات الحنابلة لأبي يعلى (١/٢٥٩) وسير أعلام النبلاء (١٠/٤٩٠) والنجوم الزاهرة (٢/٢٤١) وبغية الوعاة (٢/٢٥٣).

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٣٩، ١٤٠).

وكلامهم في الإثبات يرتكز على أمرين:

١ ـ القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات.

فإن قيل: كيف استوى على عرشه؟

يقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة، كما أجاب ربيعة ومالك وغيرهم رحمهم الله تعالى وإن قيل: كيف ينزل ربنا؟

يقال: كيف هو في ذاته؟

فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: لا نعلم كيفية نزوله، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له، وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته.

وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال، لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه، ونزوله، واستواءه ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين، وبصرهم، وكلامهم، واستواؤهم ونزولهم.

وهذا كلام لازم لهم في العقليات، وفي تأويل السمعيات، فإن من أثبت شيئاً، ونفى شيئاً بالعقل، ألزم إذاً فيما نفاه من الصفات التي جاء بها الكتاب والسنة نظير ما يلزمه فيما أثبته.

ولو طولب بالفرق بين المحذور في هذا وهذا لم يجد بينهما فرقاً.

٢ ـ القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، فإن من أثبت بعض الصفات كالحياة والقدرة، والإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة وينكر المحبة والرضا والغضب ويجعل ذلك مجازاً.

يقال له: ما الفرق بين ما أثبته وما نفيته؟

بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فإن قال: إن إرادة الله مثل إرادة الخلق قيل: فكذلك رضاؤه ومحبته وهذا هو التمثيل.

وإن قال: إن له إرادة تليق به كما أن للمخلوق إرادة تليق به، قيل له: فكذلك له محبة تليق به، وللمخلوق محبة تناسب حاله وكذلك سائر الصفات كالرضا والغضب.

فإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، يقال له والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة فإن قال: هذه إرادة المخلوق، قيل: هذا غضب المخلوق، وكذلك يلزم القول في بقية الصفات، فيجب أن يؤخذ الكل، أو يقال في الكل بما يقال في البعض[(١)].

وقد جمع بين هذين الأصلين الإمام أحمد رحمه الله تعالى في قوله: إنما التشبيه أن تقول يد كيد أو وجه كوجه، فأما إثبات يد ليست كالأيدي، ووجه ليس كالوجوه، فهو إثبات ذات ليست كالذوات، وحياة ليست كغيرها من الحياة وسمع وبصر ليس كالأسماع والأبصار، وليس إلا هذا المسلك، أو مسلك التعطيل المحض، أو التناقض الذي لا يثبت لصاحبه قدم في النفي، ولا في الإثبات[(٢)].

---

(١) الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام مع تصرف يسير (ص١٥ ـ ٢١).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١/ ١١٧).

الثاني: التنزيه:

أما التنزيه فإن السلف يعتقدون أن الله لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فمن شبه الله بخلقه، وألحد في أسمائه وصفاته، وجحد ما وصف الله به نفسه، فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه أو ما وصفه به رسوله ﷺ تشبيهاً أو تمثيلاً كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١] كما أنهم ينفون عنه سبحانه ـ كل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ اعتقاداً بأن المراد من النفي هو إثبات كمال ضده، وليس النفي المحض، لأن النفي المحض لا يقصد به المدح إلا إذا تضمن إثبات كمال ضد ذلك المنفي، فكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً، فإن الله منزه عنه حقيقة.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر، فنثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١]»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن خزيمة[٣] رحمه الله تعالى عند كلامه على صفة الوجه لله عز وجل: فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة،

---

(١) سورة الشورى آية (١١).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٢٨٣) حيث ساقه المؤلف بإسناده إلى الشافعي وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

(٣) أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة السلمي النيسابوري الإمام الحافظ الحجة، كان سلفي العقيدة على طريقة أهل الحديث. له مصنفات مفيدة منها: كتاب التوحيد، كتاب صحيح ابن خزيمة، توفي سنة ٣١١هـ.
الجرح والتعديل (٧/ ١٩٦) وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٥) وشذرات الذهب (٢/ ٢٦٢).

واليمن، والعراق والشام ومصر مذهبنا: أنا نثبت لله ما أثبته لنفسه نقر بذلك بألسنتنا، ونصدق ذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عز ربنا عن أن يشبه المخلوقين وجل ربنا عن مقالة المعطلين وعز أن يكون عدماً كما قاله المبطلون، لأن ما لا صفة له عدم تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ[1].

وعمدة السلف رحمهم الله تعالى في هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[2].

وقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[4].

وغيرها من الآيات التي أخبر الله فيها بأنه منزه عن الكفء والمثل والند والشبيه، لأنه تبارك وتعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقص فيه منزه عن صفات النقص مطلقاً، ومنزه عن أن يماثله غيره في صفات كماله.

الثالث: قطع الأطماع عن إدراك الكيفية والكنه:

لأن إدراك الكيفية مستحيل وليس في إمكان البشر الإحاطة بذاته سبحانه وتعالى لقوله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾[5].

فمعرفة الكيفية لا سبيل بالوقوف عليه، فلا بد من اليأس من

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/٢٦).
(٢) سورة مريم آية (٦٥).
(٣) سورة الشورى آية (١١).
(٤) سورة النحل آية (٧٤).
(٥) سورة طه آية (١١٠).

إدراكها لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنهم لا يحيطون به علماً، لأن هذا أمر غيبي والأمور الغيبية لا تدرك كيفياتها بالعقل.

والواجب الذي كلفنا به وأمرنا باعتقاده هو الالتزام بما جاءت به الأدلة الشرعية، ونهينا عن تجاوز ذلك والخوض فيما لا علم لنا به، ولا يمكننا إدراكه والوقوف على حقيقته وكيفيته، وهذا أصل معروف عند السلف رحمهم الله تعالى، فإنهم يقرون بكل ما جاء في كتاب الله أو على لسان نبيه ﷺ بلا كيف ولا مثيل.

قال ابن قتيبة[١] رحمه الله تعالى: وعدل القول في هذه الأخبار أن نؤمن بما صح منها بنقل الثقات لها، فنؤمن بالرؤية والتجلي، وأنه يعجب وينزل من السماء، وأنه على العرش استوى، وبالنفس واليدين من غير أن نقول بكيفية أو بحد، أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت[٢].

وقال ابن قدامة المقدسي[٣] رحمه الله تعالى: . . . وعلى هذا درج

---

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ولد في بغداد سنة ٢١٣هـ، كان على مذهب السلف رحمهم الله تعالى، له مؤلفات مفيدة منها: مشكل الحديث، ومنها الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية، قال الخطيب: كان ثقة ديناً فاضلاً. وقال الذهبي: كان رأساً في علم اللسان العربي، والأخبار وأيام الناس، مات سنة ٢٧٦هـ.

تاريخ بغداد (١٠/ ١٧٠) وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٩٦) وبغية الوعاة (٢/ ٦٣).

(٢) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية (ص٢٤٣).

(٣) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، ولد سنة ٥٤١هـ كان عالم الشام في زمانه قال ابن النجار: كان إمام الحنابلة بجامع دمشق وكان ثقة حجة نبيلاً، غزير الفضل، نزهاً، ورعاً عابداً، على قانون السلف، عليه النور والوقار. من مؤلفاته في العقيدة: لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، وذم التأويل، مات سنة ٦٢٠هـ بدمشق.

التكملة في وفيات النقلة للمنذري (٣/ ١٠٧) وسير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٥) وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ١٣٣) وشذرات الذهب (٥/ ٨٨).

السلف وأئمة الخلف، كلهم متفقون على الإقرار والإمرار والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من غير تعرض لتأويله[١].

وقال الخطيب البغدادي[٢] رحمه الله تعالى: أما الكلام في الصفات، فإن ما روي منها في السنن والصحاح مذهب السلف رضي الله عنهم إثباتها وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين عز وجل إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف... ونقول إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣] وقوله عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[٤][٥] فلا طريق للعلم بذاته وصفاته وأسمائه عز وجل إلا بالخبر عنه سبحانه لما بلغنا ذلك رسول الهدى ﷺ وعلى ذلك فإننا لا نعلم عن ذاته وأسمائه وصفاته إلا ما جاء به الخبر، فعلينا أن نقف عند الحد الذي جاء به الخبر من غير سؤال عن كيفية ذلك، ولا بحث عن كنهها لأنه ليس بوسعنا ولا من حقنا أن نتكلم فيما لا نعلم، ولذلك أثر عن كثير من السلف أنهم قالوا عندما سئلوا عن كيفية استواء الله

---

(١) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد (ص١٠).

(٢) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد البغدادي الحافظ المحدث المؤرخ، ولد سنة ٣٩٢هـ، قال الذهبي: أحد الأئمة الأعلام وصاحب التواليف المنتشرة في الإسلام. له مصنفات كثيرة من أشهرها: تاريخ بغداد، مات سنة ٤٦٣هـ.
العبر للذهبي (٢/ ٣١٤) ووفيات الأعيان (١/ ٩٢) وشذرات الذهب (٣/ ٣١١).

(٣) سورة الشورى آية (١١).

(٤) سورة الإخلاص آية (٤).

(٥) ذم التأويل لابن قدامة (ص١٥) وذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٤٢).

عز وجل: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[١].

فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا وأن السؤال عنه بدعة.

ولذلك كان اعتقاد السلف في هذا الباب إثباتاً بريئاً من التمثيل وتنزيهاً خالياً من التعطيل على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

والله الهادي إلى سواء السبيل.

  

---

(١) تقدم (ص١٩٧).

(٢) سورة الشورى آية (١١).

المبحث الثالث
أدلة توحيد الأسماء والصفات

بينت فيما سبق من مباحث هذا الفصل تعريف توحيد الأسماء والصفات ومنهج السلف الصالح فيه وما قاله ابن رجب رحمه الله تعالى فيه والتي ملخصها: وجوب الإيمان بما ثبت لله عزّ وجلّ من الأسماء الحسنى والصفات العلى إثباتاً يليق بجلاله وعظمته وكبريائه، ونفي جميع النقائص والعيوب عنه عزّ وجلّ.

وقد وردت أدلة كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ تدل على ذلك كله.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة آية (٢٥٥).

(٢) سورة البروج الآيات (١٤ ـ ١٦).

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾(٣).

ومنها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾(٤).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ

---

(١) سورة يس آية (٨٢).

(٢) سورة الحشر الآيات (٢٢ ـ ٢٤).

(٣) سورة الحديد الآيات (١ ـ ٦).

(٤) سورة آل عمران الآيات (١ ـ ٦).

﴿فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له. قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً[٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكلها دالة على أن الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وله الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له.

وأما الأحاديث التي وردت في إثبات أسماء الرب الحسنى وصفاته العلى فهي كثيرة جداً لا تقل عن أحاديث الصلاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك من مسائل الأحكام.

ومنها: حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو من الليل: اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض، ومن فيهن، لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، قولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة حق،

---

(١) سورة الإسراء آية (١١١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٩).

والنار حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك انبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسررت وأعلنت، أنت إلٰهي لا إله لي غيرك[١].

وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يد الله ملأى لا يغيضُها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يَغِضْ ما في يده، وقال: عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع[٢].

وحديث عبد الله بن مسعود أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسك السماوات على أصبع والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر على أصبع، والخلائق على أصبع، ثم يقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[٣] قال عبد الله: فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً له[٤].

قال البغوي[٥] رحمه الله تعالى: والأصبع المذكورة في الحديث

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: **﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾** (٨/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **﴿لما خلقت بيدي﴾** (٨/ ١٧٣).

(٣) سورة الزمر آية (٦٧).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **﴿لما خلقت بيدي﴾** (٨/ ١٧٤).

(٥) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الفقيه المحدث المفسر، قال الذهبي: كان على منهاج السلف، وله القدم الراسخ في التفسير، والباع المديد في الفقه، له مصنفات مفيدة منها: شرح السنة، توفي سنة ٥١٦هـ.
سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٣٩) وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ١٦١).

صفة من صفات الله عزّ وجلّ، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل في صفات الله تعالى، كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرجل، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك والفرح... فهذه ونظائرها صفات الله تعالى ورد بها السمع يجب الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها معرضاً فيها عن التأويل مجتنباً عن التشبيه، معتقداً أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيئاً من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١)(٢).

وعن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله عزّ وجلّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور (وفي رواية أبي بكر: النار) لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خلقه»(٣).

وعن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»(٤).

---

(١) سورة الشورى آية (١١).

(٢) شرح السنة (١/ ١٦٨ - ١٧٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام...» (١/ ١٦١).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٨/ ٢٠٢) ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (٢/ ٧٠٣).

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر»[(١)].

وعن جرير قال: كنا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة ـ يعني البدر ـ فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون[(٢)] في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[(٣)]».

قال إسماعيل[(٤)]: افعلوا لا تفوتنكم[(٥)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: يقول الله تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (٢/ ٤٧) ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (١/ ٥٢٢).

(٢) لا تضامون: يروى بالتشديد والتخفيف للميم، فالتشديد معناه لا ينضم بعضكم إلى بعض، وتزدحمون وقت النظر إليه ـ ويجوز فتح التاء وضمها ـ ومعنى التخفيف لا ينالكم ضيم في رؤيته فيراه بعضكم دون بعض، والضيم الظلم. النهاية لابن الأثير (٣/ ١٠١).

(٣) سورة ق آية (٣٩).

(٤) هو إسماعيل بن أبي خالد، تقدمت ترجمته.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (١/ ١٣٨) ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (١/ ٤٣٩).

إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[١].

وقد بين ابن رجب رحمه الله تعالى أن ما جاء في هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث التي تثبت صفات الله تبارك وتعالى أنها تثبت من غير تحريف ولا تشبيه ولا تمثيل بل على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته، ومن فهم من هذه الأحاديث تشبيهاً أو حلولاً فإنما فهمه بسبب جهله وعدم معرفته بربه، والله ورسوله بريئان من ذلك.

قال رحمه الله تعالى بعد أن ذكر بعضاً من هذه الأحاديث التي ذكرتها: . . . ومن فهم شيئاً من هذه النصوص تشبيهاً أو حلولاً أو اتحاداً فإنما أتي من جهله، وسوء فهمه عن الله عزّ وجلّ وعن رسوله، والله ورسوله بريئان من ذلك كله، فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً في شرحه للحديث القدسي: وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. . .[٣] «. . . فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه، فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به وإن بطش بطش به، فهذا هو المراد بقوله: (كنت

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (٨/ ١٧١) ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (٤/ ٢٠٦١).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٨٩).
(٣) تقدم تخريجه (ص١٦٨).

سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها) ومن أشار إلى غير هذا فإنما يشير إلى الإلحاد من الحلول، والاتحاد، والله ورسوله بريئان منه...»[1].



(١) جامع العلوم والحكم (٣/١٦٧، ١٦٨).




المبحث الرابع
بيانه أن السلف أعلم وأن مذهبهم أسلم وأحكم

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: ... وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من نطق في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة، ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله.

ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين، وهذا يلزم منه ما قبله لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولاً ممن كان قبلهم، فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله، كان أعلم ممن كان أقل منهم قولاً بطريق الأولى، كالثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطبقتهم، وممن قبلهم من التابعين والصحابة أيضاً فإن هؤلاء كلهم أقل كلاماً ممن جاء بعدهم.

وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح، وإساءة الظن بهم، ونسبته لهم إلى الجهل وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقد صدق ابن مسعود في قوله في الصحابة رضي الله عنهم: «أنهم أبر الأمة قلوباً وأعمقها علوماً وأقلها تكلفاً...»[(١)].

وفي هذا إشارة إلى أن من بعدهم أقل علوماً وأكثر تكلفاً. وقال

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص٣٦٨).

ابن مسعود أيضاً: «إنكم في زمان كثير علماؤه، قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه، كثير خطباؤه»[١].

فمن كثر علمه وقلّ قوله فهو ممدوح، ومن كان بالعكس فهو مذموم[٢].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: . . . فمن عرف قدر السلف عرف أن سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام، وكثرة الجدال، والخصام، والزيادة والبيان، على مقدار الحاجة، لم يكن عياً ولا جهلاً، ولا قصوراً، وإنما كان ورعاً وخشية لله، واشتغالاً عما لا ينفع بما ينفع.

وسواء في ذلك كلامهم في أصول الدين، وفروعه، وفي تفسير القرآن والحديث، وفي الزهد، والرقائق، والحكم، والمواعظ، وغير ذلك مما تكلموا فيه.

فمن سلك سبيلهم، فقد اهتدى، ومن سلك غير سبيلهم، ودخل في كثرة السؤال، والبحث، والجدال، والقيل والقال، فإن اعترف لهم بالفضل، وعلى نفسه بالنقص، كان حاله قريباً. . .

وإن ادَّعى لنفسه الفضل، ولمن سبقه النقص والجهل، فقد ضلّ ضلالاً مبيناً، وخسر خسراناً عظيماً. . .[٣].

فقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق أن السلف رضي الله عنهم كانوا أهل نظر ودراية، وأنهم كانوا أسلم وأحكم وأعلم في أصول الدين وفروعه بل في كل قضية من قضايا هذا الدين الحنيف.

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في العلم (ص١٣٥) والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٦٧) وصححه الحافظ في الفتح (١٠/ ٥١٠).

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٤٦).

(٣) المصدر السابق (ص١٦١).

وهو بهذا يرد رحمه الله تعالى على قول بعض المتأخرين الذين يقولون: أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

يقول البيجوري(١): وطريقة الخلف أعلم وأحكم، لما فيها من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم، وهي الأرجح، وطريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى(٢).

ولا شك أن هذا فهم سقيم من هؤلاء المتكلمين لأنهم ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بالألفاظ في القرآن والحديث من غير فقه لذلك.

وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، فجمع هذا القائل بقوله هذا بين الجهل بطريقة السلف، وتنقيصهم، وبين تفضيل طريقة الخلف ورفع مكانتهم.

والحقيقة أن الأمر ليس كما حكاه البيجوري وغيره لأن السلف رحمهم الله تعالى في غاية المعرفة بما يليق بالله تعالى، وفي غاية التعظيم له، والخضوع والتسليم لأمره، وهم أعلم الأمة بنصوص الكتاب والسنة وأبلغهم في فهم معانيها على حسب مراد الله ورسوله ﷺ.

فكيف يكون الخلف أعلم وأحكم بأسماء الله وصفاته من هؤلاء الذين هم ورثة الأنبياء والمرسلين، وهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن بقية الأمم الذين لم يكن لهم كتاب.

---

(١) هو إبراهيم بن محمد بن أحمد البيجوري، شيخ الجامع الأزهر في وقته، كان على المذهب الشافعي في الفقه، والمذهب الأشعري في العقيدة، له عدة مؤلفات منها: تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، توفي سنة ١٢٧٧هـ.
الأعلام (١/ ٧١) ومعجم المؤلفين (١/ ٨٤).

(٢) تحفة المريد (ص٩١).

فالحق ما ساروا عليه، والعلم ما بينوه وأوضحوه، وما عدا ذلك فهو علم لا منفعة فيه، وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذا فقال: فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثوراً عن الصحابة والتابعين وتابيعهم، إلى أن ينتهي إلى زمن أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم، فضبط ما روي عنهم في ذلك أفضل العلم، مع تفهمه وتعقله والتفقه فيه، وما حدث بعدهم من التوسع لا خير في كثير منه إلا أن يكون شرحاً بكلام يتعلق بكلامهم.

وأما ما كان مخالفاً لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة، فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله.

ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة، والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدي إليه من بعدهم، ولا يلم به.

فمن لم يأخذ العلم من كلامهم فإنه ذلك الخير كله، مع ما يقع في كثير من الباطل متابعة لمن تأخر عنهم[(١)].

وبهذا يتبين لنا صحة الموقف الذي اتخذه ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان حال السلف وصحة منهجهم في أمور الدين كلها.

  

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٤٧، ١٤٨).

المبحث الخامس
بيانه أن سورة الإخلاص فيها صفة الرحمن

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: فهذه السورة هي نسب الرحمن وصفته، وهي التي أنزلها الله في نفي ما أضاف إليه المبطلون من تمثيل، وتجسيم، وإثبات أصل وفرع، فدخل فيها ما يقوله من يقوله من المشركين، والصابئة[1] وأهل الكتاب ومن دخل فيهم من منافقي هذه الأمة من تولد الملائكة أو العقول، أو النفوس أو بعض الأنبياء، أو غير الأنبياء ودخل فيها ما يقوله من يقوله من المشركين وأهل الكتاب من تولده عن غيره كالذين قالوا في المسيح أنه الله، والذين يقولون في الدجال: أنه الله، والذين يقولون ذلك في علي وغيره.

ودخل ما يقوله من يقول من المشركين وأهل الكتاب من إثبات كفو له في شيء من الأشياء، مثل من يجعل له بتشبيهه، أو تجسيمه كفواً له، أو يجعل له بعبادة غيره كفواً، أو يجعل له بإضافة بعض خلقه إلى غيره

(١) الصابئة: الصابئ في اللغة هو التارك لدينه الذي شرع له إلى دين غيره. والصابئة: أمة كبيرة، وهم القوم الذين بعث فيهم إبراهيم عليه السلام، هم أهل دعوته، وكانوا بحران، فهي دار الصابئة وهم على قسمين: صابئة حنفاء، وصابئة مشركين والمشركون منهم هم الذين يعبدون الكواكب والبروج ويعظمونها ويصورونها في هياكلهم.
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٩٠) والملل والنحل (٢/ ٥) وإغاثة اللهفان (٢/ ٢٤٥).

كفواً، فلا كفو له في شيء من صفاته، ولا في ربوبيته ولا في آلهيته.

فتضمنت هذه السورة تنزيهه، وتقدسيه، عن الأصول والفروع، والنظراء، والأمثال[١].

ويقول أيضاً رحمه الله تعالى: فقد تضمنت هذه السورة العظيمة إثبات صفات الكمال، ونفي النقائص، والعيوب من خصائص المخلوقين من التولد والمماثلة[٢].

ويقول أيضاً رحمه الله تعالى: فهذه السورة تتضمن انفراده ووحدانيته وأنه منقطع النظير، وأنه إنما نزه عن أن يكون من أجناس المخلوقات، لأن أفراد كل جنس من هذه الأجناس متكافئة متماثلة، فالذهب يكافىء الذهب والإنسان يكافىء الإنسان ويزاوجه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[٣].

فما من مخلوق إلا وله كفو، هو زوجه، ونظيره، وعدله، ومثيله فلو كان الحق من جنس شيء من هذه الأجناس، لكان له كفو وعدل، وقد علم انتفاؤه بالشرع والعقل[٤].

وقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى معنى قوله ﷺ: «قل هو الله أحد» تعدل ثلث القرآن لمن صلى بها[٥] فقال: ويستدل به على أن المراد بكونها تعدل ثلث القرآن أجره وثوابه، كما يستدل بحديث أبي الدرداء[٦]

(١) تفسير سورة الإخلاص (ص١٠٠، ١٠١).
(٢) المصدر السابق (ص٩٧).
(٣) سورة الذاريات آية (٤٩).
(٤) تفسير سورة الإخلاص (ص١٠٠).
(٥) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص٤٢٨).
(٦) سيأتي لفظه وتخريجه (ص٢٢٨).

على أنها جزء التوحيد من القرآن، وأنه ثلاثة أجزاء: توحيد وتشريع وقصص[١].

فهذه السورة العظيمة هي صفة الرحمن سبحانه وتعالى وكل سور القرآن هي صفة الرحمن سبحانه وتعالى لأنها كلامه عزّ وجلّ، وكلامه من صفاته تبارك وتعالى ولكن هذه السورة تميزت بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن جلّ جلاله[٢].

وقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى فضائل هذه السورة العظيمة فقال: أما فضائلها فكثيرة جداً:

منها: أنها صفة الرحمن، وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث عائشة أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ (قل هو الله أحد) فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله يحبه»[٣].

ومنها: أن حبها يوجب محبة الله، لهذا الحديث المذكور آنفاً، ومنه قول ابن مسعود: «من كان يحب القرآن فهو يحب الله»[٤].

---

(١) تفسير سورة الإخلاص (ص٨٠).

(٢) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري لفضيلة الشيخ عبد الله الغنيمان (ص٦١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٨/ ١٦٣) ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قل هو الله أحد﴾ (١/ ٥٥٧).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٤٢).

ومنها: أن حبها يوجب دخول الجنة... روى مالك عن عبيد الله بن عبد الرحمن[١] عن عبيد بن حنين[٢] قال: سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ: (قل هو الله أحد) فقال رسول الله ﷺ: «وجبت، قلت: وما وجبت؟ قال: الجنة». وأخرجه النسائي والترمذي وقال: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث مالك[٣].

ومنها: أنها تعدل ثلث القرآن ففي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد) يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ـ وكأن الرجل يتقالها فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[٤].

وفي صحيح مسلم... عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن؟ قالوا: نعم، قال: إن الله جزأ

---

(١) عبيد الله بن عبد الرحمن، يقال اسم جده السائب بن عمير، صدوق من السادسة، رواه له الترمذي والنسائي ومالك.
الجرح والتعديل (٥/ ٣٢٣) وتهذيب التهذيب (٧/ ٣٠) وتقريب التهذيب (٢٢٦).

(٢) عبيد بن حنين المدني أبو عبد الله، ثقة فاضل، قليل الحديث، مات سنة ١٠٥هـ.
تهذيب التهذيب (٧/ ٦٣) وتقريب التهذيب (٢٢٨).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٠٨) وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٢) والترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الإخلاص (٥/ ١٦٨) والنسائي: كتاب الافتتاح، باب الفضل في قراءة ﴿قل هو الله أحد﴾ (٢/ ١٧١) والحاكم في المستدرك: كتاب فضائل القرآن (١/ ٥٦٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.
وقال أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند (١٥/ ١٦٥): إسناده حسن.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٨/ ١٦٤).

القرآن ثلاثة أجزاء. فقل هو الله أحد ثلث القرآن»[١].

ومنها: أن قراءتها تكفي من الشر، وتمنعه، وقد ثبت في صحيح البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قرأها مع المعوذتين، ومسح ما استطاع من جسده[٢].

وروى أبو داود[٣] والترمذي[٤] والنسائي[٥] من طريق معاذ بن عبد الله بن خبيب[٦] عن أبيه[٧] عن النبي ﷺ قال له: «قل (قل هو الله أحد) والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثاً تكفيك كل يوم» وصححه الترمذي...

ومنها: أن الدعاء بها مستجاب، ففي السنن الأربعة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يصلي يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ (١/ ٥٥٦).

(٢) أخرجه البخاري: فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٦/ ١٠٦).

(٣) سنن أبو داود: كتاب الأدب، باب ماذا يقول إذا أصبح (٥/ ٣٢١).

(٤) سنن الترمذي: كتاب الدعوات (٥/ ٥٦٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٥) سنن النسائي: كتاب الاستعاذة (٨/ ٢٥٠).

(٦) معاذ بن عبد الله بن خبيب الجهني المدني، صدوق، ربما وهم، من الرابعة، روى له البخاري في الأدب المفرد، وأصحاب السنن الأربعة.
تقريب التهذيب (٣٤٠).

(٧) هو عبد الله بن خبيب الجهني، مدني له صحبة، روى له البخاري في الأدب المفرد، وأصحاب السنن الأربعة.
أسد الغابة (٣/ ١٥٠) والإصابة (٢/ ٢٩٤) وتقريب التهذيب (١٧٢).

يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال: «والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»(١)(٢).

هذه بعض فضائل هذه السورة العظيمة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عظم هذه السورة وعظم ما اشتملت عليه، فهي سورة خالصة لذكر أوصاف الرحمن تبارك وتعالى.



(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٦٠) وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء (٢/ ١٦٧) والترمذي: كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات (٥/ ٥١٥) وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٢/ ١٢٦٧) والحاكم: كتاب الدعاء (١/ ٥٠٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير سورة الإخلاص (ص٧١ ـ ٨٣).

المبحث السادس
بيانه أن الاشتراك في الاسم لا يقتضي الاشتراك في المسمى

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «... وحرم التسمي بأسمائه المختصة به كالله والرحمن والرب».

وإنما يجوز التسمية به مضافاً إلى غير من يعقل، وكذلك الجبار والمتكبر والقهار، ونحو ذلك كالخلاق والرزاق والدائم، ومنه ملك الملوك.

وقد جعل ابن عقيل التسمية بهذا مكروهة.

قال ابن عقيل: «كل ما انفرد به الله كالله والرحمن والخالق لا يجوز التسمي به، وكلما وجد معناه في الآدمي، فإن كان يوجد تكبراً، كالملك العظيم والأعظم، وملك الملوك والجبار فمكروه».

والصواب الجزم بتحريمه، فأما ما يتسمى به المخلوقون من أسمائه كالسميع والبصير والقدير والعليم والرحيم، فإن الإضافة قاطعة الشركة، وكذلك الوصفية، فقولنا: زيد سميع بصير لا يفيد إلا صفة المخلوق.

وقولنا: الله سميع بصير يفيد صفته اللائقة به، فانقطعت المشابهة بوجه من الوجوه.

ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[1] وفيه قولان:

---

(١) سورة مريم آية (٦٥).

أحدهما: نفي التسمية.

والثاني: نفي المساواة، وقد نفى سبحانه عن نفسه المثلية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١] ونفى عنه العدل والتسوية بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[٢] وقوله: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[٣] ونفى عنه الند بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤] وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾[٥].

وفي الحديث: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك»[٦].

وقال للذي قال له: «ما شاء الله وشئت»: «أجعلتني لله نداً»؟ وفي رواية «أجعلتني لله عدلاً؟»[٧][٨].

فقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق أن الاتفاق في الاسم لا يلزم منه المشابهة والاتفاق في المسمى لأن لله سبحانه وتعالى أسماء تليق بجلاله وكماله، وللعبد منها ما يناسب ضعفه وعجزه وذلك

---

(١) سورة الشورى آية (١١).
(٢) سورة الأنعام آية (١).
(٣) سورة الشعراء آية (٩٦ ـ ٩٨).
(٤) سورة البقرة آية (٢٢).
(٥) سورة فصلت آية (٩).
(٦) تقدم تخريجه (ص١٤٩).
(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥٣) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وأخرجه ابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (١/ ٦٨٤) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٤).
(٨) تفسير سورة الإخلاص (ص١٠٢، ١٠٣).

مثل الحياة والعلم والقدرة والسمع، والبصر والكلام وغيرها والإضافة توضح المقصود وتبينه.

فإذا قلنا: حياة الله، وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك فهذا كله يوصف به الله تبارك وتعالى كما يليق بجلاله وكماله، ولا يماثل صفات المخلوقين.

وإذا قلنا: علم العبد، وقدرة العبد، وكلام العبد، فهذا كله مخلوق يناسب ضعف العبد وعجزه.

وهذا كله قد أوضحه ابن رجب رحمه الله تعالى وبينه في كلامه السابق، وهو ما عليه سلف هذه الأمة وأئمتها رحمهم الله تعالى.

يقول الإمام البغوي رحمه الله تعالى مبيناً ذلك: وأسماء الله تعالى لا تشبه أسماء العباد، لأن أفعال الله تعالى مشتقة من أسمائه، وأسماء العباد مشتقة من أفعالهم، قال النبي ﷺ: «يقول الله سبحانه وتعالى: أنا الرحمن، خلقت الرحم واشتققت لها من اسمي»[(١)].

فبيّن أن أفعاله مشتقة من أسمائه، فلا يجوز أن يحدث له اسم بحدوث فعله، ولا يعتقد في صفات الله تعالى أنها هو ولا غيره، بل هي صفات له أزلية، لم يزل جلّ ذكره، ولا يزال موصوفاً بما وصف به نفسه، ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته، هو الأول والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيء عليم[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: وإذا كان من

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٩) وقال أحمد شاكر إسناده صحيح، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم (٢/ ٣٢٢)، والترمذي: كتاب البر، باب في قطيعة الرحم (٤/ ٣١٥) وقال: حديث صحيح.

(٢) شرح السنة (١/ ١٧٩، ١٨٠).

المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو قديم واجب لنفسه، وما هو محدث ممكن يقبل الوجود والعدم، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود، ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا، بل وجود هذا يخصه، ووجود هذا يخصه، واتفاقهما في اسم عام لا يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الاسم عند الإضافة والتخصيص، والتقييد ولا في غيره فلا يقول عاقل إذا قيل أن العرش شيء موجود، وأن البعوض شيء موجود أن هذا مثل هذا، لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود، لأنه ليس في الخارج شيء موجود غيرهما يشتركان فيه بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً كلياً هو مسمى الاسم المطلق، وإذا قيل: هذا موجود، وهذا موجود، فوجود كل منهما يخصه لا يشركه فيه غيره، مع أن الاسم حقيقة في كل منهما. ولهذا سمى الله نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده ـ عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص، اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص، فضلاً عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص وقد سمى الله نفسه حياً فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1].

وسمى بعض عباده حياً فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[2] وليس هذا الحي مثل هذا الحي، لأن قوله: «الحي» اسم لله مختص به، وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ اسم للحي المخلوق

---

(١) سورة البقرة آية (٢٥٥).

(٢) سورة يونس آية (٣١).

مختص به، وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق قدراً مشتركاً بين المسميين، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق، والمخلوق عن الخالق، ولا بدّ من هذا في جميع أسماء الله وصفاته، يفهم منها ما دلّ عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق، وما دلّ عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى[١].



(١) الرسالة التدمرية (ص٨، ٩).

المبحث السابع
ذكر جملة من الصفات التي ذكرها ابن رجب رحمه الله تعالى

صفات الله تبارك وتعالى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ كثيرة، ولكن سأقتصر على ذكر جملة من الصفات التي ذكرها ابن رجب رحمه الله تعالى وتعرض لها في مؤلفاته، لأن في بيان البعض إيضاحاً للمقصود إذ هي تعتبر بمثابة الأمثلة ويقاس عليها غيرهامن الصفات من حيث إثباتها على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى.

وقد نهج ابن رجب رحمه الله تعالى وسار في إثبات الصفات على منهج السلف الصالح عليهم رحمة الله تعالى، لأن منهجهم هو المنهج القويم والصراط المستقيم والطريق السليم.

وقبل أن أبين الصفات التي تكلم عنها ابن رجب رحمه الله في مؤلفاته أرى من المناسب أن أذكر المنهج الذي سار عليه السلف في تقسيم صفات الله تعالى وهو أنهم يقسمون الصفات التي وردت في الكتاب والسنة إلى قسمين: صفات ذاتية، وصفات فعلية.

فأما الصفات الذاتية: وهي الصفات المتعلقة بذاته التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، وهي لا تنفك عنه سبحانه بل هي لازمة لذاته أزلاً وأبداً كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، وهي لا تتعلق بها مشيئته وقدرته.

وأما الصفات الفعلية: فهي الصفات المتعلقة بمشيئته وقدرته إن شاء

فعلها وإن شاء لم يفعلها عزّ وجلّ كالاستواء على العرش والمجيء والإتيان والنزول والضحك، والرضى والعجب والسخط. . .

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كصفة الكلام، فإنه باعتبار أصل الصفة صفة ذاتية لأنه تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال متكلماً.

وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام متعلق بمشيئته عزّ وجلّ يتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[1].

يقول العلامة الأستاذ محمد خليل هراس رحمه الله تعالى بعد أن ذكر جملة من النصوص المشتملة على هذين القسمين. قال: «دلت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان»:

أ ـ صفات ذاتية لا تنفك عن الذات، بل هي لازمة لها أزلاً وأبداً ولا تتعلق بها مشيئته تعالى وقدرته، وذلك كصفات الحياة، والعلم والقدرة، والقوة، والعزة، والملك، والعظمة، والكبرياء، والمجد، والجلال. . . الخ.

ب ـ صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن وتحدث بمشيئته وقدرته، آحاد تلك الصفات من الأفعال وإن كان هو لم يزل موصوفاً بها بمعنى أن نوعها قديم وأفرادها حادثة، فهو سبحانه لم يزل فعالاً لما يريد ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور وأفعاله تقع شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمته وإرادته، فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش والمجيء والإتيان والنزول إلى السماء الدنيا، والضحك والرضى والغضب والكراهية

---

(١) سورة يس آية (٨٢).

والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير المختلفة[١].

وفيما يلي سأذكر جملة من صفات الله عزّ وجلّ مع ذكر كلام ابن رجب رحمه الله تعالى عليها:

أولاً: صفة العلم:

وهي صفة من صفات الله الذاتية، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: لا ريب أن علم الله عزّ وجلّ قديم أزلي، لم يزل عالماً بما يحدثه من مخلوقاته[٢].

فالعلم صفة من صفات ذاته تعالى فهو عالم بعلم قائم بذاته قديم أزلي لازم لنفسه المقدسة، وهو سبحانه العليم المحيط بكل شيء، يعلم الكليات والجزئيات ولا تخفى عليه خافية، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ومن الأدلة على اتصافه تعالى بالعلم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[٤].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٩٨، ٩٩) وانظر: شرح لمعة الاعتقاد لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ص١١).
(٢) لطائف المعارف (ص٧٩، ٨٠).
(٣) سورة التغابن آية (١١).
(٤) سورة الأنعام آية (٥٩).

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[٤].

والآيات الواردة في كتاب الله الدالة على أن الله تبارك وتعالى متصف بصفة العلم مما لا يكاد أن يحصى إلا بعد جهد لكثرتها.

كما دلّ على إثبات هذه الصفة لله تبارك وتعالى أحاديث المصطفى ﷺ.

منها: ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها، قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت منهم وهو صغير. قال: الله أعلم بما كانوا عاملين»[٥].

---

(١) سورة التغابن آية (٤).
(٢) سورة الحديد آية (٤).
(٣) سورة النساء آية (١٦٦).
(٤) سورة الطلاق آية (١٢).
(٥) تقدم تخريجه (ص١٧٣).

ومعنى الحديث كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: الله أعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا(١).

ومنها: ما رواه البخاري ومسلم في قصة الخضر مع موسى عليه السلام التي ورد فيها قول الخضر: يا موسى إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وأنا على علم من علم الله علمنية الله لا تعلمه إلى أن قال: «فركبا في السفينة قال: ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره»(٢).

ومنها: حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تفيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، وما تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»(٣).

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تدل على إثبات صفة العلم لله عزّ وجلّ، وأنه تبارك وتعالى قد علم في الأزل جميع ما هو خالق كما علم جميع أحوال خلقه وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هم منهم من أهل النار، وعلم سبحانه وتعالى عدد أنفاسهم وجميع حركاتهم وسكناتهم أين تقع،

---

(١) شفاء العليل (ص٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب **﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾** (٥/ ٢٣٠) ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر (٤/ ١٨٤٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله (٢/ ٢٣) ومسلم: كتاب الإيمان (١/ ٤٠) من حديث أبي هريرة.

ومتى تقع وكيف تقع كل ذلك بعلمه تبارك وتعالى الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فله عزّ وجلّ العلم المطلق بجميع الأشياء جملة وتفصيلاً، سبحانه عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثانياً: صفة الغنى:

صفة الغنى من صفات الله تعالى الذاتية، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: وقوله: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني...»[١] يعني أن العباد لا يقدرون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ولا ضراً، فإن الله تعالى في نفسه غني حميد، لا حاجة له بطاعة العباد، ولا يعود نفعها إليه، إنما هم ينتفعون بها، ولا يتضرر بمعاصيهم، وإنما هم يتضررون بها.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[٣].

وكان النبي ﷺ يقول في خطبته: «ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً»[٤].

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾[٥].

---

(١) هذا جزء من حديث قدسي طويل تقدم تخريجه (ص١٧٤).
(٢) سورة آل عمران آية (١٧٦).
(٣) سورة آل عمران آية (١٤٤).
(٤) هذا جزء من حديث ما يسمى بخطبة الحاجة، وقد تقدم تخريجه (ص٨).
(٥) سورة النساء آية (١٣١).

وقال تعالى حاكياً عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾[١].

وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[٣].

والمعنى أنه تعالى يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه، ولهذا يفرح بتوبة التائبين...

هذا كله مع غناه عن طاعات عباده وتوباتهم إليه، وأنه إنما يعود نفعها إليهم دونه، ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبته لنفعهم، ودفع الضر عنهم، فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويحبوه ويخافوه ويتقوه ويطيعوه ويتقربوا إليه، ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده[٤].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً عند قوله ﷺ: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[٥].

قال: هو إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية

---

(١) سورة إبراهيم آية (٨).
(٢) سورة آل عمران آية (٩٧).
(٣) سورة الحج آية (٣٧).
(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٨٩، ١٩٠).
(٥) تقدم تخريجه (ص١٧٤).

العاصين، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم.

فإنه سبحانه الغني بذاته عمن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل، لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان... إلى أن قال: «إن جميع الخلق لو كانوا على صفة أكمل خلقه من البر والتقوى لم يزد ذلك في ملكه شيئاً، ولا قدر جناح بعوضة، ولو كانوا على صفة أنقص خلقه من الفجور لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً. فدل على أن ملكه كامل على أي وجه كان، لا يزاد ولا يكمل بالطاعة ولا ينقص بالمعاصي ولا تؤثر فيه شيئاً»(١).

فقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق أن من صفات الله تبارك وتعالى صفة الغنى المطلق من جميع الوجوه، وأنه سبحانه وتعالى هو الغني الحميد الذي بيده خزائن السموات والأرض وأنه سبحانه هو الذي يغني جميع خلقه لأنهم جميعاً مفتقرون إليه في كل شيء في وجودهم وقيامهم وقعودهم وحركاتهم، وسكناتهم، وفي كل شأن من شؤون حياتهم.

كما أوضح رحمه الله تعالى أن الله تبارك وتعالى قيوم السموات والأرض بيده كل شيء، وهو على كل شيء قدير، فلا تزيده طاعة مطيع، ولا تنقصه معصية عاص لأنه غني عن خلقه أجمعين، فهو سبحانه وتعالى له الغنى المطلق الكامل، وهو متصف بصفة الغنى المطلق من جميع الوجوه فلا يتطرق إليه نقص بوجه من الوجوه، لأن غناه تبارك وتعالى من لوازم ذاته فلا يحتاج إلى أحد بحال من الأحوال، بل العباد كلهم محتاجون إليه مفتقرون إليه ليس لهم غنا عنه بأية حال من الأحوال.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٩٤، ١٩٥).

وهذا كله مما دلت عليه الآيات في كتاب الله تعالى ومما جاءت به الأحاديث في سنة المصطفى ﷺ.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى في معرض كلامه بعضاً من الآيات الدالة على ذلك.

ومن الآيات التي تدل على إثبات هذه الصفة لله تعالى مما لم يذكره ابن رجب رحمه الله تعالى قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: يخبر تعالى بغناه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: «هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه»[2].

وأما الأحاديث الدالة على هذه الصفة فكثيرة جداً:

منها ما ذكره ابن رجب رحمه الله تعالى في معرض كلامه السابق.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، فقالت عائشة: فخرج رسول الله ﷺ حين بدأ حاجب الشمس، فقعد على المنبر فكبّر ﷺ وحمد الله عزّ وجلّ، ثم قال: «إنكم شكوتم جدب دياركم واستئخار المطر عن إبان[3] زمانه

(١) سورة فاطر آية (١٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٧).

(٣) إبان زمانه: وقت زمانه، وإبان كل شيء بالكسر والتشديد: وقته وحينه الذي يكون فيه. لسان العرب (١٣/ ٤).

عنكم، وقد أمركم الله عزّ وجلّ أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم ملك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين»[1].

ثالثاً: صفة المعية:

معية الله تعالى لخلقه ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف وهي معية تليق بالله تعالى ولا تشبه معية أي مخلوق لمخلوق لقوله تعالى عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2] وهي تنقسم إلى قسمين:

١ ـ **معية عامة:** وهي معية تقتضي علمه سبحانه وتعالى بجميع خلقه وإحاطته بهم مؤمنهم وفاجرهم، فلا تخفى عليه منهم خافية في الأرض ولا في السماء، لأنه تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً.

ومن الأدلة التي تدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار في البيوت أو في القفار[4] الجميع في علمه على السواء وتحت

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب رفع اليدين في الاستسقاء (١/ ٦٩٣) وقال: هذا حديث غريب إسناده جيد، أهل المدينة يقرؤون (ملك يوم الدين) وإن هذا الحديث حجة لهم.

(٢) سورة الشورى آية (١١).

(٣) سورة الحديد آية (٤).

(٤) القفار بكسر القاف: مفردها قفر وهي الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات. الصحاح (٢/ ٧٩٧).

بصره وسمعه فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ويعلم سركم ونجواكم[١].

ومن نصوص الكتاب أيضاً التي تدل على هذا النوع من المعية قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ...﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿...وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾[٤].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على قربه سبحانه وتعالى من عباده وأنه عزّ وجلّ على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط.

٢ ـ **المعية الخاصة**: وهي المعية التي تقتضي النصر والتوفيق والتأييد والحفظ من الله عزّ وجلّ لعباده المؤمنين المتقين وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم.

ومن النصوص الدالة على هذا النوع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[٥].

ومنها: قوله تعالى في قصة نبينا محمد ﷺ مع الصديق رضي الله عنه: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٤).

(٢) سورة المجادلة آية (٧).

(٣) سورة يونس آية (٦١).

(٤) سورة النساء آية (١٠٨).

(٥) سورة النحل آية (١٢٨).

(٦) سورة التوبة آية (٤٠).

ومنها: قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(١) إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أنه سبحانه وتعالى مع عباده المتقين الطائعين يحفظهم وينصرهم ويدافع عنهم.

كما دلّ على هذا النوع أحاديث المصطفى ﷺ:

منها: حديث أبي موسى قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم» وفي لفظ: «والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم»(٢).

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى صفة المعية وأقسامها، وعرف كل قسم منها وذكر ما يدل عليه من نصوص الكتاب والسنة.

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى: وقوله ﷺ: «احفظ الله تجده أمامك»(٣) معناه أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في جميع الأحوال يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويؤيده ويسدده، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت، وهو تعالى مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون...

وهذه هي المعية الخاصة بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ...﴾(٤).

فإن المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة...

---

(١) سورة طه آية (٤٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤/ ٢٠٧٦).

(٣) سبق تخريجه (ص١٦١).

(٤) سورة الحديد آية (٤).

وكان ﷺ قد قال لأبي بكر وهما في تلك الحال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(١).

فهذا غير المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾(٢) فإن ذلك عام: لكل جماعة.

ومن هذا المعنى الخاص الحديث الإلٰهي وقوله فيه: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به يده التي يبطش بها ورجله التي يمشي به»(٣).

إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على قرب الرب سبحانه ممن أطاعه واتقاه، وحفظ حدوده وراعاه(٤).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً وهو يتكلم عن المعية في مرتبة الإحسان «وقد دلّ القرآن على هذا المعنى في مواضع متعددة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ...﴾(٦) إلى أن قال رحمه الله تعالى: «ومن فهم شيئاً من هذه النصوص تشبيهاً أو حلولاً أو اتحاداً فإنما أتى من جهله وسوء فهمه عن الله عزّ وجلّ وعن رسوله، والله ورسوله بريئان من ذلك كله، فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: **﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾** (٥/ ٢٠٤).
(٢) سورة المجادلة آية (٧).
(٣) تقدم تخريجه (ص١٦٨).
(٤) نور الاقتباس (ص٥٢، ٥٣).
(٥) سورة الحديد آية (٤).
(٦) سورة البقرة آية (١٨٦).
(٧) جامع العلوم والحكم (١/ ٨٨، ٨٩).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً بعد أن ذكر بعض النصوص التي تدل على المعية «فهذا كله يدل على أن قرب الله من خلقه شامل لهم، وقربه من أهل طاعته فيه مزيد خصوصية كما أن معيته مع عباده عامة حتى ممن عصاه قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾(١).

ومعيته مع أهل طاعته خاصة فهو سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. . .

فالمعية العامة تقتضي التحذير من علمه واطلاعه وقدرته وبطشه وانتقامه.

والمعية الخاصة تقتضي حسن الظن بإجابته ورضاه وحفظه وصيانته فكذلك القرب، وليس هذا القرب تقرب الخلق المعهود منهم كما ظنه من ظنه من أهل الضلال، وإنما هو قرب ليس يشبه قرب المخلوقين كما أن الموصوف به ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. . .»(٢).

فقد بيّن رحمه الله تعالى في كلامه السابق أن نصوص المعية بنوعيها لا تفيد مخالطة ولا ممازجة ولا حلولاً ولا تشبيهاً، بل هي معية اطلاع وعلم وإحاطة في المعية العامة وتزيد المعية الخاصة بأنها معية نصر وموالاة وحفظ وتأييد وتسديد.

ومن فهم من هذه النصوص معاني أخرى لا تليق بكمال الله وجلاله فإنما ذلك بسبب جهله وسوء فهمه لأن معية الله سبحانه وتعالى وقربه ليست كقرب الأجسام بعضها ببعض، فهو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

---

(١) سورة النساء آية (١٠٨).

(٢) فتح الباري (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

وقد ردّ ابن رجب رحمه الله تعالى على الذين فسروا المعية بتفسير لا يليق بالله عزّ وجلّ وهم الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، وهم الحلولية[١] من الجهمية ومن نحا نحوهم.

فقال رحمه الله تعالى: ولم يكن أصحاب النبي ﷺ يفهمون من هذه النصوص غير المعنى الصحيح المراد بها يستفيدون بذلك معرفة عظمة الله وجلاله واطلاعه على عباده وإحاطته بهم وقربه من عابديه وإجابته لدعائهم فيزدادون به خشية لله وتعظيماً وإجلالاً ومهابة ومراقبة واستحياء ويعبدونه كأنهم يرونه، ثم حدث بعدهم من قل ورعه وانتكس فهمه وقصده، وضعفت عظمة الله وهيبته في صدره وأراد أن يرى الناس امتيازه عليهم بدقة الفهم وقوة النظر فزعم أن هذه النصوص تدل على أن الله بذاته في كل مكان كما يحكى ذلك طوائف من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبير.

وهذا شيء ما خطر لمن كان قبلهم من الصحابة رضي الله عنهم وهؤلاء ممن يتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وقد حذر النبي ﷺ منهم في حديث عائشة[٢] المتفق عليه.

---

(١) الحلولية: هم الذين يعتقدون أن الله تعالى بذاته حل في مخلوقاته كما يحل الماء في الإناء، وأنه تعالى بذاته في كل مكان، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وأول من أظهر ذلك في الإسلام الروافض، فإنهم ادعوا الحلول في حق أئمتهم والقول بالحلول هي عقيدة غلاة الصوفية والفلاسفة كابن عربي وابن سبعين والحلاج والتلمساني وغيرهم.
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٧٣) ومجموع الفتاوي (٢/ ١١٢).

(٢) حديث عائشة هو ما رواه البخاري ومسلم وغيرهم عنها رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن** =

وتعلقوا أيضاً بما فهموه بفهمهم القاصر مع قصدهم الفاسد بآيات في كتاب الله تعالى مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[2].

فقال من قال من علماء السلف حينئذ إنما أراد أنه معهم بعلمه وقصدوا بذلك إبطال ما قال أولئك مما لم يكن أحد قبلهم قاله ولا فهمه من القرآن...

وحكى ابن عبد البر[3] وغيره إجماع العلماء من الصحابة والتابعين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] أن المراد علمه، وكل هذا قصدوا به رد قول من قال أنه تعالى بذاته في كل مكان.

وزعم بعض من تحذلق[4] أن ما قاله هؤلاء الأئمة خطأ لأن علم الله صفة لا تفارق ذاته، وهذا سوء ظن منه بأئمة الإسلام، فإنهم لم يريدوا ما ظنه بهم، وإنما أرادوا أن علم الله متعلق بما في الأمكنة كلها،

= **أم الكتاب وآخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾** سورة آل عمران آية (٧).
قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذي سمى الله، فاحذروهم».
البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿**منه آيات محكمات**﴾ (٥/ ١٦٦) ومسلم: كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه (٤/ ٢٠٥٣).

(١) سورة الحديد آية (٤).
(٢) سورة المجادلة آية (٧).
(٣) انظر: التمهيد (٧/ ١٣٨، ١٣٩).
(٤) يقال: حذلق الرجل وتحذلق إذا أظهر الحذق وادعى أكثر مما عنده. لسان العرب (١٠/ ٤١).

ففيها معلوماته لا صفة ذاته كما وقعت الإشارة في القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[(١)] وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[(٢)] وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ...﴾[(٣)]...[(٤)].

فقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أن معية الله تعالى لا تقتضي المخالطة والممازجة كما يزعم أهل الضلال لأن السلف رحمهم الله تعالى أجمعوا على أن المراد هو معهم بعلمه، وهذا هو المأثور عن الصحابة والتابعين وهو ما جاءت به نصوص الكتاب والسنة.

وبهذا يتبين أن موقف ابن رجب رحمه الله تعالى من إثبات معية الله تعالى موافق لما جاءت به نصوص الكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها.

ومعية الله عزّ وجلّ لا تنافي ما ثبت لله تعالى من علوه على خلقه واستوائه على عرشه لأن الله تعالى قد ثبت له العلو المطلق.

صفة العلو وأدلة ثبوتها من السمع والعقل والفطرة:

فالعلو صفة من صفات الله تعالى الذاتية التي لا تنفك عنه، وقد دل على ثبوتها: السمع والعقل والفطرة.

وقد تواترت الأدلة من الكتاب والسنة على أن الله تعالى عال على كل شيء.

---

(١) سورة الأعراف آية (٨٩).
(٢) سورة غافر آية (٧).
(٣) سورة الحديد آية (٤).
(٤) فتح الباري (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢).

أما من الكتاب فقوله تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على علو الله تعالى.

وأما الأحاديث فكثيرة أيضاً وقد بلغت مبلغ التواتر[٥] ومنها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم فيقول كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»[٦].

ومنها حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله عزّ وجلّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام،

---

(١) سورة غافر آية (١٢).

(٢) سورة الرعد آية (٩).

(٣) سورة الأعلى آية (١).

(٤) سورة الملك آية (١٦).

(٥) انظر: حكاية التواتر في كتاب إثبات صفة العلو لابن قدامة (ص٤١) والعلو للذهبي (ص١٦) واجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (٩٨) وقد ذكر ابن أبي العز رحمه الله تعالى في شرح الطحاوية (ص٣٢٢) عشرين نوعاً من الأدلة على إثبات صفة العلو لله عز وجل ثم قال: «وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله، هيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك».

(٦) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾** (٨/ ١٧٧).

يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(١).

ومنها حديث الجارية التي سألها رسول الله ﷺ: «أين الله»؟ قالت: في السماء، قال من أنا؟ قالت: رسول الله قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة»(٢).

ومنها: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قسمة الذهب الذي بعث به علي بن أبي طالب من اليمن إلى المدينة قال النبي ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءاً»(٣).

فهذه الأحاديث وغيرها مما هو بمعناها تدل دلالة واضحة على علو الله سبحانه وتعالى.

وأما من الإجماع: فقد أجمع سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان على أن الله تعالى فوق سمواته على عرشه.

وقد ذكر هذا الإجماع غير واحد منهم.

من ذلك ما قاله أبو عمرو الطلمنكي(٤) رحمه الله تعالى «وأجمع

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢١٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد (١/ ٣٨١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب في بعث علي بن أبي طالب (٥/ ١١٠) ومسلم: كتاب الزكاة (٢/ ٧٤٢).

(٤) هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى المعافري الأندلسي الطلمنكي الحافظ عالم أهل قرطبة، وصاحب التصانيف، كان خبيراً بعلوم القرآن، وكان على منهج أهل السنة والجماعة، يقول الذهبي: رأيت له كتاباً في السنة في مجلدين عامته جيد، توفي سنة ٤٢٩هـ.
سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٦٦) وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ١٢٠) وشذرات الذهب (٣/ ٢٤٣).

المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[(١)] ونحو ذلك من القرآن بأن ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء»[(٢)].

وأما من العقل:

فإن كل عقل صحيح صريح يدل على علو الله سبحانه وتعالى على خلقه، لأن العلو صفة كمال، والسفل صفة نقص، والله تعالى موصوف بالكمال المطلق من جميع الوجوه، ومنزه عن جميع صفات النقص، فدلّ العقل على اتصاف الله عزّ وجلّ بصفة العلو من وجوه:

١ ـ العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين، إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر.

٢ ـ أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجاً عن ذاته والأول باطل.

أما أولاً: فبالاتفاق.

وأما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والثاني يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً فتعينت المباينة، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم، وغير منفصل عنه غير معقول.

---

(١) سورة الحديد آية (٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٩) واجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (١٤٢).

٣ ـ أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية لأنه غير معقول، فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة[١].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى ثلاثين دليلاً عقلياً على إثبات صفة العلو لله عزّ وجلّ[٢].

وأما ثبوته بالفطرة:

فإن الله تعالى فطر الخلق كلهم على الإيمان به وعلى علوه لأنه ما من داع يدعو ربه إلا ويجد في نفسه ضرورة بالإتجاه إلى العلو من غير تعليم معلم.

ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء يقول ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «ومن الحجة في أنه سبحانه وتعالى على العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة رفعوا وجوههم إلى السماء ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته لأنه اضطراري لم يخالفهم فيه أحد ولا أنكره عليهم مسلم»[٣].

وهناك حكاية مشهورة تبين الاستدلال بالفطرة على علو الله على خلقه وهي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني[٤] حضر مجلس أبي المعالي

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣٢٥).

(٢) انظر: الصواعق المرسلة على غزو الجهمية والمعطلة (٤/ ١٢٧٩).

(٣) التمهيد (٧/ ١٣٤).

(٤) هو الشيخ الإمام الحافظ الزاهد أبو جعفر محمد بن الحسين بن محمد الهمداني، من أئمة أهل الأثر، توفي سنة ٥٣١هـ.

سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٠١) شذرات الذهب (٤/ ٩٧).

الجويني(١) فذكر العرش وقال: كان الله ولا عرش ونحو ذلك، وقام إليه الشيخ أبو جعفر فقال: يا شيخ دعنا من ذكر العرش ـ يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع ـ وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة لطلب العلو لا يتلفت يمنة ولا يسرة، قال: فضرب أبو المعالي على رأسه وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني.

فأخبر هذا الشيخ عن كل من عرف الله تعالى أنه يجد في قلبه حركة ضرورية إلى العلو إذا قال يا الله.

وهذا يقتضي أن في فطرتهم وخلقتهم العلم بأن الله فوق(٢).

هذه بعض الأدلة(٣) التي تدل على إثبات هذه الصفة العظيمة لله تبارك وتعالى وهي صفة العلو ذكرتها بمناسبة الجمع بين صفة المعية

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، إمام الحرمين أبو المعالي، أحد الأعلام، شافعي المذهب، له مؤلفات كثيرة منها: الإرشاد في أصول الدين، والشامل في أصول الدين.
كان من أئمة الأشاعرة، ولكنه رجع إلى مذهب السلف في آخر حياته، توفي سنة ٤٧٨هـ.
تبيين كذب المفتري (ص٢٧٨) وطبقات الشافعية للسبكي (٥/ ١٦٥) والعبر (٢/ ٣٣٩) وشذرات الذهب (٣/ ٣٥٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٦١) والعلو للذهبي (ص١٨٨) وشرح العقيدة الطحاوية (ص٣٢٥).

(٣) من أراد مزيداً من الأدلة والإيضاح في هذه الصفة فليراجع:
أ ـ مجموع الفتاوى (٥/ ١٣٦) وما بعدها.
ب ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم.
جـ ـ إثبات صفة العلو لابن قدامة.
د ـ العلو للعلي الغفار للذهبي.

وصفة العلو وأنه لا تناقض ولا تنافي بين علو الله تعالى واستوائه على عرشه وبين معيته سبحانه وتعالى للوجوه التالية:

١ ـ أن الله تعالى قد جمع بينهما لنفسه في كتابه العظيم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾[١]. فدلّ ذلك على عدم التناقض بينهما إذ لو كانا متناقضين لم يجمع القرآن بينهما لأنه منزه عن التناقض.

٢ ـ أن اجتماع المعية والعلو ممكن في حق المخلوق الضعيف كما يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا.

ومن المعلوم أن المخلوق في الأرض والقمر في السماء ولا يعد ذلك تناقضاً، فإذا أمكن اجتماع ذلك في حق المخلوق ففي حق الخالق المحيط بكل شيء أولى.

٣ ـ أنه لو فرض أن اجتماع العلو والمعية ممتنع في حق المخلوق فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق العظيم لأنه عزّ وجلّ ليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وبهذا يتضح أن الله تبارك وتعالى عال على خلقه مستو على عرشه وهو مع ذلك مع عباده وقريب منهم سبحانه وتعالى لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه[٢].

---

(١) سورة الحديد آية (٤).

(٢) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد خليل هراس (ص١٢٣ ـ ١٢٥) وفتح البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن صالح العثيمين (ص٧٧، ٧٨).

رابعاً: صفة المجيء والإتيان:

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: ومن جملة صفات الله التي نؤمن بها وتمر كما جاءت عندهم قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢﴾[(١)] ونحو ذلك مما دلّ على إتيانه ومجيئه يوم القيامة، وقد نص على ذلك أحمد وإسحاق وغيرهما، وعندهما أن ذلك من أفعال الله الاختيارية التي يفعلها بمشيئته واختياره... وقد ذكر حرب الكرماني[(٢)] أنه أدرك على هذا كل من أخذ عنه العلم في البلدان، وسمى منهم أحمد وإسحاق والحميدي[(٣)] وسعيد بن منصور[(٤)] وكذلك ذكره أبو الحسن الأشعري في كتابه المسمى بالإبانة[(٥)]، وهو من أجل كتبه، وعليه يعتمد العلماء وينقلون منه كالبيهقي[(٦)] وأبي عثمان الصابوني وأبي القاسم ابن

---

(١) سورة الفجر آية (٢٢).

(٢) حرب بن إسماعيل بن خلف الحنظلي الكرماني، أبو محمد، رجل جليل، نقل عن الإمام أحمد مسائل كتبها بخطه، وكان السلطان قد جعله على أمر الحكم وغيره في البلد، توفي سنة ٢٨٠هـ.
الجرح والتعديل (٣/ ٢٥٣) وطبقات الحنابلة (١/ ١٤٥) وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٤٤).

(٣) عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الحميدي المكي، الإمام الحافظ الفقيه، المحدث، صاحب المسند، قال عنه الإمام أحمد: الحميدي عندنا إمام، توفي سنة ٢١٩هـ.
الجرح والتعديل (٥/ ٥٦) وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٦١٦) وتهذيب التهذيب (٥/ ٢١٥).

(٤) سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني المروزي، أبو عثمان الحافظ الإمام، شيخ الحرم صاحب السنن، كان ثقة صادقاً ومن أوعية العلم وأئمة الحديث، توفي سنة ٢٢٧هـ.
التاريخ الكبير (٣/ ٥١٦) والجرح والتعديل (٤/ ٦٨) وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٨٦).

(٥) انظر: الإبانة لأبي الحسن الأشعري (ص٦٠).

(٦) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الحافظ العلامة، كتب الحديث وحفظه من صباه، وصنف تصانيف كثيرة منها: شعب الإيمان، توفي سنة ٤٥٨هـ.
سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٦٣) وشذرات الذهب (٣/ ٣٠٤).

عساكر[١] وغيرهم. . .[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً في شرحه لحديث الرؤية الذي فيه يقول الرسول ﷺ: «فيأتيهم الله عزّ وجلّ فيقول: أنا ربكم. . .» الحديث[٣].

يقول: وقد دلّ القرآن على ما دلّ عليه الحديث في مواضع كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٤].

وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[٥] وقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[٦] ولم يتأول الصحابة ولا التابعون شيئاً من ذلك ولا أخرجوه من مدلوله، بل روى عنهم ما يدل على تقريره والإيمان به وإمراره كما جاء.

وقد روي عن الإمام أنه قال في مجيئه: هو مجيء أمره، وهذا مما تفرد به حنبل[٧] عنه، فمن أصحابنا من قال: وهم حنبل فيما روى، وهو خلاف مذهبه المعروف والمتواتر عنه، وكان أبو بكر الخلال[٨]

---

(١) أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، الإمام الحافظ المتقن، له مصنفات عظيمة منها: تاريخ دمشق الكبير، توفي سنة ٥٧١هـ.
البداية والنهاية (١٢/ ٣١٢).

(٢) فتح الباري (٥/ ١٠٢).

(٣) تقدم تخريجه (ص٢١٧).

(٤) سورة البقرة آية (٢١٠).

(٥) سورة الأنعام آية (١٥٨).

(٦) سورة الفجر آية (٢٢).

(٧) حنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني، أبو علي ابن عم الإمام أحمد حافظ محدث، له مسائل عن الإمام أحمد، توفي سنة ٢٧٣هـ.
سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥١) وشذرات الذهب (٢/ ١٦٣).

(٨) هو أحمد بن محمد بن هارون أبو بكر الخلال، من كبار الحنابلة مفسر عالم بالحديث واللغة له كتب مفيدة منها: كتاب السنة، توفي سنة ٣١١هـ.
طبقات الحنابلة (٢/ ١٢) والبداية والنهاية (١١/ ١٦٦).

وصاحبه لا يثبتان ما تفرد به عن أحمد رواية. ومن متأخريهم من قال: هو رواية عنه بتأويل كل ما كان من جنس المجيء والإتيان ونحوهما، ومنهم من قال: إنما قال ذلك إلزاماً لمن ناظره في القرآن، فإنهم استدلوا على خلقه بمجيء القرآن فقال: إنما يجئ ثوابه لقوله: (وجاء ربك) أي كما تقولون أنتم في مجيء الله أنه مجئ أمره، وهذا أصح المسالك في هذا المروي، وأصحابنا في هذا على ثلاث فرق: فمنهم من يثبت المجئ والإتيان ويصرح بلوازم ذلك في المخلوقات، وربما ذكروه عن أحمد من وجوه لا تصح أسانيدها عنه، ومنهم من يتأول ذلك على مجيء أمره، ومنهم من يقر ذلك ويمره كما جاء ولا يفسره ويقول هو مجيء وإتيان يليق بجلال الله وعظمته سبحانه، وهذا هو الصحيح عن أحمد ومن قبله من السلف وهو قول إسحاق وغيره من الأئمة، وكان السلف ينسبون تأويل هذه الآيات والأحاديث الصحيحة إلى الجهمية، لأن جهماً وأصحابه أول من اشتهر عنهم أن الله سبحانه وتعالى منزه عما دلت عليه هذه النصوص بأدلة العقول التي سموها أدلة قطعية هي المحكمات وجعلوا ألفاظ الكتاب والسنة هي المتشابهات، فعرضوا ما فيها على تلك الخيالات، فقبلوا ما دلّت على ثبوته بزعمهم، وردوا ما دلّت على نفيه بزعمهم، ووافقهم على ذلك سائر طوائف أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وزعموا أن ظاهر ما يدل عليه الكتاب والسنة تشبيه وتجسيم وضلال، واشتقوا من ذلك لمن آمن بما أنزل الله على رسوله أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، بل هي افتراء على الله ينفرون بها عن الإيمان بالله ورسوله، وزعموا أن ما ورد في الكتاب والسنة من ذلك مع كثرته وانتشاره من باب التوسع والتجوز وأنه يحمل على مجازات اللغة المستبعدة، وهذا من أعظم أبواب القدح في الشريعة المحكمة المطهرة وهو من جنس حمل

الباطنية[١] نصوص الأخبار من الغيوب كالمعاد والجنة والنار على التوسع والمجاز[٢] دون الحقيقة، وحملهم نصوص الأمر والنهي على مثل ذلك،

---

(١) الباطنية: سموا بذلك لأنهم يقولون: أن للنصوص ظاهراً وباطناً ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب كثيرة منها: القرامطة والحزمية والإسماعيلية والمزدكية والنصيرية، وهم يعتقدون أن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم ولا هو معلوم ولا مجهول، ويقولون: إنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق، يرجع إليه في تأويل الظواهر، واتفقوا على إنكار القيامة، وهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم.
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٧٦) والفرق بين الفرق (ص٢٨١) والرد على الرافضة للمقدسي (ص١٤١).

(٢) يطلق لفظ المجاز في اصطلاح كثير من المتأخرين على ما هو قسيم الحقيقة، فإنهم قسموا الكلام إلى حقيقة ومجاز.
فالحقيقة عندهم هي: اللفظ المستعمل فيما وضع له.
والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة. وقيل غير ذلك من التعاريف.
انظر: المستصفى في علم الأصول للغزالي (ص٢٦٨) والأحكام للآمدي (١/ ٢٦).
وهذه المسألة وقع فيها الخلاف بين العلماء بين مثبت وناف.
والحقيقة أن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث قصد به التوصل إلى نفي صفات الكمال عن الله عز وجل، وإلا فالأئمة رحمهم الله تعالى وأهل القرون الثلاثة المفضلة لم يتكلموا بهذا الاصطلاح بالمعنى الذي قصده المبتدعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة، لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من الأئمة المشهورين بالعلم كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم، وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية... والغالب أنه ـ أي المجاز ـ كان من جهة =

وهذا كله مروق عن دين الإسلام، ولم ينه علماء السلف الصالح وأئمة الإسلام كالشافعي وأحمد وغيرهما عن الكلام وحذروا عنه إلا خوفاً من الوقوع في مثل ذلك، ولو علم هؤلاء الأئمة أن حمل النصوص على ظاهرها كفر لوجب عليهم تبيين ذلك، وتحذير الأمة منه، فإن ذلك من تمام نصيحة المسلمين، فكيف ينصحون الأمة فيما يتعلق بالأحكام العملية ويدعون نصيحتهم فيما يتعلق بأصول الاعتقادات، هذا من أبطل الباطل[١].

فقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق أن من صفات الله الفعلية صفة المجيء والإتيان، وهي من الصفات التي ثبتت في كتاب الله العزيز وبأحاديث المصطفى ﷺ ودرج علماء السلف على نقلها والإيمان بها وإقرارها وإمرارها كما جاءت من غير تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه.

وقد ساق ابن رجب رحمه الله تعالى الآيات التي دلّت على هذه الصفة.

كما بيّن رحمه الله تعالى أيضاً في كلامه السابق أن تعطيل الصفات

= المعتزلة ونحوهم من المتكلمين... وقد أنكر طائفة أن يكون في اللغة مجاز لا في القرآن ولا غيره كأبي إسحاق الإسفرائيني... إلى أن قال رحمه الله: «فلا مجاز في القرآن بل وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف، والخلف فيه على قولين، وليس النزاع فيه لفظياً، بل يقال نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا...».

الإيمان (ص٨٤) وما بعدها، وانظر: رسالة في الحقيقة والمجاز لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٠٠ ـ ٤٩٩) ورسالة منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز للعلامة محمد الأمين الشنقيطي.

(١) فتح الباري (٥/ ٩٦ ـ ٩٨).

وتشبيهاً بصفات المخلوقين من فعل أهل الضلال والزيغ الذين ضلوا عن الطريق المستقيم، نسأل الله السلامة والعافية.

خامساً: صفة النزول إلى السماء الدنيا:

المقصود بصفة النزول هو إثبات أن الله عزّ وجلّ ينزل في كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له، كما ورد ذلك في الأخبار، فالواجب إثبات ذلك على حقيقته من غير تحريف ولا تكييف.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى وهو يتكلم عن قرب الله سبحانه وتعالى من عباده «وليس هذا القرب تقرب الخلق المعهود منهم كما ظنه من ظنه من أهل الضلال، وإنما هو قرب ليس يشبه قرب المخلوقين كما أن الموصوف به ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهكذا القول في أحاديث النزول إلى سماء الدنيا فإنه نوع من قرب الرب من داعيه وسائليه، ومستغفريه وقد سئل عنه حمّاد بن زيد[1] فقال: هو في مكانه يقرب من خلقه كيف يشاء ومراده أن نزوله ليس هو انتقال من مكان إلى مكان كنزول المخلوقين وقال حنبل: سألت أبا عبد الله ينزل الله إلى سماء الدنيا؟ قال: نعم قلت: نزوله بعلمه أو بماذا؟ قال: اسكت عن هذا مالك ولهذا، امض الحديث على ما روى بلا كيف ولا حدّ إلا ما جاءت به الآثار وجاء به الكتاب قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾[2] ينزل كيف شاء بقدرته وعلمه وعظمته أحاط بكل شيء

(١) حماد بن زيد بن درهم الأزدي الحافظ الثبت، قال يحيى بن معين: ليس أحد أثبت من حماد بن زيد، وقال الإمام أحمد فيه: حماد بن زيد من أئمة المسلمين، توفي سنة ١٧٩هـ.
سير أعلام النبلاء (٧/٤٥٦) والبداية والنهاية (١٠/١٩٨).

(٢) سورة النحل آية (٧٤).

علماً، لا يبلغ قدره واصف، ولا ينأى عنه هرب هارب عزّ وجلّ.

ومراده أن نزوله تعالى ليس كنزول المخلوق بل هو نزول يليق بقدرته وعظمته وعلمه المحيط بكل شيء، والمخلوقون لا يحيطون به علماً، وإنما ينتهون إلى ما أخبرهم به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله، فلهذا اتفق السلف الصالح على إمرار هذه النصوص كما جاءت من غير زيادة ولا نقص، وما أشكل فهمه منها وقصر العقل عن إدراكه وكل إلى عالمه»[١].

فقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى في هذا الكلام أن صفة النزول من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وحكمته والتي يجب إثباتها لله تبارك وتعالى وأن نزوله سبحانه وتعالى نزولاً يليق بجلاله وعظمته من غير تكييف ولا تعطيل كما هو منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

وقد وردت أحاديث كثيرة في إثبات صفة النزول لله تعالى منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ويقول: (من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)» رواه البخاري ومسلم[٢].

ومنها: حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وأنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول (ما أراد هؤلاء)» رواه مسلم[٣].

---

(١) فتح الباري شرح البخاري ورقة (٢/ ٣٣٤).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢١٦).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (٢/ ٩٨٣).

قال الآجري[١] رحمه الله تعالى: باب الإيمان والتصديق بأن الله عزّ وجلّ ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة، ثم قال: الإيمان بهذا واجب، ولا يسع المسلم العاقل أن يقول: كيف ينزل؟ ولا يرد هذا إلا المعتزلة وأما أهل الحق فيقولون: الإيمان به واجب بلا كيف لأن الأخبار قد صحت عن رسول الله ﷺ أن الله عزّ وجلّ ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة، والذين نقلوا إلينا هذه الأخبار، هم الذين نقلوا إلينا الأحكام من الحلال والحرام، وعلم الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وكما قبل العلماء منهم ذلك، كذلك قبلوا منهم هذه السنن، وقالوا: من ردها فهو ضال خبيث يحذرونه ويحذرون منه[٢].

وقال ابن خزيمة رحمه الله تعالى عند ذكره لأحاديث النزول نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب من غير أن نصف الكيفية، لأن المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا وأعلمنا أنه ينزل، والله جلّ وعلاً لم يترك، ولا نبيه عليه السلام بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية، إذ النبي ﷺ لم يصف كيفية النزول، وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصح أن الله جلّ وعلاً فوق سماء الدنيا الذي أخبرنا نبينا ﷺ أنه ينزل إليه إذ محال في لغة العرب أن يقول: نزل من أسفل إلى أعلى ومفهوم في الخطاب أن النزول من أعلى إلى أسفل[٣].

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، قال الذهبي: كان عالماً عاملاً صاحب سنة واتباع، له مصنفات كثيرة منها: كتاب الشريعة وأخلاق العلماء، توفي سنة ٣٦٠هـ.
تاريخ بغداد (٢/ ٢٤٣) وتذكرة الحفاظ (٣/ ٩٣٦).

(٢) الشريعة للآجري (ص٣٠٦).

(٣) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٨٩، ٢٩٠).

فالسلف يؤمنون بنزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ويثبتونه إثباتاً يليق بجلاله عزّ وجلّ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ويصدقون الأحاديث التي وردت في ذلك، والتي بلغت حدّ التواتر كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: أن نزول الرب تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا قد تواترت الأخبار به عن رسول الله ﷺ، رواه عنه نحو ثمانية وعشرين نفساً من الصحابة، وهذا يدل على أنه كان يبلغه في كل موطن ومجمع، فكيف تكون حقيقته محالاً وباطلاً، وهو ﷺ يتكلم بها دائماً ويعيدها ويبديها مرة بعد مرة[١].

وهنا سؤال: وهو أنه إذا أثبتنا لله تعالى نزوله حقيقة فهل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟.

الصواب ما عليه السلف الصالح رحمهم الله في هذا من أنه لا يزال فوق العرش ولا يخلو منه العرش مع نزوله إلى السماء الدنيا، لأن نزوله سبحانه وتعالى ليس كنزول المخلوقين بل هو منزه عن ذلك تبارك وتعالى.

وهذا هو جواب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى على هذا السؤال حيث ذكر الأقوال في هذه المسألة ورجح الثالث منها فقال: والقول الثالث ـ وهو الصواب ـ وهو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها، أنه لا يزال فوق العرش، ولا يخلو العرش منه مع دنوه ونزوله إلى السماء الدنيا ولا يكون العرش فوقه، وكذلك يوم القيامة كما جاء به الكتاب والسنة[٢].

(١) مختصر الصواعق المرسلة على غزو الجهمية والمعطلة (٢/ ٢٢١).

(٢) شرح حديث النزول (٦٦) ومجموع الفتاوى (٥/ ٣٩٦، ٤١٥).

المبحث الثامن
شبهة والرد عليها

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى في معرض كلامه على التنجيم وما يجره على أهله من البلاء والمصائب قال: وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا على حديث ثلث الليل الآخر، وقال: ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا إلى عقوبته، وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين...(١).

فابن رجب رحمه الله تعالى بهذا الكلام على الذين يؤولون أحاديث النزول وينكرونها محتجين بشبهة واهية وهي قولهم: إن ثلث الليل يختلف باختلاف البلاد مما يلزم منه أن يكون الله تبارك وتعالى دائماً نازلاً، لأن الثلث مستمر طيلة أربع وعشرين ساعة نظراً لاختلاف المطالع والمغارب.

ولا شك أن هذا الاعتراض اعتراض قبيح يدل على جهل من قال به بنصوص الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

لأن أهل السنة والجماعة يثبتون لله عز وجل نزولاً يليق بجلاله وعظمته لا نزولاً كنزول الخلق، لأن الخلق إذا فعلوا ذلك يلزم منه هذا

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص٢٣).

الاعتراض لأن ذلك من لوازمهم إذا فعلوا شيئاً من ذلك أما الرب تبارك وتعالى فهو ممتنع في حقه لأنه منزه عما يكون من صفات المخلوقين الضعفاء، فنزول الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا نزولاً حقيقياً يليق بجلاله وعظمتة كما جاءت بذلك الأدلة.

ومن أول النزول، وحرف نصوص الكتاب والسنة الواردة في هذه الصفة بمثل هذه الحجة الواهية فقد أخطأ حيث ظن أن أفعال الله تبارك وتعالى وصفاته كأفعال الخلق وصفاتهم فشبه الله عز وجل بخلقه ووقع فيما فر منه وجمع بين التعطيل والتشبيه.

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى على هذه الشبهة فقال: «وهذا الذي ذكروه إنما يصح إذا جعل نزوله من جنس نزول أجسام الناس من السطح إلى الأرض، وهو يشبه قول من قال: يخلو العرش منه بحيث يصير بعض المخلوقات فوقه وبعضها تحته»[(١)].

ويقول أيضاً رحمه الله تعالى راداً على هذه الشبهة: «وهذا إنما قالوه لتخيلهم من نزوله ما يتخيلونه من نزول أحدهم، وهذا عين التمثيل، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم الذي لا يمكنه أن يجمع من الأفعال ما يعجز غيره عن جمعه، وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة كل منهم يراه مخلياً به ويناجيه لا يرى أنه متخل لغيره ولا مخاطب لغيره».

وقد قال النبي ﷺ: «إذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) يقول الله: حمدني عبدي، وإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال الله: أثنى عليّ عبدي»[(٢)] فكل من الناس يناجيه والله تعالى يقول لكل منهم ذلك، ولا يشغله شأن عن شأن...

---

(١) شرح حديث النزول لابن تيمية (ص١٠٦).

(٢) هذا جزء من حديث قدسي أخرجه مسلم: كتاب الصلاة (١/٢٩٦).

ومن مثل مفعولاته التي خلقها بمفعولات غيره فقد وقع في تمثيل المجوس[(١)] القدرية فكيف بمن مثل أفعاله بنفسه أو صفاته بفعل غيره وصفته يقال لهؤلاء: أنتم تعلمون أن الشمس جسم واحد، وهي متحركة حركة واحدة متناسبة لا تختلف، ثم إنه بهذه الحركة الواحدة تكون طالعة على قوم وغاربة عن آخرين، وقريبة من قوم وبعيدة من آخرين فيكون

---

(١) المجوس: هم الذين يعبدون النار، لأنهم يعتقدون أنها أعظم شيء في الدنيا ويسجدون للشمس إذا طلعت وينكرون نبوة آدم، ونوح عليهما السلام، وقالوا: لم يرسل الله عز وجل إلا رسولاً واحداً، لا ندري من هو، ويقولون بإثبات أصلين النور والظلمة. وقد نشأت المجوسية في بلاد الفرس.
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٨٦) والرد على الرافضة (ص١٣٤) والملل والنحل (١/ ٢٣٣) والبرهان في عقائد أهل الأديان (ص٩٠).
والقدرية: سموا بذلك لقولهم في القدر، وهم يزعمون أن العبد يخلق فعله، وأن أفعال العباد مقدرة لهم على جهة الاستقلال، والمتقدمون منهم ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها، ومنهم معبد الجهني وهم الذين كفرهم السلف.
وأما المتأخرون منهم فهم يثبتون العلم وينازعون في مرتبة الخلق، ومن أشهر فرقهم المعتزلة.
والقدرية هم مجوس هذه الأمة كما أطلق ذلك عليهم السلف، وقد وردت آثار بتسمية القدرية مجوس هذه الأمة، وبعض هذه الآثار مرفوع إلى النبي ﷺ، ومنها ما أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥) وأبو داود في سننه: كتاب السنة، باب القدر (٥/ ٦٦) وابن ماجه في سننه: المقدمة (١/ ٣٥) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤٤، ١٤٥).
وجميع هذه الروايات ضعفها أئمة الحديث ولكن يعضد بعضها بعضاً. ووجه تسمية القدرية بمجوس هذه الأمة أنهم حين قالوا بأن الله تعالى لم يخلق الشر ولم يقدره اضطروا إلى القول بأن الإنسان هو خالق أفعاله كما تزعم المعتزلة فهم بهذا أشبهوا المجوس بقولهم أن الله إله الخير والنور، والشر والظلمة لها خالق آخر غيره بزعمهم تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
الفرق بين الفرق (١١٤) والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (٥٠) ومجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٨، ٤٣٠) ولوامع الأنوار البهية (١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٦).

عند قوم عنها ليل، وعند قوم نهار، وعند قوم شتاء، وعند قوم صيف، وعند قوم حر، وعند قوم برد، فإذا كانت حركة واحدة يكون عنها ليل ونهار في وقت واحد لطائفتين، وشتاء وصيف في وقت واحد لطائفتين فكيف يمتنع على خالق كل شيء الواحد القهار أن يكون نزوله إلى عباده ونداه إياهم في ثلث ليلهم وإن كان مختلفاً بالنسبة إليهم وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، ولا يحتاج أن ينزل على هؤلاء، ثم ينزل على هؤلاء، بل في الوقت الواحد الذي يكون ثلثاً عند هؤلاء وفجراً عند هؤلاء يكون نزوله إلى سماء هؤلاء الدنيا وصعوده عن سماء هؤلاء الدنيا، فسبحان الله الواحد القهار (سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[١].

وبهذا يتبين بطلان هذه الشبهة وقبحها، وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأنه لا يصدر إلا من المخالفين المكذبين ومن سار على طريقهم كما بين ذلك ابن رجب رحمه الله تعالى وقبله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم من سلف هذه الأمة عليهم رحمة الله تعالى.



(١) بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/٢٢٨، ٢٢٩).

المبحث التاسع
رده على المخالفين لمذهب السلف من المعطلة والمشبهة

بينت فيما سبق مذهب السلف الصالح رحمهم الله تعالى، وهو ما درج عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم إلا أن هناك طوائف وفرقاً نبتت ونشأت على خلاف هذا المنهج القويم والطريق السليم وهو منهج أهل السنة والجماعة، وهذه الفرق منها من أفرط في النفي حتى شبهوه سبحانه وتعالى بالعدم وهم المعطلة، والبعض الآخر منها بالغوا في الإثبات حتى شبهوه عز وجل بالمخلوقات وهم المشبهة.

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: «أتانا من المشرق رأيان خبيثان جهم معطل ومقاتل مشبه»[(١)].

وهذان المذهبان ـ أعني مذهب المعطلة والمشبهة ـ كل مذهب منهما يضم فرقاً وطوائف.

فأما المعطلة فإنهم انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

فمنهم من جحد الأسماء وأنكر الصفات وهم الجهمية.

ومنهم من أثبت الأسماء وأنكر الصفات، وهم المعتزلة.

ومنهم من أثبت الأسماء، وفرق بين الصفات، فأثبت البعض، وأنكر الآخر، وهم الأشاعرة ومن نحا نحوهم.

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ١٦٤).

وكل واحد من هؤلاء يعطلون حقائق مانعت الله به نفسه، ويشتركون في تأويل نصوص الكتاب والسنة، ويجعلون قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(١). مستنداً لهم في رد الأحاديث الصحيحة الثابتة، فكلما جاءتهم آية أو حديث تخالف قواعدهم وآراءهم، وما وضعته عقولهم وأفكارهم، فإن كانت هذه النصوص قابلة للتأويل والتحريف أولوها وحرفوها، وإن لم تكن قابلة ردوها وأنكروها ورموها وراء ظهورهم، وهم ما بين مقل ومكثر في التأويل والتعطيل وهم مع ذلك يستدلون عل ما ذهبوا إليه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٢) تلبيساً منهم وتشكيكاً لمن هو أعمى قلباً منهم، وتحريفاً لمعنى نصوص الكتاب والسنة عن مواضعه.

وقد بنوا مذهبهم على أصل باطل أصلوه من عند أنفسهم فقالوا: إن إثباتها يقتضي التشبيه والتمثيل بالمخلوقين، ولذلك أولوها وحرفوا معانيها زاعمين أن ذلك لأجل التنزيه فوقعوا في شر مما فروا منه وهو تشبيه المولى تبارك وتعالى بالمعدومات والجمادات فشبهوا الله سبحانه وتعالى في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات، فهم شبهوا أولاً وعطلوا ثانياً.

وأما المشبهة فهم الذين أثبتوا أسماء الله تعالى وصفاته وغلوا في الإثبات إلى حد أن شبهوه بالمخلوقات وجعلوا صفاته سبحانه وتعالى من جنس صفاتهم لأنهم يظنون أن لا حقيقة لها إلا هذا.

والشبهة التي أدت بالمشبهة إلى التشبيه والتمثيل هي أنهم يقولون

(١) سورة الشورى آية (١١).
(٢) سورة الشورى آية (١١).

كما ذكر ذلك ابن القيم الجوزية رحمه الله عنه: «محال أن يخاطبنا الله بما لا نعقله، ثم يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(١)] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[(٢)] ﴿لِيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[(٣)][(٤)].

ويقولون أيضاً أنه لا يوجد شيء معقول في الموجودات سوى الجسم والعرض ويستحيل أن يكون الله سبحانه وتعالى عرضاً فيجب أن يكون جسماً.

واحتجوا على قولهم هذا بآيات من كتاب الله تعالى فيها ذكر العين والوجه واليد وغيرها[(٥)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: المشبهة الذين يقولون بصر كبصري، ويد كيدي، وقدم كقدمي[(٦)].

ومن هؤلاء المشبهة الكرامية[(٧)] ومن سار على منهجهم من طوائف الرافضة وغيرهم[(٨)].

---

(١) سورة البقرة آية (٧٣).
(٢) سورة البقرة آية (٢١٩).
(٣) سورة ص آية (٢٩).
(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/ ٤٢٥).
(٥) الفصل في الملل والنحل (٢/ ٢٧٧).
(٦) رسالة الفرقان بين الحق والباطل لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٧٧).
(٧) الكرامية: هي إحدى فرق المرجئة وسموا بذلك نسبة إلى محمد بن كرام من أهل سجستان، وهم يثبتون صفات الله تعالى إلا أنهم ينتهون فيها إلى التجسيم والتشبيه، ولهم في الإيمان قول منكر حيث زعموا أن الإيمان هو الإقرار والتصديق دون القلب، والمنافقون عندهم مؤمنون.
انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٧) والفرق بين الفرق (٢٠٢) ورسالة في الرد على الرافضة لابن حامد المقدسي (١٦٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٣).
(٨) مقالات الإسلاميين (١/ ٢٨٣) ومجموع الفتاوى (٦/ ٥١) والملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٠٥) والفرق بين الفرق (٢١٥).

وأصحاب هذا المنهج لا شك أنهم منحرفون عن المنهج السليم، وضالون عن الصراط المستقيم، لأنهم جمعوا في قولهم بين التشبيه والتعطيل أما تشبيههم فظاهر وهو تشبيه الخالق بالمخلوق، وأما التعطيل فمن وجوه ثلاثة:

١ ـ أنه عطل نفس النص الذي أثبت الصفة حيث صرفه عن مقتضى ما يدل عليه، فإن النص دال على إثبات صفة تليق بالله لا على مشابهة الله لخلقه.

٢ ـ أنه إذا شبه الله بخلقه فقد عطله عن كماله الواجب حيث شبه الرب الكامل من جميع الوجوه بالمخلوق الناقص.

٣ ـ أنه إذا شبه الله بخلقه فقد عطل كل نص يدل على نفي مشابهة الله لخلقه مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[٢][٣]...

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذين المذهبين وبين أنهما من البدع التي اتفق السلف على تضليل قائليها فقال: «ومن ذلك أعني محدثات الأمور ما أحدثه المعتزلة، ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله تعالى وصفاته بأدلة العقول... وانقسم هؤلاء إلى قسمين:

أحدهما: من نفى كثيراً مما ورد به الكتاب والسنة من ذلك لاستلزامه عنده التشبيه بالمخلوقين كقول المعتزلة: لو رؤي لكان جسماً، لأنه لا يرى إلا في جهة.

---

(١) سورة الشورى آية (١١).

(٢) سورة الإخلاص آية (٤).

(٣) انظر: التحفة المهدية لابن مهدي (ص١٨٥) وفتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين (ص٩٧).

وقولهم: لو كان له كلام يسمع لكان جسماً، ووافقهم من نفي الاستواء فنفوه لهذه الشبهة، وهذا طريق المعتزلة والجهمية.

وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم، وقد سلك سبيلهم في بعض الأمور كثير ممن انتسب إلى السنة والحديث من المتأخرين.

والثاني: من رام إثبات ذلك بأدلة العقول التي لم يرد بها الأثر ورد على أولئك كما هي طريقة مقاتل بن سليمان، ومن تبعه كنوح بن أبي مريم(١) وتابعهم طائفة من المحدثين قديماً وحديثاً، وهو مسلك الكرامية فمنهم من أثبت لإثبات هذه الصفات الجسم إما لفظاً وإما معنى، ومنهم من أثبت لله صفات لم يأت بها الكتاب والسنة كالحركة وغير ذلك مما هي عنده لازم الصفات الثابتة(٢).

وقال رحمه الله تعالى في معرض كلامه عن الخوارج وتكفيرهم للأمة واستباحة دمائهم وأموالهم:

«وأصعب من ذلك ما حدث من الكلام في ذات الله وصفاته، مما سكت عنه النبي ﷺ والصحابة والتابعون لهم بإحسان:

١ ـ فقوم نفوا كثيراً مما أورد في الكتاب والسنة من ذلك، وزعموا أنهم فعلوا تنزيهاً لله عما تقتضيه العقول بتنزيهه عنه، وزعموا أن لازم ذلك لمستحيل على الله عز وجل.

٢ ـ وقوم لم يكتفوا بإثباته حتى أثبتوا ما يظن أنه لازم له بالنسبة

---

(١) نوح بن أبي مريم أبو عصمة المروزي، يعرف بالجامع لجمعه العلوم، ولكن كُذب في الحديث، قال ابن المبارك: كان يضع، توفي سنة ١٧٣هـ.
ميزان الاعتدال (٤/ ٢٨٠) وتقريب التهذيب (ص٣٦٠).

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٣٨، ١٣٩).

إلى المخلوقين، وهذه اللوازم نفياً وإثباتاً درج صدر الأمة على السكوت عنها»[١].

والسلف رحمهم الله تعالى منزهون في اعتقادهم عن التشبيه والتمثيل وقولهم في أسماء الله تعالى وصفاته هو الصحيح من الأقوال لأنه إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، عمدتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل فلا يمثلون صفات الله خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسماء الله وآياته[٣].

ويقول ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى: وهدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى، فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها، وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنها مماثلة المخلوقات، وكان مذهبهم مذهباً بين مذهبين، وهدى بين ضلالين خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين[٤] والمجهلين والمشبهين. . . . وقالوا

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٩٦).

(٢) سورة الشورى آية (١١).

(٣) الفتوى الحموية (ص١٧).

(٤) أهل التخييل: هم الفلاسفة والباطنية ومن سلك سبيلهم من المتكلمين والمتصوفة وغيرهم، وحقيقة مذهبهم: أن ما جاءت به الأنبياء مما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر إنما هو تخييل وتمثيل لا حقيقة لها وليس هو حقاً ولا هدىً، وإنما المراد منها تخويف العامة وجمهور الناس وانتفاعهم بها ليستقيموا على الصراط المستقيم. وهم ينقسمون إلى قسمين: غلاة وغير غلاة.

=

نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات، ونفي مشابهة المخلوقات[1].



= ومن أهل التخييل من يجعل الأعمال من صلاة وزكاة وصوم وغيرها تخييلات ورموز يأمر بها العامة دون الخاصة.

وقولهم فساد يدل على فساده الشرع والعقل والحس.

الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية (ص٢٠) والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١/ ٤١٨).

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١/ ٢٥٢).

المبحث العاشر
تنزيه الله سبحانه وتعالى من نسبة الولد إليه

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وإذا كان منزهاً عن أن يخرج منه مادة الولد التي هي أشرف المواد فلأن ينزه عن خروج مادة غير الولد أولى، فمن أثبت لله ولداً فقد شتمه، وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[1].

وفي صحيح البخاري أيضاً عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً»[2].

وقد رد الله على من زعم أنه لا يعيد الخلق، وعلى من زعم أن له ولداً كما تضمنه هذا الحديث في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾[3].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة ﴿قل هو الله أحد﴾، (٦/ ٩٥).
(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿الله الصمد﴾ (٦/ ٩٥).
(٣) سورة مريم من آية (٦٦ إلى ٨٩).

وفي صحيح البخاري أيضاً عن النبي ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»... (١)(٢).

فنسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى فرية عظيمة قال بها اليهود والنصارى والمشركون من العرب، ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وغيرهم فاليهود المغضوب عليهم زعموا أن عزيراً ابن الله، والنصارى الضالون زعموا أن المسيح ابن الله، ومشركوا العرب زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقد رد الله تبارك وتعالى هذه المزاعم كلها في القرآن الكريم، وبيّن بطلانها بنفي الولد وتنزهه عن ذلك تبارك وتعالى.

وقد بين ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق بطلان هذه الفرية، وذكر بعض الأدلة التي وردت في الرد على هذا الزعم الباطل لأن هذا القول قول عظيم في القبح والبشاعة والنكارة، فالله سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصمد المستغني عن جميع خلقه وهم محتاجون إليه، قهر الأشياء كلها فدانت له وذلت وخضعت.

وقد أنذر الله تبارك وتعالى جميع الطوائف التي تنسب إليه الولد بالوعيد الشديد والتهديد الأكيد قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ (٣).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾** (٨/ ١٦٥) وأخرجه مسلم أيضاً: كتاب صفات المنافقين، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل (٤/ ٢١٦٠).
كلهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) تفسير سورة الإخلاص (ص٥٨، ٥٩).

(٣) سورة الكهف آية (٤، ٥).

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره ويحذر أيضاً محمد القوم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ من مشركي قومه وغيرهم، بأس الله وعاجل نقمته، وآجل عذابه على قيلهم ذلك»(١).

ونفي الولد عن الله سبحانه وتعالى يجب اعتقاد ثبوت ضده لله على الوجه اللائق بجلاله لأن النفي المحض عدم محض فهو ليس بشيء وليس في النفي المجرد إثبات صفة كمال، ولهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمناً لإثبات المدح والكمال، والمدح الذي تضمنه نفي الولد عن الله إثبات إنه الأحد سبحانه المنفرد بذاته يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتاً، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل: ليس بشيء فضلاً عن أن يكون مدحاً أو كمالاً، ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال، فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمناً لإثبات مدح كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾(٢) فنفي السِنَة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ أي لا يكرثه ولا يثقله وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها(٣).

وأرى من المناسب أن أذكر هنا فائدة لها صلة بهذا المبحث ذكرها ابن رجب رحمه الله تعالى في تفسيره لسورة الإخلاص حيث قال:

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٥/ ١٩٣).

(٢) سورة البقرة آية (٢٥٥).

(٣) الرسالة التدمرية (ص٢٢).

سؤال: نفى سبحانه الولادة قبل التولد، والتولد أسبق وقوعاً من الولادة في حق من هو متولد؟

وجوابه: أن الولادة لم يدعها أحد في حقه سبحانه، وإنما ادعوا أنه ولد، فلذلك قدم نفيه لأن المهم المحتاج إلى نفيه.

سؤال آخر: كيف نفى أن يكون مولودا ولم يعتقده أحد؟

جوابه: من وجهين.

أحدهما: أنهم سألوا عمن ورث الدنيا. ولمن يورثها، وهذا يشعر بأن منهم من اعتقد ذلك.

والثاني: أنه نفى عن نفسه سبحانه خصائص آلهة المشركين فإن منهم من عبد المسيح، ومنهم من عبد العزيز وهما مولودان، ومنهم من عبد الملائكة والعجل وهي متولدات، وقد تقدم أن نفي الولادة تدل على نفي المتولد بطريق الأولى[1].

  

(١) تفسير سورة الإخلاص (ص٦١، ٦٢).

المبحث الحادي عشر
علم الكلام وكلام ابن رجب عليه

أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم هدي وشفاء للناس كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾(١) وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤﴾(٣).

فبين الله سبحانه وتعالى أن هذا الكتاب المنزل على نبينا محمد ﷺ هدى للناس يهتدون به إلى الطريق القويم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(٤) ويخرجون به من الظلمات إلى النور كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٥).

فمن تمسك بهذا الكتاب وسنة المصطفى ﷺ المفسرة المبينة له فهو غني عن كل فكر ومنهج، لأن الله سبحانه وتعالى قد أكمل الدين كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة آية (١، ٢).
(٢) سورة فصلت آية (٤٤).
(٣) سورة النحل آية (٦٤).
(٤) سورة الإسراء آية (٩).
(٥) سورة البقرة آية (٢٥٧).
(٦) سورة المائدة آية (٣).

وقد علم الصحابة رضي الله عنهم قدر هذا الكتاب العظيم فتمسكوا به وانكبوا عليه علماً وعملاً وتعليماً، وهكذا التابعون لهم بإحسان ولم يعرف عن أحد منهم أنه تكلم بشيء من الطرق الكلامية ولا المسائل الفلسفية[١].

وبعد انتهاء عصر الصحابة رضي الله عنهم ظهر ما يسمى بعلم الكلام وهو الجدال في الأمور الاعتقادية بالعقل بسبب الابتعاد عن الكتاب والسنة والتأثر بالأفكار والديانات القديمة، وازداد الأمر سوءاً في عهد المأمون[٢] بعد أن عربت كثير من الكتب اليونانية والرومانية إلى العربية[٣].

وقد قام أئمة الدين وأعلام الهدى بذم علم الكلام وبالغوا في ذمه وذم أهله وتضليلهم، ومنعوا من مجالستهم ومحادثتهم ومجادلتهم، وأمروا بهجرهم، والبعد عنهم، وأجمعوا على أنه من العلوم المحدثة المبتدعة التي كان لها أكبر الأثر في تفريق المسلمين وتشتيت وحدتهم.

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: «روى... ذم الكلام

---

(١) انظر: الخطط للمقريزي (٢/٣٥٦) وصون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام (ص١٤).

(٢) المأمون أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي أحد خلفاء بني العباس، قرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، ودعا إلى القول بخلق القرآن وحمل الناس عليه، وكان يجلّ أهل الكلام ويتناظرون في مجلسه، توفي سنة ٢١٨هـ.
تاريخ بغداد (١٠/١٨٣) وسير أعلام النبلاء (١٠/٢٧٢) وشذرات الذهب (٢/٣٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١١/٣٣٦) والتعريفات للجرجاني (١٨٥).

وأهله عن مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف[١] ومحمد وابن مهدي[٢] وأبي عبيد والشافعي والمزني[٣] وابن خزيمة، وذكر ابن خزيمة النهي عنه عن مالك والثوري والأوزاعي والشافعي وأبي حنيفة وصاحبيه وأحمد وإسحاق وابن المبارك ويحيى بن يحيى[٤] ومحمد بن يحيى الذهلي[٥] وروى

---

(١) هو القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي تلميذ أبي حنيفة، عالم، فقيه، محدث، قال يحيى بن معين: ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث، ولا أحفظ، ولا أصح رواية من أبي يوسف، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٨٢هـ.
تاريخ جرجان للسهمي (٤٨٧) وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٩٢) والجواهر المضيئة (٢/ ٢٢٠).

(٢) هو الإمام الحافظ عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري، وقيل الأزدي، من أعلم الناس بالحديث وعلومه.
قال علي بن المديني: لو أخذت، فحلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله أني لم أر أحداً قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن بن مهدي، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٩٨هـ.
حلية الأولياء (٩/ ٣ ـ ٦٣) وتاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٠) وتهذيب التهذيب (٦/ ٢٧٩) وشذرات الذهب (١/ ٣٥٥).

(٣) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني المصري، تلميذ الشافعي، الإمام الزاهد، العابد، قال الذهبي: كان مجاب الدعوة، ذا زهد وتأله، أخذ عنه خلق من العلماء، توفي سنة ٢٦٤هـ.
طبقات الشافعية للسبكي (٢/ ٩٣) وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٩٢) وطبقات الشافعية لابن هداية (٢٠).

(٤) يحيى بن يحيى بن كثير الليثي، أبو محمد، رحل إلى المشرق، وسمع من مالك بن أنس وغيره، وكان من أكابر الصحابة، وكان مالك يسميه عاقل الأندلس، وإليه انتهت رئاسة الفقه في الأندلس، توفي سنة ٢٣٤هـ رحمه الله تعالى.
جذوة المقتبس (٣٨٢) وترتيب المدارك (٣/ ٣٧٩) ووفيات الأعيان (٥/ ١٩٤).

(٥) محمد بن يحيى بن عبد الله بن خالد أبو عبد الله الذهلي النيسابوري الإمام الحافظ.
=

السلمي[١] أيضاً النهي عن الكلام وذمه عن الجنيد[٢] وإبراهيم الخواص[٣] فتبين بذلك أن النهي عن الكلام إجماع من أئمة الدين من المتقدمين من الفقهاء وأهل الحديث، والصوفية، وأنه قول أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وغيرهم من أئمة المسلمين...»[٤].

كما بين ابن رجب رحمه الله تعالى أن علم الكلام الذي اعتمد عليه المتكلمون من العلوم المذمومة التي فتحت باب شر عظيم على المسلمين في دينهم لأن المتكلمين جاءوا بقضايا منطقية وفلسفية زعموا أنها حجج قطعية وقضايا مسلمة لا تغير ولا تبدل.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان هذا: «... فأما الدخول

= قال ابن أبي حاتم: إمام من أئمة المسلمين، وثّقه أبي، وسمعته يقول: هو إمام أهل زمانه. توفي سنة ٢٥٨هـ.
الجرح والتعديل (٨/ ١٢٥) وطبقات الحنابلة (١/ ٣٢٧) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٣٠).

(١) محمد بن الحسين بن محمد أبو عبد الرحمن السلمي نسبة إلى قبيلة سليم، شيخ خراسان وكبير الصوفية، قال الذهبي: وللسلمي سؤالات للدارقطني عن أحوال المشايخ الرواة سؤال عارف، وفي الجملة، ففي تصانيفه أحاديث وحكايات موضوعة، توفي سنة ٤١٢هـ.
تاريخ بغداد (٢/ ٢٤٨) وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٤٨).

(٢) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، شيخ الصوفية، لم يرَ في زمانه مثله في العفة والعزوف عن الدنيا، توفي سنة ٢٩٨هـ.
تاريخ بغداد (٧/ ٢٤١) وشذرات الذهب (٢/ ٢٢٨).

(٣) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص، من أهل سر من رأى، قال الخطيب: أحد شيوخ الصوفية، وممن يذكر بالتوكل وكثرة الأسفار إلى مكة وغيرها، توفي سنة ٢٩١هـ.
تاريخ بغداد (٦/ ٧ ـ ١٠).

(٤) فتح الباري (٥/ ١٠١ ـ ١٠٢).

مع ذلك في كلام المتكلمين أو الفلاسفة فشر محض وقل من دخل في شيء من ذلك إلا وتلطخ ببعض أوضارهم، كما قال أحمد: لا يخلو من نظر في الكلام إلا تجهم.

وكان هو وغيره من أئمة السلف يحذرون من أهل الكلام، وإن ذبوا عن السنة.

وأما ما يوجد في كلام من أحب الكلام المحدث، واتبع أهله من ذم من لا يتوسع في الخصومات والجدال ونسبته إلى الجهل أو إلى الحشو، وإلى أنه غير عارف بالله أو غير عارف بدينه، فكل ذلك من خطوات الشيطان نعوذ بالله منه[1].

كما بين رحمه الله تعالى أن سكوت السلف رحمهم الله تعالى عن الكلام والجدال ليس جهلاً وعجزاً منهم ولكنهم سكتوا عن علم ومعرفة ودراية وتعظيم وخشية لله تعالى. فقال: «فما سكت من سكت عن كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلاً ولا عجزاً ولكن سكتوا عن علم وخشية لله وما تكلم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم باختصاصه بعلم دونهم، ولكن حباً للكلام وقلة ورع... إلى أن قال رحمه الله تعالى: «وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا، وظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض.

وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاذ، وابن مسعود، زيد بن ثابت كيف كانوا... وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم، فليس العلم بكثرة الرواية

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٤٩).

ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل[١].

وقد تنوعت عبارات السلف في التحذير عن الكلام وأهله من ذلك قول الإمام مالك رحمه الله تعالى: الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل، فالسكوت أحب إليّ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل[٢].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: «لو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل[٣].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «رأيي ومذهبي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويجلسوا على الجمال ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام[٤].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء، والله ما توهمته قط، ولأن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله عنه خلا الشرك بالله خير من أن يبتليه الله بالكلام»[٥].

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٤٣، ١٤٤).
(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص٣٦٤).
(٣) شرح السنة للبغوي (١/ ٢١٧).
(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١١٦).
(٥) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٥٣) وابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص٣٣٦).

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «إنه لا يفلح صاحب كلام أبداً ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل»[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «لا يفلح صاحب كلام أبداً علماء الكلام زنادقة»[٢].

فهذه بعض أقوال أئمة الإسلام، الذين شهد لهم بالفضل والعلم في علم الكلام، وهم أدرى به من غيرهم لأنهم اطلعوا على حقيقته، وعلموا نتيجته، وعاصروا أصحابه وعرفوهم عن قرب، بل أن السلف لم يكتفوا بالتحذير من علم الكلام وأصحابه بالقول. بل ألفوا فيهم مؤلفات تبين ما هم عليه من الضلال، وتحذرهم منه، وممن ألف في ذلك الخطابي[٣] ألف كتاب الغنية عن الكلام وأهله، وأبو إسماعيل الهروي[٤] ألف كتابه المشهور بذم الكلام[٥].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ص٣٦٥).

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٨٣).

(٣) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي الإمام الحافظ اللغوي الفقيه المحدث، له تصانيف مفيدة منها: معالم السنن، وغريب الحديث، توفي سنة ٣٨٨هـ.
سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٣) وشذرات الذهب (٣/ ١٢٧).

(٤) شيخ الإسلام الإمام الحافظ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد الأنصاري الهروي، كان مظهراً للسنة داعياً إليها صنف ذم الكلام والأربعين في دلائل التوحيد وغيرها من الكتب المفيدة النافعة، توفي رحمه الله تعالى سنة ٤٨١هـ.
طبقات الحنابلة (٢/ ٢٤٧) وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٠٣) والبداية والنهاية (١٢/ ١٤٥).

(٥) توجد له نسخة في مكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية، وقد قام أخونا عبد الرحمن الشبل بتحقيق جزء منه في مرحلة الماجستير، ويقوم الآن بتحقيق الجزء الآخر في مرحلة الدكتوراه.

كما اتبعوا القول بالعمل فقد أمر الحافظ أبو عمرو ابن الصلاح[١] بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي[٢] وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا[٣].

ولا يفهم من موقف السلف من علم الكلام أنهم ينهون عن الأدلة العقلية فلا يعطونها أي وزن أو قيمة: بل إن من طالع كتبهم ونظر في أقوالهم، تبين له أنهم لم ينكروا الاستدلال بالأدلة العقلية على المطالب الآلهية إذا كانت صحيحة، وإنما نهوا وذموا ما خالف الكتاب والسنة[٤].

كما أنهم لم يذموا علم الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة كلفظ العرض[٥] وغير ذلك، ولكن لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه لاشتمال هذه الألفاظ على معان مجملة في النفي والإثبات[٦].

---

(١) أبو عمرو الإمام الحافظ عثمان بن صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان الكردي الشافعي، كان من كبار الأئمة، وقد أفتى وجمع وألف كتباً كثيرة في علوم الحديث والفقه ومن أشهرها ما يعرف بمقدمة ابن الصلاح، توفي سنة ٦٤٣هـ.
تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٣٠) والبداية والنهاية (١٣/ ١٦٠) والنجوم الزاهرة (٦/ ٣٥٤).

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن سالم الثعلبي سيف الدين الآمدي، أصولي متكلم، كان حنبلياً ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، اشتغل بفنون المعقول، صنف كتاب الأحكام في أصول الأحكام، ولباب الألباب وغيرها، توفي سنة ٦٣١هـ.
طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٣٠٦) والبداية والنهاية (١٣/ ١٣٤) وشذرات الذهب (٥/ ١٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ٥٢).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٥٣، ١٥٥، ١٦٦).

(٥) العرض: الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع أي محل يقوم به كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحله ويقوم به.
التعريفات للجرجاني (ص١٤٨).

(٦) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٤٤).

وهكذا كان علماء السلف كلهم ملتزمين بما أنزل الله سبحانه وتعالى على نبينا محمد ﷺ يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يتجاوزونه إلى غيره، ويرون أن فيه الصلاح والهدى والخير والسعادة في الدنيا والآخرة، لأنه ﷺ لم ينتقل إل ربه عز وجل حتى كمل هذا الدين، فكل ما تحتاج إليه أمته من أمور الدين قد بينه عليه الصلاة والسلام بياناً شافياً، ولم يترك لأحد مقالاً فيما للمسلمين إليه حاجة من أمور دينهم، ولم يرو عنه ﷺ في علم الكلام شيء مما يدل دلالة واضحة على أنه بدعة وضلالة.

يقول ابن عقيل رحمه الله: «وقد أفضى الكلام بأهله إلى الشكوك وكثير منهم إلى الإلحاد، تشم رائحة الإلحاد من فلتات كلام المتكلمين»(١).

هذا مع أن بطون الكتب حفظت لنا نصوصاً كثيرة في تراجع من اشتغل بعلم الكلام رغم أنهم أمضوا السنوات الطوال بحثاً وتفكيراً وتأملاً فيه، رغم ذلك عادوا في آخر حياتهم إلى ما عليه السلف، وأوصوا بالبعد عن علم الكلام مما يدل دلالة واضحة على بطلان هذا العلم وما يؤدي إليه من الحيرة والاضطراب، ورجوع من اشتغلوا بعلم الكلام عنه ووصاياهم بالبعد عنه والتمسك بما عليه السلف أمر لا ينكره إلا من هو مكابر ومعاند وغير مريد للحق لأن اعترافاتهم وأقوالهم مسطرة ومنثورة في كتبهم التي ألفوها في آخر حياتهم، وتناقلها العلماء من بعدهم مستدلين بها على صحة منهج السلف وفساد مذهب المتكلمين.

أخرج الخطيب البغدادي بسنده أن الوليد بن أبان الكرابيسي(٢) لما

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٨٥).

(٢) الوليد بن أبان الكرابيسي، معتزلي، من علماء الكلام، من أهل البصرة، له مقالات في الاعتزال، مات سنة (٢١٤هـ).
تاريخ بغداد (١٣/ ٤٤١) وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤٨) والنجوم الزاهرة (٢/ ٢١٠).

حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا، قال: فتتهمونني، قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟ قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم»[١].

وكان أبو المعالي الجويني إمام الحرمين يقول: «لقد جلت أهل الإسلام جولة وعلومهم وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز فإن لم يدركني الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز ويختم عاقبةً أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني[٢].

وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به.

وممن اشتهر عنه الرجوع إلى مذهب السلف، وذم علم الكلام أبو الفتح الشهرستاني[٣] حيث أخبر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وكان ينشد:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أوقار عاسن نادم[٤]

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٤٤١) وتلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٨٤) والنجوم الزاهرة (٢/ ٢١٠).

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٨٤، ٨٥) ومجموع الفتاوى (٤/ ٧٣) والروض الباسم لابن الوزير (٢/ ١٤).

(٣) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني من كبار أئمة الأشاعرة، له مؤلفات كثيرة منها: الملل والنحل، نهاية الأقدام في علم الكلام، توفي سنة ٥٤٨هـ. وفيات الأعيان (٤/ ٢٧٣) والعبر (٣/ ٧) وشذرات الذهب (٤/ ١٤٩).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٥٩) وشرح العقيدة الطحاوية (ص٢٢٨) والروض الباسم لابن الوزير (٢/ ١٥).

وهؤلاء الذين ذكرت مقالاتهم أتيت بهم للمثال وإلا فهناك غيرهم الكثير والكثير من علماء الكلام الذين تبين لهم أن علم الكلام نهايته الحيرة والاضطراب، وأن الخير كل الخير فيما عليه سلف هذه الأمة عليهم رحمة الله تعالى.

وأخيراً فإن رجوع هؤلاء الأئمة إلى مذهب السلف الصالح واعترافهم بالحيرة والاضطراب بسبب البعد عن منهج القرآن والسنة لعبرة لطالب الحق، فإن هؤلاء العلماء كلهم قد درسوا علم الكلام، وأفنوا فيه سنوات، وخدعوا ببريقه حيناً من الزمن، ولكنهم رجعوا في النهاية إلى عقيدة السلف الصالح، العقيدة الصافية التي مصدرها كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

وفي هذا عبرة وعظة لمن لا يزال يسلك مسلك الخلف وهو مسلك أهل الكلام على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم عله يتوب ويرجع عما هو عليه كما رجع هؤلاء لينال بذلك رضى الله تعالى عليه، وليتختم عمره بالحسنى.



الفصل الرابع

توحيد الألوهية

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث:

تمهيد.

المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية.

المبحث الثاني: بيان معنى لا إله إلا الله وفضلها وشروطها، وفيه عدة مطالب.

المطلب الأول: بيان معنى كلمة إله.

المطلب الثاني: معنى لا إله إلا الله.

المطلب الثالث: فضل لا إله إلا الله.

المطلب الرابع: الجمع بين أحاديث تدل على أنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله وأخرى تدل على أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله.

المطلب الخامس: شروط الانتفاع بـ (لا إله إلا الله).

المبحث الثالث: ذكر بعض أنواع العبادة.

تعريف العبادة.

من أنواع العبادة:

الدعاء.

الخوف.

التوكل.

الاستعانة.

الخشوع.

المحبة.

المبحث الرابع: بيانه أن العبادة لا تقبل إلا بشرطين.

تمهيد:

خلق الله سبحانه وتعالى آدم بيده ثم أنزله إلى هذه المعمورة وأسبغ عليه نعماً كثيرة لا تعد ولا تحصى وزوده بالعقل والسمع والإرادة حتى يتمكن بواسطتها إدراك ما يلقى إليه من أوامر الله عز وجل ونواهيه، ثم أرسل الله سبحانه وتعالى إلى ذريته من بعده رسلاً من جنسهم يبلغون دين الله، وأنزل عليهم كتباً تعرفهم بخالقهم وموجودهم وبأمره ونهيه ووعده ووعيده، وقد شاء الله سبحانه وتعالى بحكمته وإرادته أن تكون أمة محمد ﷺ آخر الأمم ورسولهم خاتم الأنبياء والرسل وهو محمد ﷺ وأنزل عليه كتاباً تبياناً لكل شيء، وناسخاً لما قبله من الكتب ومهيمناً عليها وهو القرآن الكريم، وقد ضمنه الله سبحانه وتعالى بيان الغاية العظمى والمقصد الأساسي الذي من أجله خلقهم وأوجدهم في هذه الأرض واستخلفهم فيها ألا وهو عبادته سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له وحده والبراءة من كل معبود سواه وهو ما يسمى بتوحيد العبادة فهو أول واجب على العباد، وهو أصل الدين وأساس شرائع الإسلام، وهو من الدين بمثابة الروح من الجسد، وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم، فكان كل رسول يفتتح دعوته لقومه بتوحيد الألوهية كما قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾(١).

(١) سورة الأعراف آية (٥٩).

وقد وردت أدلة كثيرة في الكتاب والسنة توجب على العباد أن يفردوا الله بتوحيد العبادة، ويخصوه بها وحده دون سواه.

ولهذا اهتم علماء الإسلام من السلف الصالح رحمهم الله تعالى بهذا النوع من التوحيد وبينوه وأوضحوه لما له من أهمية كبيرة وعاقبة حميدة ومنهم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى حيث اعتنى بهذا النوع من التوحيد وبينه وأوضحه واهتم به اهتماماً كبيراً، وسوف يتبين هذا كله إن شاء الله تعالى في المباحث القادمة التي تشمل على أقواله في ذلك، ولا ريب أن هذا النوع من التوحيد جدير بالعناية والاهتمام بل هو أهم الأمور التي يجب العناية والاهتمام بها.



المبحث الأول
تعريف توحيد الألوهية

توحيد الألوهية هو ما يعبر عنه بتوحيد العبادة أو توحيد الطلب والقصد أسماء لمسمى واحد وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بأفعال عباده التي تعبدهم بها بجميع أنواعها باطنها وظاهرها من الصلاة والزكاة والصيام والحج والنحر والنذر والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة التي تعبد الله بها خلقه وشرعها لهم.

وبمعنى آخر أي صرف جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له، فلا يدعى من دونه أحد من خلقه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فمن صرف شيئاً منها لغير الله فهو كافر مشرك كما قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾[1].

وهذا النوع من التوحيد هو غاية توحيد الربوبية والأسماء والصفات فإنهما وسيلة إليه وهو الذي من أجله خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب وحصل الجدال وشرع الجهاد، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وهو معنى قول لا إله إلا الله.

وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى توجب على

(١) سورة الأنعام آية (١٦٢).

العباد أن يفردوا الله سبحانه وتعالى بتوحيد العبادة ويخصوه بها وحده دون سواه.

بل إن الأمر بالعبادة هو أول أمر في كتاب الله سبحانه وتعالى وهو قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾(١).

ومن الآيات الدالة على وجوب عبادة الله تعالى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾(٥).

فهذه الآيات الكريمة تقرر أن الله سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة بجميع أنواعها الاعتقادية والقولية والعملية، وليس لأحد سواه كائناً من كان أي شيء من أنواع العبادة.

---

(١) سورة البقرة آية (٢١ ـ ٢٢).
(٢) سورة الزمر آية (١١ ـ ١٥).
(٣) سورة الإسراء آية (٢٣).
(٤) سورة النساء آية (٣٦).
(٥) سورة الزمر آية (٦٦).

وكما جاءت آيات الكتاب الكريم مبينة لهذا النوع من التوحيد وآمرة به كذلك جاءت السنة المشرفة موضحة ومبينة له وآمرة به.

ومن ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم»(١).

ومنها حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»(٢).

فهذه الأحايث تدل على وجوب إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذا النوع من التوحيد وبين أن الغاية العظمى والمقصد الأساسي الذي من أجله خلق الله الخلق وأوجدهم في هذه الأرض هو عبادته سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له وحده والبراءة من كل معبود سواه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٨/ ١٦٤).
ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/ ٥١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب. . ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٨/ ١٦٤).
ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (١/ ٥٨).

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعبدوه، ويعرفوه ويخشوه ويخافوه، ونصب لهم الأدلة الدالة على عظمته وكبريائه ليهابوه، ويخافوه خوف إجلال، ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه، ليتقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرر سبحانه وتعالى في كتابه ذكر النار، وما أعده فيها لأعدائه من العذاب والنكال والأغلال... وغير ذلك مما فيها من الأهوال والفظائع والعظائم ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه، والمسارعة إلى امتثال ما يأمر به ويحبه ويرضاه، واجتناب ما نهى عنه ويكرهه ويأباه، فمن تأمل الكتاب الكريم وأدار فكره فيه وجد من ذلك العجب العجاب، وكذلك السنة الصحيحة التي هي مفسرة ومبينة لمعاني الكتاب، وكذلك سير السلف الصالح أهل العلم والإيمان من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، من تأملها علم أحوال القوم وما كانوا عليه من الخوف والخشية والإخبات وأن ذلك هو الذي رقاهم إلى تلك الأحوال الشريفة والمقامات السنيات، من شدة الاجتهاد في الطاعات والانكفاف عن دقائق الأعمال المكروهات فضلاً عن المحرمات[١].

ويقول أيضاً رحمه الله تعالى: «فإن الله تعالى خلق الخلق وأوجدهم لعبادته الجامعة لخشيته ورجائه ومحبته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٢][٣].

ويقول رحمه الله تعالى أيضاً: فإن الله تعالى خلق الخلق كلهم لعبادته كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٢] وأرسل الرسل كلهم للدعوة إلى توحيده وطاعته كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن

(١) التخويف من النار (ص٦، ٧).
(٢) سورة الذاريات آية (٥٦).
(٣) استنشاق نسيم الأنس (ص٣).

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[١] ولما أهبط آدم وزوجته وأسكنهما في الأرض أخذ عليهما أن من أطاعه من ذريتهما واتبع رسله كان من السعداء، ومن أعرض عن ذلك كان من الأشقياء كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[٣][٤].

فقد أوضح ابن رجب رحمه الله في كلامه السابق أن الحكمة التي من أجلها خلق الله تبارك وتعالى الجن والإنس هي عبادته سبحانه وتعالى وحده دون سواه.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٥] قال: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم... ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم[٦].

---

(١) سورة الأنبياء آية (٢٥).

(٢) سورة البقرة الآيتان (٣٨، ٣٩).

(٣) سورة طه الآيتان (١٢٣، ١٢٤).

(٤) الاستخراج لأحكام الخراج (ص١٤٩ ـ ١٥٠).

(٥) سورة الذاريات آية (٥٦).

(٦) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٨).

المبحث الثاني
بيان معنى لا إله إلا الله وفضلها وشروطها

وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول
بيان معنى كلمة إله

أله في اللغة معناه: عبد.

والإله: هو المعبود.

يقال أله يأله بالفتح فيهما بمعنى عبد يعبد.

قال ابن فارس: الهمزة واللام والهاء أصل واحد وهو التعبد فالإله الله تعالى، وسمي بذلك لأنه معبود، ويقال: تأله الرجل إذا تعبد[١].

وقال الزجاج: معنى قولنا: «إله» إنما هو الذي يستحق العبادة وهو تعالى المستحق لها دون سواه[٢].

وقال ابن جرير الطبري: أله بمعنى عبد، والإله مصدره من قول القائل: آله الله فلان إلاهة كما يقال: عبد الله فلان عبادة[٣].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١/ ١٢٧).

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى (ص٢٦).

(٣) تفسير ابن جرير الطبري (١/ ٥٤).

وقال الفيروز أبادي:[١] أله يأله ألهة وتألهاً كعبد يعبد عبادة وتعبداً[٢].

بهذا يتضح لنا أن لفظة (إله) مأخوذة من التأله وهو التعبد ومعناه المعبود المطاع سواء كان بحق أو بغير حق، فكل ما عبد بأي نوع من أنواع العبادات ولو كان المعبود جماداً فهو إله عند عابده كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[٣].

ولكن هذا اللفظ غلب على المعبود بحق وهو الله سبحانه وتعالى يقول الزمخشري[٤]: والإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم غلب على المعبود بحق...[٥].

وأما لفظ الجلالة (الله) فلا يطلق إلا على المعبود بحق وهو الله سبحانه وتعالى، فهو مختص به عز وجل ولا يطلق على غيره[٦].

---

(١) هو مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الفيروزأبادي اللغوي، الأديب، ولي قضاء اليمن، وكان من العلماء الفضلاء، له مصنفات كثيرة منها «القاموس المحيط، وبصائر ذوي التمييز»، توفي سنة ٨١٧هـ.
بغية الوعاة (١/ ٢٧٣) وشذرات الذهب (٧/ ١٢٦) والبدر الطالع (٢/ ٢٨٠).

(٢) بصائر ذوي التميز (٢/ ١٤).

(٣) سورة هود آية (١٠١).

(٤) محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، أبو القاسم، كبير المعتزلة، وهو رأس في البلاغة والعربية والمعاني والبيان، وهو داعية إلى الاعتزال، له مؤلفات أظهر فيها هذا المذهب منها: الكشاف في التفسير، توفي سنة ٥٣٨هـ.
الأنساب (٦/ ٢٩٧) ووفيات الأعيان (٥/ ١٦٨) وبغية الوعاة (٢/ ٢٧٩).

(٥) الكشاف (١/ ٣٦).

(٦) انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٦٩).

وقد بين ابن رجب رحمه الله تعالى أن الإله الحق الذي يجب أن يطاع فلا يعصى هو الله سبحانه وتعالى فقال: «الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفاً ورجاء، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاءاً له، ولا يصلح ذلك كله إلا الله عز وجل»[(١)].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: فإن الإله هو المعبود الذي يطاع فلا يعصى خشية وإجلالاً ومهابة ومحبة ورجاء وتوكلاً ودعاء، والمعاصي قادحة كلها في هذا التوحيد، لأنها إجابة لداعي الهوى وهو الشيطان قال الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[(٢)].

كما أشار رحمه الله تعالى إلى أن الإله قد يطلق على الهوى المتبع فقال: وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع[(٣)].

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[(٢)] قال: هو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركبه.

وقال قتادة[(٤)]: هو الذي كلما هوى شيئاً ركبه، وكلما اشتهى شيئاً أتاه. لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى[(٥)]... ويشهد لذلك الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد

---

(١) كلمة الإخلاص (ص٢٣).
(٢) سورة الجاثية آية (٢٣).
(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٢٩).
(٤) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي أبو الخطاب البصري الحافظ، المحدث المفسر، كان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ، توفي سنة ١١٨هـ رحمه الله تعالى.
الجرح والتعديل (٧/ ١٣٣) ووفيات الأعيان (٤/ ٨٥) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩).
(٥) أخرجه بنحوه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٥٠).

القطيفة[١] تعس عبد الخميصة[٢] تعس وانتكس وإذا شيك[٣] فلا انتقش»[٤] فدل هذا على أن كل من أحب شيئاً وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه، ووالى لأجله، وعادى لأجله، فهو عبده، وكان ذلك الشيء معبوده وإلهه.

ويدل عليه أيضاً أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان في معصيته عبادة للشيطان كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾[٥] وقال تعالى حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾[٦] فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن[٧].

فالتفسير الصحيح لكلمة الإله هو المألوه والمعبود المطاع، ولا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

وبهذا يتبين لنا خطأ المتكلمين ومن سار على نهجهم الذين يفسرون

---

(١) القطيفة: هي كساء له خمل: أي الذي يعمل لها ويهتم بتحصيلها. النهاية لابن الأثير (٤/ ٨٤).

(٢) الخميصة: هي ثوب خز أو صوف معلم، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، وكانت من لباس الناس قديماً، وجمعها الخمائص. النهاية لابن الأثير (٢/ ٨٠، ٨١).

(٣) شيك: أي إذا أصابته شوكة لا يقدر على انتقاشها، وهو إخراجها بالمنقاش. النهاية لابن الأثير (٢/ ٥١٠).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٤/ ٢٢٢).

(٥) سورة يس آية (٦٠).

(٦) سورة مريم آية (٤٤).

(٧) كلمة الإخلاص (ص٢٥ ـ ٢٧).

الإله بأنه الخالق والقادر على الاختراع، أو شبه ذلك من معاني الربوبية فجعلوا الألوهية بمعنى الربوبية.

وهذا التفسير لا شك أنه تفسير خاطئ مخالف للغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، ويؤدي إلى إغفال حقيقة التوحيد الذي من أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وخلق الله الخلق ألا وهو توحيد العبادة الذي ضل فيه كثير من الناس خصوصاً في هذا العصر.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن معنى الإله هو المعبود المطاع فيقول: وهذا كثير جداً في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود خلافاً لما يعتقده عباد القبور وأشباههم في معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى، فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله... وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات... فإن قيل: فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة؟ قيل الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً.

الثاني: على تقدير تسليمه، فهو تفسير باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإله حتى وإن سمي إلهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح

دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أراد ذالك فهو مخطئ يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية[١].

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٧٦ ـ ٨١).

المطلب الثاني
معنى لا إله إلا الله

بعد ما تبين لنا في المبحث الأول معنى الإله وأن المعنى الحق (للإله) هو المعبود والمطاع اذكر ما قاله ابن رجب رحمه الله في معنى لا إله إلا الله حيث قد بين معناها بياناً شافياً.

فقال رحمه الله تعالى: معنى لا إله إلا الله لا يؤله غيره حباً ورجاءً وخوفاً وطاعة، فإذا تحقق القلب بالتوحيد التام لم يبق فيه محبة لغير ما يحبه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه ومن كان كذلك لم تنبعث جوارحه إلا بطاعة الله(١).

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: فإن تحقق القلب بمعنى لا إله إلا الله وصدقه فيها وإخلاصه بها، يقتضي أن يرسخ فيه تأله الله وحده إجلالاً وهيبة ومخافة ومحبة ورجاء وتعظيماً وتوكلاً ويمتلئ بذلك، وينتفي عنه تأله ما سواه من المخلوقين، ومتى كان كذلك لم يبق فيه محبة ولا إرادة ولا طلب لغير ما يريد الله ويحبه ويطلبه، وينتفى بذلك من القلب جميع أهواء النفوس وإراداتها ووسواس الشيطان(٢).

ويقول أيضاً: لا يصح تحقيق معنى قول لا إله إلا الله إلا لمن لم يكن في قلبه إصرار على محبة ما يكرهه الله، ولا على إرادة ما لا

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣/١٦٨).
(٢) المصدر السابق (٢/١٤٦).

يريده الله، ومتى كان في القلب شيء من ذلك كان ذلك نقصاً في التوحيد[١].

فـ (لا إله إلا الله) تعني إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وحده لا شريك له، والبراءة من كل معبود سواه، فهي كلمة الإخلاص وعنوان التوحيد ولا يتم إيمان أي عبد بدون تحقيق معناها والعمل بمدلولها.



(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٧).

المطلب الثالث

فضل لا إله إلا الله

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: كلمة التوحيد لها فضائل عظيمة لا يمكن هاهنا استقاؤها، فلنذكر بعض ما ورد فيها:

١ ـ فهي كلمة التقوى كما قال عمر رضي الله عنه من الصحابة، وهي كلمة الإخلاص وشهادة الحق، ودعوة الحق، وبراءة من الشرك... ولأجلها خلق الخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[١] ولأجلها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾[٣].

٢ ـ... وهي ثمن الجنة... وجاء مرفوعاً: ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة[٤].

٣ ـ وهي نجاة من النار: سمع النبي ﷺ مؤذناً يقول: «أشهد أن لا

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦).

(٢) سورة الأنبياء آية (٢٥).

(٣) سورة النحل آية (٢).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣) وأبو داود: كتاب الجنائز، باب التلقين (٣/ ٤٨٦) والحاكم (١/ ٣٥١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

إله إلا الله» فقال: «خرج من النار» أخرجه مسلم[١].

٤ ـ وهي توجب المغفرة: وفي المسند عن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً: «ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله ﷺ يده، ثم قال: الحمد لله اللهم بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني بها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد، ثم قال: أبشروا فإن الله قد غفر لكم»[٢].

٥ ـ وهي أحسن الحسنات: قال أبو ذر: قلت يا رسول الله علمني بعمل يقربني من الجنة، ويباعدني من النار، قال: «إذا عملت سيئة فاعمل حسنة، فإنها عشر أمثالها، قلت يا رسول الله لا إله إلا الله من الحسنات؟ قال: هي أحسن الحسنات»[٣].

٦ ـ . . . وكذلك ترجح بصحائف الذنوب كما في حديث السجلات والبطاقة[٤] وقد خرجه أحمد، والنسائي، والترمذي أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان (١/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨١) رواه أحمد وفيه راشد بن داود وقد وثقه غير واحد وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص١٣٣) وقد صححه السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٣١) والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٦١).

(٤) حديث البطاقة هو حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: أفلك عذر، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده =

٧ - وهي التي تخرق الحجب حتى تصل إلى الله عز وجل: وفي الترمذي... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر»[1].

٨ - وهي التي ينظر الله إلى قائلها، ويجيب دعاءه، خرج النسائي[2] في كتاب «اليوم والليلة» من حديث رجلين من الصحابة عن النبي ﷺ قال: «ما قال عبد قط لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مخلصاً بها روحه مصدقاً بها قلبه لسانه، إلا فتق له (أبواب) السماء، حتى ينظر الله إلى قائلها، وحق لعبد نظر الله إليه إن يعطيه سؤاله».

٩ - وهي الكلمة التي يصدق الله قائلها: كما أخرج النسائي

= ورسوله، فيقول: أحضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء».
أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣) وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٢/ ١٤٣٧) والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٥/ ٢٤) وقال: هذا حديث حسن غريب. والحاكم (١/ ٥٢٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(١) سنن الترمذي كتاب الدعوات (٥/ ٥٧٥) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ١٤٧) والألباني كما في صحيح الجامع (٢/ ٩٨٧).

(٢) عمل اليوم والليلة (ص١٥٠)، ورجال إسناده ثقات إلا محمد بن عبد الله بن ميمون، ويعقوب بن عاصم، قال ابن حجر في كل منهما «مقبول».
انظر: تقريب التهذيب (ص٣٠٦)، (٣٨٦).

والترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر، صدقه ربه، وقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، يقول الله: لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد قال الله: لا إله إلا أنا، لي الملك ولي الحمد، وإذ قال: لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال الله: لا إله إلا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بي وكان يقول: «من قالها في مرضه، ثم مات لم تطعمه النار»[1].

١٠ ـ وهي أفضل ما قاله النبيون كما ورد في دعاء يوم عرفة[2].

١١ ـ وهي أفضل الذكر كما في حديث جابر المرفوع: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»[3]....

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول العبد إذا مرض (٥/ ٤٩٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل لا إله إلا الله (٢/ ١٢٤٦) وابن حبان كما في موارد الظمآن (٥٧٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص١٥١) والحاكم (١/ ٥) وقال: هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي.

(٢) وهو قوله ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٤٢٢) والترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة (٥/ ٥٧٢) والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٥٧) وقال الألباني بعد أن ذكر هذا الحديث وما له من شواهد: وجملة القول: أن الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد.
سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٨).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٥/ ٤٦٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين (٢/ ١٢٤٩) والحاكم (١/ ٤٩٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

١٢ ـ وهي أفضل الأعمال وأكثرها تضعيفاً، وتعدل عتق الرقاب، وتكون حرزاً من الشيطان: كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مئة حسنة، ومحي عنه مئة سيئة، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[١].

وفيهما أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قالها عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»[٢]. . .

١٣ ـ ومن فضائلها أنها تفتح لقائلها أبواب الجنة، ويدخل من أيها شاء كما في حديث عمر عن النبي ﷺ فيمن أتى بالشهادتين بعد الوضوء، وقد خرجه مسلم[٣].

وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»[٤]. . .

---

(١)(٢) صحيح البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التهليل (٧/ ١٦٧) وصحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٤/ ٢٠٧١).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (١/ ٢١٠) ولفظه: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، ويدخل من أيها شاء».

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب قوله عز وجل: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾** (٤/ ١٣٩) وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/ ٥٧).

١٤ ـ ومن فضائلها أن أهلها وإن دخلوا النار بتقصيرهم في حقوقها فإنهم لابد أن يخرجوا منها: وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: «لا إله إلا الله»[(١)][(٢)] ... وقال رحمه الله تعالى أيضاً: ... فأما كلمة التوحيد فإنها تهدم الذنوب وتمحوها محواً، ولا تبقي ذنباً ولا يسبقها عمل وهي تعدل عتق الرقاب الذي يوجب العتق من النار... ومن قالها مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار»[(٣)].

هذه بعض فضائل لا إله إلا الله التي ذكرها ابن رجب رحمه الله تعالى، ولو تتبعنا فضائل هذه الكلمة لصارت في مجلد كبير، فهي سند متين ومستمسك قوي لمن جاء يوم القيامة بها مستكملاً لشروطها وعاملاً بمقتضاها.



(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٨/ ٢٠٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٤).
(٢) كلمة الإخلاص (ص٥٢) وما بعدها بتصرف يسير.
(٣) لطائف المعارف (ص٢٢٨).

المطلب الرابع

الجمع بين أحاديث تدل على أنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله، وأخرى تدل على أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله

سبق في المبحث السابق بيان فضائل كلمة التوحيد لا إله إلا والتي دلت عليها الأحاديث الكثيرة الواردة عن المصطفى ﷺ إلا أن بعض هذه الأحاديث ظاهرها التعارض في مدلولاتها وهي كما يلي:

١ ـ أحاديث تدل على أن من أتى بالشهادتين يحرم على النار ومنها حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال عند موته: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار»[١].

فيؤخذ من هذا الحديث وما جاء في معناه من الأحاديث أن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله».

٢ ـ أحاديث تدل على أنه من قال: لا إله إلا الله يخرج من النار ومنها حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/٥٨).

من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير...»[١] الحديث.

فظاهر هذا الحديث وما جاء في معناه من الأحاديث يدل على أن من يقول لا إله إلا الله يدخل النار بسبب ذنوبه ثم يخرج منها ويدخل الجنة وهو يتعارض مع ظاهر أحاديث القسم الأول التي تدل على أن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله.

وقد تناول ابن رجب رحمه الله تعالى هذه المسألة فقال رحمه الله بعد أن ذكر جملة من هذه الأحاديث التي ظاهرها التعارض «وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة يطول ذكرها. وأحاديث هذا الباب نوعان:

أحدهما: ما فيه أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يحجب عنها.

الثاني: ما فيه أنه يحرم على النار[٢].

ثم ذكر رحمه الله تعالى بعد ذلك أجوبة[٣] أهل العلم في هذه الأحاديث وهي تتلخص في الأقوال التالية:

١ - منهم من حمل الأحاديث التي فيها أنه يحرم على النار، على أن المراد بالتحريم تحريم الخلود فيها أو على نار يخلد فيها أهلها وهي ما عدا الدرك الأعلى، فإن الدرك الأعلى يدخله خلق كثير من عصاة الموحدين ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، ورحمة أرحم الراحمين، وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذا القول بعد أن ذكر النوع الثاني

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (١/ ١٦) ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٢).
(٢) كلمة الإخلاص (ص١٢).
(٣) انظر هذه الأجوبة في كلمة الإخلاص (١٢ - ٢١) وفي جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٢ - ١٤٦).

من أنواع هذه الأحاديث وهو: ما فيه أنه يحرم على النار قال: وهذا قد حمله بعضهم على الخلود فيها، أو على نار يخلد فيها أهلها وهي ما عدا الدرك الأعلى فأما الدرك الأعلى يدخله خلق كثير من عصاة الموحدين بذنوبهم ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، وبرحمة أرحم الراحمين وفي الصحيحين أن الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله»[١]. . . . ا.هـ.

٢ ـ قول الذين قالوا أن هذه الأحاديث وما في معناها، كانت قبل نزول الفرائض والحدود وممن قال بهذا الزهري والثوري وغيرهما وهؤلاء منهم من يقول أن هذه الأحاديث منسوخة، وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذا وبين أنه قول بعيد فقال: «وقد ذهب طائفة إلى أن هذه الأحاديث المذكورة أولاً وما في معناها كانت قبل نزول الفرائض والحدود ومنهم الزهري والثوري وغيرهما، وهذا بعيد جداً، فإن كثيراً منها كان بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود، وفي بعضها أنه كان في غزوة تبوك، وهي في آخر حياة النبي ﷺ.

وهؤلاء منهم من يقول في هذه الأحاديث إنها منسوخة ومنهم من يقول: هي محكمة، ولكن ضم إليها شرائط، ويلتفت هذا إلى أن الزيادة على النص: هل هي نسخ أم لا؟ والخلاف في ذلك بين الأصوليين مشهور، وقد صرح الثوري وغيره بأنها منسوخة، وأنه نسخها الفرائض والحدود» ا.هـ.

قلت: وقد ضعف ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى القولين السابقين ووصفها بأنها تأويلات مستكرهة مخالفة لما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام فقال رحمه الله تعالى بعد أن ذكر بعض الأحاديث الواردة في

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١٥).

الشهادتين: «وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال: المعنى لا يدخلها خالداً، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة، فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار»[١] اهـ.

٣ ـ قول من قال أن ذلك خاص بمن قال: لا إله إلا الله وتاب توبة نصوحاً، فلم يأت بذنوب تنقص توحيده وتذهب بكماله ومات على ذلك فإنه يدخل الجنة ابتداء، ومن كان خلاف ذلك فهو تحت المشيئة وهو قول الإمام البخاري رحمه الله تعالى وجماعة من أهل العلم، فقد قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى بعد أن ذكر حديث أبي ذر[٢]: «هذا عند الموت أو قبله إذا تاب وندم وقال: لا إله إلا الله... ويؤكد ذلك ما قاله في كتاب الجنائز حيث قال: باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله[٣]... قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: قيل أشار بهذا ـ أي البخاري ـ إلى ما رواه أبو داود والحاكم... عن معاذ بن جبل

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٠).

(٢) حديث أبي ذر في الصحيحين ولفظه عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق (قالها ثلاثاً) ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر».
أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب الثياب البيض (٧/ ٤٣) ومسلم: كتاب الإيمان (١/ ٩٥).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٦٩).

قال: قال رسول الله ﷺ: : «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[(١)][(٢)] . . . .

وقال في موضع آخر: وحاصل ما أشار إليه ـ أي البخاري ـ أن الحديث محمول على من وحد ربه ومات على ذلك تائباً من الذنوب التي أشير إليها في الحديث[(٣)] فإنه موعود بهذا الحديث بدخول الجنة ابتداء. . . وأما من تلبس بالذنوب المذكورة ومات من غير توبة، فظاهر الحديث أنه أيضاً داخل في ذلك، لكن مذهب أهل السنة أنه في مشيئة الله تعالى، ويدل عليه حديث عبادة بن الصامت في كتاب الإيمان فإن فيه: «ومن أتى شيئاً من ذلك فلم يعاقب به فأمره إلى الله تعالى إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه»[(٤)] وهذا المفسر مقدم على المبهم[(٥)].

ولم يشر ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذا القول في معرض ذكره لأجوبة أهل العلم في هذه المسألة.

٤ ـ ومنهم من قال أن الشهادتين سبب لدخول الجنة ولكن لا بد من العمل لأن لا إله إلا الله هي المفتاح والأَعمال هي الأسنان، ولا فائدة من مفتاح لا أسنان له، وكذلك لا تفيد لا إله إلا الله إلا مع

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١٠).
(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ١٠٩).
(٣) تقدم الحديث بالصفحة السابقة.
(٤) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان (١/ ١٠) ومسلم: كتاب الحدود (٣/ ١٣٣٣) من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً. . .» الحديث.
(٥) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٨٣).

الأعمال الصالحة، وممن قال بهذا القول الحسن البصري ووهب بن منبه[1] رحمهم الله تعالى.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان هذا القول: «وقالت طائفة من العلماء: المراد من هذه الأحاديث أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، ومقتض لذلك، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باجتماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، وهذا قول الحسن ووهب بن منبه، وهو الأظهر.

قيل للحسن: إن ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فقال: من قال: لا إله إلا الله، فأدى حقها وفرضها دخل الجنة. وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك» ا.هـ[2].

وقد رجح ابن رجب رحمه الله تعالى هذ القول ويدل على ترجيحه لذلك قوله السابق: «وهو الأظهر» كما يدل على ذلك قوله عقب هذا القول أيضاً: «ويدل على صحة هذا القول أن النبي ﷺ رتب دخول الجنة على الأعمال الصالحة في كثير من النصوص كما في الصحيحين عن أبي

---

(١) وهب بن منبه بن كامل بن سيج الأنباري الصنعاني، أبو عبد الله التابعي، الثقة، له معرفة بأخبار الأوائل وخاصة الإسرائيليات ولي قضاء صنعاء وكان ذا عبادة وزهد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فيه: «كان ممن يأخذ عن أهل الكتاب، فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة، توفي سنة ١١٤هـ.
تذكرة الحفاظ (١/ ٥٣) والبداية والنهاية (٩/ ٢٧٦) ومجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٥) وتهذيب التهذيب (١١/ ١٦٦).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه معلقاً (٢/ ٦٩).

أيوب أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة فقال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»[١].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، فقال الرجل: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا شيئاً، ولا أنقص منه، فقال النبي ﷺ: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[٢].

... فإذا علم أن عقوبة الدنيا لا ترفع عمن أدى الشهادتين مطلقاً، بل يعاقب بإخلاله بحق من حقوق الإسلام، فكذلك عقوبة الآخرة[٣].

٥ ـ وهو قول الذين قالوا: إن هذه الأحاديث المطلقة قد جاءت مقيدة في أحاديث أخرى والتي تفيد بأن ذلك لمن يقولها بصدق ويقين وإخلاص.

قال ابن رجب رحمه الله: وقالت طائفة: هذه النصوص المطلقة جاءت مقيدة بأن يقولها بصدق وإخلاص، وإخلاصها وصدقها يمنع الإصرار على معصيته» ا.هـ[٤].

وابن رجب رحمه الله تعالى قد شرح هذا القول مما يدل على أنه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب فضل صلة الرحم (٧/ ٧٢) ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة (١/ ٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة (١/ ٤٤).

(٣) كلمة الإخلاص (ص١٥، ١٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٤).

يرجحه أيضاً بل أنه يعتبره قولاً موافقاً للذي قبله حيث يقول: ولعل الحسن أشار بكلامه الذي حكيناه عنه من قبل إلى هنا فإن تحقق القلب بمعنى: لا إله إلا الله، وصدقه فيها، وإخلاصه بها، يقتضي أن يرسخ فيه تأله الله وحده إجلالاً وهيبة ومخافة ومحبة ورجاء وتعظيماً وتوكلاً. ويمتلئ بذلك وينتفي عنه تأله ما سواه من المخلوقين، ومتى كان كذلك لم يبق فيه محبة ولا إرادة ولا طلب لغير ما يريد الله ويحبه ويطلبه، وينتفي بذلك من القلب جميع أهواء النفوس، وإرادتها ووسواس الشيطان... إلى أن قال رحمه الله: «فتبين بهذا معنى قوله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً من قلبه حرمه الله على النار»[1] وأن من دخل النار من أهل هذه الكلمة فلقلة صدقه في قولها فإن هذه الكلمة إذا صدقت طهرت القلب من كل ما سوى الله، فمن صدق في قول: لا إله إلا الله لم يحب سواه، ولم يرج إلا إياه، ولم يخش إلا الله، ولم يتوكل إلا على الله، ولم يبق له بقية من إيثار نفسه وهواه، ومتى بقي في القلب أثر لسوى الله فمن قلة الصدق في قولها»[2].

والقولان الأخيران هما أحسن ما قيل في معنى هذه الأحاديث وهما في الحقيقة متفقان لا اختلاف بينهما، وهما اللذان مال إليهما ابن رجب ورجحهما لأن من قال: لا إله إلا الله بصدق وإخلاص ويقين يقتضي ذلك منه فعل الطاعات واجتناب المحرمات.

وهذا ما رجحه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى حيث قال بعد أن ذكر جملة من الأحاديث الواردة في ذلك: «وأحسن ما قيل في معناها ما قاله شيخ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٥ ـ ١٤٨).

الإسلام وغيره: إن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصاً من قلبه مستيقناً بها قلبه، غير شاك فيها بصدق ويقين. فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك... وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلًا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لماأمر الله، وهذا هو الذي يحرم من النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان، وهذه التوبة وهذا الإخلاص، وهذه المحبة وهذا اليقين لا يتركون ذنباً إلا يمحى كما يمحو الليل النهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصر على ذنب أصلًا، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجع بها ميزان الحسنات كما في حديث البطاقة فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصراً على ذلك، فإنه يستوجب النار وإن قال: لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده فإنه في حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أوهنت التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصراً على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة تضعف

إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات[١].

فقول لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ولكن لا بد للسبب من وجود شروطه وانتفاء موانعه وهو ما سيتضح في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

  

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٨٦ ـ ٨٩) ولمزيد من التفاصيل عن هذه الأحاديث وأقوال العلماء فيها. انظر شرح مسلم للنووي (١/٢١٧) وما بعدها، وفتح الباري لابن حجر (٣/ ١١٠).

المطلب الخامس

شروط الانتفاع بـ (لا إله إلا الله)

رأيت من المناسب أن أذكر في هذا المبحث الشروط[١] التي ذكرها العلماء رحمهم الله للانتفاع بقول لا إله إلا الله، والحصول على ثوابها والفضل الذي ورد فيها والتي تبين أن هذا الفضل لا يحصل بمجرد اللفظ بهذه الكلمة بدون هذه الشروط التي استنبطها العلماء رحمهم الله تعالى من الكتاب والسنة وهي:

١ ـ العلم بمعنى هذه الكلمة المراد منها نفياً وإثباتاً، المنافي للجهل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾[٣].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[٤].

---

(١) لخصت هذه الشروط من: معارج القبول (١/ ٣٧٨) والجامع الفريد (ص٣٥٦) والكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص٢٩).

(٢) سورة محمد آية (١٩).

(٣) سورة آل عمران آية (١٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/ ٥٥).

٢ ـ اليقين المنافي للشك أي باستيقان القلب بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، وانتفاء الشك المعارض له، لأن الإيمان لا بد أن يكون عن علم يقين لا علم الظن كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[(٢)] فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يشكوا كما أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»[(٣)]. وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»[(٤)] فمن نطق بالشهادة موقناً بأنه لا يستحق العبادة سوى الله سبحانه وتعالى وأن محمداً ﷺ رسول من عند الله إلى الناس كافة، وأن ما جاء به حق لا شك فيه، كان من أهل الجنة عاجلاً أو آجلا.

ثالثاً: القبول لما اقتضته هذه الكلمة (لا إله إلا الله) من إفراد الله بالعبادة، ونفيها عمن سواه، فلا يرد شيئاً مما دلت عليه لميل في نفسه أو مجاملة لغيره، وقد ذكر الله تبارك وتعالى لنا من أنباء ما قد سبق من انجائه لمن قبلها، وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

---

(١) سورة الزخرف آية (٨٦).

(٢) سورة الحجرات آية (١٥).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/ ٥٦).

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/ ٦٠).

مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[٢].

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[٣].

الرابع: الانقياد لما تضمنته هذه الكلمة ظاهراً وباطناً قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[٥].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في

---

(١) سورة الروم آية (٤٧).

(٢) سورة يونس آية (١٠٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعمل (١/ ٢٨) ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢).

(٤) سورة لقمان آية (٢٢).

(٥) سورة النساء آية (٦٥).

جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: «ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[(١)][(٢)].

فتمام الانقياد وغايته أن تكون رغبة العبد وفق ما تضمنته كلمة (لا إله إلا الله) وتبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ.

خامساً: الصدق بقولها وبما دلت عليه، صدقاً ينبع من قلب منافيا للكذب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾[(٣)].

حاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ أي: يقول: من جاء بـ لا إله إلا الله وصدق به» يعني رسوله[(٤)].

---

(١) هذا الحديث ذكره النووي رحمه الله تعالى في الأربعين النووية وهو الحديث الحادي والأربعون وقال: حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح، وعقب ابن رجب رحمه الله تعالى على هذا القول بقوله: قلت: تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه، ثم قال بعد ذكر هذه الوجوه: وأما معنى الحديث من الأوامر والنواهي وغيرها فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه، وقد ورد في القرآن بمثل هذا في غير موضع.
جامع العلوم والحكم (٣/ ٢٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠).

(٣) سورة الزمر آية (٣٣).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٤/ ٣) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص١٣٥).

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية كل من دعا إلى توحيد الله، وتصديق رسله، والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال الصدق: هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به: المؤمنون بالقرآن، من جميع خلق الله كائناً من كان من نبي الله وأتباعه[١].

فمن شهد أن لا إله إلا الله صادقاً من قلبه فقد أبعد نفسه عن النار كما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»[٢].

قال ابن رجب رحمه الله تعالى وهو يتكلم عن المؤمنين فهم الذين حققوا قول: لا إله إلا الله وأخلصوا في قولها، وصدقوا قولهم بفعلهم فلم يلتفتوا إلى غير الله محبة ورجاء وخشية وطاعة وتوكلاً، وهم الذين صدقوا في قول: لا إله إلا الله، وهم عباد الله حقاً، فأما من قال: (لا إله إلا الله) بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[٣].

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٤][٥] . . . .

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٤/ ٤).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا (١/ ٤١).
(٣) سورة القصص آية (٥٠).
(٤) سورة ص آية (٢٦).
(٥) كلمة الإخلاص (ص٢٧، ٢٨).

سادساً: الإخلاص لله تعالى في قولها، والسلامة مما ينافي مضمونها من الشرك وغيره قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «... أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»(٣).

وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل»(٤).

فالإخلاص أساس في الأعمال والأقوال فعلية كانت أو تركية لأن له أثر كبير في عاجل أمر المؤمن وآجله.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: والإخلاص هو أساس الأعمال التي لا تثبت الأعمال إلا عليه(٥).

سابعاً: المحبة لهذه الكلمة وما دلت عليه واقتضته محبة سالمة من المعارضة، ومن لوازم ذلك محبة أهلها العاملين بها، وبغض ومعاداة من لم يكن من أهلها من المشركين وغيرهم والبراءة منهم قال تعالى:

---

(١) سورة البينة آية (٥).

(٢) سورة الزمر آية (٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (١/ ٣٣).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (١/ ٤٥٦).

(٥) اختيار الأولى (ص٩٥).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾... الآية(٢).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين(٤).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات، وبغض المكروهات(٥).

فمن حقق معنى لا إله إلا الله بهذه الشروط السابقة فقد نجا وسلك الطريق المستقيم واستحق ثوابها وما ورد فيها من فضل.

---

(١) سورة البقرة آية (١٦٥).

(٢) سورة المجادلة آية (٢٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ١٠) ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١/ ٦٦).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ٩) ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين.

(٥) جامع العلوم والحكم (٣/ ٢٢٣).

وقد نظم حافظ الحكمي[١] رحمه الله تعالى هذه الشروط في أبيات فقال:

ولشروط سبعة قد قيدت ... وفي نصوص الوحي حقاً وردت
فإنه لم ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة ... وفقك الله لما أحبه[٢]



(١) هو الشيخ العلامة حافظ أحمد الحكمي، عالم سلفي، من منطقة تهامة، ولد سنة ١٣٤٢هـ بقرية السلام بالقرب من جيزان، كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم، له مؤلفات مفيدة منها: معارج القبول، توفي سنة ١٣٧٧هـ وعمره ٣٥ سنة رحمه الله تعالى.
الأعلام (٢/ ١٥٩) والمستدرك على معجم المؤلفين (ص١٨٣).

(٢) معارج القبول (١/ ٣٧٧، ٣٧٨).

المبحث الثالث
ذكر بعض أنواع العبادة

تنوعت عبارات السلف رحمهم الله تعالى في تعريف العبادة ولكن أشمل تعريف لها هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث قال: «العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادات لله»[١].

ومن هذا التعريف الجامع لمعنى العبادة التي هي حق الله على عباده يتبين لنا أن جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة التي يحبها الله سبحانه وتعالى ويرضاها داخلة في مسمى العبادة، وفي هذا رد على الفهم الخاطئ الذي يتصوره بعض الناس من أن العبادة محصورة في أركان الإسلام الخمسة مما جعلهم يذكرون الله تعالى، ويعرفونه في الصلوات

(١) العبودية (ص٤).

الخمس وبقية أركان الإسلام، وينسونه فيما عدا ذلك من شؤون حياتهم الأمر الذي جعلهم يصرفون كثيراً من أنواع العبادة لغيره، ويتهاونون بأمره ونهيه.

ولا شك أن هذا فهم خاطئ مخالف لما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن كل أمر يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فهو داخل تحت مسمى العبادة التي يجب إخلاصها لله وحده دون سواه كما هو واضح في تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية السابق رحمه الله تعالى.

ولكثرة أنواع العبادة فإني سأقتصر على ذكر جملة من أنواع العبادة.

وكلام ابن رجب رحمه الله تعالى عليها. وسأبدأ بذكر الدعاء لأن الدعاء هو العبادة(١) كما قال ذلك رسول الله ﷺ.

١ ـ من أنواع العبادة: الدعاء:

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: «ومن أنواع العبادات التي يظهر فيها الذل والخضوع لله عز وجل الدعاء قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١) وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء (٢/ ١٦١) والترمذي: كتاب الدعوات، باب الدعاء مخ العبادة (٥/ ٤٥٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء (٢/ ١٢٥٨) والحاكم (١/ ٤٩٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) سورة الأعراف آية (٥٥).

وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[(١)(٢)].

فالدعاء نوع من أنواع العبادة بل هو أعظمها ولبها ومخها.

وقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تحث على الدعاء وتأمر به وترغب فيه: منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[(٣)].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[(٤)].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[(٥)] إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أهمية الدعاء وتجعله من أعظم أنواع العبادات.

وقد حذر الله تبارك وتعالى من دعاء غيره فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾[(٦)].

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾[(٧)].

وأما الأحاديث التي تحث على الدعاء وترغب فيه فمنها حديث أبي

---

(١) سورة الأنبياء آية (٩٠).

(٢) الخشوع في الصلاة (ص٣٠).

(٣) سورة غافر آية (٦٠).

(٤) سورة البقرة آية (١٨٦).

(٥) سورة الأعراف آية (٥٦).

(٦) سورة الأحقاف آية (٥، ٦).

(٧) سورة فاطر آية (١٣، ١٤).

هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ثم يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له...» الحديث[١].

ومنها حديثه الآخر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[٢].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تحث على الدعاء وتأمر به وترغب فيه.

والدعاء الذي أمر الله به عباده في كتابه الكريم نوعان، وكل أمر في القرآن والسنة بالدعاء لا يخرج عن هذين النوعين وهما:

١ ـ دعاء العبادة: وهو التقرب إلى الله تعالى بأنواع العبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج ونذر وذبح وغيرها من أنواع العبادات وذلك طمعاً في رحمته وخوفاً من عقابه عز وجل.

٢ ـ دعاء المسألة: وهو طلب الداعي من الله عز وجل حصول ما ينفعه ودفع ما يضره، ومن يملك الضر والنفع هو المعبود حقاً وهو الله سبحانه وتعالى لأنه بيده الضر والنفع وهو على كل شيء قدير ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[٣].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٢) والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/ ٤٥٥) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء (٢/ ١٢٥٨) والطبراني في الصغير (٢/ ٤٧) والحاكم (١/ ٤٩٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) سورة يونس آية (١٠٦).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[(١)] هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان: فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر.

ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[(٣)] فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة، فاعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(٤)] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية قيل: أعطيه إذا سألني.

وقيل: أثيبه إذا عبدني.

---

(١) سورة الأعراف آية (٥٥، ٥٦).

(٢) سورة يونس آية (١٠٦).

(٣) سورة يونس آية (١٨).

(٤) سورة البقرة آية (١٨٦)

والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً، فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع، وقل من يفطن له، وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً، فهي من هذا القبيل»[١].

فالدعاء هو روح العبادة ومخها كما ورد بذلك قول المصطفى ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[٢].

وهو أعظم أنواع العبادة وأجلها ولذلك كان أقوى وسائل القرب إلى الله تعالى، وأفضل ما يتقرب به العبد إلى مولاه.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى مبيناً ذلك: «واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضر ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة»[٣].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وقوله ﷺ «إذا سألت فاسأل الله»[٤] أمر بإفراد الله عز وجل بالسؤال ونهى عن سؤال غيره من الخلق، وقد أمر الله تعالى بسؤاله فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾...[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠، ١١).
(٢) تقدم تخريجه (ص٣٣٥).
(٣) جامع العلوم والحكم (١٨١).
(٤) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٨) والترمذي: أبواب صفة القيامة (٥/ ٣١٩) وقال: حديث صحيح.
(٥) سورة النساء آية (٣٢).

واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً، وذلك من وجوه متعددة:

منها: أن السؤال فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل، وذلك لا يصلح إلا لله وحده، فلا يصلح الذل إلا له بالعبادة والمسألة، وذلك من علامات المحبة الصادقة...

وهذا الذل وهذه المحبة لا تصلح إلا لله وحده، وهذا هو حقيقة العبادة التي يختص بها الإله الحق...

ولهذا المعنى كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم، كما ثبت ذلك في الصحيحين(١) لأنه أذهب عز وجهه وصيانته وماءه في الدنيا فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي فيصير عظماً بغير لحم، ويذهب جماله وبهاؤه المعنوي فلا يبقى له عند الله وجاهه.

ومنها: أن في سؤال الله عبودية عظيمة لأنها إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه، ودفع الضر عنها، فكيف يقدر على ذلك لغيره، وسؤاله إقامة له مقام من يقدر، وليس هو بقادر ويشهد بهذا المعنى الحديث الذي في صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص من ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر...)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً (٢/ ١٣٠) ومسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس (٢/ ٧٢٠) ولفظه عندهما: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم».

(٢) تقدم تخريجه (ص١٧٤).

فكيف يسأل الفقير العاجز ويترك الغني القادر؟ إن هذا لأعجب العجب.

ومنها أن الله يحب أن يسأل ويغضب على من لا يسأله فإنه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه، ويحب الملحين في الدعاء، والمخلوق غالباً يكره أن يسأل لفقره وعجزه...

ومنها: أن الله تعالى يستدعي من عباده سؤاله، وينادي كل ليلة: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟[1] وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.[2]

فأي وقت دعاه العبد وجده سميعاً قريباً مجيباً ليس بينه وبينه حجاب ولا بواب، وأما المخلوق فإنه يمتنع بالحجاب والأبواب ويعسر الوصول إليه في أغلب الأوقات[3]...

فقد بين ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق أن الالتجاء إلى الله تبارك وتعالى وسؤاله وحده لا شريك له هو المتعين على كل إنسان لأنه هو الضار النافع الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير.

أما المخلوق الضعيف فإنه محتاج إلى من يسأله ويعينه فكيف يسأل ويطلب مما يدل دلالة واضحة على أن الدعاء عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[4].

---

(١) كما جاء ذلك في حديث النزول، وقد سبق تخريجه (ص٢١٦).

(٢) سورة البقرة آية (١٨٦).

(٣) نور الاقتباس (ص٦٠) وما بعدها.

(٤) سورة غافر آية (٦٠).

فالله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة وهو أن يدعوه وحده دون سواه ووعدهم بأن يستجيب لهم كما توعد من استكبر عن دعائه وسؤاله بأن يكون من أهل العذاب الذين سيدخلون جهنم لهم ذليلون حقيرون.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية يقول تعالى ذكره: ويقول ربكم أيها الناس لكم ادعوني، يقول: اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني من الأوثان والأصنام وغير ذلك» استجب لكم، يقول: أجب دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ يقول: إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة وإفراد الألوهية لي (سيدخلون جهنم داخرين) بمعنى: صاغرين[(١)].

فالله سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يدعوه ويتقوه ويطيعوه وقد فتح بابه للطالبين، وحث على دعائه في كتابه المبين كما في الآية السابقة وكما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾[(٢)] لأن دعاء العبد لربه سبحانه وتعالى من مقتضيات العبودية لما في الدعاء من الذل والافتقار الذي لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى.

وقد بين ابن رجب رحمه الله تعالى أن ما يطلبه العبد من ربه عز وجل من الحاجات على نوعين:

فقال رحمه الله تعالى: «اعلم أن الحاجات التي يطلبها العبد من الله نوعان:

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٤/٧٨، ٧٩).

(٢) سورة الأعراف آية (١٨٠).

أحدهما: ما علم أنه خير محض كسؤاله خشيته من الله عز وجل وطاعته وتقواه وسؤاله الخير والاستعاذة به من النار فهذا يطلب من الله تعالى بغير تردد، ولا تعليق بالعلم والمصلحة لأنه خير محض، ومصلحة حاصلة فلا وجه لتعليقه بشرط وهو معلوم الحصول، وكذلك لا يعلق بمشيئة الله عز وجل لأن الله يفعل ما يشاء ولا مكره له ولا فائدة لتعليقه بمشيئته ولكن يجزم المسألة كما قال النبي ﷺ: «لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له» أخرجاه[1] من حديث أنس وأبي هريرة بمعناه.

وفي رواية مسلم «ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء»[2].

وفي رواية للبخاري: «إن الله لا يتعاظمه شيء ويفعل ما يشاء ولا مكره له»[3].

النوع الثاني: ما لا يعلم أنه خيرة للعبد أم لا كالموت والحياة والغنى والفقر والولد والأجل وكسائر حوائج الدنيا التي تجهل عواقبها فهذه لا ينبغي أن يسأل الله منها إلا ما يعلم منه الخيرة للعبد، فإن العبد جاهل بعواقب الأمور وهو مع هذا عاجز عن تحصيل مصالحه ودفع مضاره، فينبغي له أن يسأل حوائجه ممن هو عالم قادر، ولهذا شرعت الاستخارة في الأمور الدنيوية كلها وشرع أن يقول الداعي في استخارته: «اللهم أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (٧/ ١٥٣) ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت (٤/ ٢٠٦٣).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت (٤/ ٢٠٦٣).

(٣) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة (٨/ ١٩٣).

فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ثم يقول: اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسميه خير لي في ديني ودنياي...»[١].

وكذلك في هذا الدعاء يسأل الله بعلمه الغيب وقدرته على الخلق ومما يعلم الخيرة من موت أو حياة.

وقد تضمن الدعاء الذي في هذا الحديث[٢] النوعين معاً فإنه لما سأل الموت والحياة قيد ذلك بما يعلم الله أن فيه الخيرة لعبده، ولما سأل الخشية وما بعدها مما هو خير صرف جزم به ولم يقيده بشيء[٣].

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى أن للدعاء آداباً يجب على العبد أن يتحلى به لأنها سبب في استجابة الدعاء فقال: «وقوله» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[٤] قال:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى (٢/ ٥١).

(٢) يقصد به حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحييني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين».
أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٥٥) والحاكم (١/ ٥٢٤).

(٣) شرح حديث عمار بن ياسر (ص١٣ ـ ١٥).

(٤) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (٢/ ٧٠٣).

«هذا الكلام أشار فيه ﷺ إلى آداب الدعاء وإلى الأسباب التي تقتضي الإجابة وما يمنع الإجابة[١]...

وقد ذكر أسباب إجابة الدعاء ومنها:

١ - حضور القلب وإخلاصه لله عز وجل يقول ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان ذلك: «ومن أعظم شرائطه حضور القلب ورجاء الإجابة من الله تعالى كما خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وإن الله تعالى لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهي»[٢][٣].

٢ - رفع اليدين إلى السماء قال رحمه الله تعالى في بيان ذلك قوله: «يمد يديه إلى السماء» وهو من آداب الدعاء التي يرجى بسببها إجابته. وفي حديث سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين» خرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه[٤]...

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات (٥/ ٥١٦) وقال: حديث غريب، والحاكم (١/ ٤٩٣) وقال: هذا حديث مستقيم الإسناد، ورواه أحمد (٢/ ١٧٧) من حديث عبد الله بن عمرو قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٤٩٢) رواه أحمد وإسناده حسن، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٤٨) رواه أحمد وإسناده حسن.

(٣) جامع العلوم والحكم (٣/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٨) وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء (١/ ٣٤٢) والترمذي: كتاب الدعوات (٥/ ٥٥٦) وقال: حسن غريب، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء (٢/ ١٢٧١) والحاكم (١/ ٤٩٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٤٣): وسنده جيد.

وكان النبي ﷺ يرفع يديه في الاستسقاء حتى يرى بياض إبطيه(١) ورفع يديه يوم بدر يستنصر الله على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه(٢)(٣). . .

٣ ـ الإلحاح في الدعاء يقول ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان ذلك: «الإلحاح على الله عز وجل بتكرير ذكر ربوبيته، وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء(٤).

كما ذكر رحمه الله تعالى موانع إجابة الدعاء فقال: «أما ما يمنع إجابة الدعاء، فقد أشار ﷺ إلى أنه التوسع في الحرام أكلاً وشرباً ولبساً وتغذية وقد سبق حديث ابن عباس. . . أن النبي ﷺ قال لسعد: «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»(٥) فأكل الحرام وشربه ولبسه والتغذي به سبب موجب لعدم إجابة الدعاء.

---

(١) يدل عليه حديث أنس رضي الله عنه قال: «أن النبي ﷺ رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه» أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب رفع الأيدي في الدعاء (٧/ ١٥٤).

(٢) يشير إلى حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض «فما زال يهتف بربه، ماداً يديه، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. . .» الحديث. أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (٣/ ١٣٨٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٤) المصدر السابق (١/ ٢٥٣) وما بعدها.

(٥) أخرجه الطبراني في الصغير (٢/ ١٣١) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩١) وفيه من لم أعرفهم.

وقد يكون ارتكاب المحرمات الفعلية مانعاً من الإجابة أيضاً وكذلك ترك الواجبات[١].

وكذلك من الموانع ترك الدعاء استبطاء للإجابة لأنه مخالف للرجاء وحسن الظن بالله لما في ذلك من قطع الرجاء في الله واليأس من إجابته للدعاء، وهذا خلاف المأمور به من حسن الظن بالله وبسعة رحمته وجوده وقد دل على هذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن ينصب وجهه لله، يسأله مسألة إلا أعطاه إياها إما عجلها له في الدنيا، وإما ادخرها له في الآخرة، ما لم يعجل بقول قد دعوت، ودعوت فلا يستجاب لي»[٢].

يقول ابن رجب رحمه الله في بيان هذا: ولهذا نهي العبد أن يقول في دعائه: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له، ونهى أن يستعجل، ويترك الدعاء لاستبطاء الإجابة، وجعل ذلك من موانع الإجابة حتى لا يقطع العبد رجاءه من إجابة الدعاء ـ ولو طالت المدة ـ فإنه سبحانه يحب الملحين في الدعاء[٣].

وهناك آداب وموانع أخرى سبب في إجابة الدعاء ولكني اقتصرت على ما ذكره ابن رجب رحمه الله تعالى خشية الإطالة ولذلك يجب على الداعي أن يستكمل آداب الدعاء ويبتعد عن موانعه فإنه أحرى أن يستجاب له.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: والدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (٧/ ١٥٣) ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب بيانه أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل (٤/ ٢٠٩٥).

(٣) جامع العلوم والحكم (٣/ ٢٣٢).

وقد تتخلف الإجابة لانتفاء بعض شروطه أو وجود بعض موانعه(١).

والدعاء له فوائد عظيمة على العبد منها أنه يدفع البلاء كما ثبت ذلك بالأدلة الصحيحة.

قال ابن رجب: فالصدقة تمنع وقوع البلاء بعد انعقاد أسبابه، وكذلك الدعاء، وفي الحديث «إن البلاء والدعاء يلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان إلى يوم القيامة» خرّجه البزار والحاكم(٢).

وخرج الترمذي من حديث سلمان مرفوعاً: «لا يرد القضاء إلا الدعاء»(٣).

وقال ابن عباس: «لا ينفع الحذر من القدر ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر».

وعنه قال: الدعاء يدفع القدر وهو إذا دفع القدر فهو من القدر، وهذا كقول النبي ﷺ لما سئل عن الأدوية والرقى هل ترد من قدر الله شيئاً قال: «هي من قدر الله تعالى»(٤).

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه البزار: كتاب الأدعية، باب إن الدعاء ليلقى البلاء فيعتلجان كما في كشف الأستار (٤/ ٣٧) والحاكم: كتاب الدعاء (١/ ٤٩٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٤/ ٤٤٨) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢١) والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا ترد الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئاً (٤/ ٤٠٠) وابن ماجه: كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٢/ ١١٣٧) والحاكم (٤/ ١٩٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وكذلك قال عمر رضي الله عنه لما رجع من الطاعون فقال له أبو عبيدة أفراراً من قدر الله فقال عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله تعالى»[١].

فإن الله تعالى قدر المقادير ويقدر ما يدفع بعضها قبل وقوعه، وكذلك الأذكار المشروعة تدفع البلاء.

وفي حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من قال حين يصبح ويمسي بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم لم يصبه بلاء»[٢][٣]...

فدعاء العبد المؤمن إن كان وفق الآداب السابقة لا يرد إن شاء الله تعالى، وقد يحصل للداعي تأخيراً للإجابة، وقد يعوض بما هو خير.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: ومن رحمة الله تعالى بعبده أن العبد يدعوه بحاجة من الدنيا، فيصرفها عنه يعوضه خيراً منها، إما أن يصرف عنه بذلك سوءاً أو يدخرها له في الآخرة، أو يغفر له بها ذنباً كما في المسند والترمذي من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من السوء مثله، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما ذكر في الطاعون (٧/ ٢١) ومسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٤/ ١٧٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٦٢) وأبو داود: كتاب الأدب، باب ماذا يقول إذا أصبح (٥/ ٣٢٤) والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى (٥/ ٤٦٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (٢/ ١٢٧٢) والحاكم (١/ ٥١٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) لطائف المعارف (ص٧٦).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٥/ ٤٦٢) وقال الألباني: حديث حسن. صحيح الجامع (٢/ ٩٩١) ولم أجده في المسند من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي المسند وصحيح الحاكم[1] عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم أو قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يكشف عنه من السوء مثلها، قالوا إذاً نكثر، قال: الله أكثر»[2].

فالعبد إذا دعا الله سبحانه وتعالى ولم يكن في دعوته اعتداء حصل له المطلوب أو مثله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فالدعوة التي ليس فيها اعتداء، يحصل بها المطلوب أو مثله، وهذا غاية الإجابة، فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً، أو مفسداً للداعي أو لغيره، والداعي جاهل لا يعلم ما فيه من المفسدة عليه والرب قريب مجيب، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والكريم الرحيم إذا سئل شيئاً بعينه وعلم أنه لا يصلح للعبد أعطاه نظيره كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له، فإنه يعطيه من ماله نظيره، ولله المثل الأعلى»[3].

والذي نخلص إليه مما سبق أن دعاء الله سبحانه وتعالى والالتجاء إليه من أعظم أنواع العبادة، فلا يجوز أن يصرف لغيره عز وجل لأنه حق من حقوق الله تبارك وتعالى على عباده، لأنه بالدعاء يظهر ذل العبودية ويعرف العبد به ربه، وهذا هو المقصود من جميع العبادات، وذلك أن العبد حينما يدعو ربه عز وجل فإنه يدعوه وهو يعلم من نفسه

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٨) والترمذي: كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك (٥/٥٦٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والحاكم (١/٤٩٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ومالك في الموطأ: كتاب القرآن، باب ما جاء في الدعاء (١/٢١٧).

(٢) يعني المستدرك.

(٣) الحسنة والسيئة (ص١١٩).

أنه محتاج إلى ما يطلبه من ربه عز وجل، ويعلم من نفسه أنه لا يحصل على مراده إلا بعون الله تبارك وتعالى له على ذلك، لأن الله عز وجل يسمع دعاءه، ويعلم حاجته وهو القادر تبارك وتعالى على تحقيق حاجته فهو الرب الرحيم الذي طلب من عباده أن يدعوه ووعدهم بالإجابة، ومن هنا كان المقصود من جميع التكاليف الشرعية معرفة ذل العبودية وعزة الربوبية والدعاء يتحقق فيه الأمران. ولهذا لا يجوز أن يدعى غيره من المخلوقين أيا من أنواع الدعاء، ومن فعل ذلك فهو مشرك بالله العظيم.

٢ ـ الخوف

الخوف عبادة لا يستحقها إلا الله تبارك وتعالى لأنه وحده القادر على جلب النفع للعبد، ودفع الضر عنه، وقد تعبد الله به جميع عباده من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين وسائر عباده المؤمنين كما ورد ذلك في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾(٣).

فالخوف عبادة من أجل العبادات لا يجوز صرفها إلا لله تبارك

---

(١) سورة النحل آية (٥٠).
(٢) سورة الأحزاب آية (٣٩).
(٣) سورة المؤمنون آية (٥٧ ـ ٦١).

وتعالى وقد أمر الله تبارك وتعالى بإخلاصه له في آيات كثيرة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[(٣)].

وكما دل القرآن على أن الخوف عبادة يجب إخلاصها لله تعالى كذلك دلت السنة على أن الخوف لا يكون إلا من الله، ولا يصرف لأحد سواه، فلا خوف ولا خشية إلا منه جل وعلا ومن تلك الأحاديث حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية[(٤)].

وفي رواية أخرى عنها رضي الله عنها النبي ﷺ أنه قال: «والله أني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»[(٥)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه ذكر رجلاً

---

(١) سورة آل عمران آية (١٧٥).

(٢) سورة المائدة آية (٤٤).

(٣) سورة الأعراف آية (٥٦).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع (٨/ ١٤٥) ومسلم: كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ (٤/ ١٨٢٩).

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب (٢/ ٧٨١).

فيمن سلف، أو قبلكم آتاه الله مالاً وولداً ـ يعني أعطاه ـ قال: فلما حضر قال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب قال: فإنه لم يبتئر[١] عند الله خيراً ـ فسرها قتادة لم يدخر ـ وإن يقدم على الله يعذبه فانظروا فإذا مت فأحرقوني حتى إذا صرت فحماً فاسحقوني، أو قال: فاسهكوني، ثم إذا كان ريح عاصف فأذروني فيها فأخذ مواثيقهم على ذلك وربى ففعلوا فقال الله عز وجل ـ كن فإذا رجل قائم، ثم قال أي عبدي ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك أو فرق[٢] منك، فما تلافاه أن رحمه الله[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[٤] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق، قال: لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه[٥] إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على أن الخوف عبادة جليلة لا يستحقها إلا الله عز وجل.

وقد تناول ابن رجب رحمه الله تعالى هذا النوع من العبادة وأشار إلى بعض جوانبه فقال رحمه الله تعالى في بيان القدر المطلوب من

---

(١) يبتئر من بأرت الشيء وابتأرته إذا خبأته وادخرته ومعنى لم يبتئر خيراً: أي لم يقدم لنفسه خبيئة خير ولم يدخر.
النهاية لابن الأثير (١/ ٨٩).

(٢) الفرق: الخوف والفزع، يقال: فرق يفرق فرقاً أي خاف يخاف خوفاً.
النهاية لابن الأثير (٣/ ٤٣٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الخوف من الله (٧/ ١٨٥).

(٤) سورة المؤمنون آية (٦٠).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٥) والترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون (٥/ ٣٢٧) وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوقي في العمل (٢/ ١٤٠٤) والحاكم (١/ ٣٩٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

الخوف بحيث يكون باعثاً على الالتزام بالأوامر والانتهاء عن النواهي مقترناً بالرجاء وحسن الظن بالله تعالى: القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلاً محموداً، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضاً أو موتاً أو هما لازماً بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل لم يكن محموداً، ولهذا كان السلف يخافون على عطاء السليمي[(١)] من شدة خوفه الذي أنساه القرآن، وصار صاحب فراش وهذا لأن الخوف ليس مقصوداً لذاته، إنما هو سوط يساق به المتواني عن الطاعة إليها، ومن هنا كانت النار من جملة نعم الله على عباده الذين خافوه واتقوه.

ولهذا المعنى عدها الله سبحانه من جملة آلائه على الثقلين في سورة الرحمن.

وقال سفيان بن عيينة: «خلق الله النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا» أخرجه أبو نعيم[(٢)].

والمقصود الأصلي هو طاعة الله عز وجل وفعل مراضيه ومحبوباته، وترك مناهيه ومكروهاته.

---

(١) عطاء السليمي بفتح السين وكسر اللام وسكون الياء، البصري الزاهد العابد، قال الذهبي: من صغار التابعين، أدرك أنس بن مالك، وكان قد أرعبه الخوف من الله، مات بعد الأربعين ومئة.
اللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ١٣٣، ١٣٤) وسير أعلام النبلاء (٦/ ٨٦) وتبصير المنتبه (٢/ ٧٤٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٥).

ولا ننكر أن خشية الله وهيبته وعظمته في الصدور وإجلاله مقصود أيضاً، ولكن القدر النافع من ذلك ما كان عوناً على التقرب إلى الله بفعل ما يحبه وترك ما يكرهه، ومتى صار الخوف مانعاً من ذلك وقاطعاً عنه فقد انعكس المقصود منه، ولكن إذا حصل ذلك عن رغبة كان صاحبه معذوراً»(١).

وقال رحمه الله تعالى مبيناً أسباب قوة خوف الله تعالى وخشيته: «والموجب لخشية الله أمور:

١ ـ منها قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي.

٢ ـ ومنها النظر في شدة بطشه وانتقامه وسطوته وقهره وذلك يوجب للعبد ترك التعرض لمخالفته كما قال الحسن: ابن آدم هل لك طاقة بمحاربة الله، فإن من عصاه فقد حاربه(٢) وقال بعضهم: عجبت من ضعيف يعصي قوياً.

٣ ـ ومنها قوة المراقبة له والعلم بأنه شاهد رقيب على قلوب عباده وأعمالهم وأنه مع عباده حيث كانوا كما دل القرآن على ذلك كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾(٤)(٥) . . .

وينبغي للمؤمن أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء

(١) التخويف من النار (ص٢١).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٣٤) وعلقمة بن مرثد في زهد الثمانية (ص٦٢).
(٣) سورة الحديد آية (٤).
(٤) سورة يونس آية (٦١).
(٥) شرح حديث عمار بن ياسر (ص٢٦).

فإنه إذا رجح الخوف حمله على القنوط من رحمة الله، وإذا رجح الرجاء حمله على الأمن من مكر الله، وكلاهما مخالف للصواب.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى ذلك: «فأما الخوف والرجاء فأكثر السلف على أنهما يستويان، لا يرجح أحدهما على الآخر»[(١)].

ويقول أيضاً: كان بعض السلف يقول: «من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد مؤمن».

وسبب هذا أنه يجب على المؤمن أن يعبد الله بهذه الوجوه الثلاثة المحبة والخوف والرجاء، ولا بد له من جميعها، ومن أخل ببعضها فقد أخل ببعض واجبات الإيمان[(٢)].

فالخوف من الله عز وجل يجب أن لا يصل إلى حد القنوط لأن القنوط يجعل العبد يقنط من رحمة الله عز وجل ومن عفوه ومغفرته بل لا بد من الخوف من الله عز وجل مع رجاء ثوابه والطمع فيما عنده وقد جمع الله سبحانه وتعالى بينهما في غيرما آية وجعل ذلك من صفات المؤمنين فقال عز وجل: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)].

وقال جل وعلا: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[(٤)] فالخوف والرجاء لا بد أن يكونا في قلب المؤمن فهما متفقان لا ينفك

---

(١) التخويف من النار (ص٢٥).
(٢) المصدر السابق (ص٢٥).
(٣) سورة الأعراف آية (٥٦).
(٤) سورة الأنبياء آية (٩٠).

أحدهما عن الآخر، لأن انفراد الخوف يخاف منه القنوط واليأس، وانفراد الرجاء قد يؤدي إلى الجرأة على اقتراف المعاصي وترك الفرائض ولذلك يقول النبي ﷺ: «لو يعلم المؤمن بما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»(١).

والواجب على المسلم الذي يريد النجاة وسلوك الطريق المستقيم أن يكون بين الخوف والرجاء، لأن خوفه من الله عز وجل يمنعه من معصيته ورجائه من الله يورث الطمأنينة في قلبه، فهو يرجو رحمة ربه ويخاف عذابه، ولا يفرط في الرجاء فيكون حاله مثل حال المرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان معصية، ولا يغلو في الخوف فيقنط من رحمة الله ومغفرته وعفوه حاله مثل حال الخوارج والمعتزلة الذين يقولون أن صاحب الكبيرة خالد مخلد في نار جهنم إذا مات ولم يتب، وخير الأمور الوسط وهو مادلت عليه النصوص الكثيرة على حد قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾(٢).

٣ ـ التوكل

التوكل على الله تبارك وتعالى عبادة عظيمة تعبد الله به عباده وأمرهم بأن يعتمدوا عليه وحده دون سواه، لأنه من أفضل العبادات ومن أجل مقامات الدين، ولا يوفق للقيام به على وجه الكمال إلا أولياء الله وحزبه المؤمنين وقد فرضه الله عز وجل على عباده حيث أمر به في مواضع كثيرة من كتابه المنزل على رسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الرجاء والخوف (١١/ ٣٠١) ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه (٤/ ٢١٠٩).

(٢) سورة الإسراء آية (٥٧).

(٣) سورة آل عمران آية (١٢٢).

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٤]

كما دلت أحاديث المصطفى ﷺ على فضل التوكل وأنه من العبادات التي يجب إخلاصها لله وحده لا شريك له عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بلا حساب ولا عذاب فقيل: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»[٥].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»[٦].

فهذه النصوص من الكتاب والسنة تدل على فضل التوكل على الله ووجوب إخلاصه له وحده لا شريك له.

---

(١) سورة المائدة آية (٢٣).

(٢) سورة النمل آية (٧٩).

(٣) سورة الفرقان آية (٥٨).

(٤) سورة هود آية (١٢٣).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير (٧/ ١٩٨) ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (١/ ١٩٧).

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٣٠) والترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٤/ ٥٧٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين (٢/ ١٣٩٤) والحاكم (٤/ ٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وقد اهتم ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان هذه العبادة العظيمة فقال رحمه الله تعالى في بيان حقيقة التوكل: وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ووكلت الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: والتوكل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٢][٣] . . .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: . . . فمن حقق التوكل على الله لم يكله إلى غيره، وتولاه بنفسه وحقيقة التوكل: مكيلة الأمور كلها إلى من هي بيده، فمن توكل على الله في هدايته وحراسته وتوفيقه وتأييده ونصره ورزقه وغير ذلك من مصالح دينه ودنياه تولى الله مصالحه كلها، فإن الله تعالى هو ولي الذين آمنوا، وهذا هو حقيقة الوثوق برحمة الله فمن وثق برحمة ربه ولم يثق بغير رحمته فقد حقق التوكل على ربه في توفيقه وتسديده، فهو جدير أن يتكفل الله بحفظه ولا يكله إلى نفسه[٤] . . .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «. . . وإنما المتوكل حقيقة من يعلم أن الله قد ضمن لعبده برزقه، وكفايته، فيصدق الله فيما ضمنه وثيق بقلبه ويحقق الاعتماد عليه فيما ضمنه من الرزق، من غير أن يخرج التوكل مخرج الأسباب في استجلاب الرزق به والرزق مقسوم لكل أحد، من بر

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٤٦).

(٢) سورة الطلاق آية (٣).

(٣) نور الاقتباس (ص١١٠).

(٤) شرح حديث زيد «لبيك اللهم لبيك» ورقة (٢٤).

وفاجر، ومؤمن وكافر كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(١) هذا مع ضعف كثير من الدواب، وعجزها عن السعي في طلب الرزق قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾(٢) فما دام العبد حياً، فرزقه على الله وقد ييسره الله له بكسب وبغير كسب فمن توكل على الله لطلب الرزق، فقد جعل التوكل سبباً وكسباً، ومن توكل عليه لثقته بضمانه فقد توكل عليه ثقة به وتصديقاً بوعده»(٣).

وقال رحمه الله تعالى في بيان ثمرة التوكل على الله عز وجل «واعلم أن ثمرة التوكل: الرضا بالقضاء، فمن وكل أموره إلى الله، ورضي بما يقضيه له ويختاره، فقد حقق التوكل»(٤).

كما بين رحمه الله تعالى أن مباشرة الأسباب والأخذ بها لا تنافي التوكل بل لا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد يقول رحمه الله في بيان هذا: «واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾(٦).

---

(١) سورة هود آية (٦).
(٢) سورة العنكبوت آية (٦٠).
(٣) جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٦٠).
(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٦١).
(٥) سورة النساء آية (٧١).
(٦) سورة الأنفال آية (٦٠).

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾(١).

وقال سهل التستري:(٢) من طعن في الحركة «يعني في السعي والكسب»، فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والكسب سنته، من عمل على حاله فلا يتركن سنته.

ثم إن الأعمال التي يعملها العبد ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات التي أمر الله عباده بها، وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنة، فهذا لا بد من فعله مع التوكل على الله فيه، والاستعانة به عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصر في شيء مما وجب عليه من ذلك، استحق العقوبة في الدنيا والآخرة، شرعاً وقدراً»(٣).

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: «... وكذلك من ضيع بتركه الأسباب حقاً له، ولم يكن راضياً بفوات حقه، فإن هذا عاجز مفرط، وفي مثل هذا جاء قول النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان...»(٤).

---

(١) سورة الجمعة آية (١٠).

(٢) سهل بن عبد الله بن يونس أبو محمد التستري الزاهد، قال الذهبي: له كلمات نافعة، ومواعظ حسنة، توفي سنة ٢٨٣هـ.
سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠) وشذرات الذهب (٢/ ١٨٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٤٧).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٤/ ٢٠٥٢).

وخرج الترمذي من حديث أنس قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل»[١].

وهذا كله إشارة إلى أن التوكل لا ينافي الإتيان بالأسباب بل قد يكون جمعهما أفضل»[٢].

فقد بين ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق أن التوكل على الله عز وجل لا يقتضي ترك الأخذ بالأسباب لأن التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها جلب المنافع، ودفع المضار، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وتعلق القلوب بها، والاعتماد عليها، لأن ذلك نقص في التوحيد يفضي بالعبد إلى الشرك، كما أن ترك الأسباب وعدم الأخذ بها وتعطيلها نقص في التوحيد وضعف في التوكل كما يدعيه الجهلة من المتصوفة وغيرهم من أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل، وأن حقيقة التوكل هي القعود وترك العمل.

هذا في الحقيقة عجز وتواكل لا توكل لأنه ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ودفع ما يضره في دينه ودنياه.

فمن ترك العمل وقعد عن البحث عن مصادر الرزق التي أحلها الله عز وجل بحجة التوكل فقد جهل معنى التوكل بل جهل جانباً من مفهوم

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة (٤/٦٦٨) وابن حبان كما في موارد الظمآن (٦٣٣) من حديث عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه.

قال العراقي: رواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد. تخريج الإحياء (٤/٢٧٩) وقال المناوي في فيض القدير (٢/٨) إسناده صحيح. وقال الألباني: حديث حسن.

صحيح الجامع (٢/٢٤١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣/٣٥٨، ٣٥٩).

هذا الدين العظيم، فالعجز والتواكل والتكاسل له آثار خطيرة على الفرد والمجتمع، ومن بعض هذه الآثار تفشي الفقر والبطالة في المجتمعات الإسلامية، وهذا يناقض أهداف الإسلام.

فترك العمل سبيل للتخلف والضعف والهوان، والإسلام دين العزة والمنعة.

٤ ـ الاستعانة

الاستعانة: طلب العون على قضاء الحاجات، ودفع المكروهات، وهي نوع من أنواع العبادة التي لا تصح إلا لله سبحانه وتعالى.

وقد تعبد الله سبحانه وتعالى بها عباده، وأرشدهم إلى الاستعانة به وحده دون سواه كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[١].

قال ابن رجب رحمه الله تعالى بعد ذكره لهذه الآية: «هذه الكلمة تجمع سر الكتب المنزلة من السماء كلها لأن الخلق إنما خلقوا ليؤمروا بالعبادة... وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب لذلك، فالعبادة حق الله على عباده، ولا قدرة للعباد عليها بدون إعانة الله لهم، فلذلك كانت هذه الكلمة بين الله وبين عبده لأن العبادة حق الله على عبده والإعانة من الله فضل من الله على عبده[٢].

وأوصى نبينا محمد ﷺ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بها في قوله في الحديث «... وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...»[٣].

---

(١) سورة الفاتحة آية (٥).

(٢) فتح الباري ورقة (٤/٤٤٩ ـ ٥٠٠).

(٣) هذا جزء من حديث وصية النبي ﷺ لابن عباس تقدم تخريجه (ص١٦١).

وهذه العبادة من العبادات التي تناولها ابن رجب رحمه الله تعالى وبين معناها وأدلتها.

فقال رحمه الله تعالى: «وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله وهذه كلمة عظيمة، وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ يوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[١] ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى ما استعان به، فصار مخذولاً»[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، وفي الصبر على المقدورات كما قال يعقوب عليه السلام لنبيه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٣] ولهذا قالت عائشة هذه الكلمة لما قال أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦١).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٠٠، ١٠١).
(٣) سورة يوسف آية (١٨).

وقال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[١].

وقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾[٢].

ولما بشر عثمان بالجنة على بلوى تصيبه قال: «الله المستعان»[٣]. . .

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في مصالح دينه، وفي مصالح دنياه[٤]. . .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً في بيان أهمية الاستعانة بالله: «وفي الاستعانة بالله وحده فائدتان:

إحداهما: أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات.

والثانية: أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[٥] وكان النبي ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا: «الحمد لله نستعينه ونستهديه»[٦].

وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول: «اللهم

---

(١) سورة الأعراف آية (١٢٨).

(٢) سورة الأنبياء آية (١١٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان رضي الله عنه (٤/ ١٨٦٧).

(٤) نور الاقتباس (ص٧٣، ٧٤).

(٥) سبق تخريجه (ص٣٦١).

(٦) هذا جزء من الحديث المسمى بخطبة الحاجة وقد تقدم تخريجه (ص٨).

أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)] وكان من دعائه ﷺ «يا رب أعني ولا تعن علي[(٢)(٣)] . . .».

٥ ـ الخشوع

الخشوع لله سبحانه وتعالى هو التذلل والخضوع له عز وجل.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في تعريف الخشوع: «أصل الخشوع هو لين القلب ورقته أو سكونه وخضوعه وانكساره، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء، لأنها تابعة له كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[(٤)].

فإذا خشع القلب، خشع السمع والبصر والرأس، والوجه وسائر الأعضاء، وما ينشأ منها حتى الكلام، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «خشع لك سمعي وبصري ومخطي وعظمي»[(٥)] وفي

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤) وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستغفار (٢/ ١٨١) والنسائي: كتاب الذكر بعد الدعاء (٣/ ٥٣) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠) والحاكم (١/ ٢٧٣) وقال: هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧) والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٢٦) وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ماذا يقول الرجل إذا سلم (٢/ ١٧٥) وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ (٢/ ١٢٥٩) والترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ (٥/ ٥٥٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم (١/ ٥٢٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) نور الاقتباس (ص٧٢، ٧٣).

(٤) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/ ١٩) ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٣/ ١٢٢٠).

(٥) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين: باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٥).

رواية «وما استقل به قدمي»[١].

وقد وصف الله تعالى في كتابه الأرض بالخشوع فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[٢] فاهتزازها وربوها ـ وهو ارتفاعها ـ مزيل لخشوعها، فدل على أن الخشوع الذي كانت عليه هو سكونها وانخفاضها فكذلك القلب إذا، فإنه تسكن خواطره وإراداته الرديئة التي تنشأ من إتباع الهوى وينكسر وينخضع لله، فيزول بذلك ما كان فيه من التعاظم والترفع والتكبر ومتى سكن ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها حتى الصوت، وقد وصف الله تعالى الأصوات بالخشوع في قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[٣] فخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها.

وكذلك وصف وجوه الكفار وأبصارهم يوم القيامة بالخشوع فدل ذلك على دخول الخشوع في هذه الأعضاء كلها[٤].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وأصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله، ومعرفة عظمته وجلاله. وكماله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع»[٥].

كما بين رحمه الله تعالى أن الخشوع لله عز وجل من صفات المؤمنين وأن الله سبحانه وتعالى تعبدهم به فقال: «إن الله سبحانه وتعالى

---

(١) بهذه الزيادة أخرجه أحمد، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند تحقيق أحمد شاكر (٢/١٩٩).
(٢) سورة فصلت آية (٣٩).
(٣) سورة طه آية (١٠٨).
(٤) الخشوع في الصلاة (ص١١ ـ ١٣).
(٥) المصدر السابق (ص١٤).

مدح في كتابه المخبتين له، والمنكسرين لعظمته، الخاضعين والخاشعين له، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(١).

وقال: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

ووصف المؤمنين بالخشوع له في أشرف عباداتهم التي عليهايحافظون فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾(٣).

ووصف الذين أوتوا العلم بالخشوع حيث يكون كلامه مسموعاً، فقال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾(٤)... ووصف الله سبحانه في كتابه العلماء بالخشية كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٥) وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٦) ووصف العلماء من أهل الكتاب قبلنا بالخشوع كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًاوَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾(٧) وقوله تعالى في وصف هؤلاء

---

(١) سورة الأنبياء آية (٩٠).
(٢) سورة الأحزاب آية (٣٥).
(٣) سورة المؤمنون آية (١، ٢).
(٤) سورة الإسراء آية (١٠٧ ـ ١٠٩).
(٥) سورة فاطر آية (٢٨).
(٦) سورة الزمر آية (٩).
(٧) سورة الإسراء آية (١٠٧ ـ ١٠٩).

الذين أوتوا العلم ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً مدح لمن أوجب له سماع كتاب الله الخشوع في قلبه، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[١].

وليس القلوب هو زوال قساوتها لحديث الخشوع، وقد قبح الله من لا يخشع قلبه لسماع كتاب الله وتدبره، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟﴾...[٢] الآية.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين» خرجه مسلم[٣] وخرجه النسائي[٤] وزاد فيه: «فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً»

وخرج ابن ماجه[٥] من حديث الزبير رضي الله عنه قال: «لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله بها إلا أربع سنين...»[٦].

كما أشار رحمه الله تعالى إلى أن الإنسان إذا تصنع الخشوع وتكلفه فإن ذلك خشوع نفاق وليس خشوعاً لله تبارك وتعالى، يقول في بيان ذلك: «ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه كان ذلك خشوع نفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه كما قال بعضهم: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق»

---

(١) سورة الزمر آية (٢٢، ٢٣).
(٢) سورة الحديد آية (١٦).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾** (٤/ ٢٣١٩).
(٤) السنن الكبرى: كتاب التفسير كما في تحفة الأشراف للمزي (٧/ ٧٠).
(٥) السنن: كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء (٤١٩٢).
(٦) الخشوع في الصلاة (ص١١، ١٨).

قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع...»[١] فمن أظهر خشوعاً غير ما في قلبه فإنما هو نفاق على نفاق»[٢].

فابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق يبين أن خشوع المؤمن خشوع صادر عن قلب مؤمن مخلص ملتزم بأوامر الله مجتنب نواهيه، قلب مليء بنور الإيمان والتعظيم لله سبحانه وتعالى، والحياء والخوف منه عز وجل، قلب خاضع متذلل بين يدي الله تبارك وتعالى يرجوه عفوه ويخاف عقابه، بأنه قلب حي بذكر الله وتسبيحه وتحميده، أما خشوع المنافق فهو خشوع صادر عن قلب مظلم لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، قلب يظهر على جوارح صاحبه التصنع والتكلف حتى يستر سواد قلبه، لأنه قلب لم يستضئ بنور الإيمان، ولم يذق حلاوته وطعمه.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «الفرق بين خشوع الإيمان

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٦) وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٩٥) وأحمد في الزهد (١٧٦) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٦٤) كلهم ذكروه من قول أبي الدرداء رضي الله عنه.
وذكره البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٢٧) من قول أبي هريرة رضي الله عنه، كما ورد مرفوعاً إلى النبي ﷺ من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه بلفظ: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق. قالوا: يا رسول الله وما خشوع النفاق؟ قال: خشوع البدن ونفاق القلب» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٦٤) قال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٣٣١) وفيه الحارث بن عبيد الأيادي ضعفه أحمد وابن معين.
وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل (٣/ ١٢٩٣) في ترجمة سوار بن مصعب الهمذاني، وقال: ولسوار غير ما ذكرت من الحديث وعامة ما يرويه ليست محفوظة وهو ضعيف كما ذكروه.
(٢) الخشوع في الصلاة (ص١٣، ١٤).

وخشوع النفاق أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله... أما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع، فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره، فانجلى الصدر، وأشرق فيه نور العظمة، فماتت شهوة النفس للخوف والوقار الذي خشي به، وخمدت الجوارح وتوقر القلب وأطمئن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار مخبتاً له، وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة»(١).

٦ ـ المحبة

دلت الأدلة الكثيرة في الكتاب والسنة على وجوب محبة الله سبحانه وتعالى وتقديم محبته سبحانه وتعالى على سائر المحاب.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث

---

(١) الروح لابن القيم (٢/ ٦٩٤، ٦٩٥).

(٢) سورة آل عمران آية (٣١).

(٣) سورة التوبة آية (٢٤).

من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالده والناس أجمعين»[٢].

وفيهما أيضاً عنه رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ «متى الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله فقال رسول الله ﷺ: «أنت مع من أحببت»[٣].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الدالة على أن المحبة نوع من أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله وحده دون سواه وقدتكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذا النوع من العبادة وبين أهميته وما يتعلق به من المسائل.

فقال رحمه الله تعالى في أهمية هذا النوع من العبادة: «فإذا تحقق القلب بالتوحيد التام، لم يبق فيه محبة لغير ما يحبه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله، ومن كان كذلك لم تنبعث جوارحه إلا بطاعة الله، وإنما تنشأ الذنوب من محبة ما يكرهه الله، أو كراهة ما يحبه الله، وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله تعالى وخشيته، وذلك يقدح في كمال التوحيد الواجب فيقع العبد بسبب ذلك في التفريط في بعض

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٣٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٣٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله (٧/ ١١٣) ومسلم: كتاب البر والصلة، باب المرء مع من يحب (٤/ ٢٠٣٢).

الواجبات وارتكاب بعض المحظورات، فإن من تحقق قلبه بتوحيد الله فلا يبقى له هم إلا في الله، وفيما يرضيه به»[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله، والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات، فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى ما يرضي الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة»[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «فإذا كانت محبة الله ثابتة في قلب العبد، نشأت عنه حركات الجوارح، فكانت تحب ما يحبه الله ويرتضيه، فأحب ما يحبه الله عز وجل من الأعمال والأقوال كلها»[٣].

كما بين رحمه الله تعالى درجات محبة الله عز وجل فقال: «ومحبة الله تعالى على درجتين:

إحداهما: فرض لازم وهي أن يحب الله سبحانه محبة توجب له محبة ما فرضه الله عليه وبغض ما حرمه عليه، ومحبة لرسوله المبلغ عنه أمره ونهيه وتقديم محبته على النفوس والأهلين... والرضا بما بلغه

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣/ ١٦٨، ١٦٩).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥).

(٣) اختيار الأولى (ص١٢٤).

عن الله من الدين، وتلقي ذلك بالرضا والتسليم، ومحبة الأنبياء والرسل والمتبعين لهم بإحسان جملة وعموماً لله عز وجل، وبغض الكفار والفجار جملة وعموماً لله عز وجل، وهذا القدر لا بد منه في تمام الإيمان الواجب، ومن أخل بشيء منه فقد نقص من إيمانه الواجب بحسب ذلك، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١].

وكذلك ينقص من محبته الواجبة بحسب ما أخل به من ذلك، فإن المحبة الواجبة تقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات...

الدرجة الثانية: درجة السابقين المقربين وهي أن ترتقي المحبة إلى محبة ما يحبه الله من نوافل الطاعات، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات وإلى الرضا بما يقدره ويقتضيه مما يؤلم النفوس من المصائب، وهذا فضل...

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته[٢][٣]...

---

(١) سورة النساء آية (٦٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٦٨).

(٣) استنشاق نسيم الأنس (ص٤) وما بعدها، وانظر: اختيار الأولى (ص١١٥ - ١١٨).

كما أوضح رحمه الله تعالى أن من لوازم محبة الله تعالى محبة أوليائه، ، ومحبة ما يحبه الله من الأقوال والأعمال، فقال في شرح قوله ﷺ في الدعاء «وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك. . .»[1].

قال: «ولما كانت محبة الله عز وجل لها لوازم، وهي محبة ما يحبه الله عز وجل من الأشخاص والأعمال، وكراهة ما يكرهه من ذلك، سأل النبي ﷺ الله تعالى مع محبته محبة شيئين آخرين:

إحداهما: محبة من يحب ما يحب الله تعالى، فإن من أحب الله أحب أحباءه فيه، ووالاهم، وأبغض أعداءه وعاداهم، وأعظم من تجب محبته في الله تعالى أنبياؤه ورسله، وأعظمهم نبيه محمد ﷺ الذي افترض الله على الخلق كلهم متابعته، وجعل متابعته علامة لصحة محبته كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2].

وتوعد من قدم محبة شيء من المخلوقين على محبته ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة الجهاد في سبيله في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾. . .[3] الآية.

ووصف المحبين له باللين للمؤمنين والرأفة والرحمة والمحبة لهم، والشدة على الكافرين والبغض لهم، والجهاد في سبيله فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ﴾. . .[4] الآية.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٠) وهو حديث اختصام الملأ الأعلى.

(٢) سورة آل عمران آية (٣١).

(٣) سورة التوبة آية (٢٤).

(٤) سورة المائدة آية (٥٤).

والثاني: محبة ما يحبه الله تعالى من الأعمال، وبها تبلغ إلى حبه، وفي هذا إشارة إلى أن درجة المحبة لله تعالى إنما تنال بطاعة الله وبفعل ما يحبه، فإذا امتثل العبد أوامر مولاه وفعل ما يحبه أحبه الله تعالى ورقاه إلى درجة محبته كما في الحديث الإلهي الذي خرجه البخاري[(١)]: «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه...»[(٢)].

كما أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى الأعمال التي توصل إلى محبة الله تعالى لعبده فقال: «أفضل ما تستجلب به محبة الله عز وجل فعل الواجبات وترك المحرمات، ولهذا جعل النبي ﷺ من علامات وجدان حلاوة الإيمان أن يكره أن يرجع إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار... ثم بعد ذلك الاجتهاد في نوافل الطاعات وترك دقائق المكروهات والمشتبهات... ومن أعظم ما يحصل به محبة الله تعالى من النوافل تلاوة القرآن خصوصاً مع التدبر... ولهذا قال النبي ﷺ: «لمن قال: إني أحب سورة (قل هو الله أحد) لأنها صفة الرحمن، فقال: «أخبروه أن الله يحبه...»[(٣)].

ومن الأعمال التي توصل إلى محبة الله تعالى ـ وهي أعظم علامات المحبين كثرة ذكر الله عز وجل بالقلب واللسان... ومن علامات المحبين لله وهو ما يحصل به المحبة أيضاً حب الخلوة بمناجات الله تعالى وخصوصاً في ظلمة الليل[(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٦٨).

(٢) اختيار الأولى (ص١١٩) وما بعدها.

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٢٦).

(٤) اختيار الأولى (ص١٢١) وما بعدها، وانظر: جامع العلوم والحكم (٣/ ١٦٢، ١٦٣).

كما أوضح الله تعالى أن المحبة وحدها لا تكفي بل لا بد معها من الخوف والرجاء وهذه هي أصول العبادة التي تبنى عليها قال رحمه الله تعالى في بيان ذلك: «إن العبادة إنما تبنى على ثلاثة أصول: الخوف والرجاء والمحبة، وكل منها فرض لازم، والجمع بين الثلاثة حتم واجب، فلهذا كان السلف يذمون من تعبد بواحد منها وأهمل الآخرين، فإن بدع الخوارج، ومن أشبههم إنما حدثت من التشديد في الخوف والإعراض عن المحبة والرجاء، وبدع المرجئة[1] نشأت من التعلق بالرجاء وحده، والإعراض عن الخوف، وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممن ينسبون إلى التعبد نشأت من إفراد المحبة والإعراض عن الخوف والرجاء»[2].

كما رد رحمه الله تعالى على من انحرف بالمحبة عن معناها الصحيح إلى معان أخرى بعيدة عن دلالات الكتاب والسنة فقال: «وقد كثر في المتأخرين المنتسبين إلى السلوك تجريد الكلام في المحبة وتوسيع القول فيها بما لا يساوي على الحقيقة مثقال حبة إذ هو عار عن الاستدلال بالكتاب والسنة، وخال من ذكر كلام من سلف من سلف الأمة وأعيان الأئمة وإنما هو مجرد دعاوي قد تشرف بأصحابها على مهاوي، وربما أستشهد وبأشعار عشاق الصور، وفي ذلك ما فيه من عظيم

---

(١) الإرجاء له معنيان أحدهما: بمعنى التأخير، وسمي المرجئة بهذا المعنى لأنهم يؤخرون الأعمال عن النية والعقد في الإيمان، والمعنى الثاني: الإرجاء بمعنى إعطاء الرجاء وسموا مرجئة بهذا المعنى لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. والمرجئة أصناف وفرق كثيرة منهم الغلاة كالجهمية، ومنهم دون ذلك ويجمعهم القول بأن الأعمال ليست من الإيمان.
مقالات الإسلاميين (٢/ ٢١٣) والفصل في الملل والنحل (٥/ ٧٣)... الملل والنحل (١/ ١٣٩).

(٢) لطائف المعارف (ص٤).

الخطر، وقد يحكمون حكايات العشاق ويشيرون إلى التأدب بما سلكوه من الآداب والأخلاق، وكل هذا ضرر عظيم، وخطره جسيم وقد يكثر ذكر المحبة ويعيدها ويبديها من هو بعيد عن التلبس بمقدماتها ومبادئها[١].

ويقول رحمه الله تعالى: ومن أحبه الله رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه، والزلفى لديه، والحظ عنده كما قال الله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

ففي هذه الآية إشارة إلى أن من أعرض عن حبنا، وتولى عن قربنا ولم يبال، استبدلنا به من هو أولى بهذه المنحة منه وأحق فمن أعرض عن الله فما له عن الله بدل، ولله منه أبدال... ثم ذكر وصف الذين يحبهم الله ويحبونه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني أنهم يعاملون المؤمنين بالذلة واللين وخفض الجناح، ويعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم والغلظة لهم، فلما أحبوا الله أحبوا أولياءه الذين يحبونه، فعاملوهم بالمحبة والرأفة والرحمة، وبغضوا أعداءه الذين يعادونه، فعاملوهم بالشدة والغلظة كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٣].

فإن من تمام المحبة مجاهدة أعداء المحبوب[٤].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «حذر طوائف من العلماء ممن يكثر

---

(١) لطائف المعارف (ص٤).

(٢) سورة المائدة آية (٥٤).

(٣) سورة الفتح آية (٢٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (٣/١٥٧ ـ ١٥٩).

دعوى الشوق والمحبة لما ظهر منهم من الشطح والدعاوي، بل والإباحة والحلول وغير ذلك من المفاسد... وكان بعض هؤلاء يقول: إذا لم أجن بك يا حبيبي فبمن؟ ومن هؤلاء من كان يسمى مجنوناً... ويسمون عقلاء المجانين، وكانت أقوالهم وأفعالهم محفوظة غالباً، ويصدر منهم من الكلام الحسن شيء كثير، وقد غلط طوائف من المتأخرين في أمرهم فظنوا أن حالهم هو غاية الكمال... وهذا خطأ قبيح جداً، ثم أدخلوا في طبقتهم من ليس منهم من المجانين الذين لا حكمة لديهم، ولا ظهر شيء من الأحوال الصحيحة عليهم وإنما يظهر منهم مخالفة الشريعة بالأعمال والأقوال الشنيعة، ولكن أحسنوا الظن بهم لما يظهر من بعضهم من الأخبار بالمغيبات في بعض الأحيان مما قد أكثر منه من الرهبان والكهان، ونشأ بهذا السبب اعتقاد أن الأولياء لهم طريقة غير طريقة الأنبياء، وأنهم واقفون مع الحقيقة ولا يتقيدون بالشريعة، إلى غير ذلك من أنواع الضلال والبدع الفظيعة[(١)].

كما بين رحمه الله تعالى أن محبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة الله عز وجل لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بمحبته وطاعته وأنه لا تتم محبة الله سبحانه وتعالى إلا بمحبة الرسول ﷺ وأتباعه وطاعته فقال: إن محبة الرسول إنما هي تابعة لمحبة الله جل وعلا، فإن الرسول إنما يحب موافقة لمحبة الله له، ولأمر الله بمحبته وطاعته واتباعه...»[(٢)].

وقال: «وقد قرن الله بين محبته ومحبة رسوله في قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[(٣)] وكذلك ورد في السنة في أحاديث كثيرة جداً... والمراد

(١) استنشاق نسيم الأنس (ص٩٧) وما بعدها.
(٢) المصدر السابق (ص٨).
(٣) سورة التوبة آية (٢٤).

أن الله تعالى لا يوصل إليها إلا عن طريق رسوله ﷺ باتباعه وطاعته... ومحبة الرسول ﷺ على درجتين:

إحداهما: فرض وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الإتباع له فيما بلغه عن ربه من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بد منه ولا يتم الإيمان بدون.

والدرجة الثانية: فضل وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، وكثرة الصلاة عليه وتعظيمه وتوقيره ومحبة استماع كلامه وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين، ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا والاجتزاء باليسير منها ورغبته في الآخرة»[١].

  

(١) استنشاق نسيم الأنس (ص٣٤، ٣٥) وانظر فتح الباري (١/ ٤٨).

المبحث الرابع
بيانه أن العبادة لا تقبل إلا بشرطين

ذكرت فيما سبق أن عبادة الله وحده لا شريك له هي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، ولا تعرف العبادة إلا عن طريق الشرع فليس لأحد أن يعبد الله تبارك وتعالى إلا بما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ مع حسن النية وصلاح القصد في العبادة وبهذا يتبين لنا أنه لابد لصحة أي عمل نريد أن نتقرب به إلى الله عز وجل من شرطين أساسين مجتمعين، إذا فقد شرط منهما فإن العمل يكون مردوداً على عامله وهذان الشرطان هما:

١ ـ أن يكون العمل خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى وحده دون سواه.

٢ ـ أن يكون العمل موافقاً لما شرعه الله تعالى في كتابه أو بينه رسولنا ﷺ في سنته.

وقد بين ابن رجب رحمه الله تعالى هذين الشرطين في مواضع مختلفة من مؤلفاته، وبين أهميتها في كل عمل يتقرب به العبد إلى الله عز وجل.

من ذلك قوله رحمه الله تعالى: «الدين يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات والتوقف على الشبهات. . .، وإنما يتم ذلك بأمرين:

أحدهما: أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السنة وهذا هو

الذي يتضمنه حديث عائشة: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»[١].

الثاني: أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه الله عز وجل كما تضمنه حديث عمر «الأعمال بالنيات»[٢].

وقال الفضيل[٣] في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤] قال: أخلصه وأصوبه، وقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً وصواباً، قال: والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة.

وقد دل على هذا الذي قال الفضيل قوله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٥]...[٦].

وقال رحمه الله تعالى: «فكما أن كل عمل لا يراد به الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، فالصلح مردود (٣/ ١٦٧) ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (٣/ ١٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي (١/ ٢) ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (٣/ ١٥١٥).

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الخراساني الإمام القدوة الثبت، قال النسائي وغيره: ثقة مأمون رجل صالح، توفي سنة (١٨٧). وفيات الأعيان (٤/ ٤٧) وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٤٥) وشذرات الذهب (١/ ٣٦١).

(٤) سورة الملك آية (٢).

(٥) سورة الكهف آية (١١٠).

(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦، ٢٧).

ورسوله فليس من الدين في شيء[1].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: وليس الفضائل بكثرة الأعمال البدنية، لكن بكونها خالصة لله عز وجل، صواباً على متابعة السنة وبكثرة معارف القلوب وأعمالها، فمن كان بالله أعلم وبدينه وأحكامه وشرائعه، وله أخوف وأحب وأرجى فهو أفضل ممن ليس كذلك، وإن كان أكثر منه عملاً بالجوارح»[2].

هذه هي الشروط التي قررها ابن رجب رحمه الله تعالى لقبول العمل، وقد قررها العلماء أيضاً قبل وبعد ابن رجب رحمه الله تعالى وهي شروط استنبطها العلماء رحمهم الله تعالى من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ، وهذا الشرطان هما حقيقة قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وتخلف هذين الشرطين ينتج عنه إما الشرك بالله عز وجل وهو الذنب الذي لا يغفره الله عز وجل إلا التوبة.

وإما الابتداع في دين الله عز وجل، والتقرب إليه بما لم يشرعه وفي هذا تنقيص للدين ولمن جاء به وهو رسول الله ﷺ.

وسيأتي الكلام عن الشرك والبدع مفصلاً في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

وينقسم الناس بالنسبة لهذين الشرطين حسب وجودها وعدمها إلى أربعة أقسام هي:

القسم الأول: وهم المخلصون لله تبارك وتعالى في جميع أعمالهم

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤١).

(٢) المحجة في سير الدلجة (ص٥٢).

السائرون على هدى المصطفى ﷺ، فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً. وكذلك جميع أعمالهم وعبادتهم موافقة لما جاء في كتاب الله تعالى وسنة المصطفى ﷺ، وهؤلاء هم أهل الإخلاص والمتابعة للمعبود.

القسم الثاني: وهم من لا إخلاص لهم ولا متابعة، فأعمالهم ليست خالصة لله وليست موافقة لشرعه، كالذين يزينون أعمالهم للناس بما لم يشرعه الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عزّ وجلّ.

القسم الثالث: وهم الذين يخلصون أعمالهم لله تبارك وتعالى، لكنها على غير موافقة شرع الله تبارك وتعالى وهؤلاء كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر كالذين يرون أن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، فهؤلاء أعمالهم خالصة ولكنها غير موافقة لشرع الله، فهي مردودة عليهم لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه وموافقاً لشرعه.

القسم الرابع: وهم الذين أعمالهم موافقة لشرع الله تبارك وتعالى لكنها لغيره كالذي يصلي ليقال، وكالذي يقاتل رياء وحمية وشجاعة فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة لأنها غير خالصة لوجه الله تبارك وتعالى فلا تقبل.

هذه الأقسام الأربعة لخصتها من كتاب مدارج السالكين[١] لابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى.

والخلاصة في هذا كله أن العبادات كلها مدارها على الإخلاص والمتابعة، ومن لم يحقق هذا فليس عابداً لله على الحقيقة وإن فعل ما فعل وقال ما قال.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٣).

الفصل الخامس
نواقض التوحيد

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: الشرك وكلام ابن رجب عليه. ويشتمل على عدة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الشرك لغة.

المطلب الثاني: تعريف الشرك شرعاً وبيان أقسامه.

أمثلة للشرك الأصغر.

كلامه في حكم عمل المرائي.

حمد الناس العبد على الخير لا يعد من الرياء.

المبحث الثاني: النفاق وكلام ابن رجب عليه. وفيه عدة أمور:

١ ـ تعريف النفاق.

٢ ـ أقسام النفاق.

٣ ـ خوف السلف من النفاق لخطورته وخفائه.

المبحث الثالث: البدع وكلام ابن رجب عليها وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول: معنى البدعة في اللغة والشرع والأدلة على التحذير من البدع والبُعد عنها.

المطلب الثاني: أنواع البدع.

المطلب الثالث: الرد على محسني البدع وكلام ابن رجب على ذلك.

المطلب الرابع: نماذج من البدع وكلام ابن رجب عليها.

المطلب الخامس: حكم البدع وأهلها.

المبحث الرابع: الغلو وكلام ابن رجب عليه.

المبحث الخامس: مسائل متفرقة متعلقة بهذا الفصل.

المبحث الأول
الشرك وكلام ابن رجب عليه

سوف يكون الحديث في هذا المبحث عن الشرك ومعناه اللغوي والإصطلاحي وبيان أقسامه باختصار مع بيان الأدلة على ذلك، مع ذكر كلام ابن رجب رحمه الله تعالى في هذا الموضوع الذي لا يمكن للإنسان أن يحذر منه ومن الوقوع فيه إلا إذا عرفه وعرف خطره، ولذا يجب على كل مسلم معرفته ليسلم منه وليكون على بينة من أمره حتى لا يقع فيه لأنه إذا لم يعرفه ربما يقع فيه وهو لا يدري ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه يسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يقع فيه كما جاء في الصحيحين عنه رضي الله عنه أنه قال: «كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[1].

وبسبب الجهل بالشرك وأنواعه نرى كثيراً من المسلمين اليوم قد وقع فيه، فلا تكاد تجد بلداً من بلاد المسلمين إلا وترى فيها تقديس القبور والنذر لها والذبح عندها والإستغاثة بأهلها وسؤالهم قضاء الحاجات وكشف الكربات إلى غير ذلك من الأمور التي لا يجوز صرفها لغير الله عزّ وجلّ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أنه لا سلامة للإنسان من عذاب الله تعالى إلا بالبُعد عن الشرك بأنواعه فقال: «فالقلب السليم هو

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن (٨/ ٩٣) ومسلم: كتاب الإمارة (٣/ ١٤٧٥).

الذي ليس فيه شيء من محبة ما يكرهه الله، فدخل في ذلك سلامته من الشرك الجلي والخفي ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي كبائرها وصغائرها الظاهرة والباطنة كالرياء والعجب والغل والغش والحقد والحسد وغير ذلك.

وهذا القلب السليم هو الذي لا ينفع يوم القيامة سواه قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1]...[2].



(١) سورة الشعراء آية (٨٨، ٨٩).

(٢) شرح حديث شداد بن أوس: ورقة (١١٤).

المطلب الأول
تعريف الشرك لغة

جاء في تهذيب اللغة: «الشرك بمعنى الشريك وهو بمعنى النصيب وجمعه أشراك كشبر وأشبار»[١].

وذكر صاحب مقاييس اللغة أن مادة «الشرك» المكونة من حرف «الشين والراء والكاف» لها أصلان:

أحدهما: يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر يدل على امتداد واستقامة، **فالأول**: الشركة وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلاناً في الشيء إذا صرت شريكه، وأشركت فلاناً إذا جعلته شريكاً لك قال تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾[٢] ويقال في الدعاء: «اللهم أشركنا في دعاء المؤمنين» أي اجعلنا لهم شركاء في ذلك.

وأما الثاني: **فالشرك**: لقم الطريق، وهو شراكه أيضاً، وشراك النعل مشبه بهذا، ومنه شراك الصائد سمي ذلك لامتداده[٣].

وقال صاحب اللسان: «الشِّرْكة والشَّرِكة سواء مخالطة الشريكين يقال: اشتركنا بمعنى تشاركنا، وقد اشترك الرجلان وتشاركا وشارك

---

(١) تهذيب اللغة (١٠/ ١٧).

(٢) سورة طه آية (٣٢).

(٣) مقاييس اللغة (٣/ ٣٦٥).

أحدهما الآخر، والشريك المشارك، والشرك كالشريك، والجمع أشراك وشركاء»[١].

فمدلول كلمة الشرك في اللغة تطلق على النصيب والتسوية والمخالطة والمصاحبة.



(١) لسان العرب (١٠/٤٤٨).

المطلب الثاني
الشرك في الشرع وبيان أقسامه

الشرك هو أن يجعل الإنسان لله تعالى شريكاً ونداً فيما يجب أن يكون حقاً خالصاً لله تعالى بمعنى أن يصرف شيئاً من خصائص الربوبية والألوهية لغير الله تبارك وتعالى وهو ينقسم إلى قسمين: أكبر وأصغر.

وقد تناول ابن رجب رحمه الله تعالى هذه الأقسام فقال: «وأما توحيد الإلهية فالشرك فيه تارة يوجب الكفر والخروج من الملة، والخلود في النار، ومنه ما هو أصغر كالحلف بغير الله والنذر له، وخشية غير الله ورجائه والتوكل عليه والذل له، وقول القائل: ما شاء الله وشئت[١].

وقال رحمه الله تعالى عن الشرك الأكبر: «ظلم النفس وأعظمه الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢] فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق فعبده وتألهه، فهو وضع الأشياء في غير مواضعها وأكثر ما ذكر في القرآن وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣]...»[٤].

وقال عن الشرك الأصغر: «... وإنما زاد عذاب أهل الرياء على

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٠٢).

(٢) سورة لقمان آية (١٣).

(٣) سورة البقرة آية (٢٥٤).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٨١).

سائر العصاة، لأن الرياء هو الشرك الأصغر، والذنوب المتعلقة بالشرك أعظم من المتعلقة بغيره»[١].

وقال رحمه الله تعالى عن النوعين جميعاً: «فإن جميع النعم من الله وفضله... فمن أضاف شيئاً من النعم إلى غير الله مع اعتقاد أنه ليس من الله فهو مشرك حقيقة، ومع اعتقاد أنه من الله فهو شرك خفي»[٢].

وقال رحمه الله تعالى في بيان النوعين وأمثلتهما بعد أن تكلم عن أنواع العبادة «فمن أشرك مخلوقاً في شيء من الأمور التي هي من خصائص الإلٰهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول لا إلٰه إلا الله ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشأها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه والعمل لأجله كما ورد إطلاق الشرك على الرياء وعلى الحلف بغير الله والتوكل على غير الله والاعتماد عليه، وعلى من سوى بين الله وبين المخلوق في المشيئة مثل أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، وكذا قوله: مالي إلا الله وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة، والرقي المكروهة، وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه، قادح في تمام التوحيد وكماله، ولهذا أطلق الشرك على كثير من الذنوب التي منشأها من هوى النفس أنها كفر وشرك كقتال المسلم، ومن أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، ومن شرب الخمرة، وإن كان ذلك لا يخرجه عن الملة بالكلية، ولهذا قال السلف: كفر دون كفر، وشرك دون شرك»[٣].

---

(١) التخويف من النار (٢٢٣).
(٢) لطائف المعارف (ص٧٠).
(٣) كلمة الإخلاص (ص٢٣ ـ ٢٥).

وخلاصة كلام ابن رجب رحمه الله تعالى أن الشرك ينقسم إلى قسمين:

١ ـ شرك أكبر:

وهو أن يتخذ العبد نداً لله تعالى في العبادة يدعوه أو ينذر له أو يذبح له أو يخافه أو يصرف له أي نوع من أنواع العبادة، وهذا النوع من الشرك يخرج من الملة الإسلامية، وقد توعد الله صاحبه بالخلود في النار وحرّم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(١) لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لمن مات عليه أبداً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾(٢) كما أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من مشرك عملاً قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾(٤).

وقد حذر النبي ﷺ من الشرك وبيّن عاقبته السيئة التي تلحق بالمشرك إذا رجع إلى الله تعالى وهو لم يتب منه.

من ذلك قوله ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»(٥).

ومنها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت

---

(١) سورة المائدة آية (٧٢).
(٢) سورة النساء آية (١١٦).
(٣) سورة الكهف آية (١١٠).
(٤) سورة الفرقان آية (٢٣).
(٥) أخرجه البخاري: كتاب التفسير (٥/ ١٥٣).

رسول الله ﷺ يقول: «من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»[١].

ومنها حديث جابر رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»[٢].

ومنها حديثه الآخر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار»[٣].

فهذه النصوص من الكتاب والسنة تبيّن أن الشرك أكبر الكبائر وأعظم المعاصي، وأظلم الظلم، وأعظم المحرمات وأنه لا يغفر لصاحبه إلا إذا تاب في وقت التوبة وإلا فهو إن مات مصراً عليه صار من أهل النار.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات كان أبغض الأشياء إلى الله وأكرهها له، وأشد مقتاً لديه، ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه وتعالى، ولملائكته ورسله وللمؤمنين وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم... وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز (٢/ ٦٩) ومسلم: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار (١/ ٩٤).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار (١/ ٩٤).

وتنقص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين»[١].

٢ ـ الشرك الأصغر:

وهو كل وسيلة يتوصل بها إلى الشرك ما لم يبلغ درجة العبادة، وهو غير مخرج من الملة إلا إذا بلغ درجة الشرك الأكبر، وهو من أكبر الكبائر، وصاحبه لا يخلد في النار بل هو تحت مشيئة الله تعالى كسائر الذنوب والمعاصي التي دون الشرك الأكبر إن شاء عذبه وإن شاء غفر له لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢] وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق[٣] أمثلة لهذا النوع من الشرك وهي:

١ ـ الحلف بغير الله كأن يحلف بالنبي أو الكعبة أو الأمانة أو الحياة أو بولي من الأولياء أو بالشرف أو بغير ذلك من المخلوقات، فكل ذلك من الشرك الذي يدخل في قوله ﷺ: «من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك»[٤] وذلك لأن الحلف تعظيم، والتعظيم لا يكون إلا لمن يستحقه وهو الله سبحانه وتعالى.

٢ ـ قول: «ما شاء الله وشاء فلان»، وما شابهها من العبارات التي

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٦٠).

(٢) سورة النساء آية (٤٨، ١١٦).

(٣) (ص٣٧٧).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٢٥) وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالأباء (٣/ ٥٧٠) والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (٤/ ١١٠) وقال: حديث حسن. والحاكم (١/ ٥٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

تكون وسيلة إلى الشرك كقول: «مالي إلا الله وأنت» وقول «هذا من الله ومنك» وغيره، والواجب أن يقول «ما شاء الله ثم شاء فلان» أو «مالي إلا الله ثم أنت» «وهذا من الله ثم منك» وهكذا لأن الواو تقتضي التشريك والتسوية، وثم تفيد الترتيب والتعقيب، وكل هذه الألفاظ داخلة تحت نهيه ﷺ عن ذلك، كما جاء عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان»(١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت، قال: أجعلتني لله عدلاً، لا بل ما شاء الله وحده»(٢).

وعن قُتَيْلَة بنت صيفي الأنصارية رضي الله عنها: أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: «إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت»(٣).

وجاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾(٤) قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول: «والله وحياتك يا فلانة وحياتي» ويقول: «لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص ولولا

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٤) وأبو داود: كتاب الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي (٥/ ٢٥٩)، والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٥٤) حديث رقم (١٣٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣١).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧١) والنسائي: كتاب الأيمان والنذور (٧/ ٦).

(٤) سورة البقرة آية (٢٢).

البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً، هذا كله به شرك»[١].

فقد بيّن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الألفاظ ونحوها من الألفاظ الشركية الخفية التي يجب على كل مسلم أن يبتعد عنها كما دلّت على ذلك الأحاديث السابقة.

٣ ـ الرياء:

وهو أن يعمل الإنسان عملاً يرائي به الناس فيحسنه ويزيد في تحسينه من أجل أن يراه الناس فيحمدونه عليه ويثنون عليه بالصلاح، وهو من أخطر الذنوب، لأنه من الأعمال القلبية التي لا يطلع عليها إلا الله عزّ وجلّ، فمن صلى يرائي أو زين صلاته رياء أو صام أو حج يرائي أو تصدق يرائي أو جاهد في سبيل الله يرائي، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر يرائي أو قال أي قول أو عمل أي عمل يرائي فيه فقد أشرك الشرك الأصغر.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: «أول من تسعر به النار من الموحدين العباد المراءون بأعمالهم، أولهم العالم والمجاهد والمتصدق للرياء لأن يسير الرياء شرك»[٢].

وقد حذر النبي ﷺ منه وسماه شركاً أصغر، وخاف على الصحابة رضي الله عنهم منه وهم أبر الأمة أعمالاً وأقواها إيماناً، وأحسنها أخلاقاً، وأصدقها أقوالاً، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٨١) وقال صاحب تيسير العزيز الحميد (ص٥٢٣) سنده جيد.
(٢) كلمة الإخلاص (ص٣٩).

«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، إن الله يقول يوم يجازي العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء أو خيراً»(١).

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: «كنا على عهد رسول الله ﷺ نعد الشرك الأصغر الرياء»(٢).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمَّع سَمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»(٣).

وعن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك»(٤).

كلامه في حكم عمل المرائي:

فصل ابن رجب رحمه الله تعالى القول في حكم عمل المرائي وما يترتب على ذلك من قبول للعمل أورده، وقسم ذلك إلى أقسام هي:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) والطبراني في الكبير (٤/ ٢٩٩) والبغوي في شرح السنة (٤١٣٥) قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٩) رواه أحمد بإسناد جيد، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٤/ ٢١٧) والطبراني في الكبير (٧/ ٣٤٦) والحاكم (٤/ ٣٢٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٢) رواه الطبراني في الأوسط والبزار، ورجالهما رجال الصحيح غير يعلى بن شداد وهو ثقة.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩).

(٤) أخرجهما أحمد (٤/ ١٢٦) والطبراني في الكبير (٧/ ٣٣٧) والحاكم (٤/ ٣٢٩) وصححه.

أولاً: إذا كان العمل لله، وشاركه الرياء من أصله فإن هذا العمل باطل ومردود على صاحبه، ودلّت على بطلانه الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة التي تبيّن وجوب إخلاص العمل لله تبارك وتعالى وترك الرياء، يقول ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان هذا: وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضاً وحبوطه، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)...»[1].

وخرّج الإمام أحمد عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك ومن تصدق يرائي فقد أشرك، فإن الله عزّ وجلّ يقول: (أنا خير قسيم لمن أشرك بي شيئاً، فإن جدة عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني).

وخرّج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد بن أبي فضالة ـ وكان من الصحابة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله عزّ وجلّ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[2].

وخرّج النسائي بإسناد جيد عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً غزاً يلتمس الأجر

---

(١) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٦) والترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة الكهف (٥/ ٣١٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٢/ ١٤٠٦) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٠٧) والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع (١/ ١٩٠).

والذكر؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العملِ إلا ما كان له خالصاً، وابتغى به وجهه»[(١)].

وخرّج الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رجل يا رسول الله: إني أقف الموقف أريد به وجه الله، وأريد أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ . . .﴾[(٢)(٣)].

وممن يروى عنه هذا المعنى ـ أن العمل إذا خالطه شيء من الرياء كان باطلاً ـ طائفة من السلف، منهم: «عبادة بن الصامت» و «أبو الدرداء» و «الحسن» و «سعيد بن المسيب»[(٤)] وغيرهم... ولا نعرف عن السلف في هذا خلافاً... إلى أن قال: «فإن خالط نية الجهاد مثل نية غير الرياء، مثل أخذه أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهاده، ولم يبطل بالكلية وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجّلوا ثلثي أجرهم فإن لم يغنموا شيئاً تم لهم أجرهم»[(٥)].

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٦/ ٢٥) وقال الحافظ العراقي: إسناده حسن، وتخريج الإحياء (٤/ ٣٧٤).

(٢) سورة الكهف آية (١١٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ١١١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، أحد العلماء الأثبات والفقهاء الكبار، اتفق العلماء على أن مرسلاته أصح المراسيل، قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، توفي رحمه الله تعالى سنة ٩٤هـ. طبقات ابن سعد (٥/ ١١٩) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٧) وتهذيب التهذيب (٤/ ٨٤).

(٥) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم (٣/ ١٥١٥).

وقد ذكرت فيما مضى أحاديث[١] تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له، وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا...[٢].

ثانياً: إذا كان العمل لله عزّ وجلّ وشاركه الرياء في أثنائه هل يبطل العمل أم لا؟ يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: «وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأت عليه نية الرياء فلا يضره، فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضره بغير خلاف، فإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري وأرجو أن عمله لا يبطل بذلك وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره، ويستدل لهذا القول بما خرّجه أبو داود في مراسيله عن عطاء الخراساني[٣] أن رجلًا قال: يا رسول الله إن بني سلمة كلهم يقاتل، فمنهم من يقاتل للدنيا، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله، فأيهم الشهيد؟ قال: «كلهم إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا»[٤].

وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إما هو في عمل يرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق

---

(١) كحديث أبي أمامة الذي سبق (ص٣٩٩).
(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٤ ـ ٣٧).
(٣) عطاء بن أبي مسلم الخراساني في المحدث الواعظ، أرسل عن عدد من الصحابة، وقد وثقه ابن معين وغيره، قال الدارقطني: هو في نفسه ثقة لكن لم يلق ابن عباس، يعني أنه يدلس، توفي سنة ١٣٥هـ.
الجرح والتعديل (٦/ ٣٣٤) وسير أعلام النبلاء (٦/ ١٤٠) وتهذيب التهذيب (٧/ ٢١٢).
(٤) أخرجه أبو داود في المراسيل (ص١٦٣).

المال ونشر العلم فإنه ينقطع بنية الرياء لطارئه عليه، ويحتاج إلى تجديد نية(١).

وهذا كله في الحقيقة يدل على خطر الشرك كبيره وصغيره، وأنه بقدر ما تكون نسبته في العمل يكون الإحباط فيه أشمل وأعم، وهذا مما يوجب على المسلم الحذر من الشرك والابتعاد عنه، وعدم الإستهانة به، وقد حذر النبي ﷺ أمته منه، وخاف عليهم منه أشد من خوفه عليهم من المسيح الدجال الذي هو شر غائب ينتظر فمع خطورة المسيح الدجال، فالرياء أشد خطراً وأعظم منه أثراً على المسلمين لما جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»(٢).

فهذا يدل على حرصه ﷺ وشفقته على أمته ونصحه لهم وتحذيره مما يخاف عليهم منه يقول صاحب فتح المجيد تعليقاً على هذا الحديث: «هذا من شفقته ﷺ بأمته ورحمته ورأفته بهم، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به، ولا شر إلا بيّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه... فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب؟ خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، وما عرفوا معنى الإلهية التي نفتها كلمة

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨، ٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠) وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٢/ ١٤٠٦) والحاكم (٤/ ٣٢٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الإخلاص عن كل ما سوى الله»[١].

والرياء الذي يعتبر شركاً أصغر إنما هو يسير الرياء وليس كثيره لأن الكثير منه قد يصل بصاحبه إلى الشرك الأكبر وذلك بحسب قصده ونيته، وهذا لا يصدر إلا من المنافقين الذين توعدهم الله عزّ وجلّ بالدرك الأسفل من النار كما أنه يصدر عن من لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه، يقول ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان ذلك: فتارة يكون ـ أي العمل ـ رياء محضاً، بحيث لا يراد به سوى مرئيات المخلوقين دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ . . .﴾[٣].

وكذلك وصف الله تعالى الكفار بالرياء المحض في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[٤]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة، والتي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة[٥].

بيانه أن حمد الناس للعبد على عمل الخير دون قصد منه لا يعد من الرياء:

بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أن حمد الناس لمن عمل الخير

---

(١) فتح المجيد (ص٨١).

(٢) سورة النساء آية (١٤٢).

(٣) سورة الماعون آية (٤، ٥).

(٤) سورة الأنفال آية (٤٧).

(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٤).

بإخلاص وسروره بذلك لا يعد رياء، لأنه لم يعمل العمل رياء ولا سمعة وإنما عمله لله عزّ وجلّ وهو لا يحب إطلاع الناس عليه، وفرحه وسروره بذلك إنما هو فرح وسرور بطاعة الله تعالى وبفضله عليه. قال ابن رجب رحمه الله تعالى: (فأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، بفضل ورحمة، واستبشر بذلك، لم يضره ذلك، وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير، يحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[١] خرجه مسلم، وخرجه ابن ماجه[٢] وعنده «الرجل يعمل العمل فيحبه الناس عليه...»[٣].

وهنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن كون هذا النوع من الشرك أصغر لا يعني ذلك احتقاره والتقليل من شأنه، فهو وإن كان أصغر بالنسبة للأكبر إلا أنه معدود من أقسام الشرك وهو من الكبائر بالنسبة لسائر الذنوب، بل قد يكون شركاً أكبر بما يصحبه من قصد ونية والواجب على المسلم أن يحذره وأن يبتعد عنه وأن يتوب منه عند الوقوع فيه حفاظاً على توحيده وأعماله، ومنعاً لاستدراج الشيطان له ووقوعه في أخطر شرك نصبه للبشرية على الإطلاق، أعاذنا الله من الشرك كبيره وصغيره جليه وخفيه.



(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة، باب إذا أثنى على الصالح فهو بشرى لا تضر (٤/ ٢٠٣٤).

(٢) سنن ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الثناء الحسن (٢/ ١٤١٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩، ٤٠).

المبحث الثاني
النفاق وكلام ابن رجب عليه

١ ـ تعريف النفاق:

النفاق مشتق من نافقاء اليربوع، لأن اليربوع له جحران: أحدهما يقال له النَافِقاء، والثاني القَاصِعاء.

فالنافقاء موضع يرقه بحيث إذا ضرب رأسه عليه ينشق، وهو يكتمه ويظهر غيره فإذا جاءه من قبل القاصعاء الظاهرة ضرب النافقاء برأسه ثم خرج، فهو يظهر القاصعاء ويخفي النافقاء[1].

وقيل النفاق مأخوذ من النفق وهو السرب في الأرض.

يقول الجوهري: النَّفَق: سرب في الأرض له مَخْلَص إلى مكان، والنَافِقاء: إحدى جُحَرة اليربوع، يكتمها ويظهر غيرها، وهو موضع يرققه، فإذا أتى من قِبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق، أي خرج، والنُفقَة أيضاً مثال الهُمزَة: النَافِقاء. تقول منه نَفَّقَ اليربوع تَنْفيقاً نافق أي أخذ في نافقائه، ومنه اشتقاق المنافق في الدين[2].

وقال ابن الأثير: قد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسماً وفعلاً، وهو اسم إسلامي، لم تعرفه العرب بالمعنى

(١) انظر: لسان العرب (١٠/ ٣٥٩).
(٢) الصحاح (٤/ ١٥٦٠).

المخصوص به وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفاً، يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقاً، وهو مأخوذ من النَافِقاء: أحد جُحَرة اليربوع، إذا طلب من واحد هرب إلى الآخر، وخرج منه. وقيل: هو من النَّفَق: وهو السرب الذي يستتر فيه، لستره كفره[(١)].

وقال الراغب الأصفهاني: النفق: الطريق النافذ والسرب في الأرض النافذ فيه قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] ومنه نافقاء اليربوع، وقد نافق اليربوع ونفق، ومنه النفاق وهو الدخول في الشرع من باب، والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(٣)] أي الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شراً من الكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[(٤)] . . .[(٥)].

فكلمة النفاق تدل على إظهار الإنسان خلاف ما يبطن في شتى الأمور وهو بذلك يتضمن الدخول في الإسلام ظاهراً وهو لا يؤمن به باطناً كما يتضمن غير ذلك مما يكون فيه الظاهر مخالفاً للباطن ولذلك يقول الإمام البغوي رحمه الله تعالى: «سمي المنافق منافقاً لأنه يستر كفره، ويغيبه، فشُبِه بالذي يدخل النفق، وهو السرب فيستتر به. . .»[(٦)].

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٥/ ٩٨).
(٢) سورة الأنعام آية (٣٥).
(٣) سورة التوبة آية (٦٧).
(٤) سورة النساء آية (١٤٥).
(٥) المفردات في غريب القرآن (ص٥٠٢).
(٦) شرح السنة (١/ ٧١، ٧٢).

والخلاصة أن النفاق في اللغة هو إظهار شيء وإبطان خلافه وفي الشرع: هو إبطان الكفر وإظهار الإيمان.

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن النفاق وبيّن أقسامه فقال رحمه الله تعالى في تعريفه وبيان أقسامه: النفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه، وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر: وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر: وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك، وأصول هذا النفاق ترجع إلى الخصال المذكورة في الأحاديث وهي خمس:

أحدها: أن يحدث بحديث لم يصدق به، وهو كاذب له.

والثاني: إذا واعد أخلف، وهو على نوعين:

أحدهما: أن يعد، ومن نيته أن لا يوفي بوعده، وهذا شر الخلق، ولو قال: أفعل كذا إن شاء الله تعالى، ومن نيته أن لا يفعل، كان كاذباً وخلفاً.

الثاني: أن يعد، ومن نيته أن يفي، ثم يبدو له فيخلف من غير عذر له في الخلف.

والثالث: إذا خاصم فجر، ويعني بالفجور أن يخرج عن الحق عمداً حتى يصير الحق باطلاً، والباطل حقاً، وهذا مما يدعو إليه الكذب كما

قال النبي ﷺ: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»(١).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(٢).

وقال ﷺ: «إنكم لتختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي على نحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»(٣).

وقال ﷺ: «إن من البيان لسحراً»(٤).

فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة ـ سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا ـ على أن ينتصر للباطل، ويخيل للسامع أنه حق، ويوهن الحق ويخرجه في صورة الباطل، كان ذلك من أقبح المحرمات، وأخبث خصال النفاق، وفي سنن أبي داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من خاصم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع»(٥).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله**﴾ (٧/ ٩٥) ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله (٤/ ٢٠١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿**وهو ألد الخصام**﴾ (٣/ ١٠١) ومسلم: كتاب العلم، باب في الألد الخصم (٤/ ٢٠٥٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم (٨/ ١١٢) ومسلم؛ كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (٣/ ١٣٣٧).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان لسحراً (٧/ ٣٠).

(٥) أخرجه أحمد وقال أحمد شاكر: إسناد صحيح. المسند تحقيق أحمد شاكر (٧/ ٢٠٥) وأبو داود: كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها (٤/ ٢٣) والحاكم (٢/ ٢٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٩٨) رواه أبو داود والطبراني بإسناد جيد.

الرابع: إذا عاهد غدر، ولم يف بالعهد، وقد أمر الله بالوفاء بالعهد فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[1].

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)﴾[2].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾[3].

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به»[4]. والغدر حرام في كل عهد بين المسلم وغيره ولو كان المعاهد كافراً، ولهذا في حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «من قتل نفساً معاهدة بغير حقها، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً» خرّجه البخاري[5].

وقد أمر الله تعالى في كتابه بالوفاء بعهود المشركين، إذا أقاموا على عهودهم، ولم ينقضوا منها شيئاً.

وأما عهود المسلمين فيما بينهم، فالوفاء بها أشد، ونقضها أعظم إثماً، ويحرم الغدر في جميع عقود المسلمين فيما بينهم إذا تراضوا عليها، من المبايعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب

---

(١) سورة الإسراء آية (٣٤).

(٢) سورة النحل آية (٩١).

(٣) سورة آل عمران آية (٧٧).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت (٨/ ٦٢) ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (٣/ ١٣٦١).

(٥) صحيح البخاري: كتاب الديات، باب من قتل ذمياً بغير جرم (٨/ ٤٧).

الوفاء بها، وكذلك ما يجب الوفاء به لله عز وجل، مما يعاهد العبد ربه عليه من نذر التبرر ونحوه.

الخامس: الخيانة في الأمانة، فإذا أؤتمن الرجل أمانة، فالواجب عليه أن يردها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾(١).

وقال النبي ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك»(٢).

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾(٣).

فالخيانة في الأمانة من خصال النفاق.

وخاصل الأمر أن النفاق الأصغر كله يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية كما قاله الحسن...

والنفاق الأصغر وسيلة إلى النفاق الأكبر، كما أن المعاصي بريد الكفر، وكما يخشى على من أصر على المعصية أن يسلب الإيمان عند الموت كذلك يخشى على من أصر على خصال النفاق أن يسلب الإيمان، فيصير منافقاً خالصاً...

ومن أعظم خصال النفاق العملي أن يعمل الإنسان عملاً، ويظهر أنه قصد به الخير، وإنما عمله ليتوصل به إلى غرض له سيء فيتم له

---

(١) سورة النساء آية (٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٤) وأبو داود: كتاب البيوع والإجارات، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣/ ٨٠٥) والترمذي: كتاب البيوع (٣/ ٥٦٤) وقال: هذا حديث حسن غريب. والدارمي: كتاب البيوع، باب في أداء الأمانة واجتناب الخيانة (٢/ ١٧٨) والحاكم (٢/ ٤٦) وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي.

(٣) سورة الأنفال آية (٢٧).

ذلك، ويتوصل بهذه الخديعة إلى غرضه، ويفرح بمكره وخداعه، وحمد الناس له على ما أظهره، ويتوصل به إلى غرضه السيء الذي أبطنه، وهذا قد حكاه الله في القرآن عن المنافقين واليهود، فحكى عن المنافقين أنهم ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[١].

وأنزل في اليهود ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾[٢].

وهذه الآية نزلت في اليهود، سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، وما سئلوا عنه قال ذلك ابن عباس، وحديثه مخرج في الصحيحين[٣].

وفيهما أيضاً عن أبي سعيد: أنها نزلت في رجال من المنافقين كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلافه، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو، اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا[٤].

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا،

---

(١) سورة التوبة آية (١٠٧).

(٢) سورة آل عمران آية (١٨٨).

(٣) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب **﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا﴾** (٥/ ١٧٤) صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ١٣٤٣).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب **﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا﴾** (٥/ ١٧٤) ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ٢١٤٢).

والمكر والخديعة في النار»[(١)][(٢)].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وقد ورد في القرآن تشبيه المنافقين بالخشب المسندة في نظرهم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[(٣)] فوصفهم بحسن الأجسام وتمامها، وحسن المقام والفصاحة حتى أنهم يعجب منظرهم لمن يراهم، ويسمع قولهم من سمعه سماع إصغاء وإعجاب به، ومع هذا فبواطنهم خراب ومعائبهم مهلكة فلهذا مثلهم بالخشب المسندة التي لا دفع لها ولا إحساس وقلوبهم مع هذا ضعيفة في غاية الضعف ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[(٤)] لأنهم لما اضمروا خلاف ما اظهروا خافوا من الاطلاع عليهم، فكلما سمعوا صيحة ظنوا أنها عليهم وهكذا كل مريب يظهر خلاف ما يضمر يخاف من أدنى شيء ويتحسر عليه[(٥)].

فالنفاق داء عضال، ومرض خطير، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من سلف هذه الأمة يخافون منه خوفاً شديداً لعلمهم بدقة وجله، وما يترتب عليه من الآثار السيئة وقد أشار ابن رجب

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٦٩) وفي الصغير (١/ ٢٦١) وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٧٣) والقضاعي في مسنده (١/ ١٧٥) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨٩) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٥٧٢) رواه الطبراني في الكبير والصغير بإسناد جيد، وابن حبان في صحيحه. وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٣٥٦) وأخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن مسعود، والحاكم في المستدرك من حديث أنس، وإسحاق بن راهويه في مسنده من حديث أبي هريرة وفي إسناد كل منهما مقال: لكن مجموعها يدل على أن للمتنِ أصلاً.

(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٣٠ ـ ٣٤٢).

(٣) سورة المنافقون آية (٤).

(٤) سورة المنافقون آية (٤).

(٥) غاية النفع (ص٢٤).

رحمه الله تعالى إلى ذلك وبين أن السلف رحمهم الله تعالى كانوا يخافون من النفاق أشد الخوف.

فقال: «ومن هنا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد جزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر، لأن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة وقد كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقيل له: يا نبي الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا، فقال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها كيف شاء»[(١)]. خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أنس...[(٢)].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «ولما تقرر عند الصحابة رضي الله عنهم أن النفاق هو اختلاف السر والعلانية، خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغير عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر، برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك منه نفاقاً كما في صحيح مسلم عن حنظلة الأسدي أنه مر به أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي فقال: مالك؟ قال: نافق حنظلة يا أبا بكر نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنهما رأي العين، فإذا رجعنا عافسنا[(٣)] الأزواج والصبية فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله أنا لكذلك،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢) والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٤/ ٤٤٨) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣٩).

(٣) عافسنا: المعافسة هي الملاعبة والممارسة، والمعنى اشتغلنا بمعايشنا وأزواجنا وأولادنا.

النهاية لابن الأثير (٣/ ٢٦٣).

فانطلق إلى رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله، وذكر له مثل ما قال لأبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «لو تدومون على الحال التي تكونون بها عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»[١][٢]...

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى أثاراً كثيرة عن السلف من الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم تدل على خوفهم من النفاق فقال: «ومن هنا كان الصحابة يخافون النفاق على أنفسهم، وكان عمر يسأل حذيفة عن نفسه»[٣].

وسئل أبو رجاء العطاردي[٤]: هل أدركت من أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق؟ فقال: نعم، إني أدركت منهم بحمد الله صدراً حسناً، نعم شديداً، نعم شديداً»[٥].

وقال البخاري في صحيحه: وقال ابن أبي مليكة[٦]: «أدركت

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة (٤/ ٢١٠٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٤٣).

(٣) أخرجه وكيع في الزهد (٣/ ٧٩١) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (١/ ٢٧/ ب).

(٤) هو الإمام الكبير عمران بن ملحان التميمي البصري، من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد فتح مكة، ولم ير النبي ﷺ، وكان خيراً تلاءً لكتاب الله، وكان ثقة نبيلاً عالماً عاملاً، توفي سنة ١٠٥هـ.
أسد الغابة (٤/ ١٣٦) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٣) وتهذيب التهذيب (٨/ ١٤٠).

(٥) أخرجه الفريابي في صفة المنافق (ص٧١) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٣٤) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠٧).

(٦) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة زهير بن عبد الله القرشي التيمي أبو محمد الإمام الحافظ الحجة، كان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان، وثقه أبو زرعة وأبو حاتم وغيرهما، توفي سنة ١١٧هـ رحمه الله تعالى.
الجرح والتعديل (٥/ ٩٩) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٨٨) وتهذيب التهذيب (٥/ ٣٠٦).

ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه[١].

ويذكر عن الحسن أنه قال: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق»[٢].

وروي عن الحسن: «أنه حلف ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا وهو من النفاق غير آمن، وما مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن»[٣].

وكان يقول: «من لم يخف النفاق فهو منافق»[٤].

وسمع رجل أبا الدرداء يتعوذ من النفاق في صلاته، فلما سلم قال له: ما شأنك وشأن النفاق؟ فقال: «اللهم اغفر لي ثلاثاً، لا تأمن البلاء، والله إن الرجل ليفتن في ساعة واحدة فينقلب عن دينه»[٥].

والآثار عن السلف في هذا كثيرة جداً[٦].

وهذا كله يدل على عظم النفاق، وشدة خطره، فإذا كان الصحابة رضي الله عنهم الذين اختارهم الله لصحبة رسوله ﷺ والذين رباهم

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله (١/ ١٧) وأخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٣٤) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠٧).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله (١/ ١٧).

(٣) أخرجه الفريابي في صفة المنافق (٧٣) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٣٤).

(٤) أخرجه الفريابي في صفة المنافق (٧٣).

(٥) أخرجه الفريابي في صفة المنافق (٦٩) والذهبي في السير (٦/ ٣٨٢) وقال: إسناده صحيح.

(٦) جامع العلوم والحكم (٣/ ٣٣٩، ٣٤٠).

الرسول ﷺ كانوا يخافون من النفاق، فما الحال في زمننا هذا الذي قل فيه الإخلاص، والإيمان بالله عز وجل، مما لا شك فيه أن خلقاً كثيراً قد وقعوا في النفاق سواءاً شعروا بذلك أم لم يشعروا، نسأل الله السلامة منه ومن كل ما يحبط الأعمال ويفسدها، ونسأله أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه إنه سميع مجيب.

  

المبحث الثالث
البدع وكلام ابن رجب عليها

المطلب الأول
معنى البدعة في اللغة والشرع

البدعة نقيض السنة مشتقة من بَدَع الشيء يبدعه بَدْعاً إذا أوجده على غير مثال سابق، وابتدعه وأبدعه بمعنى واحد، واسم الفاعل من أبدع المبدع، ومن ابتدع المبتدع، ومن أسماء الله تعالى الحسنى البديع فهو سبحانه بديع السموات والأرض لأنه أبدعها وأحدثها على غير مثال سابق كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] والبديع أيضاً الذي ليس قبله شيء، والله سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله الشيء، والبدع: ما كان أولاً ولم يسبقه شيء كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[2] أي ما كنت أول رسول أرسل إلى أهل الأرض بل أرسل قبلي رسل كثيرون.

ويقال لمن أتى بأمر لم يسبقه إليه أحد أتى ببدعة ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[3]...»[4].

(١) سورة البقرة آية (١١٧). (٢) سورة الأحقاف آية (٩).
(٣) سورة الحديد آية (٢٧).
(٤) انظر: الصحاح للجوهري (٣/ ١١٨٣) ولسان العرب (٨/ ٧) والقاموس المحيط (٣/ ٤) والمفردات للراغب (ص٣٨).

فالبدعة اسم هيئة من الابتداع وهي كل ما أحدث واخترع على غير مثال سابق، وهي بهذا المعنى تقال في المدح والذم لأن المراد أنه أتى بشيء مخترع على غير مثال سبق سواءاً كان خيراً أو شراً ولكن لفظ البدعة غلب على الحدث المكروه في الدين، قال ابن الأثير: «وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفاً في الذم»[١].

وأما البدعة في الشرع فقد عرفها ابن رجب رحمه الله تعالى فقال: «المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعاً، وإن كان بدعة لغة»[٢].

وقال رحمه الله تعالى: «فقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»[٣] من جوامع الكلم، لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»[٤] فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه، فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة[٥].

فالبدعة إذاً هي كل ما لم يشرعه الله تعالى في كتابه أو على لسان رسوله محمد ﷺ ولم يكن على عهد الصحابة ديناً يعبد الله به أو يتقرب به إليه سواء كان ذلك في الاعتقاد أو الأقوال أو الأعمال.

وقد جاءت الأدلة الكثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ التي تدل على وجوب الاتباع والنهي عن البدع ومحدثات الأمور.

---

(١) النهاية لابن الأثير (١/ ١٠٧).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٩٠).
(٣) انظر تخريجه في الورقة التي تليها (ص٤١٩).
(٤) تقدم تخريجه (ص٣٨٢).
(٥) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٩١).

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[3].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[4].

وأما الأحاديث فكثيرة جداً:

منها حديث العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[5].

---

(١) سورة آل عمران آية (٣١).

(٢) سورة النور آية (٦٣).

(٣) سورة الحشر آية (٧).

(٤) سورة الأنعام آية (١٥٣).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦) وأبو داود: كتاب السنة، باب لزوم السنة (٥/ ١٥) والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ في السنة واجتناب البدع (٥/ ٤٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه: المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/ ١٥) والحاكم (١/ ٩٧) وقال: هذا حديث صحيح لا علة له ووافقه الذهبي، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٥) وقال: هذا حديث حسن، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني (٢/ ٦٤٧).

ومنها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش، يقول: صبّحكم ومسّاكم، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»(١).

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٢).

ومنها حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي، فليس مني»(٣).

فهذه النصوص من الكتاب والسنة تدل على وجوب الاتباع والابتعاد عن البدع ومحدثات الأمور.

كما أن السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٦/ ١١٦) ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح (٢/ ١٠١٨).

وتابعيهم كانوا يحثون على التمسك بالسنن التي جاءت عن الله على لسان رسوله ﷺ، ويحذرون من البدع وينفرون منها، والآثار عنهم في ذلك كثيرة جداً.

فمن أقوال الصحابة رضي الله عنهم: قول عمر رضي الله عنه: «ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بين فسقه ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أزلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله»(١).

وقال حذيفة رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، اتبعوا آثارنا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، وإن أخطأتم فقد ضللتم ضلالاً بعيداً»(٢).

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة»(٣).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وكل بدعة ضلالة»(٤).

وقال عثمان بن حاضر(٥) الأزدي: دخلت على ابن عباس فقلت:

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص٢٢٥).

(٢) أخرجه ابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى (١/ ٣٣٦).

(٣) أخرجه المروزي في السنة (ص٢٤) والبيهقي في المدخل (ص١٨٠) واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (١/ ٩٢) وابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى (١/ ٣٣٩).

(٤) أخرجه وكيع في الزهد (٢/ ٥٩٠) وابن خيثمة في كتاب العلم (ص١٢٢) والطبراني في الكبير (٩/ ١٦٨) والدارمي في السنن (١/ ٦١) والبيهقي في المدخل (ص١٨٦) وابن وضاح في البدع (ص١٠) وابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى (١/ ٣٢٨).

(٥) عثمان بن حاضر الحميري ويقال الأزدي أبو حاضر القاص، روى عن ابن عباس وغيره، قال أبو زرعة: يماني، حميري، ثقة.
الجرح والتعديل (٦/ ١٤٧) وتهذيب التهذيب (٧/ ١٠٩).

أوصني، فقال: نعم عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع»[١].

ومن الآثار الواردة عن التابعين ومن بعدهم في التحذير من البدع ولزوم السنة:

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢] فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً»[٣].

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة»[٤].

وقال حسان بن عطية[٥] رحمه الله تعالى: «ما ابتدع قوم بدعة في

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن (١/ ٥٠) وابن وضاح في البدع (ص٢٥) وابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى (١/ ٣١٩).

(٢) سورة المائدة آية (٣).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

(٤) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦) وذكرها أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ٢٤١).

(٥) حسان بن عطية المحاربي أبو بكر الدمشقي، الإمام الحجة، وثقه أحمد ويحيى بن معين وغيرهم.
قال الأوزاعي: ما أدركت أشد اجتهاداً ولا أعمل منه، قال الذهبي: بقي حسان إلى حدود سنة ثلاثين ومئة.
تهذيب الكمال للمزي (٦/ ٣٤) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٤٦) وتهذيب التهذيب (٢/ ٢٥١).

دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة»[١].

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «من جالس صاحب بدعة لم يسلم من أحد ثلاث إما أن يكون فتنة لغيره، وإما أن يقع في قلبه شيء فيزل به فيدخله النار، وإما أن يقول والله ما أبالي ما تكلموا وأني واثق بنفسي، فمن آمن الله على دينه طرفة عين سلبه إياه»[٢].

ويقول الأوزاعي رحمه الله تعالى: «عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها لك بالقول»[٣].

فهذه الآثار الواردة عن السلف الصالح رحمهم الله تعالى كلها تدعو إلى التمسك بالكتاب والسنة وتحذر من البدع والمحدثات صغيرها وكبيرها يقول الإمام أبو محمد البربهاري[٤] رحمه الله تعالى: «واحذر صغار المحدثات، فإن صغار البدع تعود حتى تصير كباراً، وكذلك كل بدعة أحدثت في الأمة كان أولها صغيراً يشبه الحق، فاغتر بذلك من دخل

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن (١/ ٤٤) وابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى (١/ ٣٥١) وابن وضاح في البدع (ص٣٧).

(٢) أخرجه ابن وضاح في البدع (ص٤٧).

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة (ص٥٨) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص٧) والبيهقي في المدخل (ص١٩٩).

(٤) الإمام الحافظ أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، كان قوالاً بالحق داعية إلى الأثر والسنة، لا يخاف في الله لومة لائم، توفي سنة ٣٢٩هـ رحمه الله تعالى.

طبقات الحنابلة (٢/ ١٨) والبداية والنهاية (١١/ ٢٢٥) وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٩٠).

فيها، ثم لم يستطع المخرج منها فعظمت، وصارت ديناً يدان به فخالف الصراط المستقيم.

فانظر رحمك الله كل من سمعت كلامه من أهل زمانك خاصة، فلا تعجلن، ولا تدخلن في شيء منه حتى تسأل وتنظر هل تكلم فيه أحد من أصحاب النبي ﷺ أو أحد من العلماء؟ فإن أصبت فيه أثراً عنهم فتمسك به ولا تجاوزه لشيء، ولا تختر عليه شيئاً فتسقط في النار».

واعلم رحمك الله ـ أنه ليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تتبع فيها الأهواء، وهو التصديق بآثار رسول الله ﷺ بلا كيف، ولا شرح، ولا يقال: لم؟ ولا كيف، فالكلام والجدال والمراء محدث يقدح الشك في القلب، وإن أصاب صاحبه الحق والسنة»[1].



(١) شرح السنة للبربهاري (ص٢٣ ـ ٢٤).

المطلب الثاني
أنواع البدع

للبدع أنواع مختلفة باعتبارات مختلفة فهي ليست على درجة واحدة ولكن هذه الأنواع كلها لا تخرج عن هذين النوعين:

النوع الأول: بدعة قولية اعتقادية كمقالات الجهمية والمعتزلة والرافضة وسائر الفرق الضالة واعتقاداتهم.

النوع الثاني: بدعة في العبادات كالتعبد لله سبحانه وتعالى بعبادة لم يشرعها وهذا النوع ينقسم إلى قسمين:

١ ـ بدعة في أصل العبادة وذلك بأن يحدث عبادة ليس لها أصل مشروع كأن يحدث صلاة غير مشروعة كصلاة الرغائب، أو صياماً كصيام رجب وحده أو أعياداً كأعياد الموالد وغيرها، وقد بين ابن رجب رحمه الله تعالى هذا النوع فقال: «فأما العبادات فما كان منها خارجاً عن حكم الله ورسوله بالكلية، فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[١] فمن تقرّب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وهذا كمن تقرب إلى الله تعالى بسماع الملاهي أو الرقص

(١) سورة الشورى آية (٢١).

أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسوله بالتقرب بها بالكلية، وليس ما كان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقاً[(١)].

٢ ـ بدعة الزيادة في العبادة المشروعة كزيادة الشيعة «أشهد أن علياً ولي الله» في الآذان أو النقص من المشروع كذكر الله بالاسم المفرد كما يفعله الصوفية أو الإتيان بصفة معينة للعبادة غير مشروعة كالاتيان بالأذكار المشروعة بأصوات جماعية مطربة أو تخصيص وقت معين لعبادة مشروعة لم يخصصه الشرع كمن خصّ يوم النصف من شعبان وليلته بصيام وقيام، وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذا النوع بقوله: «وأما من عمل عملاً أصله مشروع وقربة ثم أدخل فيه ما ليس بمشروع أو أخل فيه بمشروع، فهذا أيضاً مخالف للشريعة بقدر إخلاله بما أخل به أو ادخاله ما أدخل فيه، وهل يكون عمله من أصله مردوداً عليه أم لا، فهذا لا يطلق القول فيه برد ولا قبول، بل ينظر فيه، فإن كان ما أخل به من أجزاء العمل أو شروطه موجباً لبطلانه في الشريعة كمن أخل بالطهارة للصلاة مع القدرة عليها، أو كمن أخل بالركوع أو بالسجود مع الطمأنينة فيهما، فهذا عمل مردود عليه، وعليه إعادته إن كان فرضاً. وإن كان ما أخل به لا يوجب بطلان العمل، كمن أخل بالجماعة للصلاة المكتوبة عند من يوجبها ولا يجعلها شرطاً، فهذا لا يقال إن عمله مردود من أصله بل هو ناقص، وإن كان قد زاد في العمل المشروع ما ليس بمشروع، فزيادته مردودة عليه بمعنى أنها لا تكون قربة ولا يثاب عليها، ولكن تارة يبطل بها العمل من أصله، فيكون مردوداً كمن زاد ركعة عمداً في صلاته مثلاً، وتارة لا يبطله ولا يرده من أصله كمن توضأ أربعاً

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤٢، ١٤٣).

أربعاً، أو صام الليل مع النهار وواصل في صيامه، وقد يبدل بعض ما يؤمر به في العبادة بما هو منهي عنه، كمن ستر عورته في الصلاة بثوب محرم، أو توضأ للصلاة بماء مغصوب أو صلى في بقعة غصب، فهذا قد اختلف العلماء فيه، هل عمله مردود من أصله أم أنه غير مردود وتبرأ به الذمة من عهذة الواجب؟ وأكثر الفقهاء على أنه ليس بمردود من أصله[١].



(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤٤، ١٤٥).

المطلب الثالث

الرد على محسني البدع وكلام ابن رجب في ذلك

هناك فريق من الناس يقسمون البدع إلى بدع حسنة وسيئة وإلى بدع مذمومة ومحمودة، وهذا تقسيم لا أصل له، وإنما هو من تلبيس إبليس جاءوا به من عند أنفسهم ليسوغوا الأحداث في الدين، والذي دعاهم إلى هذا التقسيم هو تمسكهم ببعض النصوص التي ليس لهم في الحقيقة دلالة فيها لأن تقسيم البدع إلى هذا التقسيم لا دليل عليه من الشرع بل إن فيه مخالفة صريحة لأقوال الرسول ﷺ ومنها قوله ﷺ: «... وكل بدعة ضلالة»[(١)] وهم يقولون: لا، بل البدعة منها ما هو بدعة حسنة ومنها ما هو بدعة سيئة، وقد رد ابن رجب رحمه الله تعالى على هذا التقسيم وبين أن البدع جميعها مذمومة سواء في الأقوال أو الأعمال أو الاعتقادات فقال رحمه الله تعالى: «فقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة» من جوامع الكلم لا يخرج منه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»[(٢)] فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة»[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤١٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٩١).

وهؤلاء الذين قسموا البدع إلى حسنة وسيئة احتجوا بنصوص لا دليل لهم فيها وإنما هي شبهات تعلقوا بها، واغتر بها من لا علم عنده من المتصوفة والجهال والعوام مما دعاهم إلى أن يتعبدوا الله سبحانه وتعالى بعبادات لم ترد عن الله ولا عن رسوله ﷺ، فإذا نهاهم عالم أو أحد طلبة العلم عن ذلك قالوا: أن ما نفعله بدعة حسنة وليس بدعة سيئة.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى النصوص والأمور التي تعلقوا بها ورد عليهم فيها، وبيّن أنه لا حجة لهم فيها فقال: «وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع، فإنما ذلك من البدع اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد، وخرج ورآهم يصلون كذلك، فقال: «نعمت البدعة هذه»[1] وروي عنه أنه قال: «إن كانت هذه بدعة، فنعمت البدعة»[2].

وروي عن أبي بن كعب قال له: إن هذا لم يكن، فقال عمر: قد علمت، ولكنه حسن. ومراده أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصل في الشريعة يرجع إليه:

فمنها: أن النبي ﷺ كان يحث على قيام رمضان ويرغب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحداناً وهو ﷺ، صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة ثم امتنع من ذلك، معللاً بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به، وهذا قد أمن بعده ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب صلاة التراويح (٢/ ٢٥٢).

(٢) بهذه الرواية أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/ ٤٢) وانظر: صلاة التراويح للألباني (ص٤٢).

ومنها: أنه ﷺ أمر باتباع سنة خلفائه الراشدين وهذا قد صار من سنة خلفائه الراشدين، فإن الناس اجتمعوا عليه في زمن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ومن ذلك آذان الجمعة الأول، زاده عثمان لحاجة الناس إليه وأقره علي، واستمر عمل المسلمين عليه...

ومن ذلك جمع المصحف في كتاب واحد، توقف فيه زيد بن ثابت وقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: كيف تفعلان ما لم يفعله النبي ﷺ؟ ثم علم أنه مصلحة، فوافق على جمعه، وقد كان النبي ﷺ يأمر بكتابة الوحي، ولا فرق بين أن يكتب مفرقاً أو مجموعاً، بل جمعه صار أصلح.

وكذلك جمع عثمان الأمة على مصحف، وإعدامه لما خالفه، خشية تفرق الأمة، وقد استحسنه علي وأكثر الصحابة رضي الله عنهم، وكان ذلك عين المصلحة...

وقد روى الحافظ أبو نعيم[١] بإسناده عن إبراهيم بن الجنيد[٢] قال: سمعت الشافعي يقول: البدعة بدعتان: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة فما

---

(١) أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق المهراني أبو نعيم الأصبهاني الإمام الحافظ الثقة، له مؤلفات كثيرة منها: «ذكر أخبار أصبهان، وصفة الجنة» توفي سنة ٤٣٠هـ.

وفيات الأعيان (١/ ٩١) وتذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٩٢) وشذرات الذهب (٣/ ٢٤٥).

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد، له كتب في الزهد والرقائق، قال الخطيب: ثقة، وقال الذهبي: لم أظفر له بوفاة، وكأنها في حدود الستين ومائتين.

تاريخ بغداد (٦/ ١٢٠) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٨٦).

وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم واحتج بقول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة هي[١]. ومراد الشافعي رحمه الله ما ذكرناه من قبل أن أصل البدعة المذمومة ما ليس لها أصل في الشريعة ترجع إليه، وهي البدعة في إطلاق الشرع. وأما البدعة المحمودة فما وافق السنة: يعني ما كان لها أصل من السنة ترجع إليه وإنما هي بدعة لغة لا شرعاً، وقد روي عن الشافعي كلام آخر يفسر هذا وأنه قال: المحدثات ضربان: ما أحدث مما يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً فهذه البدعة الضلالة، وما أحدث فيه من الخير وكثير من الأمور التي أحدثت لم يكن قد اختلف العلماء في أنها بدعة حسنة حتى ترجع إلى السنة أم لا[٢].

فمنها: كتابة تفسير الحديث والقرآن، كرهه قوم من العلماء ورخص فيه كثير منهم، وكذلك اختلافهم في كتابة الرأي في الحلال والحرام ونحوه، وفي توسعة الكلام في المعاملات وأعمال القلوب التي لم تنقل عن الصحابة والتابعين، وكان الإمام أحمد يكره أكثر ذلك، وفي هذه الأزمان التي بعد العهد فيها بعلوم السلف يتعين ضبط ما نقل عنهم من ذلك كله ليتميز به ما كان من العلم موجوداً في زمانهم، وما أحدث في ذلك بعدهم، فيعلم بذلك السنة من البدعة، وقد صح عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال: «إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأول»[٣] وابن مسعود قال: «هذا في زمن الخلفاء الراشدين»[٤].

فقد أوضح ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق الحجج

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١١٣).
(٢) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٦٩) وفي المدخل (ص٢٠٦).
(٣) أخرجه ابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى (٢/ ٣٣٠).
(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٥).

التي استدل بها من قال أن هناك بدعة حسنة وسيئة، وبين أنه لا حجة لهم فيها.

وبهذا يتبين أن البدع كلها ضلال، وكلها أحداث في دين الله عزّ وجلّ بما لم يشرعه، وتقسيمها إلى حسنة وسيئة تقسيم باطل مردود بنصوص الكتاب والسنة.



المطلب الرابع

نماذج من البدع وكلام ابن رجب عليها

هناك كثير من البدع التي عمت وطمت في أرجاء العالم الإسلامي حتى أصبحت عند الكثير من الناس سنة متبعة في الوقت الذي تركوا فيه تعاليم الإسلام وهجروا سنن المصطفى ﷺ وسأذكر بعضاً منها على سبيل التمثيل لا الحصر، وخصوصاً البدع التي تعرّض لها ابن رجب رحمه الله في كتبه وبيّنها وأوضحها وهي:

١ ـ بدعة تخصيص رجب بعبادات معينة:

خص أهل البدع والأهواء والجهلة من الناس شهر رجب بعبادات لم يشرعها الله تبارك وتعالى، ولم يفعلها رسول الله ﷺ ولا أصحابه من بعده، ولكن هؤلاء خصوا هذا الشهر بصلوات وصيام وغيرهما من العبادات التي لا دليل عليها من الكتاب والسنة، ولا زالت هذه البدع تفعل إلى يومنا هذا.

وقد تناول ابن رجب رحمه الله تعالى هذه البدع، وبيّن أن شهر رجب لم يخص بأي نوع من أنواع العبادات لا صدقة ولا زكاة ولا صلاة ولا صيام ولا غيرها من أنواع العبادة، وقد تكلم رحمه الله تعالى عن كل عبادة بعينها وسأورد كلامه رحمه الله تعالى على كل عبادة خصّ بها شهر رجب دون غيره:

أ ـ الصلاة: قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «فأما الصلاة فلم

يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب[١] في أول ليلة من شهر رجب كذب وباطل لا تصح، وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء وممن ذكر ذلك من أعيان العلماء المتأخرين من الحفاظ أبو إسماعيل الأنصاري، وأبو بكر بن السمعاني[٢] وأبو الفضل بن ناصر[٣] وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهم، وإنما لم يذكرها المتقدمون لأنها أحدثت بعدهم، وأول ما ظهرت بعد الأربعمائة، فلذلك لم يعرفها المتقدمون ولم يتكلموا فيها[٤].

ب ـ الزكاة والصدقة: قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وأما الزكاة فقد اعتاد أهل هذه البلاد إخراج الزكاة في شهر رجب، ولا أصل لذلك في السنة، ولا عرف عن أحد من السلف، ولكن روي عن عثمان أنه خطب الناس على المنبر فقال: إن هذا شهر زكاتكم، فمن

---

(١) الرغائب: جمع رغيبة وهي العطاء الكثير. الصحاح للجوهري (١/ ١٣٨) والمراد بصلاة الرغائب: هي صلاة بين صلاة المغرب والعشاء في ليلة أول جمعة من شهر رجب ويسبقها صيام الخميس، وعددها على حد زعمهم اثنتي عشرة ركعة يفصل بين كل ركعتين بتسليمة.

انظر: الباعث على إنكار البدع لأبي شامة (ص٤١) وتنبيه الغافلين لابن النحاس (ص٣٠٤) والأمر بالاتباع للسيوطي (ص٧٧).

(٢) محمد بن منصور بن محمد السمعاني أبو بكر، حافظ، محدث، فقيه، أديب، توفي بمرو سنة ٥١٠هـ.

وفيات الأعيان (٣/ ٢١٠) واللباب لابن الأثير (٢/ ١٣٩) والعبر (٢/ ٣٩٦).

(٣) أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي السلامي البغدادي، قال الذهبي فيه: الإمام المحدث الحافظ، مفيد العراق، توفي سنة ٥٥٠هـ.

المستفاد من ذيل تاريخ بغداد (٣٨ ـ ٤٠) وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٦٥) وشذرات الذهب (٤/ ١٥٥).

(٤) لطائف المعارف (ص١٢٣).

كان عليه دين فليؤد دينه وليزك ما بقي» خرجه مالك في الموطأ[١].

وقد قيل أن ذلك الشهر الذي كانوا يخرجون فيه زكاتهم نسي، ولم يعرف، وقيل بل كان شهر المحرم لأنه رأس الحول، وقد ذكر الفقهاء من أصحابنا وغيرهم أن الإمام يبعث سعاته لأخذ الزكاة في المحرم، وقيل بل كان شهر رمضان لفضله وفضل الصدقة فيه، وبكل حال، فإنما تجب الزكاة إذا تمّ الحول على النصاب فكل أحد له حول يخصه بحسب وقت ملكه للنصاب، فإذا تمّ حوله وجب عليه إخراج زكاته في أي شهر كان، فإن عجل زكاته قبل الحول أجزأه عند جمهور العلماء وسواء كان تعجيله لاغتنام زمان فاضل أو لاغتنام الصدقة على من لا يجد مثله في الحاجة أو كان لمشقة إخراج الزكاة عليه عند تمام الحول جملة فيكون التفريق في طول الحول أرفق به»[٢].

جـ ـ **الصيام**: قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وأما الصيام فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ولكن روي عن أبي قلابة[٣] أنه قال: «في الجنة قصر لصوام رجب» قال البيهقي: أبو قلابة من كبار التابعين لا يقول مثله إلا عن بلاغ، وإنما ورد في صيام الأشهر الحرم كلها حديث مجيبة[٤]

---

(١) الموطأ: كتاب الزكاة، باب الزكاة في الدين (٢/ ٢٥٣).

(٢) لطائف المعارف (ص١٢٥).

(٣) أبو قلابة: عبد الله بن زيد بن عمرو البصري أبو قلابة الحرمي، قال ابن سعد: كان ثقة، كثير الحديث، توفي سنة ١٠٤هـ.
طبقات ابن سعد (٧/ ١٨٣) تذكرة الحفاظ (١/ ٨٨) تهذيب التهذيب (٥/ ٢٢٤).

(٤) مجيبة: بضم أوله وكسر الجيم بعدها تحتانية ثم موحدة، اختلف فيه فقيل رجل من باهلة وقيل امرأة من الصحابة بحديث الصوم.
تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٩) تقريب التهذيب (٣٢٩).

الباهلية عن أبيها أو عمها أن النبي ﷺ قال: «صم من الحرم واترك قالها ثلاثاً» وخرجه أبو داود[(١)] وغيره، وخرجه ابن ماجه[(١)] وعنده: «صم أشهر الحرم». وقد كان بعض السلف يصوم الأشهر الحرم كلها... وتزول كراهة إفراد رجب بالصوم بأن يصوم معه شهر آخر تطوعاً[(٢)].

د ـ **اتخاذه عيداً:** قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يكره أن يتخذ رجب عيداً»[(٣)].

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الصيام، باب في صوم أشهر الحرم (٢/ ٨١٠) وابن ماجه: كتاب الصيام، باب صيام أشهر الحرم (١/ ٥٥٤). وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده (٥/ ٢٨) والنسائي في السنن الكبرى (٢/ ١٣٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٥٠) وقد وقع اختلاف في هذا الحديث ففي رواية أبي داود وأحمد والبيهقي عن مجيبة الباهلية عن أبيها أو عمها. وفي رواية النسائي وابن ماجه عن مجيبة الباهلي عن عمه. قال المنذري رحمه الله تعالى: «ذكره أبو القاسم البغوي في معجم الصحابة، وقال فيه: عن مجيبة ـ يعني الباهلية ـ قالت: حدثني أبي أو عمي. وسمي أباها: عبد الله بن الحرث، وقال: سكن البصرة، روى عن النبي ﷺ حديثاً. وقال في موضع آخر: أبو مجيبة الباهلية، أو عمها: سكن البصرة، وروى عن النبي ﷺ ولم يسمه وذكر هذا الحديث. وذكره ابن قانع في معجم الصحابة، وقال فيه: عن مجيبة عن أبيها أو عمها، وسماه أيضاً: عبد الله بن الحرث. ا.هـ. وقد وقع فيه هذا الاختلاف كما تراه وأشار بعض شيوخنا إلى تضعيفه لذلك. وهو متوجه». مختصر سنن أبي داود (٣/ ٣٠٦).

وقد ضعف الشيخ الألباني هذا الحديث للاختلاف الذي وقع والجهالة. انظر تمام المنة في التعليق على فقه السنة (ص٤١٣).

(٢) لطائف المعارف (ص١٢٣).

(٣) أخرج عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٢٩٢) عن عطاء قال: «كان ابن عباس ينهى عن صيام رجب لئلا يتخذ عيداً» قال ابن حجر في تبيين العجب (٤٨): إسناده صحيح.

وروى عبد الرزاق[١] عن ابن جريج[٢] عن عطاء قال: كان النبي ﷺ ينهى عن صيام رجب كله لئلا يتخذ عيداً[٣] وعن معمر[٤]، عن ابن طاووس[٥] عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا شهراً عيداً ولا يوماً عيداً»[٦] وأصل هذا أنه لا يشرع أن يتخذ المسلمون عيداً إلا ما جاءت الشريعة باتخاذه عيداً وهو يوم الفطر ويوم الأضحى وأيام التشريق وهي أعياد العام، ويوم الجمعة وهو عيد الأسبوع وما عدا ذلك فاتخاذه عيداً وموسماً بدعة لا أصل له في الشريعة[٧].

---

(١) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري أبو بكر الصنعاني، عالم اليمن، كان من حفاظ الحديث الثقات، كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث، ومن كتبه: «المصنف»، وتفسير القرآن، توفي سنة ٢١١هـ.
سير أعلام النبلاء (٩/ ٥٦٣) وتهذيب التهذيب (٦/ ٣١٠).

(٢) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي المكي صاحب التصانيف وشيخ الحرم، وهو أول من دون العلم بمكة، وكان ذا عبادة وزهد، توفي سنة ١٥٠هـ.
الجرح والتعديل (٥/ ٣٥٦) ووفيات الأعيان (٣/ ١٦٣) وسير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٥).

(٣) لم أجده في مصنف عبد الرزاق، ولم أجد من أخرجه غيره.

(٤) معمر بن راشد الأزدي أبو عروة البصري، الإمام الحافظ، كان من أوعية العلم مع الصدق، والتحري، والورع وحسن التصنيف، توفي سنة ١٥٣هـ.
الجرح والتعديل (٨/ ٢٥٥) وسير أعلام النبلاء (٧/ ٦) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٤٣).

(٥) عبد الله بن طاووس أبو محمد اليماني الإمام المحدث، وثقه أبو حاتم والنسائي وغيرهم، قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية، وأحسنهم خلقاً، ما رأينا ابن فقيه مثله، توفي سنة ١٢٣هـ.
الجرح والتعديل (٥/ ٨٨) وسير أعلام النبلاء (٦/ ١٠٣) وتهذيب التهذيب (٥/ ٢٦٧).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٢٩١)، وهو ضعيف بهذا الإسناد لأن فيه انقطاع.

(٧) لطائف المعارف (ص١٢٣).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعياد عيد يتكرر كل أسبوع، وعيدان يأتيان في كل عام مرة مرة من غير تكرر في السنة.

فأما العيد المتكرر فهو يوم الجمعة وهو عيد الأسبوع... وهو متعلق بإكمال الصلوات المكتوبة وهي أعظم أركان الإسلام ومبانيه بعد الشهادتين.

أما العيدان اللذان يتكرران في كل عام، وإنما يأتي كل واحد منهما في العام مرة واحدة، فأحدهما عيد الفطر من صوم رمضان وهو مترتب على إكمال صيام رمضان، وهو الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه فإذا استكمل المسلمون صيام شهرهم... شرع الله تعالى لهم عقب إكمالهم لصيامهم عيداً يجتمعون فيه على شكر الله وذكره وتكبيره على ما هداهم له، وشرع لهم في ذلك العيد الصلاة والصدقة، وهو يوم الجوائز يستوفى الصائمون فيه أجر صيامهم، ويرجعون من عيدهم بالمغفرة والعيد الثاني عيد النحر وهو أكبر العيدين وأفضلهما وهو مترتب على إكمال الحج وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه[1].

هـ ـ أمور أخرى تعتقد في رجب: قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقد روي أنه كان في شهر رجب حوادث عظيمة، ولم يصح شيء من ذلك فروي أن النبي ﷺ ولد في أول ليلة منه، وأنه بعث في السابع والعشرين منه، وقيل في الخامس والعشرين. ولا يصح شيء من ذلك...

(١) لطائف المعارف (ص٢٨٦، ٢٨٧).

وروى زائدة بن أبي الرقاد[١] عن زياد التميمي[٢] عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل رجب قال: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان، وبلغنا رمضان»[٣].

وروي عن إسماعيل الأنصاري[٤] أنه قال: لا يصح في فضل رجب غير هذا الحديث، وفي قوله نظر، فإن هذا الإسناد فيه ضعف[٥].

٢ ـ بدعة اتخاذ عاشوراء مأتماً أو عيداً:

يوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر محرم وهو من الأيام الفاضلة التي حثّ النبي ﷺ على صيامها ومن ذلك قوله ﷺ: «... وصيام يوم عاشوراء احتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله...»[٦].

---

(١) زائدة بن أبي الرقاد أبو معاذ، قال البخاري: منكر الحديث، منكر الحديث وقال ابن حبان: يروي المناكير عن المشاهير لا يحتج بخبره ولا يكتب إلا للاعتبار. المجروحين لابن حبان (١/٣٠٨) ميزان الاعتدال (٢/ ٦٥) وتهذيب التهذيب (٣/ ٣٠٥).

(٢) زياد بن عبد الله النميري البصري، يروي عن أنس قال أبو حاتم: لا يحتج به. الجرح والتعديل (٣/٥٣٦) وميزان الاعتدال (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١/ ٤٥٧) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٦٥) رواه البزار وفيه زائدة بن أبي الرقاد.
قال البخاري: منكر الحديث وجهله جماعة.
وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣/ ٦١٣) عن زائدة: يحدث عن زياد النميري عن أنس أحاديث مرفوعة منكرة.

(٤) إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير أبو إسحاق الأنصاري مولاهم المدني الإمام الحافظ، قال يحيى بن معين: ثقة مأمون، قليل الخطأ، توفي سنة ١٨٠هـ. الجرح والتعديل (٢/ ١٦٢) وتاريخ بغداد (٦/ ٢١٨).

(٥) لطائف المعارف (١٢٦).

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة ويوم عاشوراء (٢/ ٨١٨).

ولكن الرافضة ابتدعوا فيه بدعاً منكرة فهم يتخذون يوم عاشوراء من كل عام مأتماً ونياحة وحزناً منهم على قتل الحسين بن علي رضي الله عنه قال ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان ذلك: «وأما اتخاذه مأتماً كما تفعله الرافضة لأجل قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما فيه، فهو عمل من ضلّ سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، ولم يأمر الله ولا رسوله ﷺ باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتماً فكيف بمن هو دونهم»[1].

ولا زال الرافضة إلى يومنا هذا يتخذون يوم عاشوراء مأتماً يظهرون فيه الحزن والنياحة ويندبون الحسين رضي الله عنه فيلطمون الخدود ويضربون الصدور والظهور حتى تسيل الدماء، ورتبوا على هذه المنكرات الأجر والثواب وتكفير السيئات، وهذه البدعة قد نصّ على جوازها والترغيب فيها علماؤهم قديماً وحديثاً[2].

وفي مقابل هؤلاء الرافضة واتخاذهم يوم عاشوراء مأتماً وحزناً من يتخذ يوم عاشوراء عيداً ويوم فرح وسرور وهم النواصب[3] والجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد والكذب بالكذب والشر بالشر فوضعوا الآثار التي ترغب في الفرح والسرور وما يتبعها من مظاهر في يوم عاشوراء، فصاروا يتخذون يوم عاشوراء موسماً كمواسم الأعياد والأفراح وقد سئل

---

(١) لطائف المعارف (ص٥٣) وانظر الكلام على هذه البدعة في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٠٧) ومنهاج السنة (٤/ ٥٥٤) وكتاب تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين لأحمد آل طامي (ص٢٨٠).

(٢) انظر: العقائد الشيعية لناصر الدين شاه (ص١٣٥) ومقتل الحسين وفتاوى العلماء الأعلام في تشجيع الشعائر لمرتضى عياد (ص١٢ ـ ٤٠).

(٣) النواصب: هم الذين يبغضون علياً رضي الله عنه وأصحابه.
لسان العرب (١/ ٧٦٢) ومجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٠١).

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عما يفعله الناس في عاشوراء من الكحل والاغتسال والحناء والمصافحة وطبخ الحبوب وإظهار السرور وعزوا ذلك إلى الشارع، هل ورد فيه حديث صحيح عن النبي ﷺ أم لا؟ وإذا لم يرد حديث صحيح في شيء من ذلك فهل يكون فعل ذلك بدعة أم لا؟ فأجاب رحمه الله تعالى: «الحمد لله رب العالمين لم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ولا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا روى أهل الكتب المعتمدة في ذلك شيئاً لا عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين ولا صحيحاً ولا ضعيفاً، ولا في كتب الصحيح ولا السنن ولا في المسانيد ولا يعرف شيء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة... إلى أن قال: وأهل الكوفة كان فيهم طائفتان: طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت وهم في الباطن إما ملاحدة زنادقة وإما جهال وأصحاب هوى.

وطائفة ناصبة تبغض علياً وأصحابه لما جرى في القتال في الفتنة ما جرى... فصارت طائفة جاهلة ظالمة إما ملحدة منافقة وإما ضالة غاوية تظهر موالاته وموالاة أهل بيته تتخذ يوم عاشوراء مأتم وحزن ونياحة وتظهر فيه شعار الجاهلية من لطم الخدود وشق الجيوب والتعزي بعزاء الجاهلية...

وعارض هؤلاء قوم إما من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد والكذب بالكذب والشر بالشر والبدعة بالبدعة فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء كالاكتحال والاختضاب... ونحو ذلك مما يفعل في الأعياد والمواسم، فصار هؤلاء يتخذون يوم عاشوراء موسماً كمواسم الأعياد والأفراح وأولئك يتخذونه مأتماً يقيمون فيه الأحزان والأفراح وكلا

الطائفتين مخطئة خارجة عن السنة، وإن كان أولئك ـ يعني الرافضة ـ أسوأ قصداً وأعظم جهلاً»(١).

والسنة في هذا اليوم أن يصام فحسب كما صامه رسول الله ﷺ وحث على صيامه وهذا هو الحق في تعظيم هذا اليوم كما هو مذهب أهل السنة والجماعة وسلف هذه الأمة ولا يكون بالفرح والسرور ولا اتخاذه مأتماً ويوم حزن وإنما تمسك بسنة المصطفى ﷺ وامتثال لأمره ورجاء لثواب الله تعالى.

ومسألة صيام يوم عاشوراء من المسائل التي تكلم فيها العلماء رحمهم الله وبينوا أن صوم يوم عاشوراء على ثلاث مراتب:

١ ـ أن يصام معه التاسع والحادي عشر لحديث «صوموا قبله يوماً وبعده يوماً»(٢).

٢ ـ أن يصام معه التاسع فقط لحديث «إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا التاسع»(٣).

٣ ـ إفراد يوم عاشوراء بالصوم وحده للأحاديث الدالة على تأكيد صومه منها حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «أمر رسول الله ﷺ بصوم عاشوراء يوم العاشر»(٤).

---

(١) مجموعة الفتاوى (٢٥/٢٩٩) وما بعدها، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٢٢).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصيام (٤/٢٨٧).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصيام (٢/٧٩٧).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب الصوم، باب إذا جاء في عاشوراء (٢/١٢٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وفي المسألة تفاصيل أخرى ليس هذا محلها[١] والمراد بيان أن السنة صيام هذا اليوم.

٣ ـ التبرك بالآثار والأشخاص أحياء وأمواتاً:

التبرك: طلب البركة، وهي النماء والزيادة.

قال الجوهري: «البركة النماء والزيادة، والتبريك الدعاء بالبركة... وتبارك الله أي بارك مثل قاتل وتقاتل إلا أن فَاعل يتعدى وتفاعل لا يتعدى وتبركت به أي تيمنت به»[٢].

والتبرك بآثار الصالحين هو التيمن وطلب خيرهم من آثارهم وطلب الخير وزيادته وثبوته في شيء إنما يكون ممن يملك ذلك ويقدر عليه وهو الله سبحانه وتعالى، وإذا تدبرنا كتاب الله سبحانه وتعالى وجدنا الآيات الكثيرة تدل على أن البركة من الله، فهي تطلب منه سبحانه وتعالى وحده، وهو يضعها فيمن شاء من خلقه وفي ما شاء من بريته قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾[٤] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[٥] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[٦].

---

(١) انظر الكلام على هذه المسألة في زاد المعاد لابن القيم (٢/ ٧٦) ولطائف المعارف لابن رجب (ص٤٥ ـ ٥٤) وفتح الباري لابن حجر (٤/ ٢٤٦) وغيرها.

(٢) الصحاح للجوهري (٤/ ١٥٧٥).

(٣) سورة الأعراف آية (٥٤).

(٤) سورة الرحمن آية (٧٨).

(٥) سورة الفرقان آية (٦١).

(٦) سورة الفرقان آية (١).

فلفظ تبارك لم يرد في كتاب الله إلا مسنداً إلى الله، وهي صيغة مفيدة أعظم أنواع معنى البركة وأكثرها نفعاً، وأعمها متعلقاً وأثراً، فالبركة لله وحده والله سبحانه وتعالى يضعها فيمن شاء، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك(١).

وأما التبرك بذوات الأشخاص أو بآثارهم المنفصلة عنهم كشعرهم وفضل وضوئهم ونحو ذلك فهذا يجوز في حق النبي ﷺ وقد ورد في عدة أحاديث ما يدل على جواز ذلك:

منها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها»(٢).

ومنها حديث خروج النبي ﷺ في الحديبية وفيه: «وما تنخم النبي ﷺ إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده»(٣).

وفي رواية «وإذا توضأ النبي ﷺ كادوا يقتتلون على وضوئه»(٤).

وقد سأل أحد الصحابة الرسول ﷺ بردة أهديها فأعطاها إياه فلامه الصحابة على سؤاله البردة فقال: «رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفن فيها»(٥).

فهذه الأدلة ونحوها تدل على شرعية التبرك بآثار النبي ﷺ كشعره وملابسه وفضل وضوءه ونحو ذلك، وهذا خاص به ﷺ في حياته.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل (٤/ ١٨١٢).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء (١/ ٦٦).
(٤) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء (١/ ٥٥).
(٥) أخرجه البخاري: كتاب الأدب (٧/ ٨٢).

وأما في غير حق النبي ﷺ فإن ذلك لا يجوز لأنه إما شرك وذلك إذا اعتقد أن ذلك الشخص أو المكان يمنح البركة، وإما وسيلة إلى الشرك إذا اعتقد أن زيارته وملامسته والتمسح به سبب لحصولها من الله، والدليل على عدم جواز ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يتبركون بحجرته أو قبره بعد موته ﷺ، ولا كانوا يقصدون الأماكن التي صلى فيها أو جلس فيها ليتبركوا بها، ولم يكونوا يتبركون بالأشخاص الصالحين كأبي بكر وعمر وغيرهما من أفاضل الصحابة لا في الحياة ولا بعد الموت، ولم يكونوا يذهبون إلى غار حراء ليصلوا فيه أو يدعوا، ولم يكونوا يذهبون إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى ليصلوا فيه أو يدعوا، أو إلى غير هذه الأمكنة من الجبال التي يقال إن فيها مقامات الأنبياء أو غيرهم، ولم يكن أحد من السلف يذهب إلى المكان الذي يصلي فيه رسول الله ﷺ ليستلمه ويقبله، ولا المواضع التي كان يطؤها بقدميه الكريمتين، فإذا كان ذلك لم يشرع في حق النبي ﷺ فكيف بما يقال أن غير النبي ﷺ صلى فيه أو نام عليه، فتقبيل شيء من ذلك والتمسح به قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا ليس من شريعة الرسول ﷺ(١).

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى ذلك فقال: «التبرك بالآثار إنما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم ببعض، ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم، فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع النبي ﷺ مثل التبرك بوضوئه وفضلاته وشعره وشرب فضل شرابه وطعامه»(٢).

وأما ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يتحرى الأماكن

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٩٥).

(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص٥٨، ٥٩).

التي صلى فيها رسول الله ﷺ فيصلي فيها كما روى البخاري رحمه الله تعالى بسنده عن موسى بن عقبة[١] قال: «رأيت سالم بن عبد الله[٢] يتحرى أماكن من الطريق فيصلي فيها، ويحدث أن أباه كان يصلي فيها، وأنه رأى النبي ﷺ في تلك الأمكنة»[٣].

فإن ذلك لم يفعله غيره من الصحابة رضي الله عنهم، فلم ينقل عن الخلفاء الراشدين ولا عن غيرهم من المهاجرين والأنصار أنه كان يتحرى قصد الأمكنة التي نزلها النبي ﷺ، فهم يذهبون من المدينة إلى مكة حجاجاً وعماراً ومسافرين، ولم ينقل من أحد منهم أنه تحرى الصلاة في مصليات النبي ﷺ ومعلوم أن هذا لو كان عندهم مستحباً لكانوا إليه أسبق فإنهم أعلم بسنته وأتبع لها من غيرهم.

فتحري الصلاة في هذه المواضع ليس من سنة الخلفاء الراشدين بل هو مما ابتدع، وقول الصحابي إذا خالفه نظيره ليس بحجة، فكيف إذا انفرد به عن جماهير الصحابة.

وأيضاً فإن تحري الصلاة فيها ذريعة إلى اتخاذها مساجد، والتشبه بأهل الكتاب ممن نهينا عن التشبه بهم فيه، وذلك ذريعة إلى الشرك بالله.

---

(١) موسى بن عقبة بن أبي عياش القرشي، الإمام الثقة الكبير، كان بصير بالمغازي النبوية، وهو أول من صنف فيها، توفي سنة ١٤١هـ.
الجرح والتعديل (٨/ ١٥٤) وسير أعلام النبلاء (٦/ ١١٤) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٣٦٠).

(٢) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، الإمام الزاهد الحافظ الثقة، مفتي المدينة، وكان من أفضل أهل زمانه وكان كثير الحديث، وكان أبوه يحبه ويجله كثيراً، توفي سنة ١٠٦هـ.
التاريخ الكبير (٤/ ١١٥) ووفيات الأعيان (٢/ ٢٥٢) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة (١/ ١٢٤).

وقد كان عمر رضي الله عنه ينهى[١] عن تتبع الآثار المكانية. ولا شك أن الصواب والحق مع عمر رضي الله عنه وبقية الصحابة، وهو الحري بالاتباع[٢].

وبهذا يتبين أن الدعوة إلى الاعتناء بتلك الآثار وتعظيمها خشية أن تندثر ويجهلها الناس ولا سيما في مكة والمدينة مثل غار حراء وغار ثور ودار مولده ﷺ وغيرها دعوة باطلة ومخالفة صريحة لسلف هذه الأمة إضافة إلى ما فيها من مشابهة اليهود والنصارى في تعظيم آثار أنبيائهم وصالحيهم واتخاذها معابد ومزارات.

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله وأمد في عمره وبارك له فيه «إن تعظيم الآثار يكون باتباع أهلها في أعمالهم المجيدة وأخلاقهم الحميدة وجهادهم الصالح قولاً وعملاً ودعوة وصبراً، هكذا كان السلف الصالح يعظمون آثار سلفهم الصالحين، وأما تعظيم الآثار بالأبنية والزخارف والكتابة ونحو ذلك فهو خلاف هدي السلف الصالح، وإنما ذلك سنة اليهود والنصارى ومن تشبه بهم وهو من أعظم وسائل الشرك، وعبادة الأنبياء والأولياء كما يشهد به الواقع، وتدل عليه الأحاديث والآثار المعلومة في كتب السنة فتنبه واحذر[٣]».

٤ ـ بدعة التصوف:

إن التصوف بدعة من شر البدع وأكثرها إضلالاً وأكبرها ضلالة إذ

---

(١) انظر: البدع لابن وضاح (ص٤١ ـ ٤٢) فقد ذكر آثاراً تدل على نهي عمر رضي الله عنه عن ذلك وقد صحح هذه الآثار ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (١/ ٢٨١) وابن حجر في الفتح (١/ ٥٦٩)، (٧/ ٤٤٨).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢/ ٧٤٦) وما بعدها.

(٣) مجموع فتاوى ومقالات سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله (١/ ٣٩٥، ٣٩٦).

لم يعرف التصوف من نزول الوحي ولا بعده إلى أن انقرض عهد القرون المفضلة.

فلم يرد لفظ التصوف على لسان رسول الله ﷺ، ولم يؤثر عن أحد من أصحابه رضوان الله عليهم أنه عرف التصوف أو نطق به وكذا التابعون من أبناء الصحابة وأبناء أبنائهم وهم أهل القرون المفضلة المشهود لهم بالخيرية والفضل ثم ظهر بعد ذلك طبقة يغلب عليهم جانب العبادة والبعد عن الناس مع علمهم وفضلهم والتزامهم بآداب الإسلام ولكن قد يغلب على أحدهم الخوف الشديد والبكاء المستمر، ثم جاء من بعدهم فعملوا أموراً ودعوا إليها ولم تكن عند الزهاد السابقين ومنها ترك الزواج وإدامة الجوع ومواصلة الصوم وهكذا تدرج هؤلاء ومن بعدهم إلى أن شرعوا لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله.

يقول ابن الجوزي: «في عصر الرسول ﷺ كانت كلمة مؤمن ومسلم ثم نشأت كلمة زاهد وعابد ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا فيها هكذا كان أوائل القوم ولبّس عليهم إبليس أشياء ثم على من بعدهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن»[1].

وهكذا بدأ التصوف ينشأ ويقوى إلى أن أصبح فكراً مستقلاً أخذ صبغة خالصة، وقد استغلت الباطنية هذا التصوف لنشر أفكارهم الإلحادية وأدخلوا في التصوف السماع والرقص بحجة أنه موصل إلى الله، وبلغوا فيه إلى حد الوقاحة حيث نشأ فيهم حب المرادن والغلمان.

وأنا أعني بهذا المتأخرين منهم.- أما المتقدمون منهم فكانوا على جانب من الورع والعبادة والاعتدال.

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٦١).

وقد تسرب الفكر الصوفي إلى صفوف المسلمين منذ زمن قديم ولا زال يؤدي دوره في إفساد الأمة الإسلامية في كثير من البلدان، ولا يزال بعض الناس من المنتسبين للعلم وغيرهم مغترين بهذا الفكر، ومتحمسين في الدفاع عنه وعن أهله.

أضف إلى ذلك أن المغرضين من أعداء الإسلام وجدوا لهم طريقاً لإفساد المسلمين عن طريق التصوف باسم الزهد ورياضة النفس ومجاهدة الشهوات وغير ذلك من الأمور التي استطاعوا عن طريقها نشر الزندقة والإلحاد بين المسلمين.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى مبيناً أن التصوف أصبح منهجاً من المناهج الفاسدة التي تقوم على الزندقة والإلحاد: «ومما أحدث من العلوم، الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق أو الكشف وفيه خطر عظيم، وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره... وقد اتسع الخرق في هذا الباب ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء أو أنهم مستغنون عنهم، وإلى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع، وإلى دعوى الحلول والإتحاد أو القول بوحدة الوجود وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان كدعوى الإباحة، وحل محظورات الشرائع، وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة، ليست من الدين في شيء فبعضها زعموا أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص، وبعضها زعموا أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها، وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة كالغناء والنظر المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، والعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في

ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولاً، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانياً، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل[(١)].

ولا أريد هنا أن أتكلم عن التصوف والمتصوفة[(٢)] وما يتعلق بهم من بدع وانحرافات لأني لست في مقام الكلام على ذلك، وإنما أريد هنا أن أقتصر على ذكر بعض البدع التي وقعوا فيها وخصوصاً التي تكلم عليها الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في مؤلفاته ومنها:

أ ـ بدعة تقسيم الدين إلى حقيقة وشرعية:

إن من أصول المتصوفة، وقواعد طرقهم البدعية تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن، والدين الإسلامي إلى شريعة وحقيقة، والشرعية هي الظاهر من الدين وهي الباب الذي يدخل منه الجميع، والحقيقة هي الباطن الذي لا يصل إليه إلا المصطفون الأخيار في حد زعمهم، وهؤلاء هم الذين أسقطوا عنهم التكاليف الشرعية لأنهم وصلوا، وهذا كله من تلاعب الشيطان بهم، وتزيينه ذلك لهم، نعوذ بالله من الضلال والخذلان، وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذه البدعة فقال: «كثير ممن يدعي العلم الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه يذم العلم الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام، ويطعن في أهله، ويقول هم محجوبون

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٤٩، ١٥٠).

(٢) هناك الكثير من الكتب القديمة والحديثة التي تكلمت عن التصوف والمتصوفة ومنها: كتاب الاستقامة واقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية، تنبيه الغبي لتكفير ابن عربي للبقاعي، هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل، التصوف المنشأ والمصادر لإحسان إلهي ظهير وغيرها.

وأصحاب القشور، وهذا يوجب القدح في الشريعة المطهرة والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والإعتناء بها، وربما انحل بعضهم عن التكاليف وادعى أنها للعامة، وأما من وصل فلا حاجة به إليها وأنها حجاب له، وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره: وصلوا ولكن إلى سقر. وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام، ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يتلقى من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسنة، وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات، فأساءوا الظن بالشريعة الكاملة حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب، وأوجب لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية، والتكلم فيه بمجرد الأراء والخواطر، فضلوا وأضلوا»[(١)].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «ومما حدث بعد الصحابة والتابعين الكلام في الحلال والحرام بمجرد الرأي والأقيسة العقلية».

ومما حدث بعد ذلك الكلام في الحقيقة بالذوق والكشف وزعم أن الحقيقة تنافي الشريعة، وأن المعرفة وحدها تكفي مع المحبة، وأنه لا حاجة إلى الأعمال، وأنها حجاب أو أن الشريعة إنما يحتاج إليها العوام[(٢)].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وإنما ذم أحمد وغيره المتكلمين عن الوساوس والخطرات من الصوفية، حيث كان كلامهم في ذلك لا يستند إلى دليل شرعي، بل إلى مجرد رأي وذوق، كما كان ينكر الكلام في مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأي من غير دليل شرعي»[(٣)].

---

(١) شرح حديث أبي الدرداء (ص٥٥، ٥٦).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٩٧).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٦١).

ب ـ بدعة التقرب إلى الله عزّ وجلّ بالرقص وهز الرؤوس وسماع الأغاني:

قال ابن رجب رحمه الله تعالى وهو يتكلم عن الغناء وأقسامه: القسم الثاني: أن يقع استماع الغناء بآلات اللهو أو بدونها على وجه التقرب إلى الله تعالى، وتحريك القلوب إلى محبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وهذا هو الذي يدعيه كثير من أهل السلوك، ومن يتشبه بهم ممن ليس منهم، وإنما يتستر بهم ويتوصل بذلك إلى بلوغ غرض نفسه، من نيل لذته، فهذا المتشبه بهم مخادع ملبس، وفساد حاله أظهر من أن يخفى على أحد.

وأما الصادقون في دعواهم في ذلك وقليل ما هم، فإنهم ملبوس عليهم حيث تقربوا إلى الله عزّ وجلّ بما لم يشرعه الله تعالى، واتخذوا ديناً لم يأذن الله فيه، فلهم نصيب ممن قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[1] والمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق باليد، كذلك قاله غير واحد من السلف.

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[2]، فإنه إنما يتقرب إلى الله عزّ وجلّ بما يشرع التقرب به إليه على لسان رسوله ﷺ، فأما ما نهى عنه، فالتقرب به إليه مضادة لله عزّ وجلّ في أمره، قال القاضي أبو الطيب الطبري[3] رحمه الله في كتابه السماع

---

(١) سورة الأنفال آية (٣٥).

(٢) سورة الشورى آية (٢١).

(٣) أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري الشافعي، قال الخطيب: كان ثقة صادقاً ديناً ورعاً عارفاً بأصول الفقه وفروعه، صحيح المذهب، توفي سنة ٤٥٠هـ.
تاريخ بغداد (٩/ ٣٥٨) وطبقات الشافعية لابن هداية (١٥٠).

(اعتقاد هذه الطائفة مخالف لإجماع المسلمين فإنه ليس فيهم من جعل السماع ديناً وطاعة ولا أرى إعلانه في المساجد والجوامع، وحيث كان من البقاع الشريفة والمشاهد الكريمة، وكان مذهب هذه الطائفة مخالفاً لما اجتمعت عليه العلماء ونعوذ بالله من سوء الفتن) انتهى ما ذكره.

ولا ريب أن التقرب إلى الله تعالى بسماع الغناء الملحن لا سيما مع آلات اللهو مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام، بل ومن سائر شرائع المسلمين أنه ليس مما يتقرب به إلى الله، ولا مما تزكى به النفوس وتطهر به، فإن الله تعالى شرع على ألسنة الرسل كل ما تزكوا به النفوس وتطهر به من أدناسها، وأوضارها، ولم يشرع على لسان أحد من الرسل في ملة من الملل شيئاً من ذلك، وإنما يأمر بتزكية النفوس بذلك من لا يتقيد بمتابعة الرسل من أتباع الفلاسفة كما يأمرون بعشق الصور، وذلك كله مما تحيى به النفوس الأمارة، بالسوء لما لها فيه من الحظ، ويقوي به الهوى، وتموت به القلوب المتصلة بعلام الغيوب، وتبعد به عنه، فغلط هؤلاء واشتبه عليهم حظوظ النفوس وشهواتها، بأقوات القلوب الطاهرة، والأرواح الزكية المعلقة بالمحل الأعلى واشتبه الأمر في ذلك أيضاً على طوائف المسلمين ممن ينتسب إلى السلوك ولكن هذا مما حدث في الإسلام بعد انقراض القرون الفاضلة[(١)].

وقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أن السماع المشروع هو سماع ما يفيد وينفع من سماع القرآن والذكر والمواعظ النافعة وغيرها.

فقال: «إن الله تعالى أمر عباده في كتابه وعلى لسان رسوله بجميع ما يصلح قلوب عباده ويقربها منه ونهاهم عما ينافي ذلك ويضاده، ولما كانت الروح تقوى بما تسمعه من الحكمة والموعظة الحسنة وتحيى بذلك شرع الله

(١) نزهة الأسماع في مسألة السماع (ص٦٨ ـ ٧٠).

لعباده سماع ما تقوى به قلوبهم وتتغذى وتزداد إيماناً، فتارة يكون ذلك فرضاً عليهم كسماع القرآن والذكر والموعظة يوم الجمعة في الخطبة والصلاة. وكسماع القرآن في الصلوات الجهرية من المكتوبات وتارة يكون ذلك مندوباً إليه غير مفترض كمجالس الذكر المندوب إليها، فهذا السماع حاد يحد وقلب المؤمن إلى الوصول إلى ربه يسوقه ويشوقه إلى قربه، وقد مدح الله المؤمنين بوجود مزيد أحوالهم بهذا السماع، وذم من لا يجد منه ما يجدونه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[1] وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[2] وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3]... فهذه الآية تتضمن توبيخاً وعتاباً لمن سمع هذا السماع، ولم يحدث له في قلبه صلاحاً ورقة وخشوعاً، فإن هذا الكتاب المسموع يشتمل على نهاية المطلوب وغاية ما تصلح به القلوب وتنجذب به الأرواح... فيحيي بذلك القلب بعد مماته ويجتمع بعد شتاته وتزول قسوته بتدبر خطابه وسماع آياته، فإن القلوب إذا أيقنت بعظمة ما سمعت واستشعرت شرف نسبة هذا القول إلى قائله أذعنت وخضعت، فإذا تدبرت ما احتوى عليه من المراد ووعت اندكت من مهابة الله وجلاله وخشعت، فإذا هطل عليها وابل الإيمان من سحب القرآن أخذت ما وسعت فإذا بذر فيها القرآن من حقائق العرفان وسقاه ماء الإيمان أنبتت ما

---

(١) سورة الأنفال آية (٢).

(٢) سورة الزمر آية (٢٢، ٢٣).

(٣) سورة الحديد آية (١٦).

زرعت، ومتى فقدت القلوب غذاءها وكانت جاهلة به طلبت العوض من غيره فتغذت به فازداد سقمها بفقدها ما ينفعها، والتعوض بما يضرها، فإذا سقمت مالت إلى ما فيه ضررها ولم تجد طعم غذائها الذي فيه نفعها فتعوضت عن سماع الآيات بسماع الأبيات، وعن تدبر معاني التنزيل بسماع الأصوات[(١)].

٤ ـ بدعة قراءة القرآن بالألحان:

إن قراءة القرآن بشكل مبتدع لم يكن معروفاً في عهد النبوة وما بعدها من القرون المفضلة كالتلحين والتشدق والقيام بحركات أثناء القراءة كالتمايل يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً لأن هذا كله إهانة لكتاب الله تعالى وابتذال له ومخالف لما حث عليه الرسول ﷺ من قراءة القرآن بتدبر وتمعن وفهم لمعانيه.

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذه البدعة فقال: «قراءة القرآن بالألحان بأصوات الغناء وأوزانه وإيقاعاته على طريقة أصحاب الموسيقى، فرخص فيه بعض المتقدمين إذا قصد به الاستعانة على إيصال معاني القرآن إلى القلوب، للتحزين والتشويق والتخويف والترقيق، وأنكر ذلك أكثر العلماء، ومنهم من حكاه إجماعاً. ولم يثبت فيه نزاعاً منهم أبو عبيد وغيره من الأئمة.

وفي الحقيقة: «هذه الألحان المبتدعة المطربة، تهيج الطباع وتلهي عن تدبر ما يحصل له من الاستماع، حتى يصير الإلتذاذ بمجرد سماع النغمات الموزونة والأصوات المطربة، وذلك يمنع المقصود من تدبر معاني القرآن، وإنما وردت السنة بتحسين الصوت بالقرآن، لا بقراءة الألحان، وبينهما بون بعيد»[(٢)].

هذه أمثلة من البدع المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا

---

(١) نزهة الأسماع في مسألة السماع (ص٨٠ ـ ٨٣).
(٢) المصدر السابق (ص٧٠، ٧١).

زالت هذه البدع كلها موجودة إلى يومنا هذا بل أكثر منها، فكل البدع التي فعلت في الماضي في أزمان مختلفة فعلت في زماننا هذا نسأل الله السلامة والعافية. وتفشي البدع وانتشارها وخصوصاً في زماننا هذا له أسباب كثيرة منها:

١ ـ الجهل بأحكام الدين: كلما امتدّ الزمن وبعد الناس عن كتاب ربهم وسنة نبيهم قلّ العلم وفشى الجهل كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[١].

فالجهل هو أخطر سبب يؤدي إلى انتشار البدع، ولا يقاوم ذلك إلا العلم والعلماء، فإذا فقد العلم والعلماء أتيحت الفرصة للبدع أن تظهر وتنتشر.

٢ ـ اتباع الهوى وذلك أن من أعرض عن الكتاب والسنة فإن الشيطان يزين له البدع ويحسنها، وقد ذم الله تبارك وتعالى من يتبعون الهوى ويعرضون عن الحق الذي جاء به الشرع فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات الواردة في ذم الهوى وأصحابه، والبدع إنما هي

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (١/ ١٧٤) ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (٤/ ٢٠٥٨).
(٢) سورة القصص آية (٥٠).
(٣) سورة الجاثية آية (٢٣).

نسيج الهوى المتبع يقول الشاطبي[١] رحمه الله تعالى: «سمي أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة مأخذ الافتقار إليها أو التعويل عليها حتى يصدوا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها وراء ذلك»[٢].

٣ ـ التشبه بالكفار وتقليدهم من أشد ما يوقع في البدع كما في حديث ابن واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط[٣] فمررنا بسدرة فقلنا: «يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السَّنَن[٤] قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٥] لتركبن سنن من كان قبلكم»[٦].

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي، أبو إسحاق محدث، فقيه، أصولي، له مؤلفات كثيرة منها: الاعتصام و«الموافقات» توفي سنة ٧٩٠هـ.
شجرة النور الزكية (١/ ٢٣١) ودرة الحجال (١/ ١٨٢) والأعلام (١/ ٧٥).

(٢) الاعتصام للشاطبي (٢/ ١٧٦).

(٣) ذات أنواط: هي شجرة عظيمة قريبة من مكة كان أهل الجاهلية يعظمونها ويذبحون لها ويعكفون عندها يوماً، وكانوا يعلقون أرديتهم عليها ويدخلون الحرم بغير أردية تعظيماً لها، ولذلك سميت ذات أنواط يقال: ناط الشيء ينوطه نوطاً إذا علقه.
النهاية لابن الأثير (٥/ ١٢٨) ومعجم البلدان (١/ ٢٧٣) ولسان العرب (٧/ ٤٢٠).

(٤) السنن بفتح السين والنون وهو الطريق ويجوز في السين الضم والكسر.
المصباح المنير (١/ ٢٩٢).

(٥) سورة الأعراف آية (١٣٨).

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨) والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٤/ ٤٧٥) وقال: حديث حسن صحيح.
والطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٣) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٧) وقال الألباني: إسناده حسن.

ففي هذا الحديث أن التشبه بالكفار هو الذي حمل بني إسرائيل وبعض أصحاب رسول الله ﷺ من الذين دخلوا حديثاً في الإسلام أن يطلبوا هذا الطلب القبيح وهو أن يجعل لهم آلهة يعبدونها ويتبركون بها من دون الله.

وقد صدق ﷺ حيث وقع ما أخبر به فإن غالب الناس ولا سيما في هذا العصر الذي أصبح التقليد والمشابهة للكفار سمة لأهله فنحن نرى الكثير من المسلمين قلدوا الكفار في عمل البدع والشركيات كأعياد الموالد وإقامة الأيام والأسابيع لأعمال مخصصة والاحتفال بالمناسبات الدينية والذكريات وإقامة التماثيل والنصب التذكارية، وإقامة المأتم وغير ذلك من الأمور التي لم ينج منها إلا من رحم الله وهم القليل.

٤ ـ التعصب للآراء والتقليد الأعمى للشيوخ يحول بين المرء واتباع الحق ومعرفة الدليل، وهذا شأن المتعصبين اليوم من بعض أتباع المذاهب والصوفية والقبوريين إذا دعوا إلى اتباع الكتاب والسنة ونبذ ما هم عليه مما يخالفهما احتجوا بمذاهبهم وأقوال مشائخهم وآبائهم وأجدادهم وأخذوها على أنها أقوال مسلمة لا يقبل غيرها.

وقد ذم الله سبحانه وتعالى التقليد باتباع الآباء والأجداد حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾[2].

هذا كله من أسباب انتشار البدع بالإضافة إلى سكوت كثير من

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٠).

(٢) سورة الأحزاب آية (٦٦، ٦٧).

العلماء وتركهم الدعوة إلى الله تعالى وتبصير الناس بدينهم وبهدي نبيهم ﷺ الأمر الذي جعل عامة الناس يعتقدون في البدع أنها سنن، وإذا أردت أن تبين لهم الحق في ذلك، ردوا عليك بقولهم من أنت؟ ومن تكون؟ فلو كان الأمر بدعة كما تدعي لبينها الشيخ فلان وفلان، فإنك لست بأعلم منهم بل لا تدانيهم في منزلتهم العلمية.

وطريق الخلاص من هذه البدع كلها يكون بالتمسك بالكتاب والسنة والرجوع إليهما وإلى كتب السلف الصالح لفهم العقيدة الصحيحة ومعرفة ما يضادها أو ينقصها من الشرك والبدع والخرافات ونبذ الكتب المخالفة للكتاب والسنة من كتب الصوفية والقبورية والمخرفين.

وأسأل الله تعالى أن يجنبنا مضلات الفتن وأن ينصر دينه ويعلي كلمته ويخذل أعدائه إنه على كل شيء قدير.



المطلب الخامس

حكم البدع وأهلها

البدع كلها مضادة للشارع ومراغمة له حيث أن المبتدع نصب نفسه منصب المستدرك على شرع الله عز وجل، ولهذا كانت البدعة مذمومة بكل حال، لأن النصوص الواردة في البدع بينت أن كل بدعة ضلالة وأن عمل المبتدع مردود عليه، وعلى هذا فالإبتداع في الدين حرام سواء كان ذلك في العبادات أو الاعتقادات قال ابن رجب رحمه الله تعالى في بيان هذا فقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»(١) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»(٢) فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة(٣).

أما المبتدعة الذين يحدثون البدع فهم مفترون على الله عزّ وجلّ لأن أحداثهم للبدع يفهم منه أن الله سبحانه وتعالى لم يكمل هذا الدين وأن الرسول ﷺ لم يبلغ كل ما أوحي إليه حتى جاء هؤلاء المبتدعة

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤١٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (٣/ ٢٩١).

فأكملوا الشرع بما أحدثوه من ضلالات زاعمين أن ذلك مما يقربهم إلى الله عزّ وجلّ، وهذا خطر عظيم واعتراض على رب العالمين سبحانه وتعالى، واتهام للدين بالنقص، وللرسول ﷺ بالخيانة والكتمان، وهذا كله باطل لا شك فيه، فالله سبحانه وتعالى قد أكمل لعباده الدين وأتم عليهم النعمة كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[١].

والرسول ﷺ قد بلغ ما أوحي إليه بلاغاً مبيناً لم يترك طريقاً للخير يقربنا إلى الله عزّ وجلّ إلا ودلنا عليه، ولا طريقاً يبعد عن الله عزّ وجلّ إلا وحذرنا منه ولذا تقول عائشة رضي الله عنها لمسروق[٢] رحمه الله تعالى كما في صحيح مسلم[٣] «ثلاث من تكلم بواحدة منها فقد أعظم على الله الفرية» وذكرت منها: من زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[٤].

فلو كانت البدع التي أحدثها المبتدعة من الدين الذي أتمه الله علينا ورضيه لنا ديناً لبينه الرسول ﷺ لأمته إما بقوله أو فعله، فلما لم يبين ذلك دلّ على أن ما أحدثه هؤلاء ليس من الدين في شيء، وقد تكلم

---

(١) سورة المائدة آية (٣).

(٢) الإمام العلم أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الوادعي الهمداني، من كبار التابعين.
قال يحيى بن معين: مسروق ثقة، لا يسأل عن مثله، توفي رحمه الله سنة ٦٣هـ.
الجرح والتعديل (٨/ ٣٩٦) وتذكرة الحفاظ (١/ ٤٩) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٠٩).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل **﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾** (١/ ١٥٩).

(٤) سورة المائدة آية (٦٧).

ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذا كله فقال: «أهل الأهواء والبدع كلهم مفترون على الله، وبدعتهم تتغلظ بحسب كثرة افترائهم عليه، وقد جعل الله من حرم ما أحله الله، وحلل ما حرمه الله مفترياً عليه الكذب، فمن قال على الله ما لا يعلم فقد افترى عليه الكذب ومن نسب إلى الله ما لا يجوز نسبته إليه من تمثيل أو تعطيل، أو كذب بأقداره فقد افترى على الله الكذب، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١)» قال سفيان: الفتنة أن يطبع الله على قلوبهم(٢).

فلهذا تغلظت عقوبة المبتدع على عقوبة العاصي، لأن المبتدع مفتر على الله، مخالف لأمر رسوله لأجل هواه(٣).

فالبدع كلها شر وضلالة، ومحادة لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ ويخشى أن يكون أهل الأهواء والبدع ممن حيل بينهم وبين التوبة عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «إن الله حجز التوبة عن كل صاحب بدعة»(٤).

---

(١) سورة النور آية (٦٣).
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٣٢) وعزاه لعبد بن حميد.
(٣) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص٤٣، ٤٤).
(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٩) والطبراني في الأوسط (٤٣٦٠) وابن وضاح في البدع والنهي عنها (٥٥) والهروي في ذم الكلام وأهله (٥/ ٩٩/ب)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٨٦) رواه الطبراني وإسناده حسن. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٩) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفروي وهو ثقة، وقد تكلم عن هذا الحديث وطرقه العلامة محمد بن ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (١٦٢٠).

فهذا الحديث يدل على أن الله سبحانه وتعالى حجب التوبة أمام المبتدع، فلا يقبل له توبة، ذلك لأن المبتدع يرى أن عمله دين يتقرب به إلى الله عزّ وجلّ فلا يتوب منه ولا يرجع عنه وهذا بخلاف العاصي فإن العاصي يفعل المعصية وهو يعلم أنها معصية فيتوب منها.

وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن معنى حديث أنس السابق فقال: «لا يوفق ولا ييسر صاحب بدعة لتوبة»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله، قد زين له سوء عمله فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب، ولكن التوبة منه ممكنة واقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضلال، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه، فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾[٣] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[٤].

---

(١) غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب للسفاريني (٢/ ٥٨٢).
(٢) سورة محمد آية (١٧).
(٣) سورة النساء آية (٦٦ ـ ٦٨).
(٤) سورة الحديد آية (٢٨).

وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: ومن قال: ما أذن الله لصاحب بدعة في توبة، فمعناه ما دام مبتدعاً يراها حسنة لا يتوب منها، فأما إذا أراه الله أنها قبيحة، فإنه يتوب منها، كما يرى الكافر أنه على ضلال، وإلا فمعلوم أن كثيراً ممن كان على بدعة تبين له ضلالها، وتاب الله عليه منها، وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله[٢].



(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/٩، ١٠).
(٢) المصدر السابق (١١/ ٦٨٤، ٦٨٥).

المبحث الرابع
الغلو وكلام ابن رجب رحمه الله تعالى عليه

الغلو في اللغة هو مجاوزة الحد والمبالغة في الشيء، يقول الراغب الأصبهاني: الغلو تجاوز الحد، يقال ذلك إذا كان في السعر غلاء، وإذا كان في القدر والمنزلة غلو(١).

وفي الشرع هو الإفراط في التعظيم بالقول والعمل والاعتقاد ومجاوزة الحد المشروع في ذلك كالغلو في الأنبياء والأولياء والصالحين من حيث اعتقاد أن لهم تصرفاً في الكون، أو تعظيمهم بالألفاظ والأفعال ورفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إياها(٢).

والغلو منهى عنه، وقد ذمه الله سبحانه وتعالى وحرمه وتوعد الغالين ونهاهم عنه فقال تعالى في كتابه العظيم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾(٤).

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٣٦٤).

(٢) انظر: النهاية لابن الأثير (٣/ ٣٨٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١/ ٧٦) تيسير العزيز الحميد (ص٢٦٥).

(٣) سورة النساء آية (١٧١).

(٤) سورة المائدة آية (٧٧).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «ينهى الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلٰهاً من دون الله يعبدونه بل قد غلوا في اتباعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً أو ضلالاً أو رشاداً أو صحيحاً أو كذباً»(١).

كما ذم الغلو ونهى عنه النبي ﷺ كما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله»(٢).

فالغلو وباء قاتل ومرض مدمر، ولم يزل شره في ازدياد حتى وقع كثير من المسلمين في الشرك بسبب الغلو ومجاوزة الحد المشروع.

وقد تناول ابن رجب رحمه الله مسألة الغلو وبيّن أنه جهل وضلال كما بيّن بعض مظاهره فقال رحمه الله تعالى: وأما النصارى فذمهم الله بالجهل والضلالة، وبالغلو في الدين بغير الحق، ورفع المخلوق إلى درجة لا يستحقها حتى يدعى فيه الإلٰهية، واتباع الكبراء في التحليل والتحريم، وكل هذا يوجد جهالاً منتسبين إلى العبادة من هذه الأمة فمنهم من يعبد بالجهل بغير العلم بل يذم العلم وأهله، ومنهم من يغلو في بعض الشيوخ فيدعى فيه الحلول، ومن يدعي الحلول المطلق والاتحاد، ومنهم من يغلو فيمن يعتقده من الشيوخ كما يغلو النصارى في رهبانهم

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٩).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: **﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾** (٤/ ١٤٢).

ويعتقدون أن لهم أن يغلو في الدين ما شاؤا، وأن من رضي عنه غفر له، ولا يبالي بما عمل من عمل، وأن محبتهم لا يضر معها ذنب، وقد كان الشيوخ العارفون ينهون عن صحبة الأشرار وأن ينقطع العبد عن الله بصحبته الأخيار، فمن صحب الأخيار بمجرد التعظيم لهم والغلو فيهم غلواً زائداً عن الحد، وعلق قلبه بهم فقد انقطع عن الله بهم وإنما المراد من صحبة الأخيار أن يوصلوا من صحبهم إلى الله ويسلكوا طريقه ويعلموه دينه، وقد كان النبي ﷺ يحث أهله وأصحابه على التمسك بالطاعة ويقول: «اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً»[١]، وقال لأهله: «إن أوليائي منكم المتقون يوم القيامة لا يأتي الناس بالأعمال، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون: يا محمد، فأقول: قد بلغت»[٢] ولما سأله ربيعة الأسلمي مرافقته في الجنة قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[٣] فإنما يراد من صحبة الأخيار إصلاح الأعمال والأحوال والإقتداء بهم في ذلك، والانتقال من الغفلة إلى اليقظة، ومن البطالة إلى العمل، ومن التخليط إلى التكسب والقول والفعل إلى الورع، ومعرفة النفس آفاتها واحتقارها، فأما من صحبهم وأفتخر بصحبتهم وادعى بذلك الدعاوى العريضة، وهو مصر على غفلته وكسله وبطالته فهو منقطع عن الله من حيث ظن الوصول إليه كذلك المبالغة في تعظيم الشيوخ وتنزيلهم منزلة الأنبياء هو المنهي عنه وقد كان عمر وغيره من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم يكرهون أن يطلب منهم الدعاء، ويقولون: «أنبياء نحن؟»... إلى أن قال رحمه الله تعالى:

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير (٦/ ١٧) ومسلم: الإيمان (١/ ١٩٢).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب المفرد (ص٤٢) والحاكم (٤/ ٧٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة(١/ ٣٥٣).

«فالغلو من صفات النصارى، والجفاء من صفات اليهود والقصد هو المأمور به»[١].

فالغلو أصل من أصول الشرك في الأولين والآخرين، ووسيلة من الوسائل المؤدية إلى عبادة الأصنام، وقد أمرنا الله تعالى بمحبة الأنبياء والمرسلين والصالحين، وانزالهم منازلهم من العبودية، ونهانا عن الإفراط ومجاوزة الحد في تعظيمهم، فلا نرفعهم فوق منزلتهم.

وتعظيم الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ومحبتهم إنما هو باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والتقوى والعمل الصالح واقتفاء آثارهم في ذلك دون عبادتهم وعبادة قبورهم والعكوف عليها واتخاذها مساجد وأعياداً ومجامع للزيارات وغير ذلك من البدع والضلالات.

نسأل الله العافية من كل فتنة. . . آمين.

---

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص٥٦) وما بعدها.

المبحث الخامس
مسائل متفرقة متعلقة بهذا الفصل

١ ـ التنجيم

النجم الكوكب، والجمع أنجم ونجوم وهو أحد الأجرام السماوية المضيئة، والنجم علم على الثرياء خاصّة، والمنجم والمنتجم الذي ينظر في النجوم بحسب مواقيتها وسيرها يستطلع من ذلك أحوال الكون(١).

والله سبحانه وتعالىٰ خلق النجوم لمنافع عظيمة، فقد أخبر سبحانه وتعالىٰ في كتابه أنها يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر وأنها زينة السماء الدنيا وأنها رجوم للشياطين، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾(٢)، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾(٣)، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾(٤).

قال قتادة رحمه الله تعالىٰ: «خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها، فمن تأوّل فيها غير ذلك أخطأ

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ٥٦٩)، والمصباح المنير (٢/ ٥٩٤).
(٢) سورة الأنعام، آية (٩٧).
(٣) سورة النحل، آية (١٦).
(٤) سورة الملك، آية (٥).

وأضاع نصيبه وتكلّف ما لا علم به[١]، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة، من غرس بنجم كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلاّ يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابّة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء»[٢].

فالله سبحانه وتعالىٰ خلق النجوم لهذه المنافع العظيمة، أما غير ذلك مما يدّعيه أهل هذا العلم من أنهم يستدلّون بحركات النجوم وطلوعها وغروبها على أحداث وأمور ستقع، فهذا كلّه من ادّعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالىٰ، وهو الذي حذّر منه قتادة رحمه الله تعالىٰ في كلامه السابق، ولكن التعلّق بالكواكب وربط ذلك بما يحدث في الأرض بدأ يزداد في كل عصر حتى بلغ الغاية في عصرنا هذا، وأصبح ذلك من الأمور المسلّمة التي لا تقبل الجدل عند كثير من الناس، وهذا كلّه ضلال وشرك لأنه من أعمال الجاهلية التي جاء الإسلام بإبطالها، وبيّن أنها من الشرك لما فيها من التعلّق بغير الله تعالىٰ، واعتقاد الضرّ والنفع في غيره وتصديق العرّافين والكهنة الذين يدّعون علم الغيب زوراً وبهتاناً، ويعبثون بعقول السذّج من الناس ليأخذوا أموالهم ويغيّروا عقائدهم.

قال الخطابي رحمه الله تعالىٰ: «علم المنجوم المنهي عنه هو ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في

---

(١) أخرجه إلى هذا القدر الطبري في تفسيره (٢٩/ ٣، ٤)، وذكره البخاري معلقاً في صحيحه (٤/ ٧٤).

(٢) أخرجه بهذه الزيادة الخطيب في كتاب النجوم ورقة (١٠)، وذكره ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٩٥)، وصاحب تيسير العزيز الحميد (ص٣٨٨) من قول قتادة.

مستقبل الزمان، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحرّ والبرد وتغيّر الأسعار وما كان في معانيها من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترانها، ويدّعون لها تأثيراً في السفليات، وأنها تتصرّف على أحكامها وتجرى على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكّم على الغيب وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه»[١].

وقال البغوي رحمه الله تعالىٰ: «والمنهي من علم النجوم ما يدّعيه أهلها من معرفة الحوادث التي لم تقع في مستقبل الزمان مثل إخبارهم بوقت هبوب الرياح ومجيء المطر ووقوع الثلج، وظهور الحرّ والبرد وتغيّر الأسعار ونحوها، يزعمون أنهم يستدركون معرفتها بسير الكواكب واجتماعها وافتراقها، وهذا علم استأثر الله عزّ وجلّ به لا يعلمه أحد غيره»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: «صناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوى الفلكي والقوابل الأرضية صناعة محرّمة بالكتاب والسنّة وإجماع الأمّة، بل هي محرّمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل»[٣].

فعلم التنجيم المحرّم هو ما يزعم أهله من أنهم يعرفون ما يكون في المستقبل من أمور عامّة وأحداث لم تقع أنها ستقع في زمن معيّن، وخاصة عن طريق النجوم والنظر فيها كأخبارهم عن أوقات مجيء المطر

---

(١) معالم السنن (٤/ ٢٢٩، ٢٣٠).
(٢) شرح السنة (١٢/ ١٨٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢).

وهبوب الرياح، وتغيّر الأسعار، وما كان يماثلها من الأمور، حيث أنهم يدّعون أن للكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها تأثيراً في الأمور السفلية والتنجيم بهذا يكون من ادّعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالىٰ؛ كما دلّت على ذلك النصوص الكثيرة في كتاب الله وسنّة الرسول ﷺ، وهو نوع من أنواع السحر، لأنه ضرب من التخييل والإيهام وهو شرك، لأن فيه استعانة بغير الله سبحانه وتعالىٰ.

وأمّا تعلّم منازل الشمس والقمر للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول، فهذا رخّص فيه كثير من العلماء لحصول المنفعة به، وهو وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات والاهتداء به إلى الجهات.

قال الخطابي رحمه الله تعالىٰ: «فأمّا علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحسّ الذي يعرف به الزوال ويعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيها نهي عنه، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً، فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصحّ إدراكه من جهة المشاهدة، إلاّ أن أهل هذه الصناعة قد دبّروه بما اتّخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدّته ومراصدته. وأمّا ما يستدلّ به من جهة النجوم على جهة القبلة، فإنما هي كواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمّة الذين لا نشكّ في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ويشاهدوها في حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم؛ إذ كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصّرين في معرفتهم»[1].

---

(١) معالم السنن (٤/ ٢٣٠)، وانظر تيسير العزيز الحميد (ص٣٩٣).

وقد كره بعض العلماء تعلّم منازل القمر سداً لباب الشرك وحسماً لمادّته.

وقد تكلّم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ عن مسألة التنجيم، وبيّن أن هذا النوع من العلم ينقسم إلى قسمين: علم تسيير وعلم تأثير، وقد نقل بعض أقوال أهل العلم في جواز علم التسيير الذي به تعرف القبلة وأوقات الصّلاة. أمّا علم التأثير فقد بيّن أنه باطل ومحرّم وقد ذكر الأدلّة التي تبيّن بطلانه وحرمته، فقال رحمه الله تعالىٰ: «وكان النخعي[١] لا يرى بأساً أن يتعلّم الرجل من النجوم ما يهتدي به ورخّص في تعلّم منازل القمر أحمد وإسحاق، ويتعلّم من أسماء النجوم ما يهتدى به، وكره قتادة تعلّم منازل القمر، ولم يرخّص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، وقال طاووس[٢]: ربّ ناظر في النجوم ومتعلّم حروف أبي جاد[٣] ليس له عند الله خلاق»، خرّجه حرب، وخرّجه حميد بن

---

(١) أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي اليماني ثم الكوفي، الإمام الحافظ، فقيه العراق وأحد الأعلام، وكان واسع الرواية، كبير الشأن، توفي سنة ٩٦هـ.

طبقات ابن سعد (٦/ ٢٧٠)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢٠).

(٢) طاووس بن كيسان أبو عبد الرحمٰن الفارسي اليمني، الفقيه الحافظ عالم اليمن، كان ثقة عابداً، توفي سنة ١٠٦هـ.

طبقات ابن سعد (٥/ ٥٣٧)، ووفيات الأعيان (٢/ ٥٠٩)، وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣٤١).

(٣) هي الحروف المرتبة في الكلمات التالية: أَبْجَدْ هَوَّز حُطّي كَلَمُنْ سَعْفَصْ قَرَشَتْ ثَخَذْ ضَظَغْ. وقد استعمل هذا الترتيب للعدد والحساب والتاريخ بجعل كل حرف دالاً على عدد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الصواب أن هذه ليست أسماء لمسمّيات، وإنما أُلّفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم... ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب =

زنجويه[١] من رواية طاووس عن ابن عباس[٢].

هذا محمول على علم التأثير لا علم التسيير، فإن علم التأثير باطل محرّم، وفيه ورد الحديث المرفوع: «ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»، خرّجه أبو داود[٣] من حديث ابن عباس مرفوعاً.

وخرّج أيضاً من حديث قبيصة مرفوعاً: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت»[٤]. والعيافة: زجر الطير، والطرق: الخط في الأرض.

= العدد، وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة أو على ألفاظ الأقيسة المؤلفة. مجموع الفتاوى (١٢/ ٦٢)، وانظر المزهر للسيوطي (٢/ ٣٤٢)، وتاج العروس (٧/ ٤٠٢)، والفهرسة والترتيب المعجمي (ص٥٨).

(١) حميد بن مخلد بن قتيبة الأزدي أبو أحمد المشهور بابن زنجويه، الإمام الحافظ، وكان أحد الأئمّة المجودين، قال أبو حاتم البستي: هو الذي أظهر السنّة بنسا، له مؤلّفات مفيدة منها: كتاب الأموال، توفي سنة ٢٥١هـ.
تاريخ بغداد (٨/ ١٦٠)، وطبقات الحنابلة (١/ ١٥٠)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٥٠).

(٢) أثر ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٩).

(٣) أبو داود: كتاب الطب، باب في النجوم (٤/ ٢٢٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (١/ ٢٢٧)، وابن ماجه: كتاب الأدب ـ باب تعلّم النجوم (٣٧٢٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٣٥)، والبيهقي في السنن (٨/ ١٣٨).
وقال النووي في رياض الصالحين (٦٣٧): إسناده صحيح، وقال الذهبي في الكبائر (١٢٣): رواه أبو داود بسند صحيح، وقال العراقي في تخريج الاحياء (٤/ ١١٧): أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح.

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب في الخط وزجر الطير (٤/ ٢٢٩)، وأحمد (٣/ ٤٧٧)، والنسائي كما في تحفة الأشراف (٨/ ٢٧٥)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٦٩)، والبيهقي في السنن (٨/ ١٣٩)، وحسّنه النووي كما في فيض القدير للمناوي (٤/ ٣٩٥).

فعلم تأثير النجوم باطل محرّم، والعمل بمقتضاه كالتقرّب إلى النجوم وتقريب القرابين لها كفر.

وأمّا علم التسيير، فإذا تعلّم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطريق، كان جائزاً عند الجمهور، وما زاد عليه فلا حاجة إليه وهو يشغل عمّا هو أهمّ منه، وربما أدّى التدقيق فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين في أمصارهم كما وقع ذلك كثيراً من أهل هذا العلم قديماً وحديثاً، وذلك يفضي إلى اعتقاد خطأ الصحابة والتابعين في صلاتهم في كثير من الأمصار وهو باطل»[١].

٢ ـ التطيّر والتشاؤم

الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن هي التشاؤم بالشيء، وهو مصدر تطيّر[٢].

يقول ابن عبد البرّ رحمه الله تعالىٰ: «أصل التطيّر واشتقاقه عند أهل العلم باللغة والسير والأخبار هو مأخوذ من زجر الطير ومروره سانحاً أو بارحاً، منه اشتقوا التطيّر، ثم استعملوا ذلك في كل شيء من الحيوان وغير الحيوان، فتطيّروا من الأعور والأعضب والأبتر...»[٣].

والتشاؤم مأخوذ من الشؤم وهو ضدّ اليمن، تقول: تشأمت بالشيء وتيّمنت به[٤].

يقول ابن القيّم رحمه الله تعالىٰ: «كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها، فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سمّوه سانحاً، وما تياسر منها

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص٩ ـ ١٢).
(٢) النهاية لابن الأثير (٣/ ١٥٢)، وانظر الصحاح (٢/ ٧٢٨).
(٣) التمهيد (٩/ ٢٨٢).
(٤) انظر: الصحاح (٥/ ١٩٥٧)، والنهاية لابن الأثير (٢/ ٥١٠).

سمّوه بارحاً، وما استقبلهم منها فهو الناطح، وما جاءهم من خلفهم سمّوه القعيد، فمن العرب من يتشاؤم بالبارح ويتبرّك بالسانح، ومنهم من يرى خلاف ذلك»[١].

وقد جاء الإسلام بتطهير القلوب من كل شوائب الشرك التي منها التطيّر بالأشخاص والأماكن والأزمان، واعتقاد أنها هي السبب في بعض ما يصيب الإنسان.

ولقد حرّم الإسلام الطيرة وعدّها من الشرك، لأن المتطيّر يعتقد أن شيئاً من المخلوقات ينفع أو يضرّ، ولأن في ذلك إغفالاً للخالق سبحانه وتعالىٰ، وثلباً لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر.

وفي الواقع أن التطيّر والطيرة لا تضرّ إلاّ من اعتقدها، فإنك تجد معتقدها دائم الخوف قلق النفس مضطرب الفكر والرأي والتصرفات، وتجد عنده من التردّد وضعف اليقين وقلّة التوكّل وسوء الظن ما يعكّر عليه صفو حياته ويوهن عقيدته ويفتح للشيطان أبوابه[٢].

وقد تكلّم ابن رجب رحمه الله تعالىٰ عن مسألة التطيّر وبيّن أنها من الأعمال الشركية التي كان يفعلها أهل الجاهلية، وذكر الأدلّة التي تدلّ على تحريم الطيرة والنهي عنها، فقال: «والطيرة من أعمال أهل الشرك والكفر، وقد حكاها الله تعالىٰ في كتابه عن قوم فرعون[٣] وقوم صالح[٤]

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٢٩).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٣) وهو في قوله تعالىٰ: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، سورة الأعراف، آية (١٣١).

(٤) وهو في قوله تعالىٰ: ﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون﴾ سورة النمل، آية (٤٧).

وأصحاب القرية[١] التي جاءها المرسلون، وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا طيرة»[٢]، وفي حديث: «من ردّته الطيرة فقد قارف الشرك»[٣]، وفي حديث ابن مسعود المرفوع: «الطيرة من الشرك وما منّا إلاّ، ولكن الله يذهبه بالتوكّل»[٤]. والبحث عن أسباب الشر من النظر في النجوم ونحوها من الطيرة المنهي عنها، والباحثون عن ذلك غالباً لا

---

(١) وهو قوله تعالىٰ: ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليسمنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾ سورة يس، آية (١٨، ١٩).

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري: كتاب الطب ـ باب الطيرة (١٠/ ١٨١).
ومسلم: كتاب السلام، باب الطيرة والفأل (٢٢٢٣) كلاهما من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا طيرة، وخيرها الفأل، قيل: يا رسول الله، وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

(٣) أخرجه ابن وهب في الجامع (١١٠)، والبزار في مسنده كما في كشف الأستار (٣/ ٤٠٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١١٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٠٥) رواه البزار، وفيه سعيد بن أسد، روى عنه أبو زرعة الرازي، ولم يضعفه أحد، وشيخ البزار إبراهيم غير منسوب وبقيّة رجاله ثقات، وأخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) بلفظ: «من ردّته الطيرة من حاجة فقد أشرك، قالوا: يا رسول الله، ما كفّارة ذلك؟ قال: أن يقول أحدهم: اللّهمّ لا خير إلاّ خيرك، ولا طير إلاّ طيرك، ولا إلٰه غيرك».
وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. المسند تحقيق أحمد شاكر (١٢/ ١٠).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩)، وأبو داود: كتاب الطب ـ باب الطيرة (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب السير ـ باب ما جاء في الطيرة (٤/ ١٦٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه: كتاب الطب ـ باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٢/ ١١٧٠)، والحاكم (١/ ١٧) وقال: صحيح سنده، ثقات رواته، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي عقب تصحيحه لهذا الحديث: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث: «وما منا، ولكن الله يذهبه بالتوكّل»، هذا عندي قول عبد الله بن مسعود: وما منّا.

يشتغلون بما يدفع البلاء من الطاعات بل يأمرون بلزوم المنزل وترك الحركة، وهذا لا يمنع نفوذ القضاء والقدر... وفي صحيح ابن حبان عن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «لا طيرة والطيرة على من تطيّر»[(١)].

وقال النخعي: «قال عبد الله بن مسعود: «لا تضرّ الطيرة إلاّ من تطيّر»، ومعنى هذا أن من تطيّر تطيّراً منهياً عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه ويراه مما يتطيّر به حتى يمنعه مما يريد من حاجته فإنه قد يصيبه ما يكرهه، فأمّا من توكّل على الله ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفاً ورجاءاً قطعه عن الالتفات إلى هذه الأسباب المخوّفة... إلى أن قال رحمه الله تعالىٰ: «وأمّا من اتّقى أسباب الضرر بعد انعقادها بالأسباب المنهي عنها، فإنه لا ينفعه ذلك غالباً كمن ردّته الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطيّر به، فإنه كثيراً ما يصاب ما خشي منه، وكمن اتقّى الطاعون الواقع في بلده بالفرار منه، فإنه قلّ أن ينجيه ذلك، وقد فرّ كثير من المتقدمين والمتأخّرين من الطاعون فأصابهم ولم ينفعهم الفرار، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾[(٢)]...»[(٣)].

فقد أوضح ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في كلامه السابق أن الطيرة شرك لما فيها من تعلّق القلب بغير الله عزّ وجلّ، حيث أنهم يعتقدون أن

---

(١) أخرجه ابن حبان كما في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٧/ ٦٤٢)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ١٠٩)، قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٦٣): وفي صحته نظر لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيد الله بن أبي بكر عن أنس، وعتبة مختلف فيه.

(٢) سورة البقرة، آية (٢٤٣).

(٣) لطائف المعارف (ص٧١، ٧٣).

الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضرّاً من دون الله عزّ وجلّ، وهذا عين الشرك المنهيّ عنه.

كما أوضح ابن رجب رحمه الله تعالىٰ أن من أمور الجاهلية التي نهى عنها الرسول ﷺ التشاؤم بالهامة وصفر وغيرها، فقال رحمه الله تعالىٰ: «وأمّا قوله ﷺ: «ولا هامة»، فهي نفي لما كانت الجاهلية تعتقده أن الميّت إذا مات صارت روحه هامة وهو طائر يطير وهو شبيه باعتقاد أهل التناسخ أن أرواح الموتى تنتقل إلى أجساد حيوانات من غير بعث ولا نشور.

وكل هذه اعتقادات باطلة جاء الإسلام بإبطالها وتكذيبها، ولكن الذي جاءت به الشريعة أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنّة، وترد من أنهار الجنّة إلى أن يردّها الله إلى أجسادها[(١)]، وروي أيضاً: «إن نسمة المؤمن[(٢)] طائر يعلق في شجر الجنّة حتى يرجعها الله إلى أجسادها يوم القيامة»[(٣)].

وأمّا قوله ﷺ: «ولا صفر»، فاختلف في تفسيره، فقال كثير من المتقدّمين الصفر: داء في البطن يقال إنه دود فيه كبار كالحيات وكانوا

---

(١) كما ورد ذلك في الحديث الذي أخرجه مسلم: كتاب الإمارة ـ باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنّة (٣/ ١٥٠٢).

(٢) نسمة المؤمن: النسمة بفتحتين الروح والنفس، وكل شيء في روح فهو نسمة. النهاية لابن الأثير (٥/ ٤٩)، ولسان العرب (١٢/ ٥٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٥)، والترمذي: كتاب فضل الجهاد ـ باب ما جاء في ثواب الشهداء (٤/ ١٧٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه: كتاب الزهد ـ باب ذكر القبر والبلى (٢/ ١٤٢٨).

والنسائي: كتاب الجنائز ـ باب أرواح المؤمنين (٤/ ١٠٨)، وقال الألباني في تعليقه على شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٥٦): صحيح.

يعتقدون أنه يعدي، فنفى ذلك النبيّ ﷺ، وممّن قال هذا من العلماء ابن عيينة والإمام أحمد وغيرهما، ولكن لو كان كذلك لكان هذا داخلاً في قوله: «لا عدوى»، وقد يقال: هو من باب عطف الخاص على العام وخصّه بالذكر لاشتهاره عندهم بالعدوى.

وقالت طائفة: بل المراد بصفر شهر، ثم اختلفوا في تفسيره على قولين:

أحدهما: أن المراد نفي ما كان أهل الجاهلية يفعلون في النسئ، فكانوا يحلّون المحرم ويحرّمون صفراً مكانه، وهذا قول مالك...

والثاني: أن المراد أن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر شؤم، فأبطل النبيّ ﷺ ذلك، وهذا حكاه أبو داود عن محمد بن راشد المكحولي(١) عمّن سمعه يقول ذلك.

ولعلّ هذا القول أشبه الأقوال، وكثير من الجهّال يتشاءم بصفر وربما ينهى عن السفر فيه، والتشاؤم بصفر من جنس الطيرة المنهي عنه، وكذلك التشاؤم بالأيام كيوم الأربعاء...

وكذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوّال في النكاح فيه خاصة، وقد قيل أن أصله أن طاعوناً وقع في شوّال في سنة من السنين فمات فيه كثير من العرائس، فتشاءم بذلك أهل الجاهلية، وقد ورد الشرع بإبطاله، قالت

---

(١) محمد بن راشد المكحولي الخزاعي أبو عبد الله الدمشقي، قال أبو حاتم: كان صدوقاً حسن الحديث، وقال ابن حبان: كان من أهل الورع والنسك ولم يكن الحديث من صنعته وكثر المناكير في روايته فاستحق الترك، توفي قبل السبعين ومائة.

الجرح والتعديل (٧/ ٢٥٣)، والمجروحين (٢/ ٢٥٣)، وميزان الاعتدال (٣/ ٥٤٣)، وتهذيب التهذيب (٩/ ١٥٨).

عائشة رضي الله عنها: «تزوّجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال، فأيّ نسائه كان أحظى عنده مني»[١]. . .»[٢].

فنخلص من هذا كلّه أن الطيرة شرك تنافي كمال التوحيد، وقد يكون التطيّر منافياً للتوحيد بالكلية إذا اعتقد أنه هو الذي يجلب إليه النفع أو يدفع عنه الضرّ، والله أعلم.

٣ ـ الجمع بين قوله ﷺ: «لا عدوى» وقوله: «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد» وقوله: «لا يورد ممرض على مصح»

أشكل على العلماء قوله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة»[٣]، مع قوله ﷺ: «وفّر من المجذوم فرارك من الأسد»[٤]، وقوله: «لا يورد ممرض على مصح»[٥]، ونهيه ﷺ عن الدخول إلى أرض الطاعون أو الخروج منها[٦]، وقد أجابوا عن ذلك بأجوبة كثيرة:

١ ـ فطائفة منهم ردّت حديث أبي هريرة: «لا عدوى»، وقالوا: إن أبا هريرة رضي الله عنه رجع عن ذلك، والأحاديث الدالّة على الاجتناب أكثر، فالمصير إليها أولى.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب النكاح ـ باب استحباب التزوّج والتزويج في شوال (٢/ ١٠٣٩).

(٢) لطائف المعارف (ص٧٤، ٧٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطب ـ باب لا صفر (٧/ ١٩)، ومسلم: كتاب السلام ـ باب لا عدوى ولا طيرة (٤/ ١٧٤٣).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الطب ـ باب الجذام (٧/ ١٧).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الطب ـ باب الجذام (٧/ ١٧)، ومسلم: كتاب السلام ـ باب لا عدوى ولا طيرة (٤/ ١٧٤٣).

(٦) سبق إيراد هذا الحديث وتخريجه (ص٣٤٩).

٢ ـ وطائفة أخرى عكست القول، وأخذوا بحديث: «لا عدوى»، وتركوا الأخذ بالأحاديث الأخرى التي فيها الأمر بالاجتناب، وأعلّوا بعضها بالشذوذ كحديث: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، وأن عائشة رضي الله عنها أنكرته وقالت: «ولكنه قال: «لا عدوى»، وقال: «فمن أعدى الأوّل».

وهذان القولان لا يسلمان من المآخذ.

أمّا الأول: فقولهم إن أبا هريرة راوي حديث «لا عدوى» رجع عنه... فإن هذا لا يضرّ؛ لأن الحديث قد رواه جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وابن عمر وغيرهم، فنسيان أبي هريرة لا يضرّ.

وأمّا القول الثاني: فقولهم بإعلال حديث «فر من المجذوم»، فإن ذلك لا يضرّ لأن أحاديث الاجتناب الأخرى ثابتة.

٣ ـ وقالت طائفة أخرى: إن أحاديث النفي مخاطب بها قوى الإيمان، وأحاديث الإثبات مخاطب بها ضعيف الإيمان.

قال صاحب تيسير العزيز الحميد: «وهذا القول فيه نظر»(١).

٤ ـ وقال طائفة: إن قوله ﷺ: «لا عدوى» نفي لما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من إضافة الفعل لغير الله تعالىٰ، وأن هذه الأمراض تعدى بطبعها وإلاّ قد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح للمريض سبباً لحدوث المرض وانتقاله إلى الصحيح.

ولعلّ القول الأخير هو أرجح الأقوال وأحسنها، وقد رجّحه طائفة من العلماء(٢).

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٣٧٢).

(٢) انظر: حكاية هذه الأقوال في فتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٦٠ ـ ١٦٢)، وتيسير العزيز الحميد (ص٣٧١ ـ ٣٧٤).

وقد تكلّم ابن رجب رحمه الله تعالىٰ عن هذه المسألة، وذكر بعض أقوال العلماء فيها ورجح القول الأخير، فقال: «وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا هامة ولا صفر»، فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرحل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال رسول الله ﷺ: «فمن أعدى الأوّل»[1].

أمّا العدوى فمعناها أن المرض يتعدّى من صاحبه إلى من يقارنه من الأصحّاء، فيمرض بذلك، وكانت العرب تعتقد ذلك في أمراض كثيرة منها الجرب، ولذلك سأل الأعرابي عن الإبل الصحيحة يخالطها البعير الأجرب فتجرب، فقال النبيّ ﷺ: «فمن أعدى الأول»، ومراده أن الأوّل لم يجرب بالعدوى بل بقضاء الله وقدره، فكذلك الثاني وما بعده.

وقد وردت أحاديث أشكل على كثير من الناس فهمها، حتى ظن بعضهم أنها ناسخة لقوله: «لا عدوى»، مثل ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «لا يورد ممرض على مصح»[2]، والممرض صاحب الإبل المريضة، والمصح صاحب الإبل الصحيحة. والمراد النهي عن إيراد الإبل المريضة على الصحيحة، ومثل قوله ﷺ: «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»[3]، وقوله ﷺ في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها»[4]، ودخول النسخ في هذا كما تخيّله بعضهم لا معنى له، فإن معنى قوله: «لا عدوى» خبر محض لا يمكن نسخه، إلاّ أن يقال هو نهي عن اعتقاد العدوى لا نفي لها،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٨١).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٨١).

(٣) تقدم تخريجه (٤٨١).

(٤) تقدم تخريجه (ص٣٤٩).

ولكن يمكن أن يكون ناسخاً للنهي في هذه الأحاديث الثلاثة وما في معناها.

والصحيح الذي عليه جمهور العلماء أنه لا نسخ في ذلك كلّه، ولكن اختلفوا في معنى قوله: «لا عدوى»، وأظهر ما قيل في ذلك أنه نفي لما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن هذه الأمراض تعدى بطبعها من غير اعتقاد تقدير الله لذلك، ويدلّ على ذلك قوله: «فمن أعدى الأول»، يشير إلى أن الأوّل إنما جرب بقضاء الله وقدره فكذلك الثاني وما بعده، خرج الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن مسعود قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «لا يعدى شيء شيئاً» (قالها ثلاثاً)، فقال أعرابي: يا رسول الله النُّقْبة[1] من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلّها، فقال رسول الله ﷺ: «فما أجرب الأول، لا عدوى ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها»[2].

فأخبر أن ذلك كلّه بقضاء الله وقدره؛ كما دلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[3]، فأمّا نهيه ﷺ عن إيراد الممرض، وأمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن الدخول إلى موضع الطاعون، فإنه من باب اجتناب الأسباب

---

(١) النقبة: بضم النون وسكون القاف، قال ابن الأثير: أوّل شيء يظهر من الجرب وجمعها نقب بسكون القاف، لأنها تنقب الجلد أي تخرقه. النهاية لابن الأثير (٥/ ١٠١).

(٢) مسند أحمد (١/ ٤٤٠)، وسنن الترمذي: كتاب القدر ـ باب ما جاء لا عدوى ولا هامة ولا صفر (٤/ ٤٥٠).
وقد سبق حديث أبي هريرة (ص٤٨١)، وهو بمعناه.

(٣) سورة الحديد، آية (٢٢).

التي خلقها الله تعالىٰ وجعلها أسباباً للهلاك والأذى، والعبد مأمور باتّقاء أسباب البلاء إذا كان في عافية منها، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذى، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، أو القدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلّها أسباب للمرض والتلف، والله تعالىٰ هو خالق الأسباب ومسبّباتها ولا خالق غيره ولا مقدّر غيره.

وأمّا إذا قوي التوكّل على الله تعالىٰ والإيمان بقضائه وقدره، فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كان فيه مصلحة عامّة أو خاصة.

وعلى مثل هذا يحمل الحديث الذي خرّجه أبو داود والترمذي أن النبيّ ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة، ثم قال: «كل باسم الله ثقة بالله وتوكّلاً عليه»[1]، وقد أخذ به الإمام أحمد، وروي ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم، ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه من أكل السم، ومنه مشي سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني[2] بالجيوش على متن البحر. . . فهذا كلّه لا

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب ـ باب الطيرة (٤/ ٢٣٩)، والترمذي: كتاب الأطعمة ـ باب الأكل مع المجذوم (١٨١٨)، وقال: حديث غريب، وابن ماجه: كتاب الطب ـ باب الجذام (٣٥٤٢)، والحاكم (٤/ ١٣٦)، وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) أبو مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني الداراني، قال العجلي: «تابعي ثقة، من كبار التابعين وعبادهم»، وقال ابن عبد البر: «أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبيّ ﷺ ولم يرَ رسول الله ﷺ، وهو معدود من كبار التابعين، وكان ناسكاً عابداً، له كرامات وفضائل». توفي رحمه الله تعالىٰ سنة ٦٢هـ.

=

يصلح إلاّ لخواص من الناس قوي إيمانهم بالله وقضائه وقدره وتوكّلهم عليه وثقتهم به[١].

وقال رحمه الله تعالىٰ إيضاً: «فإن جميع النعم من الله وفضله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٢]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٣]، ولا تضاف النعم إلى الأسباب بل إلى مسبّبها ومقدّرها؛ كما في الحديث عن النبيّ ﷺ أنه صلّى بهم الصبح في أثر سماء ثم قال: «أتدرون ما قال ربكم الليلة»؟ قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا المؤمن فقال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا الكافر فقال: مطرنا بنوء[٤] كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[٥].

= تاريخ الثقات للعجلي (ص٥١١)، والاستيعاب لابن عبد البرّ (٤/ ١٧٥٧)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٧).

(١) لطائف المعارف (ص٦٧ ـ ٦٩).

(٢) سورة النساء، آية (٧٩).

(٣) سورة النحل، آية (٥٣).

(٤) نوء: جمعها أنواء وهي منازل القمر وهي ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾، سورة يس، آية (٣٩).
وكانت العرب في الجاهلية تقول: إذا سقط منها نجم، وطلع آخر لا بدّ أن يكون عند ذلك مطر، فينسبون كل مطر يكون عند ذلك إلى النجم، ويقولون: مطرنا بنوء كذا.
وإنّما سمّي نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق، ينوء نوءاً أي نهض وطلع.
النهاية لابن الأثير (٥/ ١٢٢).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب المغازي ـ باب غزوة الحديبية (٥/ ٦٢)، ومسلم: كتاب الإيمان ـ باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (١/ ٨٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر»[1]، وهذا يدلّ على أن المراد نفي تأثير هذه الأسباب بنفسها من غير اعتقاد أنها بتقدير الله وقضائه، فمن أضاف شيئاً من النعم إلى غير الله مع اعتقاد أنه ليس من الله فهو مشرك حقيقة. ومع اعتقاد أنه من الله فهو نوع من الشرك الخفي[2].

٤ ـ معنى قوله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث»

جاءت بعض الأحاديث التي ظنّ بعض الناس أنها تدلّ على جواز الطيرة، ومن ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث: في المرأة والدابّة والدار»[3]، وفي رواية عند مسلم: «إن كان الشؤم في شيء ففي الفرس والمسكن والمرأة»[4].

وقد ورد هذا الحديث عن عدد من الصحابة وبألفاظ مختلفة، فقد رواه عبد الله بن عمر وأبو هريرة وسهل بن سعد وجابر وغيرهم.

وقد تكلّم العلماء رحمهم الله تعالىٰ على هذا الحديث وأجابوا عنه بعدّة أجوبة:

١ ـ فقال بعضهم: هذا مستثنى من الطيرة المنهي عنها، فإذا كره

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٨٢).

(٢) لطائف المعارف (ص٧٠، ٧١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطب ـ باب الطيرة (٧/ ٢٧)، ومسلم: كتاب السلام ـ باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (٤/ ١٧٤٧).

(٤) صحيح مسلم: كتاب السلام ـ باب الطيرة والفأل، وما يكون فيه من الشؤم (٤/ ١٧٤٧).

الرجل داراً سكنها أو امرأة صحبها أو فرساً أو خادماً، فليفارق الجميع بالبيع والطلاق ونحوه فإنها مشؤومة[١].

٢ - وقال آخرون: لم يجزم النبيّ ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة بل علّقه على الشرط... وهو قوله: «إن كان»، وغلطوا الراوي في روايته بالجزم دون الشرط.

قال في تيسير العزيز الحميد: «ولا يصح تغليطه مع إمكان حمله على الصحة، ورواية تعليقه بالشرط لا تدلّ على نفي رواية الجزم»[٢].

٣ - وقالت طائفة أخرى: إن الشؤم في هذه الأشياء إنما يلحق من تشاءم بها وتطيّر بها فيكون شؤمها عليه، أما من توكّل على الله ولم يتشاءم ولم يتطيّر لم تكن مشؤومة عليه، قالوا: ويدلّ عليه حديث أنس: «لا طيرة والطيرة على من تطيّر»[٣].

٤ - وهناك قول لعائشة رضي الله عنها وهو إنكارها لهذا الحديث، حيث قالت: «والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول، ولكن نبيّ الله ﷺ كان يقول: «كان أهل الجاهلية يقولون الطيرة في المرأة والدار والدابة»، ثم قرأت عائشة قول الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾[٤] إلى آخر الآية[٥].

---

(١) انظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٧٨، ١٧٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٣٧٦).

(٣) تقدم تخريجه (٤٧٨).

(٤) سورة الحديد، آية (٢٢).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٠٤): رجاله رجال الصحيح.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: «... ولكن قول عائشة هذا مرجوح، ولها رضي الله عنها اجتهاد في ردّ بعض الأحاديث الصحيحة خالفها فيه غيرها من الصحابة، وهي رضي الله عنها لما ظنت أن هذا الحديث يقتضي إثبات الطيرة التي هي من الشرك لم يسعها غير تكذيبه وردّه، ولكن الذين رووه ممن لا يمكن ردّ روايتهم، ولم ينفرد بهذا أبو هريرة وحده، ولو انفرد به فهو حافظ الأمة»[(١)].

وقال ابن حجر رحمه الله تعالىٰ: «ولا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة مع موافقته من ذكرنا من الصحابة في ذلك»[(٢)].

وقد ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ بعض هذه الأقوال[(٣)]، ثم قال: «والتحقيق أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاث... أن هذه الثلاث أسباب يقدر الله تعالىٰ بها الشؤم واليمن ويقرنه، ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابّة أن يسأل الله تعالىٰ من خيرها وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ به من شرّها وشرّ ما جبلت عليه كما في حديث عمرو[(٤)] ابن شعيب

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥٤).

(٢) فتح الباري ابن حجر (٦/ ٦١).

(٣) انظر حكاية هذه الأقوال في مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٧)، وطرح التثريب (٨/ ١٢٠ ـ ١٢٣)، وفتح الباري (٦/ ٦١، ٦٢)، وتيسير العزيز الحميد (ص٣٧٦ ـ ٣٧٧).

(٤) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص أبو إبراهيم السهمي، اضطرب قول أئمّة الجرح والتعديل فيه، وغالبهم على توثيقه، وإنما أنكروا عليه بعض رواياته عن أبيه عن جدّه، وهو ثقة في نفسه، قال ابن حجر في التقريب: «صدوق»، أخرج له الأربعة. توفي سنة ١١٨هـ.
الجرح والتعديل (٦/ ٢٣٨)، وميزان الاعتدال (٣/ ٢٦٣)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٤٨)، وتقريب التهذيب (ص٢٦٠).

عن أبيه[١] عن جدّه[٢] عن النبيّ ﷺ الذي أخرجه أبو داود[٣] وغيره، وكذا ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك، وقد أمر النبيّ ﷺ قوماً سكنوا داراً فقلّ عددهم وقلّ مالهم أن يتركوها ذميمة»[٤]، فترك ما لا يجد الإنسان فيه بركة من دار أو زوجة أو دابّة غير منهي عنه، وكذلك من اتّجر في شيء فلم يربح فيه ثلاث مرات فإنه يتحوّل عنه[٥].

بهذا يتبيّن أن الشؤم موجود في بعض الأشياء لكن التشاؤم بهذه الأشياء هو الممنوع، فالواجب على المسلم أن يعتقد أن كل شيء من الله تعالىٰ، ولا مانع من أن يبتعد عن الأعيان المشؤومة حقاً،لا ما يتوهمه أو يوسوس له الشيطان فيه، لأن الاسترسال في ذلك يفتح له أبواباً من الشيطان تفسد عليه دينه وحياته.

أمّا وجه تخصيص هذه الثلاثة بالذكر، فقيل: إن الحصر فيها بالنسبة

---

(١) أبوه هو شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، روى عن جدّه الأعلى عبد الله بن عمرو بن العاص. قال ابن حجر: «صدوق، ثبت سماعه من جدّه».
الجرح والتعديل (٤/ ٣٥١)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٨١)، وتقريب التهذيب (ص١٤٦).

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الصحابي الجليل.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح ـ باب في جامع النكاح (٢/ ٦١٦)، وابن ماجه: كتاب النكاح ـ باب ما يقول الرجل إذا دخلت على أهله (١/ ٦١٧)، والحاكم (٢/ ١٨٥) وقال: هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي. والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٤٨)، وقال العراقي: إسناده جيّد. تخريج الإحياء (١/ ٣٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب الطب ـ باب في الطيرة (٤/ ٢٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد ـ باب الشؤم في الفرس (ص٣٠٧)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٧٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤١١)، وقال ابن حجر في الفتح (٦/ ٦٢): إن إسناد عبد الرزاق صحيح.

(٥) لطائف المعارف (ص١٥٧).

إلى العادة لا بالنسبة إلى الخلقة، وقيل: إنما خصّت بالذكر لطول ملازمتها.

وقال المازري[١]: مجمل هذه الرواية: إن يكن الشؤم حقاً فهذه الثلاثة أحقّ به، بمعنى أن النفوس يقع فيها التشاؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها[٢].

وقال صاحب فيض القدير: وخصّ الثلاثة بالذكر لكونها أعمّ الأشياء التي يتداولها الناس[٣].

٥ ـ النهي عن البناء على القبور واتخاذها مساجد

لقد حذّر الرسول ﷺ أمّته عن اتّخاذ القبور مساجد ونهاهم عن ذلك نهياً شديداً، والأحاديث التي تدلّ على النهي عن ذلك كثيرة:

منها حديث جندب بن عبد الله البجلي قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «... ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[٤].

---

(١) محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري المالكي، الشيخ الإمام، كان بصيراً بعلم الحديث، قال عنه القاضي عياض: «لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض أفقه منه بمذهبهم». توفي سنة ٥٣٦هـ.
وفيات الأعيان (٤/ ٣٨٥)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٠٤)، وشذرات الذهب (٤/ ١١٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٦١).

(٣) فيض القدير (٣/ ٣٣).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٧).

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١).

ومنها حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه، قال ـ وهو كذلك ـ: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا(٢).

ومنها حديث عائشة أن أمّ حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبيّ ﷺ، فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»(٣).

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالّة على تحريم بناء المساجد على القبور، لأن ذلك يفضي إلى الغلوّ فيها وعبادة أهلها من دون الله تعالىٰ.

وقد تكلّم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ عن هذه المسألة وأوضحها وبيّنها في فتح الباري عند شرحه للأحاديث الواردة في البخاري عنها، فقال رحمه الله تعالىٰ عند شرحه لحديث عائشة السابق: «هذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة ـ باب حدثنا أبو اليمان (١/ ١١٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور. . . (١/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة ـ باب حدثنا أبو اليمان (١/ ١١٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة ـ باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ويتّخذ مكانها مساجد (١/ ١١٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي من بناء المساجد على القبور. . . (١/ ٣٧٥).

الحديث يدلّ على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين، وتصوير صورهم فيها كما يفعله النصارى، ولا ريب أن كل واحد منهما محرّم على انفراده، فتصوير صور الآدميين يحرم، وبناء القبور على المساجد بانفراده يحرم، كما دلّت عليه نصوص أُخر، يأتي ذكر بعضها، وقد ذكر البخاري في تفسير سورة نوح من روى هذا من حديث ابن جريج. قال عطاء عن ابن عباس: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد، أمّا ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن نصّبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت»(١)... فإن اجتمع بناء المساجد على القبور مع تصوير صورهم فلا شكّ في تحريمه سواء كانت صوراً متّخذة كالأصنام أو على حائط ونحوه كما تفعله النصارى في كنائسهم والتصاوير التي في الكنيسة التي ذكرتها أم حبيبة وأمّ سلمة أنهما رأتاها بالحبشة كانت على الحيطان ونحوها، ولم يكن لها ظل، فتصوير الصور على مثال صور الأنبياء والصالحين للتبرّك بها والاستشفاع بها يحرّم في دين الإسلام، وهو من جنس عبادة الأوثان، وهو الذي أخبر النبيّ ﷺ أن أهله شرار الخلق عند الله يوم القيامة، وتصوير الصور للتأسي برؤيتها أو للتنزّه بذلك، والتلهّي محرم، وهو من الكبائر، وفاعله من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة، فإنه ظالم ممثل بأفعال الله تعالىٰ التي لا يقدر على فعلها غيره، وأنه تعالىٰ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير ـ باب (ودا ولا سواعاً ولا يغوث ولا يعوق ونسراً) (٦/ ٧٣).

صفاته ولا في أفعاله سبحانه وتعالىٰ»[١].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وكان رسول الله ﷺ يحذّر أصحابه وسائر أمّته من سوء صنيع الأمم قبلهم الذين صلّوا إلى قبور أنبيائهم واتّخذوها قبلة ومسجداً كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظّمونها وذلك الشرك الأكبر، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه وأنه مما لا يرضاه خشية عليهم من امتثال طرقهم، وكان رسول الله ﷺ يحبّ مخالفة أهل الكتاب وسائر الكفار وكان يخاف على أمّته اتّباعهم، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «لتتبعنّ سنن الذين كانوا من قبلكم حذو النعل بالنعل حتى إن أحدهم لو دخل جحر ضب لدخلتموه»[٢]، وكان يحذّر من ذلك في مرض موته كما في حديث جندب أن النبيّ ﷺ قال ذلك قبل موته بخمس، وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي عبيدة بن الجراح قال: آخر ما تكلّم به رسول الله ﷺ: «أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٣].

---

(١) فتح الباري (٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام ـ باب قول النبيّ ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» (٨/ ١٥١)، ومسلم: كتاب العلم ـ باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٤/ ٢٠٥٤).
كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٦)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وأخرجه أيضاً الدارمي في سننه (٢/ ٢٣٣)، والحميدي في مسنده (١/ ٤٦)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص٢٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠٨).
قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٢٥): رواه أحمد بأسانيد ورجال الطريقين منها ثقات متّصل إسنادهما.
وله شواهد سبقت في (ص٤٩٢).

وقد روى هذا المعنى عن النبيّ ﷺ، وأنّه قال ذلك في مرض موته من حديث علي وأسامة بن زيد وكعب بن مالك وغيرهم.

وخرّج الإمام أحمد حديث أسامة بن زيد ولفظه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أدخل عليّ أصحابي»، فدخلوا فكشف القناع، ثم قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١]. . .»[٢].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «اتّخاذ القبور مساجد ليس هو من شريعة الإسلام بل هو من عمل اليهود وقد لعنهم النبيّ ﷺ على ذلك. . . وقد دلّ القرآن على مثل ما دلّ عليه هذا الحديث، وهو قول الله عزّ وجلّ في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[٣].

فجعل اتّخاذ القبور مساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتّباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المتّبعين لما أنزل الله على رسله من الهدى»[٤].

ولذلك يقول رحمه الله تعالىٰ: «فالعدوى التي تهلك من قاربها هي المعاصي، فمن قاربها وخالطها وأصرّ عليها هلك، وكذلك مخالطة أهل المعاصي، ومن يحسن المعصية ويزيّنها ويدعو إليها من شياطين الإنس، وهم أضرّ من شياطين الجن»[٥].

ويقول رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وفي الجملة فلا شؤم إلاّ المعاصي

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠٤).
(٢) فتح الباري ورقة (٢/ ٤٤١ ـ ٤٤٢).
(٣) سورة الكهف، آية (٢١).
(٤) فتح الباري ورقة (٢/ ٣٩٧).
(٥) لطائف المعارف (ص٧٧).

والذنوب، فإنها تسخط الله عزّ وجلّ، فإذا سخط الله على عبده شقى في الدنيا والآخرة، كما أنه إذا رضي عن عبده سعد في الدنيا والآخرة»[١].

وبهذا نعلم صحة ما ذهب إليه ابن رجب رحمه الله تعالىٰ من حرمة البناء على القبور واتّخاذها مساجد، كما قال بذلك سلف الأمة رحمهم الله تعالىٰ.

وهذا كلّه من سدّ باب الشرك ووسائله، لأن الشارع الحكيم إذا حرّم شيئاً حرّم أسبابه ووسائله، وإذا نهى عن شيء نهى عن كل ما يوصل إليه ويقرب منه ومن ذلك أن الإسلام لما جاء بالنهي عن الشرك، نهى عن أسبابه وسدّ ذرائعه الموصلة إليه والمسبّبة له.

ولذلك كان البناء على القبور ووضع القباب لها واتّخاذها مساجد سبباً في وقوع الشرك، وهذه بلية مشاهدة في بلدان كثيرة وخصوصاً في زماننا هذا، أن هذه المشاهد أصبحت تقصد وتشدّ الرحال إليها ويطلب من أهلها قضاء الحوائج وتحقيق المطالب، ويقع عندها من الشرك والمنكرات ما لا يشكّ معه عاقل من وجوب اقتلاع تلك الأبنية والقباب والمشاهد الوثنية وعدم إبقاء أيّ أثر لها.

والله أسأل أن يبصّر المسلمين بأمور دينهم وأن يردّهم للعمل بكتابه وسنّة رسوله ﷺ إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

٦ ـ النهي عن سبّ الدهر

كان من عادة العرب في الجاهلية أن يسبّوا الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بهم من موت أو تلف مال وربما لعنوه، ويقولون: أبادهم الدهر وأصابتهم قوارع الدهر، ويكثرون من ذكر ذلك

---

(١) لطائف المعارف (ص٧٧).

في أشعارهم، وكل ذلك في الحقيقة إنما يرجع إلى الله سبحانه وتعالىٰ، لأنه هو المدبّر لهذا الكون والخالق له، والمصرف لهذا الدهر، والدهر ليس له إرادة وإنما هو ظرف مخلوق مسخّر ومدبّر بأمر الله تعالىٰ، فالسبّ والشتم في الحقيقة والتسخّط يعود إلى الله سبحانه وتعالىٰ، واعتقاد أن الزمان هو الفاعل حقيقة من عقيدة الجاهلين الذين ينفون الإلٰه سبحانه وتعالىٰ وينكرونه.

وقد حكى الله سبحانه وتعالىٰ في القرآن الكريم عقيدتهم هذه وردّ عليهم، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالىٰ عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أي ما ثم إلاّ هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة والإلٰهيون منهم... وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرّر مرات لا تتناهى فكابروا المعقول وكذّبوا المنقول، ولهذا قالوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أي يتوهمون ويتخيّلون»[2].

وقد ورد النهي عن سبّ الدهر في أحاديث كثيرة، لأن في ذلك مشابهة للمشركين، ولأن السبّ في الحقيقة إنما ينصرف إلى من بيده الأمور كلّها، وهو الله سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) سورة الجاثية، آية (٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٠).

ومما ورد في النهي عن سب الدهر حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»(١).

ومنها حديثه الآخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزّ وجلّ: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما»(٢).

ومنها حديثه الآخر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا الدهر، فإن الله هو الدهر»(٣).

ومنها حديثه الآخر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا الدهر، فإن الله عزّ وجلّ قال: أنا الدهر، الأيّام والليالي لي أجدّدها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك»(٤).

قال المنذري رحمه الله تعالىٰ: «ومعنى الحديث أن العرب كانت إذا نزلت بأحدهم نازلة، وأصابته مصيبة أو مكروه يسبّ الدهر اعتقاداً منهم أن الذي أصابه فعل الدهر كما كانت العرب تستمطر بالأنواء، وتقول: مطرنا بنوء كذا اعتقاداً أن فعل ذلك فعل الأنواء، فكان هذا كاللعن الفاعل، ولا فاعل لكل شيء إلاّ الله تعالىٰ، خالق كل شيء وفاعله،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿يريدون أن يبدّلوا كلام الله﴾ (٨/ ١٩٧)، ومسلم: كتاب الأدب ـ باب النهي عن سبّ الدهر (٤/ ١٧٦٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأدب ـ باب النهي عن سبّ الدهر (٤/ ١٧٦٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأدب ـ باب النهي عن سبّ الريح (٤/ ١٧٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٩٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٧١): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
وقال الألباني: وهذا إسناد جيد. سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٥٨).

فنهاهم النبيّ ﷺ عن ذلك»[(١)].

وقد وقع بعض المسلمين في عصرنا الحاضر فيما وقع فيه هؤلاء المشركون الدهرية، فما نزال نسمع من الجهلة والمتعلّمين سباباً للزمان والدهر كلما نزل بهم مكروه أو ضاقت بهم سبل الحياة، وهذا ناتج عن ضعف الإيمان والجهل بالدين، والواجب على السلم أن يرضى بقضاء الله وتدبيره حتى يتمّ له توحيده، ومن وقع في شيء من ذلك فليتب وليستغفر الله من ذلك.

وقد تناول ابن رجب رحمه الله تعالىٰ هذه المسألة، فقال: «واعلم أن الذمّ الوارد في الكتاب والسنّة ليس هو راجعاً إلى زمانها الذي هو اللّيل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإن الله تعالىٰ جعلهما خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً. . . وليس الذمّ راجعاً إلى مكان الدنيا الذي هو الأرض التي جعلها الله لبني آدم مهاداً ومسكناً، ولا إلى ما أنبته فيها من الزرع والشجر، ولا إلى ما بثّ فيها من الحيوانات وغير ذلك، فإن ذلك كلّه من نعمة الله على عباده بما لهم فيه من المنافع، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانية صانعه وقدرته وعظمته، وإنما الذمّ راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا، لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته، بل يقع على ما تضرّ عاقبته أو لا تنفع؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾[(٢)] . . .»[(٣)].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وأما تخصيص الشؤم بزمان دون زمان

---

(١) الترغيب والترهيب (٣/ ٤٨٢).

(٢) سورة الحديد آية (٢٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٥٩ ـ ٣٦١).

كشهر صفر أو غيره فغير صحيح، وإنما الزمان كلّه خلق الله تعالىٰ وفيه أفعال بني آدم، فكل زمان شغله المؤمن بطاعة الله فهو زمان مبارك عليه، وكل زمان شغله العبد بمعصية الله فهو شؤم عليه، فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله تعالىٰ»[١].

فسبّ الدهر وشتمه لا يجوز بأيّ حال من الأحوال سواء اعتقد السابّ أن الزمان والدهر فاعل حقيقة أو لم يعتقد ذلك، لأن الحديث صريح في النهي عن ذلك، قال صاحب تيسير العزيز الحميد: «والحديث صريح في النهي عن سبّ الدهر مطلقاً سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك، كما يقع كثيراً ممن يعتقد الإسلام»[٢].

وقد بيّن ابن القيم رحمه الله تعالىٰ أنّ من سبّ الدهر يقع في ثلاث مفاسد عظيمة، فقال: في هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

إحداها: سبّه من ليس بأهل أن يسبّ، فإن الدهر خلق مسخّر من خلق الله، منقاد لأمره، مذلّل لتسخيره، فسابّه أولى بالذمّ والسبّ منه.

الثانية: أن سبّه متضمّن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضرّ وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضرّ من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وإشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جداً، وكثير من الجهّال يصرح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السبّ منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتّبع الحقّ فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم حمدوا الدهر، وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر، فربّ الدهر تعالىٰ هو

---

(١) لطائف المعارف (ص٧٦).
(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٥٤٥).

المعطي المانع الخافض الرافع، المعزّ المذلّ، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبّتهم للدهر مسبّة لله عزّ وجلّ، ولهذا كانت مؤذية للربّ تعالىٰ. . .

فسابّ الدهر دائر بين أمرين لا بدّ له من أحدهما: إما سبه لله، أو الشرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسبّ من فعله، فقد سبّ الله(١).

وقوله ﷺ: (أنا الدهر)، قال الخطابي: معناه أنا صاحب الدهر ومدبّر الأمور(٢).

وقال القاضي عياض(٣) رحمه الله تعالىٰ: «زعم بعض من لا تحقيق له أن الدهر من أسماء الله، وهو غلط فإن الدهر مدّة زمان الدنيا»(٤).

وقال شيخنا فضيلة الشيخ عبد الله الغنيمان حفظه الله: وقوله: (أنا الدهر) لا يدلّ على أنه تعالىٰ اسمه الدهر، لأنه فسّره بقوله: «بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»، فكونه تعالىٰ بيده الأمر يقلب اللّيل والنهار هو معنى قوله: (أنا الدهر)(٥).

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي (٣/ ١٩٠٤).

(٣) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي الأندلسي أبو الفضل الحافظ المحدّث الفقيه، وهو إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، صنّف كتباً كثيرة، منها: الشفا في شرف المصطفى، وترتيب المدارك وتقريب المسالك في ذكر فقهاء مذهب مالك وغيرها، توفي سنة ٥٤٤هـ.
الصلة لابن بشكوال (٢/ ٤٥٣)، ووفيات الأعيان (٣/ ٤٨٣)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١٢)، ونفح الطيب (٧/ ٣٣٣).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٥٦٦).

(٥) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣٥١).

الباب الثالث

أثره في توضيح عقيدة السلف

في مباحث الإيمان وما يتعلق بها من مسائل

وفيه عدة فصول:

الفصل الأول: معنى الإيمان وبيان أهميته وما يتعلق به من مسائل.

الفصل الثاني: الإيمان بالرسل والملائكة والكتب.

الفصل الثالث: الإيمان بالقضاء والقدر.

الفصل الرابع: الإيمان باليوم الآخر.

الفصل الأول

معنى الإيمان وبيان أهميّته
وما يتعلق به من مسائل

وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإيمان لغة.

المبحث الثاني: تعريف الإيمان شرعاً.

المبحث الثالث: بيان أهمية الإيمان.

المبحث الرابع: زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الخامس: العلاقة بين مسمّى الإيمان والإسلام.

المبحث السادس: حكم مرتكبِ الكبيرة.

المبحث السابع: مسألة تكفير الكبائر بالأعمال الصالحة.

المبحث الأول
تعريف الإيمان لغة

الإيمان مصدر من آمن يؤمن إيماناً، فهو مؤمن، وهو مشتقّ من الأمن.

قال الجوهري: الإيمان: التصديق، والله تعالىٰ المؤمن، لأنه أمّن عباده من أن يظلمهم، وأصل آمن أأمن بهمزتين لينت الثانية... والأمن ضدّ الخوف[١].

وقال ابن منظور: الإيمان ضدّ الكفر، والإيمان بمعنى التصديق ضدّه التكذيب، يقال: آمن به قوم وكذّب به قوم[٢].

وقال الراغب الأصفهاني: آمن إنما يقال على وجهين:

أحدهما: متعدّياً بنفسه، يقال: آمنته، أي جعلت له الأمن ومنه قيل لله مؤمن.

والثاني: غير متعدٍّ، ومعناه صار ذا أمن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[٣]، قيل: معناه بمصدق لنا، إلاّ أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن[٤].

---

(١) الصحاح (٥/ ٢٠٧١).
(٢) لسان العرب (١٣/ ٢١).
(٣) سورة يوسف، آية (١٧).
(٤) المفردات (ص٢٦).

وقال الفيروز أبادي: «الإيمان الثقة، وإظهار الخضوع»[١].

وخلاصة ما سبق أن الإيمان في اللغة معناه التصديق الذي معه آمن، وليس مجرّد التصديق يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: «... فإن الإيمان مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر،... فاللفظ متضمّن مع التصديق معنى الائتمان أو الأمانة، كما يدلّ عليه الاشتقاق والاستعمال، ولهذا قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾[٢]، أي لا تقرّ بخبرنا ولا تثق به، ولا تطمئن إليه ولو كنّا صادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممّن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم...»[٣].



(١) القاموس المحيط (ص١٥١٨).
(٢) سورة يوسف، آية (١٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩١).

المبحث الثاني
تعريف الإيمان شرعاً

من أصول أهل السنّة والجماعة أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان، وعمل بالأركان.

قال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: «المشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونيّة، وأن الأعمال كلّها داخلة في مسمّى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم، وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً. . .».

قال الثوري: هو رأي محدث أدركنا السلف على غيره[1].

وقال الأوزاعي: وكان من مضى من السلف لا يفرّقون بين العمل والإيمان.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار: أمّا بعد، فإن الإيمان فرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. . .[2].

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٩٠٣).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الإيمان (١/ ٨)، وأخرجه موصولاً ابن أبي شيبة في الإيمان (٤٥)، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر. انظر تغليق التعليق (٢/ ١٩ ـ ٢٠).

وقد دلّ على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[١] الآية.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال لوفد عبد قيس: «آمركم بأربع: الإيمان بالله وحده، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»[٢].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إلٰه إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[٣]، ولفظه لـ «مسلم».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[٤]، فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمّى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيء منها، لأن الاسم لا ينتفي إلاّ بانتفاء بعض أركان المسمّى أو واجباته[٥].

---

(١) سورة الأنفال، آية (٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الايمان ـ باب أداء الخمس من الإيمان (١/ ٢١)، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان ـ باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١/ ٣٥).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الإيمان ـ باب الحياء من الإيمان (١/ ١١)، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان ـ باب عدد شعب الإيمان (١/ ٤٦).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الحدود ـ باب الزنا وشرب الخمر (٨/ ١٣)، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان ـ باب نقصان الإيمان بالمعاصي (١/ ٧٦).

(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٦١ ـ ٦٣)، وانظر فتح الباري (١/ ٥،٦).

وقال رحمه الله تعالىٰ عند قوله ﷺ: «اللّهمّ زيّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[(١)]، قال: أما زينة الإيمان، فالإيمان قول وعمل ونيّة، فزينة الإيمان تشمل زينة القلب بتحقيق الإيمان له، وزينة اللسان بأقوال الإيمان، وزينة الجوارح بأعمال الإيمان[(٢)].

ويقول رحمه الله تعالىٰ: في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله ثم جهاد في سبيل الله ثم حجّ مبرور»[(٣)]، هذه الأعمال الثلاثة ترجع في الحقيقة إلى عملين:

أحدهما: الإيمان بالله ورسوله وهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما فسّر النبيّ ﷺ الإيمان بذلك في سؤال جبريل وغيره من الأحاديث، وقد ذكر الله تعالىٰ الإيمان بهذه الأصول في مواضع كثيرة من كتابه، كأول سورة البقرة ووسطها وأخرها.

والعمل الثاني: الجهاد في سبيل الله تعالىٰ، وقد جمع الله بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[(٤)] الآية.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي: باب الذكر بعد الدعاء (٣/ ٥٤)، والحاكم (١/ ٥٢٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) شرح حديث عمار بن ياسر (ص٤٨).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الإيمان ـ باب من قال أن الإيمان هو العمل (١/ ١٢)، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان ـ باب كون الإيمان بالله تعالىٰ أفضل الأعمال (١/ ٨٨).

(٤) سورة الصف، آية (١٠، ١١).

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾[١]، وقد صح عن النبيّ ﷺ من غير وجه: «إن أفضل الأعمال الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله»[٢]، فالإيمان المجرّد تدخل فيه الجوارح عند السلف وأهل الحديث، والإيمان المقرون بالعمل يراد به التصديق مع القول، وخصوصاً إن قرن الإيمان بالله بالإيمان برسوله كما في هذا الحديث، فالإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أوتيه العبد في الدنيا والآخرة وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلّها بالأعمال الصالحة واللّسان والكلام الطيب؛ كما قال النبيّ ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[٣]، ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله وما يدخل في مسماه من معرفة الله وتوحيده وخشيته ومحبّته ورجائه وإجابته والإنابة إليه والتوكّل عليه، قال الحسن: «ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلّي، ولكنه بما وقر في الصدور، وصدّقته الأعمال»[٤].

ويشهد لذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾[٥].

فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه وحلاوته ظهر ثمرة ذلك على لسانه وجوارحه، فاستحلى اللّسان ذكر الله وما والاه، وأسرعت

---

(١) سورة الحجرات، آية (١٥).
(٢) تقدم تخريجه (ص٥١١).
(٣) تقدم تخريجه (ص٣٦٦).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص٣١).
(٥) سورة الأنفال، آية (٢ ـ ٤).

الجوارح إلى طاعة الله فحينئذ يدخل حبّ الإيمان في القلب كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد حرّه للظمأن الشديد عطشه، ويصير الخروج من الإيمان أكره إلى القلوب من الإلقاء في النار وأمرّ عليها من الصبر... فالإيمان بالله ورسوله وظيفة القلب واللّسان ثم يتبعها عمل الجوارح وأفضلها الجهاد في سبيل الله(١).

هذا ما قرّره ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في تعريف الإيمان عند أهل السنّة والجماعة، وهذا التعريف هو التعريف الذي تضافرت الأدلّة على صحته من الكتاب والسنّة، وهو ما أجمع عليه سلف هذه الأمّة عليهم رحمة الله تعالىٰ.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في كلامه السابق بعض الأدلّة من الكتاب والسنّة التي تدلّ على صحة هذا التعريف، وذكر ما حكاه الشافعي من إجماع الأمّة على ذلك، وقد حكى هذا الإجماع البغوي رحمه الله تعالىٰ، فقال: «واتّفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنّة على أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾... إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٢)، فجعل الأعمال كلّها إيماناً»(٣).

فقول السلف في الإيمان هو القول الحق الذي دلّت عليه الأدلّة الكثيرة الواردة في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ وسنّة رسوله ﷺ، وهناك أدلّة أخرى لم يذكرها ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في كلامه، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

---

(١) لطائف المعارف (ص٢٣٩ ـ ٢٤١). وانظر فتح الباري (١/ ٤١ ـ ٤٢).
(٢) سورة الأنفال، آية (٢، ٣).
(٣) شرح السنة للبغوي (١/ ٤١).
(٤) سورة البقرة، آية (١٤٣).

ووجه الدلالة من الآية تسميته سبحانه وتعالىٰ الصلاة إيماناً كما يدلّ عليه ما ورد في سبب نزولها، فقد أخرج البخاري في صحيحه أن هذه الآية نزلت في الذين ماتوا من الصحابة قبل تحويل القبلة وهم على الصلاة إلى بيت المقدس، فسئل رسول الله ﷺ عنهم، فنزلت هذه الآية[١].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[٢].

ووجه الدلالة من الآية أن لفظ الإيمان إذا ورد في كلام الشارع مطلقاً يراد به ما يراد بلفظ البرّ والتقوى والدين، كما دلّ على ذلك سبب النزول حيث أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا عن الإيمان، فأنزل الله هذه الآية[٣].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[٤].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان ـ باب الصلاة من الإيمان (١/١٧).
(٢) سورة البقرة، آية (١٧٧).
(٣) انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٤٩)، وفتح الباري (١/٥١).
وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن سبب نزول هذه الآية، أخرجه عبد الرزاق وقال: رجاله ثقات.
(٤) سورة العنكبوت، آية (١ ـ ١١٠).

ذكر هذه الآية أبو عبيد القاسم بن سلام دليلاً على أن الأعمال من الإيمان، وقال: أفلست تراه تبارك وتعالىٰ قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، ولم يكتفِ منهم بالإقرار دون العمل حتى جعل أحدهما من الآخر، فأيّ شيء يتبع بعد كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة والإمامة[1].

فهذه الأدلّة من الآيات والأحاديث دالّة على أن أعمال الجوارح داخلة في مسمّى الإيمان، وأنه لا ينفع القول والتصديق بدون العمل، وهو القول الحقّ.

والمؤمن في الحقيقة يكفيه دليل واحد من كتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ لكي يعتقد ذلك، فكيف وقد تضافرت الأدلّة الصريحة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ على صحة مذهب السلف رحمهم الله تعالىٰ.



(١) الإيمان لأبي عبيد (ص٦٦).

المبحث الثالث
أهمية الإيمان

يجب على كل معلم أن يعرف أركان الإيمان، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه، لأن الإيمان بهذه المغيبات أساس هذا الدين، لأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يقبل إيمان أحد جحد بها أو بواحد منها حتى يقرّ ويؤمن بها جميعاً.

فالإيمان بالله تعالىٰ له أهمية قصوى لأن سعادة الإنسان في الدارين مبنيّة على قوة إيمانه بالله تعالىٰ وقربه منه، فمن أطاع الله تبارك وتعالىٰ وآمن به إيماناً حقاً واجتنب ما نهي عنه فقد فاز فوزاً عظيماً، كما أن نجاة الإنسان من عذاب الله تبارك وتعالىٰ ومن عقابه الذي توعّد به الكافرين هو بالإيمان به عزّ وجلّ.

وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالىٰ تحثّ على الإيمان بالله وتبيّن أهميته.

فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[2].

---

(١) سورة العصر.
(٢) سورة النحل، آية (٩٧).

والإيمان سبب لحصول رغد العيش؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

والإيمان سبب للأمن في الآخرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2]، وهو سبب للتثبيت عند سؤال القبر والنجاة من عذابه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4]، وهو سبب لرضوان الله تعالىٰ ولدخول جنّته وللنجاة من النار، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾[5].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[6].

فالإيمان له أهمية بالغة، وقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالىٰ هذه الأهمية، فقال: «والإيمان هو قوت القلوب وغذاء الأرواح وسبب حياتها، ومتى فقدته القلوب ماتت، وموت القلوب لا يرجى معه حياة أبداً، بل هو هلاك الدنيا والآخرة؛ كما قيل:

(١) سورة الأعراف، آية (٩٦).
(٢) سورة الأنعام، آية (٨٢).
(٣) سورة إبراهيم، آية (٢٧).
(٤) سورة الأنعام، آية (٤٨).
(٥) سورة البيّنة، آية (٨).
(٦) سورة الصف، آية (١١).

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء[١]

فلذلك شبّه المؤمن بالزرع حيث كان الزرع حياة الأجساد، والإيمان حياة الأرواح»[٢].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «فمن حصل له نصيب من دين الإسلام فقد حصل له الفضل العظيم، وقد عظمت عليه نعمة الله فما أحوجه إلى القيام بشكر هذه النعمة وسؤاله دوامها والثبات عليها إلى الممات والموت عليها، فبذلك تتمّ النعمة»[٣]

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً مبيّناً أهمية مسائل الإيمان والإسلام لما يتعلق بها من الأمور الهامّة، فقال: «وهذه المسائل: أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق مسائل عظيمة جداً، فإن الله عزّ وجلّ علّق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنّة والنار»[٤].



(١) هذا البيت لعدي بن الرعلاء الغساني، نسبه إليه ابن منظور في لسان العرب (٢/ ٩١)، وكذا الزبيدي في تاج العروس (٥/ ١٠١)، وذكره بدون نسبه الأزهري في تهذيب اللغة (١٤/ ٣٤٣)، والجوهري في الصحاح (١/ ٢٦٧).

(٢) غاية النفع شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع (ص٣١، ٣٢).

(٣) لطائف المعارف (ص٨٦، ٨٧).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٢).

المبحث الرابع
زيادة الإيمان ونقصانه

الإيمان الذي دلّت عليه الأدلّة في كتاب الله تبارك وتعالىٰ وسنّة رسوله ﷺ إيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات والعبادات من ذكر الله والتفكّر في الكون وما فيه من المخلوقات، وأداء النوافل، والمسارعة إلى كل عمل يقرّب من الله تعالىٰ، وينقص بفعل المعاصي وإتيان المنكرات والفواحش، وكل عمل يبعد العبد عن الله عزّ وجلّ.

والقول بزيادة الإيمان ونقصانه أصل من أصول أهل السنّة والجماعة وقد أجمعوا عليه، ولا عبرة بمن خالف ذلك من أهل البدع والأهواء، لأن معتقد أهل السنّة والجماعة رحمهم الله تعالىٰ هو المعتقد الذي دلّت عليه النصوص الواردة في كتاب الله تعالىٰ وسنّة رسوله ﷺ.

فمن أدلّة الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا

(١) سورة آل عمران، آية (١٧٣).
(٢) سورة الأنفال، آية (٢).

ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[(٢)].

هذه بعض الآيات الدالّة على زيادة الإيمان، والآيات في معناها كثيرة جداً.

وأمّا الأدلّة من السنّة، فمنها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمّة قبلي إلاّ كان له من أمّته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل»[(٣)].

ومنها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جزلة[(٤)]: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكنّ»، قالت: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أمّا نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان

---

(١) سورة التوبة آية (١٢٤، ١٢٥).
(٢) سورة الفتح، آية (٤).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان ـ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص (١/ ٧٠).
(٤) جزلة: أي ذات عقل ورأي جيّد. لسان العرب (١١/ ١٠٩).

العقل، وتمكث الليالي ما تصلّي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدّين»[١].

ومنها حديثة حنظلة الأسيدي رضي الله عنه، قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله، ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنّة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات[٢]، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك»؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنّة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»[٣]، ثلاث مرات.

ومنها حديث أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزرة ذرة من خير»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض ـ باب ترك الحائض الصوم (١/٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات (١/٨٦).

(٢) الضيعات: مفردها ضيعة، وضيعة الرجل ما يكون عنده من معاشه كالصنعة والتجارة والزراعة وغير ذلك.
النهاية لابن الأثير (٣/١٠٨).

(٣) تقدم تخريجه (ص٤١٤).

(٤) تقدم تخريجه (٣١٧).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتنى كلباً إلاّ كلب صيد أو ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراطان»(١).

فهذه بعض أدلّة السلف من القرآن الكريم والسنّة المطهّرة تدلّ أن الإيمان يزيد وينقص، وإن كان بعضها فيه لفظ الزيادة فقط، فإنها تدل بطريق الالتزام على النقص، لأن الشيء الذي يقبل الزيادة يقبل النقص، وإلاّ فلا معنى للزيادة، إذ لا يمكن أن يتصوّر شيء قابل للزيادة غير قابل للنقصان، روي الآجري بسنده أنه قيل لسفيان بن عيينة: «الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرؤون القرآن ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾(٢) في غير موضع، قيل: ينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلاّ وهو ينقص»(٣).

وروى أيضاً الآجري واللالكائي(٤) عن الحميدي، أنّه قال: سمعت ابن عيينة يقول: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة(٥): يا أبا محمد، لا تقولن يزيد وينقص، فغضب وقال: اسكت يا صبي، بل ينقص حتى لا يبقى منه شيء»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح ـ باب من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد أو ماشية (٦/ ٢١٩)، ومسلم: كتاب المساقاة ـ باب الأمر بقتل الكلاب (٣/ ١٢٠١).

(٢) سورة آل عمران، آية (١٧٣).

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة (ص١١٧).

(٤) الإمام الحافظ المجود أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، مفيد بغداد في وقته، من مؤلفاته العظيمة: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، توفي سنة ٤١٨هـ.
تاريخ بغداد (١٤/ ٧٠)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٤١٩).

(٥) إبراهيم بن عيينة أبو إسحاق أخو سفيان بن عيينة، كان إماماً خيّراً. قال ابن معين: كان مسلماً صدوقاً، ولم يكن من أصحاب الحديث، توفي سنة ١٩٩هـ.
الجرح والتعديل (٢/ ١١٨)، وميزان الاعتدال (١/ ٥١)، وتهذيب التهذيب (١/ ١٤٩).

(٦) أخرجه الآجري في الشريعة (ص١١٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة (٥/ ٩٦٠).

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان في الإيمان عن جمع غفير من الصحابة ومن بعدهم، فعن ابن عباس وأبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهم كلّهم قالوا: «الإيمان يزيد وينقص»[١].

وعن عمير بن حبيب رضي الله عنه ـ وهو من الصحابة ـ قال: «الإيمان يزيد وينقص، قيل له: ما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عزّ وجلّ خشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيّعنا فذلك نقصانه»[٢].

وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنّه كان يقول لأصحابه: هلموا نزدد إيماناً، فيذكرون الله عزّ وجلّ[٣].

ومن أقوال التابعين ومن بعدهم في ذلك:

ما روي عن مالك رحمه الله تعالىٰ، أنّه قال: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص[٤].

وقال سهل بن المتوكّل[٥] رحمه الله تعالىٰ: (أدركت ألف أستاذ أو أكثر كلّهم يقولون: «الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص»)[٦].

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (ص١١١)، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة (١/ ٣١٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٤، ٩٤٥).

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (ص١١١)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص٧)، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة (١/ ٣١٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (٣٦)، والآجري في الشريعة (١١٢)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة (٥/ ٩٤١).

(٤) أخرجه الآجري في الشريعة (ص١١٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٣١٧).

(٥) هو سهل بن المتوكل بن حجر أبو عصمة البخاري من بني شيبان، يروي عن أبي الوليد الطيالسي وأهل العراق، روى عنه أهل بلده.
انظر الثقات لابن حبان (٨/ ٢٩٤).

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة (٥/ ٩٥٧).

وعن الأوزاعي رحمه الله تعالىٰ قال: «الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فاحذروه فإنه مبتدع»(١).

والآثار الواردة في هذا المعنى عن الصحابة والتابعين وأئمّة السلف من بعدهم كثيرة جداً، وكلّها تدلّ على أنهم مجمعون على القول بزيادة الإيمان ونقصانه، وقد تناول ابن رجب رحمه الله تعالىٰ هذه المسألة وبيّن أنّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بعمل الطاعات وخصال الخير، وينقص بترك الطاعات وفعل المعاصي.

يقول رحمه الله تعالىٰ: «ومن أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان. ومن كان حبّه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصاً في إيمانه، فيجب عليه التوبة من ذلك، والرجوع إلى اتّباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبة الله ورسوله وما فيه رضا الله ورسوله على هوى النفس ومراداتها كلّها»(٢).

وقال رحمه الله تعالىٰ وهو يتكلّم عن الحرص على المال، وأن من طلب المال من الوجوه المحرّمة ومنع به الحقوق الواجبة فقد نقص إيمانه بذلك، قال «ومتى وصل الحرص على المال إلى هذه الدرجة نقص بذلك الدين والإيمان نقصاً بيّناً، فإن منع الواجبات وتناول المحرمات ينقص بهما الدّين، والإيمان بلا ريب ينقص، حتى لا يبقى منه إلاّ القليل»(٣).

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وفي السنن عن النبيّ ﷺ قال: «من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله فقد استكمل الإيمان»(٤).

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (ص١١٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ٢٢٦).

(٣) جامع البيان شرح حديث «ما ذئبان جائعان» (ص١٣).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب السنة ـ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٥/ ٦٠)، والترمذي: كتاب صفة القيامة ـ باب اعقلها وتوكّل (٤/ ٦٧٠)، وقال: هذا حديث حسن.

ومعنى هذا أن كل حركات القلب والجوارح إذا كانت لله فقد كمل إيمان العبد بذلك باطناً وظاهراً، ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحاً ليس فيه إلاّ إرادة الله وإرادة ما يريده، لم تنبعث الجوارح إلاّ فيما يريده الله، فسارعت إلى ما فيه رضاه، وكفت عما يكرهه، وعمّا يخشى أن يكون مما يكرهه وإن لم يتيقّن ذلك[١].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً وهو يتكلّم عن شارب الخمر: «وكلّما أدمن الخمر وعكف عليها نقص إيمانه وضعف ونزع منه، فيخشى أن يسلبه بالكلية عند الموت»[٢].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «محاسبة النفس على ما سلف من أعمالها والندم، والتوبة من الذنوب السالفة، والحزن عليها، واحتقار النفس والازدراء بها، ومقتها في الله عزّ وجلّ، والبكاء من خشية الله تعالىٰ، والتفكّر في ملكوت السماوات والأرض، وفي أمور الآخرة وما فيها من الوعد والوعيد ونحو ذلك يزيد الإيمان في القلب»[٣].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «ويدخل في مسمّى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك»[٤].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وقوله ﷺ: «وذلك أضعف الإيمان»[٥]، يدلّ على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصال

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٤).
(٢) رسالة في ذم الخمر وشاربها (ص٣٤).
(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٤٦).
(٤) المصدر السابق (١/ ٧٣).
(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم: كتاب الإيمان (١/ ٦٩).

الإيمان، ويدلّ على أن من قدر على خصلة من خصال الإيمان وفعلها كان أفضل من تركها عجزاً.

ويدلّ على صحة ذلك أيضاً: قوله ﷺ في حق النساء: «أما نقصان دينها، فإنها تمكث الأيام والليالي لا تصلّي»[١]، يشير إلى أيّام الحيض، مع أنها ممنوعة حينئذ من الصلاة، وقد جعل ذلك نقصاً في دينها، فدلّ على أن من قدر على واجب وفعله، فهو أفضل ممن عجز عنه وتركه، وإن كان معذوراً في تركه»[٢].

بهذا يتبيّن أن مذهب أهل السنّة والجماعة ـ ومنهم الحافظ ابن رجب ـ هو القول بزيادة الإيمان ونقصانه، وهو الحق الذي دلّت عليه نصوص الكتاب والسنّة.

أمّا غيرهم من المبتدعة على اختلاف أسمائهم، فقالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وكل منهم استدلّ بأدلّة مختلفة، ولكل منهم وجهة، ولكن هدفهم واحد وهو أن الإيمان غير قابل للزيادة والنقصان.

والسلف يعدّون من أنكر زيادة الإيمان ونقصانه من المرجئة ذكر البيهقي بإسناده عن الثوري، أنّه قال: «خالفنا المرجئة في ثلاث: نحن نقول: الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: قول بلا عمل؛ ونحن نقول: يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص؛ ونحن نقول: أهل القبلة عندنا مؤمنون، أما عند الله فالله أعلم، وهم يقولون: نحن عند الله مؤمنون»[٣].

  

---

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه (ص٥٢١).
(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ٦١).
(٣) الاعتقاد للبيهقي (ص٨٤).

المبحث الخامس
العلاقة بين مسمّى الإيمان والإسلام

إن المتتبّع لآيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ يجد أن اسم الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام، وتارة يذكر مقروناً به، وكذلك اسم الإسلام تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإيمان، وتارة يذكر مقروناً به، وبالتالي فإنهما أحياناً يكونان بمعنى واحد فهما مترادفان، وأحياناً يراد من أحدهما معنى مغاير لمعنى الآخر، فهما متغايران.

ويمكن حصر ذلك في الأقسام التالية:

١ - وردت آيات في القرآن الكريم وأحاديث في سنّة المصطفى ﷺ تدلّ على أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾(١).

ومنها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل، وفيه قال جبريل للنبيّ ﷺ: «أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه

(١) سورة الحجرات، آية (١٤).

سبيلاً، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك...»(١).

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس فيهم، قال سعد: فترك رسول الله ﷺ منهم من لم يعطه، وهو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمناً، فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلماً»، قال: فسكت قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمناً؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلماً»، قال: فسكت قليلاً، ثم غلبني ما علمت منه فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمناً؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلماً، إني لأعطي الرجل وغيره أحبّ إليّ منه، خشية أن يكبّ في النار على وجهه»(٢).

فهذه الأدلّة تدلّ على أن الإسلام والإيمان متغايران.

٢ ـ وردت آيات وأحاديث تفيد أن الأعمال الظاهرة داخلة في معنى الإيمان، وأن الأعمال الباطنة داخلة في معنى الإسلام. منها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان (١/ ١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان (١/ ٣٦).
(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان ـ باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة (١/ ١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان ـ باب تألف من يخاف على إيمانه لضعفه (١/ ١٣٢).
(٣) سورة الحجرات، آية (١٥).

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾[(١)].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾[(٢)].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[(٣)].

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلاّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[(٤)].

ومنها حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «أن يسلم قلبك لله عزّ وجلّ وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك»، قال: فأيّ الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان»، قال: وما الإيمان؟ قال: «تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت»، قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: «الهجرة»، قال: فما الهجرة؟ قال: «تهجر السوء»، قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: «الجهاد»[(٥)].

---

(١) سورة البقرة، آية (١ ـ ٥).
(٢) سورة آل عمران، آية (٨٥).
(٣) سورة المائدة، آية (٣).
(٤) تقدم تخريجه (ص٥١٠).
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١١٤)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير بنحوه ورجاله ثقات.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم»[1].

٣ ـ وردت آيات وأحاديث تفيد أن الإسلام والإيمان مترادفان.

منها قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾[2].

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة، فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، فتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيى الصيام فيقول: أي يا رب، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال على ذلك، فيقول الله عزّ وجلّ: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله عزّ وجلّ: إنك على خير بك اليوم آخذ وبك أعطي، فقال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[3]»[4].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥١٠).

(٢) سورة الذاريات، آية (٣٥، ٣٦).

(٣) سورة آل عمران، آية (٨٥).

(٤) أخرجه أحمد (١٦/٣٠٢) حديث رقم (٨٧٢٧)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٥): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط وفيه عباد بن راشد وثّقه أبو حاتم وغيره، وضعّفه جماعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

وقد تكلّم السلف الصالح وأئمّة الإسلام رحمهم الله تعالىٰ على هذه المسألة، وصنفوا فيها الكتب والمقالات، وخلاصة كلامهم في هذه المسألة تنحصر في الأقوال[١] التالية:

١ ـ ذهب الزهري وحماد بن زيد إلى أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل، والمراد بالكلمة شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله.

٢ ـ وذهب الإمام البخاري ومحمد بن نصر المروزي[٢] وابن منده[٣] وابن عبد البرّ وغيرهم إلى أن الإسلام والإيمان مترادفان يراد بأحدهما ما يراد بالآخر.

٣ ـ وذهب أكثر أهل العلم من السلف إلى القول بأن الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما شمل الدين كلّه أصوله وفروعه من اعتقاداته وأقواله وأفعاله الظاهرة والباطنة.

---

(١) انظر حكاية هذه الأقوال في: تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٣١)، والإيمان لابن منده (١/ ٣٢١)، والتمهيد لابن عبد البر (٩/ ٣٤٩ ـ ٢٥٠)، والإيمان لابن تيمية (ص٢١٦) وما بعدها، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٦٣) وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص٣٩٠ ـ ٣٩٤)، وفتح الباري لابن حجر (١/ ١١٤).

(٢) محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله الإمام الحافظ، كان إمام عصره في الحديث، وكان من أعلم أهل زمانه باختلاف الصحابة والتابعين، وكان عابداً زاهداً، له مؤلّفات عظيمة منها «تعظيم قدر الصلاة»، توفي سنة ٢٩٤هـ.
تاريخ بغداد (٣/ ٣١٥)، والمنتظم (٦/ ٦٣)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٦٥٠).

(٣) محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده، الإمام الحافظ أبو عبد الله، محدث الإسلام، كان من أوسع العلماء رحلة وأكثرهم حديثاً وشيوخاً، وكان جبلاً من جبال العلم، وله مؤلّفات كثيرة منها: كتاب الإيمان، وكتاب التوحيد، توفي سنة ٣٩٥هـ.
ذكر أخبار أصبهان (٢/ ٣٠٦)، وطبقات الحنابلة (٢/ ١٦٧)، وتذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٣١).

وإذا قرن بينها وذكرا معاً، فعند ذلك يفترقان في المعنى فيراد بالإسلام الأعمال الظاهرة، ويراد بالإيمان الاعتقادات الباطنة.

والقول الأخير هو القول الذي تجتمع عليه النصوص الواردة في هذه المسألة، وهو أرجح الأقوال.

وقد تكلّم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ على هذه المسألة وأوضحها وبيّنها بياناً شافياً، فقال رحمه الله تعالىٰ بعد ذكره لبعض النصوص التي ذكرتها سابقاً: «وأمّا وجه الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان، وتفريق النبيّ ﷺ بينهما وإدخاله الأعمال في مسمّى الإسلام دون الإيمان، فإنه يتّضح بتقرير آصل وهو أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسمّيات متعدّدة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قرن ذلك الإسم بغيره صار دالاًّ على بعض تلك المسمّيات، والإسم المقرون له دالّ على باقيها، وهذا كإسم الفقير والمسكين، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج، فإذا قرن أحدهما بالآخر دلّ أحد الإسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات والآخر على باقيها، فهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، ودلّ بانفراده على ما يدلّ عليه الآخر بانفراده، فإذا قرن بينهما دلّ أحدهما على بعض ما يدلّ عليه بانفراده ودلّ الآخر على الباقي، وقد صرّح بهذا جماعة من الأئمّة».

قال أبو بكر الإسماعيلي[1] في رسالته إلى أهل الجبل، قال كثير

---

(١) هو الإمام الحافظ الحجّة شيخ الإسلام أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني الإسماعيلي، قال ابن كثير عنه: «سمع الكثير وحدّث وخرّج وصنّف فأفاد وأجاد، وأحسن الاعتقاد والانتقاد، صنّف كتاباً على صحيح البخاري فيه فوائد كثيرة وعلوم غزيرة»، توفي سنة ٣٧١هـ، رحمه الله تعالىٰ.
الأنساب (١/ ٢٤٩)، والبداية والنهاية (١١/ ٣٣٤)، وطبقات الشافعية لابن هداية (ص٩٥).

من أهل السنّة والجماعة: «إن الإيمان قول وعمل، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله، إذا ذكر كل اسم على حدته مضموماً إلى الآخر، فقيل المؤمنون والمسلمون جميعاً، مفردين أريد بأحدهما معنى لم يرد به الآخر، وإذا ذكر أحد الاسمين شمل الكل وعمّهم.

وقد ذكر هذا المعنى أيضاً الخطابي في كتابه معالم السنن[١]، وتبعه جماعة من العلماء من بعده، ويدلّ على صحة ذلك أن النبيّ ﷺ فسّر الإيمان عند ذكره مفرداً في حديث وفد عبد القيس بما فسّر به الإسلام المقرون بالإيمان في حديث جبريل، وفسّر في حديث الآخر الإسلام بما فسّر به الإيمان كما في مسند الإمام أحمد عن عمرو[٢] بن عنبسة. . .»[٣].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وبهذا التفصيل الذي ذكرناه يزول الإختلاف، فيقال: إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر، فلا فرق بينهما حينئذ، وإن قرن بين الإسمين كان بينهما فرق، والتحقيق في الفرق بينهما: أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته، والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له، وذلك يكون بالعمل وهو الدين، كما سمّى الله في كتابه الإسلام ديناً، وفي حديث جبريل سمّى النبيّ ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان ديناً، وهذا أيضاً مما يدلّ على أن أحد الإسمين إذا أفرد دخل فيه الآخر، وإنما يفرق بينهما حيث قرن أحد الإسمين بالآخر، فيكون حينئذ المراد بالإيمان جنس تصديق القلب، وبالإسلام جنس العمل. . . وكان النبيّ ﷺ يقول في دعائه إذا صلّى على الميّت: «اللّهمّ من أحييته منّا فأحيه على الإسلام، ومن توفّيته منا فتوفّه

---

(١) انظر: معالم السنن (٤/ ٣١٥).

(٢) سبق ذكر حديث عمرو بن عنبسة (ص٥٢٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٣ ـ ٦٥).

على الإيمان»[١]، لأن الأعمال بالجوارح، وإنما يتمكّن منه في الحياة، فأمّا عند الموت فلا يبقى غير التصديق بالقلب.

ومن هنا قال المحقّقون من العلماء كل مؤمن مسلم، فإن من حقّق الإيمان، ورسخ في قلبه قام بأعمال الإسلام؛ كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب»[٢]، فلا يتحقّق القلب بالإيمان إلاّ وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام، وليس كل مسلم مؤمناً، فإنه قد يكون الإيمان ضعيفاً فلا يتحقّق القلب به تحقّقاً تامّاً مع عمل جوارحه أعمال الإسلام، فيكون مسلماً وليس بمؤمن الإيمان التامّ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[٣] الآية، فلم يكونوا منافقين بالكلية على أصحّ التفسيرين... بل كان إيمانهم ضعيفاً، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ الآية، يعني: لا ينقصكم من أجورها، فدلّ على أن معهم من الإيمان ما يقبل به أعمالهم...

أما اسم الإسلام، فلا ينتفي بانتفاء بعض واجباته أو انتهاك بعض محرّماته، وإنما ينفي بالإتيان بما ينافيه بالكلية، ولا يعرف في شيء من السنّة الصحيحة نفي الإسلام عمّن ترك شيئاً من واجباته كما ينفي الإيمان

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨)، وأبو داود: كتاب الجنائز ـ باب الدعاء للميت (٣/ ٥٣٩)، والترمذي: كتاب الجنائز ـ باب ما يقول في الصلاة على الميّت (٣/ ٣٤٤)، وابن ماجه: كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في الدعاء في الصلاة على الجنازة (١/ ٤٨٠)، والحاكم (١/ ٣٥٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٦٦).

(٣) سورة الحجرات، آية (١٤).

عمّن ترك شيئاً من واجباته وإن كان قد ورد إطلاق الكفر على فعل بعض المحرّمات وإطلاق النفاق أيضاً... وإذا تبيّن أن اسم الإسلام لا ينتفي إلاّ بوجود ما ينافيه ويخرج عن الملّة بالكلية، فاسم الإسلام إذا أطلق أو اقترن به المدح دخل فيه الإيمان كلّه من التصديق وغيره[١].

وبهذا يتبيّن لنا أن القول الثالث هو القول الصحيح الذي تفهم به النصوص، وتجتمع عليه أقوال السلف رحمهم الله تعالىٰ.



(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٦ ـ ٦٩).

المبحث السادس
حكم مرتكب الكبيرة

دلّت نصوص الكتاب والسنّة على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، وهو ما أجمع عليه السلف رحمهم الله تعالىٰ.

فمن الأدلّة التي وردت في الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾(٣).

قال القرطبي رحمه الله تعالىٰ في تفسيره لهذه الآية: «لما نهى الله تعالىٰ في هذه السورة عن آثام هي كبائر، وعدّ على اجتنابها التخفيف من الصغائر، دلّ هذا على أن في الذنوب كبائر وصغائر، وعلى هذا جماعة أهل التأويل وجماعة الفقهاء، وأن اللمسة والنظرة باجتناب الكبائر تكفر قطعاً بوعده الصدق، وقوله الحق لا أنه يجب عليه ذلك»(٤).

---

(١) سورة النجم، آية (٣٢).
(٢) سورة الشورى، آية (٣٧).
(٣) سورة النساء، آية (٣١).
(٤) تفسير القرطبي (٥/١٥٨).

ومن الأدلّة في السنّة حديث أبي بكرة رضي الله عنه، قال: قال النبيّ ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متّكئاً فقال: ألا وقول الزور، قال: فما زال يكرّرها حتى قلنا ليته سكت»(١).

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، فقال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قول الزور، أو قال: شهادة الزور»(١).

وحديث عمير بن قتادة رضي الله عنه: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: ما الكبائر؟ فقال: «هن تسع: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، وأكل الرّبا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً»(٢).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهنّ إذا اجتنبت الكبائر»(٣).

والأحاديث التي ورد فيها لفظ الكبائر كثيرة جداً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب ـ باب عقوق الوالدين من الكبائر (٧/ ٧١)، ومسلم: كتاب الإيمان ـ باب بيان الكبائر وأكبرها (١/ ٩١).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الوصايا ـ باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم (٣/ ٢٩٥)، والحاكم (٤/ ٢٥٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٤٠٨)، وقال الذهبي في الكبائر (١٦٨): سنده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة ـ باب الصلوات الخمس (١/ ٢٠٩).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ: «وذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر وهو مرويّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد تظاهر على ذلك دلائل من الكتاب والسنّة واستعمال سلف الأمّة وخلفها»(١).

وأرى من المناسب قبل الكلام عن حكم صاحب الكبيرة أن أذكر تعريفاً مختصراً للكبيرة.

١ ـ معنى الكبيرة لغة:

قال ابن منظور رحمه الله تعالىٰ: الكِبْر، الإثم الكبير، وما وعد الله عليه النار، والكِبْرَة كالكبر: التأنيث للمبالغة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ...﴾(٢)، وفي الأحاديث ذكر الكبائر في غير موضع واحدتها كبيرة: وهي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعاً لتعظيم أمرها(٣).

٢ ـ تعريف الكبيرة شرعاً:

اختلف العلماء رحمهم الله تعالىٰ في تعريف الكبيرة على أقوال(٤) كثيرة تزيد على عشرين قولاً، قال ابن القيّم رحمه الله تعالىٰ: «... وأمّا

---

(١) شرح مسلم للنووي (٢/ ٨٥).

(٢) سورة الشورى، آية (٣٧).

(٣) لسان العرب (٦/ ٤٤٣).

(٤) انظر الأقوال في تعريف الكبير في شرح مسلم للنووي (٢/ ٨٥ ـ ٨٧)، ومجموع الفتاوى (١/ ٦٥٧)، ومدارج السالكين (١/ ٣٢١ ـ ٣٢٧)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٤١٧ ـ ٤١٨)، والزواجر عن اقتراف الكبائر للهيثمي (١/ ٥ ـ ١٠)، وفتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤١٠ ـ ٤١٢)، والدر المنثور للسيوطي (٢/ ٤٩٨ ـ ٥٠٠).

الكبائر فاختلف السلف فيها اختلافاً لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة[١].

فقيل: هي كل ما وعد الله عليه بالنار.

وقيل: هي كل ما نهى الله عنه.

وقيل: هي ما اتّفقت الشرائع على تحريمه.

إلى غير ذلك من الأقوال التي قيلت في تعريف الكبيرة، وأولى الأقوال وأحسنها وأرجحها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[٢]، قال: «الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب»[٣].

وهذا القول هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ، حيث ذكر أن هذا التعريف هو أحسن التعاريف وأمثلها للوجوه التالية:

منها: أنه المأثور عن السلف بخلاف تلك الضوابط.

ومنها: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله في الذنوب.

ومنها: أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر، وأمّا تلك الأمور فلا يمكن الفرق بها بين الكبائر والصغائر[٤].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢٠).
(٢) سورة النساء، آية (٣١).
(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ٤١).
(٤) انظر مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٤، ٦٥٥).

كما اختاره ابن حجر رحمه الله تعالىٰ، حيث قال بعد ذكره لبعض الأقوال في تعريف الكبيرة، قال: ومن أحسن التعاريف قول القرطبي[١] في المفهم: كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنّة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم أو أخبر فيه بشدّة عقاب أو علقّ عليه حدّ أو شدّد النكير عليه فهو كبيرة، وعلى هذا فينبغي تتبّع ما ورد فيه الوعيد أو اللّعن أو الفسق من القرآن والأحاديث الصحيحة والحسنة، ويضمّ إلى ما ورد فيه التنصيص في القرآن والأحاديث الصحاح والحسان على أنه كبيرة، فمهما بلغ مجموع ذلك عرف منه تحرير عدّها»[٢].

أمّا حكم مرتكب الكبيرة، فإن عقيدة أهل السنّة والجماعة في ذلك أن من ارتكب كبيرة دون الشرك ولم يستحلّها فإنه لا يكفر بل يسمّى مؤمناً ناقص الإيمان، فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وإذا مات مصرّاً عليها ولم يتب منها فإن أمره إلى الله تعالىٰ إن شاء غفر له ذنبه وأدخله الجنّة ابتداءاً تفضّلاً منه سبحانه، وإن شاء عذّبه بقدر ذنبه عدلاً منه سبحانه، ثم يخرجه من النار ويدخله الجنّة، لأنه لا يخلد في النار إلاّ المشرك.

قال أبو عثمان الصابوني رحمه الله تعالىٰ مقرّراً عقيدة السلف في هذه المسألة: «ويعتقد أهل السنّة أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة صغائر

(١) أحمد بن عمر بن إبراهيم أبو العباس الأنصاري القرطبي، فقيه مالكي، من رجال الحديث، قال ابن كثير: «سمع الكثير واختصر الصحيحين، وشرح صحيح مسلم المسمّى بالمفهم، وفيه أشياء حسنة مفيدة محرّرة رحمه الله تعالىٰ». توفي سنة ٦٥٦هـ.
البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٢)، وحسن المحاضرة (١/ ٧٦٠)، وشذرات الذهب (٥/ ٢٧٣).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٢/ ١٨٤).

وكبائر فإنه لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله عزّ وجلّ إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنّة يوم القيامة سالماً غانماً، غير مبتلى بالنار ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عفا عنه وعذّبه مدّة بعذاب النار، وإذا عذّبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار»[١].

وقد خالفت في ذلك فرق المعتزلة والخوارج والمرجئة ومن نحا نحوهم وخالفوا نصوص الكتاب والسنّة، حيث أن الخوارج كفّروا مرتكب الكبيرة وأخرجوه من الإيمان وحكموا عليه في الخلود في نار جهنّم، وقد وافقتهم المعتزلة على الخلود في نار جهنم في الآخرة. أما في الدنيا، فقالوا: إنه يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر وإنما هو في منزلة بين المنزلتين. وأمّا المرجئة فقد فتحوا باب شر عظيم وهوّنوا أمر المعاصي، حيث قالوا: إنه لا يضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع من الكفر طاعة»، وعلى هذا فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ولا يدخل نار جهنم، وهذا مبنيّ على إخراجهم العمل من مسمّى الإيمان[٢].

والحقّ ما قاله أهل السنّة والجماعة وأجمعوا عليه، وقد حكى اتّفاق أهل السنّة والجماعة على ذلك الإمام البغوي رحمه الله تعالىٰ، فقال: «اتّفق أهل السنّة على أن المؤمن لا يخرج عن الإيمان بارتكاب شيء من الكبائر إذا لم يعتقد إباحتها، وإذا عمل شيئاً منها فمات قبل التوبة لا يخلد في النار، كما جاء به الحديث، بل هو إلى الله إن شاء عفا عنه

---

(١) عقيدة أصحاب الحديث للإمام الصابوني ضمن الرسائل الكمالية (ص١٠٣، ١٠٤).

(٢) انظر كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص٩٩ ـ ١٠٢)، والتمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣)، والإيمان لابن تيمية (ص٢٠٢)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٤١٧).

وإن شاء عاقبه بقدر ذنوبه، ثم أدخله الجنّة برحمته»(١).

وقد تناول ابن رجب رحمه الله تعالىٰ هذه المسألة في عدّة مواضع من مؤلّفاته، فقال رحمه الله تعالىٰ: «من أسباب المغفرة التوحيد وهو السبب الأعظم، فمن فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾(٢).

فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض، وهو ملؤها أو ما يقارب ملؤها خطايا، لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عزّ وجلّ فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنّة، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه، وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلّها، ومنعه من دخول النار بالكلية»(٣).

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «أوّل اختلاف وقع في هذه الأمّة هو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحّدين من الإسلام بالكلية، وأدخلوهم في دائرة الكفر وعاملوهم معاملة الكفّار واستحلّوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم: المنزلة بين المنزلتين، ثم حدث خلاف المرجئة وقولهم: إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان، وقد صنّف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسائل تصانيف متعدّدة»(٤).

---

(١) شرح السنة للبغوي (١/ ١٠٣).
(٢) سورة النساء، آية (٤٨).
(٣) جامع العلوم والحكم (٣/ ٢٤٧).
(٤) المصدر السابق (١/ ٧٢).

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وقد اختلف العلماء في مرتكب الكبائر: هل يسمّى مؤمناً ناقص الإيمان أم لا يسمّى مؤمناً، وإنما يقال هو مسلم، فليس بمؤمن؟ على قولين: وهما روايتان عن أحمد رحمه الله، فأمّا من ارتكب الصغائر فلا يزول عنه إسم الإيمان بالكلية بل هو مؤمن ناقص الإيمان، ينقص إيمانه بحسب ما ارتكب من ذلك، والقول بأن مرتكب الكبائر يقال له: مؤمن ناقص الإيمان مروي عن جابر بن عبد الله، وهو قول ابن المبارك وإسحاق وأبي عبيد وغيرهم.

والقول بأنه مسلم ليس بمؤمن مرويّ عن أبي جعفر محمد بن علي[١]، وذكر بعضهم أنه المختار عند أهل السنّة»[٢].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وقوله ﷺ: ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فهو إلى الله، إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له»[٣]، صريح في أن الكبائر من لقي الله بها كانت تحت مشيئته، وهذا يدلّ على أن إقامة الفرائض لا تكفّرها ولا تمحوها، فإن عموم المسلمين يحافظون على الفرائض، لا سيّما من بايعهم النبيّ ﷺ وخرج من ذلك من لقي الله وقد تاب منها بالنصوص الدالّة من الكتاب والسنّة على أن من تاب إلى الله تاب الله عليه وغفر له، فبقي من لم يتب داخلاً تحت المشيئة[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٩).

(٢) أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني، كان إماماً مجتهداً تالياً لكتاب الله، كبير الشأن، عدّه النسائي وغيره من فقهاء التابعين، واتّفق الحفاظ على الاحتجاج به، توفي سنة ١١٤هـ.
طبقات ابن سعد (٥/ ٣٢٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٤)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٧)، وتهذيب التهذيب (٩/ ٣٥٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص٣٢٠).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٦).

وقد استدلّ السلف رحمهم الله تعالىٰ على عدم تكفير مرتكب الكبيرة بأدلّة كثيرة من الكتاب والسنّة.

أمّا من الكتاب، فقد استدلّوا بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ...﴾(١).

فهذه الآية نفت أن يغفر الله للمشرك، فدلّ ذلك على أن من مات مصرّاً على كبيرة دون الشرك فهو إلى الله تعالىٰ إن شاء غفر له، وإن شاء عذّبه بقدر ذنبه. أمّا من مات وهو مشرك، فإن الله لا يغفر له بنصّ الآية.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالىٰ في تفسيره عند هذه الآية: «وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرة شركاً بالله»(٢).

وبقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى...﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ...﴾(٣).

قال البغوي رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: «وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً بالقتل، لأن الله تعالىٰ خاطبه بعد القتل بخطاب الإيمان، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾، وفي آخر الآية قال: ﴿**فمن عفى له من أخيه شيء**﴾، وأراد به أخوّة الإيمان، فلم يقطع الأخوّة بينهما بالقتل»(٤).

وبقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا...﴾(٥).

---

(١) سورة النساء، آية (٤٨).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٥/١٢٦).

(٣) سورة البقرة، آية (١٧٨).

(٤) تفسير البغوي (١/١٤٦).

(٥) سورة الحجرات، آية (٩).

ذكر هذه الآية الإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ في صحيحه في كتاب الإيمان[١]، مستدلاً بها على أن المؤمن لا يكفر إذا ارتكب معصية دون الشرك.

قال ابن حجر رحمه الله تعالىٰ: «استدلّ المؤلّف على أن المؤمن إذا ارتكب معصية لا يكفر بأن الله تعالىٰ أبقى عليه اسم المؤمن، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[٢]، ثم قال: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...﴾[٣]...»[٤].

إلى غير ذلك من الآيات التي تبيّن أن أهل المعاصي التي دون الشرك من أهل الإيمان.

وأمّا الأدلة من السنة، فمنها حديث أبي ذرّ رضي الله عنه قال: «أتيت النبيّ ﷺ وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه، فقال: «ما من عبد قال لا إلٰه إلاّ الله ثم مات على ذلك إلاّ دخل الجنّة»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر»، قال: فخرج أبو ذرّ وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذرّ»[٥].

ومنها حديث عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا

---

(١) كتاب الإيمان (١/ ١٣).

(٢) سورة الحجرات، آية (٩).

(٣) سورة الحجرات، آية (١٠).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١/ ٨٥).

(٥) تقدم تخريجه (ص٣١٩).

ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفّارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه»، فبايعناه[(١)].

قال النووي رحمه الله تعالىٰ بعد ذكره لحديث أبي ذرّ وحديث عبادة بن الصامت السابقين: «فهذان الحديثان مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[(٢)]، مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرّين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله تعالىٰ عفا عنهم وأدخلهم الجنّة أو لا، وإن شاء عذّبهم ثم أدخلهم الجنّة»[(٣)].

فهذه الأدلّة من الكتاب والسنّة وغيرها مما هو بمعناها تدلّ دلالة واضحة على ما ذهب إليه أهل السنّة والجماعة من أن مرتكب الكبيرة إذا مات مصرّاً عليها ليس بكافر، ولكنه معرّض نفسه لعقاب الله، وإن عوقب فإنه لا يخلد في النار بل يخرج منها، ولا عبرة بمن خالف ذلك من أهل البدع والأهواء، والله الهادي إلى سواء السبيل.

  

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٢٠).

(٢) سورة النساء، آية (٤٨).

(٣) شرح مسلم للنووي (٢/ ٤١، ٤٢).

المبحث السابع
مسألة تكفير الكبائر بالأعمال الصالحة

هناك مسألة تعرّض لها ابن رجب رحمه الله تعالىٰ وهي مسألة تكفير الكبائر بالأعمال الصالحة كالوضوء والصلاة وغيرها.

فقد ذكر رحمه الله تعالىٰ في هذه المسألة قولين لأهل العلم، القول الأول: أن الأعمال الصالحة لا تكفّر إلاّ الصغائر. أمّا الكبائر فلا بدّ للعبد من التوبة منها. يقول ابن رجب في بيان هذا القول: «... فمنهم من قال لا تكفّر سوى الصغائر، وقد روي هذا عن عطاء وغيره من السلف في الوضوء أنه يكفّر الصغائر... أمّا الكبائر فلا بدّ لها من التوبة، لأن الله أمر العباد بالتوبة، وجعل من لم يتب ظالماً.

واتّفقت الأمّة على أن التوبة فرض، والفرائض لا تؤدّى إلاّ بنية وقصد، ولو كانت الكبائر تقع مكفّرة بالوضوء والصلاة وأداء بقية أركان الإسلام لم يحتج إلى التوبة، وهذا باطل بالإجماع، وأيضاً لو كفّرت الكبائر بفعل الفرائض لم يبق لأحد ذنب يدخل به النار إذا أتى الفرائض، وهذا يشبه قول المرجئة، وهو باطل.

هذا ما ذكره ابن عبد البرّ في كتابه التمهيد[1]، وحكي إجماع المسلمين على ذلك، واستدلّ عليه بأحاديث:

(١) التمهيد (٤/ ٤٤).

منها: قوله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ، ما اجتنب الكبائر»، وهو مخرّج في الصحيحين[١] من حديث أبي هريرة.

وهذا يدلّ على أن الكبائر لا تكفّرها هذه الفرائض...

وفي صحيح مسلم عن عثمان عن النبيّ ﷺ قال: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلاّ كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يأتِ كبيرة، وذلك الدهر كلّه»[٢]...[٣].

والقول الثاني: أن الأعمال الصالحة تكفّر الكبائر، وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالىٰ هذا القول وردّ عليه بقوله: «وذهب قوم من أهل الحديث وغيرهم إلى أن هذه الأعمال تكفّر الكبائر، ومنهم ابن حزم الظاهري[٤] وإيّاه عنى ابن عبد البرّ في كتاب التمهيد[٥] بالردّ عليه، وقال: قد كنت أرغب بنفسي عن الكلام في هذا الباب لولا قول ذلك القائل، وخشيت أن يغترّ به جاهل فينهمك في الموبقات اتّكالاً على أنها تكفّرها الصلوات دون الندم والإستغفار والتوبة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٣٧).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (١/ ٢٠٦).
(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٨ ـ ٤٠).
(٤) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، الإمام المحدّث الفقيه، كان شافعياً ثم تركه إلى القول بالظاهر، له مؤلّفات كثيرة منها: المحلى، الفصل في الملل والنحل، توفي سنة ٤٥٦هـ.
وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٥)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤)، وشذرات الذهب (٣/ ٢٩٩).
(٥) التمهيد (٤/ ٤٩).

قلت[١]: وقد وقع مثل هذا في كلام طائفة من أهل الحديث في الوضوء ونحوه... فإن كان مرادهم أن من أتى بفرائض الإسلام وهو مصرّ على الكبائر تغفر له الكبائر قطعاً فهذا باطل قطعاً، يعلم بالضرورة من الدين بطلانه، وقد سبق قوله ﷺ: «من أساء في الإسلام أخذ بالأوّل والآخر»[٢]، يعني بعمله في الجاهلية والإسلام، وهذا أظهر من أن يحتاج إلى بيان.

وإن أراد هذا القائل أن من ترك الإصرار على الكبائر وحافظ على الفرائض من غير توبة ولا ندم على ما سلف منه كفّرت ذنوبه كلّها بذلك، واستدلّ بظاهر قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[٣]، وقال: السيّئات تشمل الكبائر والصغائر، وكما أن الصغائر تكفّر باجتناب الكبائر من غير قصد ولا نيّة فكذلك الكبائر، وقد يستدلّ لذلك بأن الله وعد المؤمنين والمتّقين بالمغفرة وتكفير السيئات وهذا مذكور في غير موضع من القرآن، وقد صار هذا من المتّقين فإنه فعل الفرائض واجتنب الكبائر، واجتناب الكبائر لا يحتاج إلى نيّة وقصد، فهذا القول يمكن أن يقال في الجملة»[٤].

وقد رجّح ابن رجب رحمه الله تعالىٰ القول الأوّل، وبيّن أن الكبائر لا تكفّر بالأعمال الصالحة؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما كان للتوبة معنى، ولكان المصرّ على الكبائر مع محافظته على الصلاة مثلاً مكفّرة لكبائره، وليس عليه تبعة ولا يلزمه توبة لأنه بصلاته وأعماله الصالحة تمحى

(١) القائل ابن رجب رحمه الله تعالىٰ.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب استتابة المرتدين (٨/ ٤٩).
(٣) سورة النساء، آية (٣١).
(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١ ـ ٤٣).

ذنوبه، يقول ابن رجب رحمه الله في ذلك: «والصحيح قول الجمهور أن الكبائر لا تكفّر بدون التوبة، لأن التوبة فرض على العباد، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١]...

وأما النصوص الكثيرة المتضمّنة مغفرة الذنوب وتكفير السيّئات للمتّقين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[٣]... فإنه لم يبيّن في هذه الآيات خصال التقوى ولا العمل الصالح، ومن جملة ذلك التوبة النصوح، فمن لم يتب فهو ظالم غير متقٍّ.

وقد بيّن في سورة آل عمران[٤] خصال التقوى التي يغفر لأهلها ويدخلهم الجنّة، فذكر منها الإستغفار وعدم الإصرار، فلم يضمن تكفير السيّئات ومغفرة الذنوب إلاّ لمن كانت هذه الصفة له.

وممّا يستدلّ به على أن الكبائر لا تكفّر بدون التوبة منها أو العقوبة عليها حديث عبادة بن الصامت، قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فقال: «بايعوني على ألاّ تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا (وقرأ عليهم الآية)[٥]، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً

---

(١) سورة الحجرات، آية (١١).
(٢) سورة الأنفال، آية (٢٩).
(٣) سورة التغابن، آية (٩).
(٤) وهي من قوله تعالىٰ: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السمٰوات والأرض﴾...، إلى قوله تعالىٰ: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ سورة آل عمران، آية (١٣٣ ـ ١٣٥).
(٥) وهي قوله تعالىٰ: ﴿يا أيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك...﴾، إلى قوله تعالىٰ: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ سورة الممتحنة، آية (١٢).

فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له»، خرّجاه في الصحيحين[١]. . . إلى أن قال رحمه الله تعالىٰ: «والأظهر ـ والله أعلم ـ في هذه المسألة، أعني مسألة تكفير الكبائر بالأعمال:

إن أريد أن الكبائر تمحى بمجرّد الإتيان بالفرائض، وتقع الكبائر مكفّرة بذلك كما تكفّر الصغائر باجتناب الكبائر، فهذا باطل.

وإن أريد أنه قد يوازن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال، فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل، ويسقط العمل فلا يبقى له ثواب فهذا قد يقع. . .

روي من حديث ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيّئاته يوم القيامة، فيقص أو يقضى بها بعضها من بعض، فإن بقيت له حسنة وسع له بها في الجنّة»[٢]. . . وظاهر هذا أنه يقع المقاصة بين الحسنات والسيّئات ثم يسقط الحسنات المقابلة للسيّئات، وينظر إلى ما يفضل منها بعد المقاصّة[٣].

هذه بالنسبة للكبائر، أمّا الصغائر فقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالىٰ أنها تكفّر بالأعمال الصالحة كما سبق بيان ذلك في القول الأوّل من المسألة السابقة، وكما في قوله رحمه الله تعالىٰ: «. . . أمّا الصغائر فإنه قد تمحى بالأعمال الصالحة مع بقاء ثوابها؛ كما قال ﷺ: «ألا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٢٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٥٢) وهو حديث قدسي، ولفظه: «قال الرب عزّ وجلّ: يؤتى بحسنات العبد وسيّئاته فيقضي بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسّع الله له في الجنة. . .» الحديث، قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٣ ـ ٤٥).

أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصّلاة بعد الصّلاة»[١]، فأثبت لهذه الأعمال تكفير الخطايا ورفع الدرجات.

وكذلك قوله ﷺ: «من قال لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له مائة مرة كتب الله له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيّئة، وكانت له عدل عشر»[٢].

فهذا يدلّ على أن الذكر يمحو السيّئات، ويبقى ثوابه لعامله مضاعفاً... وعلى هذا فيجتمع في العمل الواحد تكفير السيّئات ورفع الدرجات من جهتين، ويوصف في كل حال بكلا الوصفين، فلا تنافي بين تسميته كفارة وبين الإخبار عنه بمضاعفة الثواب به أو وصفه برفع الدرجات، ولهذا قال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر»[٣]، فإن في حبس النفس على المواظبة على الفرائض من مخالفة هواها وكفّها عما تميل إليه ما يوجب تكفير الصغائر.

وكذلك الشهادة في سبيل الله تكفّر الذنوب بما يحصل بها من الألم، وترفع الدرجات بما اقترن بها من الأعمال الصالحة بالقلب والبدن، فتبيّن بها أن بعض الأعمال يجتمع فيها ما يوجب رفع الدرجات وتكفير السيّئات من وجهين، ولا يكون بينهما منافاة، وهذا ثابت في الذنوب الصغائر بلا ريب»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة ـ باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (١/ ٢١٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣١٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص٥٣٧).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٥، ٦٠).

وهل يقطع بتكفير الأعمال الصالحة للصغائر إذا اجتنبت الكبائر؟

فيه قولان ذكرهما ابن عطية[١] في تفسيره، ورجح القول بعدم الجزم بشيء، وإنّما يحمل ذلك على غلبة الظن، وقوّة الرجاء، والمشيئة الثابتة، وعلّل ابن عطية ذلك بأنّه «لو قطعنا لمجتنب الكبائر وممتثل الفرائض بتكفير صغائره قطعاً، لكانت له في حكم المباح الذي يقطع بأنه لا تبعة فيه، وذلك نقض لعرى الشريعة[٢]»، وقد أورد ابن رجب رحمه الله تعالىٰ كلام ابن عطيّة السابق، وعقّب عليه بقوله: «قد يقال لا يقطع بتكفيرها بها، لأن أحاديث التكفير المطلقة بالأعمال جاءت مقيّدة بتحسين العمل كما ورد ذلك في الوضوء والصلاة، وحينئذ يتحقّق حسن العمل الذي يوجب التكفير، وعلى هذا الاختلاف الذي ذكره ابن عطية ينبني الاختلاف في وجوب التوبة من الصغائر»[٣]... والله أعلم بالصّواب.

  

---

(١) أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عبد الرحمٰن بن عطية المحاربي الأندلسي المالكي، كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية، ذكياً فطناً، من أوعية العلم، من مؤلّفاته: المحرر والوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي سنة ٥٤١هـ.
سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٩٦)، وطبقات المفسّرين للسيوطي (ص٥٠)، وطبقات المفسّرين للداوودي (١/ ٢٦٥).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٩٦).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٦٣، ٦٤).

الفصل الثاني

الإيمان بالملائكة والكتب والرسل

ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأوّل: الإيمان بالملائكة والكتب.

المبحث الثاني: تعريف النبيّ والرسول لغة وشرعاً.

المبحث الثالث: معنى الإيمان بالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

المبحث الرابع: الغرض من بعثه الرسل عليهم الصّلاة والسّلام.

المبحث الخامس: التفاضل بين الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

المبحث السادس: بعض خصائص الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

المبحث السابع: الإيمان بنبوّة محمد ﷺ.

المبحث الثامن: كلامه في دعوة نبيّنا محمّد ﷺ.

المبحث التاسع: بيانه فضل إرسال النبيّ ﷺ.

المبحث العاشر: النجاة والسعادة في طاعة الرسول ﷺ واتّباعه.

المبحث الأول
الإيمان بالملائكة والكتب

جعلت الكلام على الإيمان بالملائكة والكتب في مبحث واحد، ولم أفرد كلاًّ منهما بفصل خاص به لأمرين:

١ ـ أن الإيمان بالملائكة والكتب له صلة قوية بالإيمان بالأنبياء، إذ أن من لوازم الإيمان بالأنبياء الإيمان بجميع ما أخبروا به، ومن ذلك الإيمان بالملائكة والكتب.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالىٰ إلى ذلك بقوله: «والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتاب...»[1].

٢ ـ إنني لم أجد لابن رجب رحمه الله تعالىٰ في هذين الركنين إلاّ كلاماً قليلاً لا يتحمّل إفراد كل منهما بفصل خاص به.

وسيكون الكلام في هذا المبحث في مطلبين.

  

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٠).

المطلب الأول

الإيمان بالملائكة

لقد ذكر الله تبارك وتعالىٰ أركان الإيمان في عدّة آيات من كتابه، وذكر من بينها الإيمان بالملائكة، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[١]، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٢].

كما ذكر رسول الله ﷺ في حديث عمر المعروف بحديث جبريل[٣] أركان الإيمان، وذكر من بينها الإيمان بالملائكة.

والملائكة خلق عظيم وعدد كثير لا يحصيهم إلاّ الله عزّ وجلّ، خلقهم من نور، وهم عبّاد مكرّمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وقد وكل الله إليهم أعمالاً يقومون بها وأفضلهم جبريل عليه السلام الموكل بتبليغ وحي الله إلى خلقه.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالىٰ إلى أفضليّة جبريل عليه السلام

(١) سورة البقرة، آية (١٧٧).

(٢) سورة البقرة، آية (٢٨٥).

(٣) تقدم تخريجه (ص٥٢٨).

على بقية الملائكة بقوله: «وجبريل عليه السلام هو أفضل الملائكة وأكرمهم»[١].

كما أشار رحمه الله تعالىٰ أيضاً إلى بعض أعمال الملائكة، ومنها:

أنهم يستغفرون للذين آمنوا، فقال رحمه الله تعالىٰ: «وقد أخبر الله في كتابه باستغفار ملائكة السماء عموماً، بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٣]، فهذا للمؤمنين عموماً»[٤].

وقال رحمه الله تعالىٰ في شرح حيث اختصام الملأ الأعلى:

«وفيه دلالة على أن الملأ الأعلى وهم الملائكة أو المقرّبون منهم يختصمون فيما بينهم، ويتراجعون القول في الأعمال التي تقرّب بني آدم إلى الله عزّ وجلّ وتكفّر بها عنهم خطاياهم»[٥].

كما أشار رحمه الله تعالىٰ إلى بعض أوصاف الملائكة، فقال: «وقد وصف الله الملائكة الذين على النار بالغلظة والشدة، قال الله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٦]...»[٧].

---

(١) لطائف المعارف (ص١٧٥).
(٢) سورة غافر، آية (٧).
(٣) سورة الشورى، آية (٥).
(٤) شرح حديث أبي الدرداء (ص٢٨).
(٥) اختيار الأَوْلى (ص١٢).
(٦) سورة التحريم، آية (٦).
(٧) التخويف من النار (ص١٧٣).

المطلب الثاني
الإيمان بالكتب

إن الإيمان بالكتب التي أنزلها الله عزّ وجلّ على أنبيائه ورسله ركن من أركان الإيمان الستّة، وقد دلّت آيات كثيرة على أن الله سبحانه وتعالىٰ أنزل القرآن على نبيّنا محمد ﷺ، كما أشارت إلى إنزال الكتب السابقة قبله على من سبقه من الأنبياء والمرسلين، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ...﴾[٣].

هذه الآيات تدلّ على وجوب الإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عندالله، ووجوب التصديق بها والعمل بمقتضى ما كلفنا به منها.

وقد مدح الله عزّ وجلّ من آمن بها جميعاً، وجعل لهم الهداية

---

(١) سورة الزمر، آية (٢٣).

(٢) سورة الزمر، آية (٤١).

(٣) سورة الزمر، آية (٧١).

والفلاح؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾(١)، والقرآن الكريم هو كلام الله عزّ وجلّ المعجز المنزل على النبيّ ﷺ.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالىٰ إلى وصف القرآن الكريم، وأنه أعظم الكتب السماوية، فقال: «وقوله تعالىٰ: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾(٢)، يعني يتلو عليهم ما أنزل الله عليه من آياته المتلوّه وهو القرآن وهو أعظم الكتب السماوية، وقد تضمّن من العلوم والحكم والمواعظ والقصص والترغيب والترهيب وذكر أخبار من سبق وأخبار ما يأتي من البعث والنشور والجنّة والنار ما لم يشتمل عليه كتاب غيره، حتى قال بعض الحكماء: لو أن هذا الكتاب وجد مكتوباً في مصحف في فلاة من الأرض ولم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف ذلك، فكيف إذا جاء على يدي أصدق الخلق وأبرّهم وأتقاهم، وقال: إنه كلام الله وتحدّى الخلق كلّهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فيه، فكيف يبقى مع هذا شك؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(٤)، فلو لم يكن من المعجزات الدالّة على صدقه غير هذا الكتاب لكفاه، فكيف وله من المعجزات الأرضية والسماوية ما لا يحصى»(٥).

---

(١) سورة البقرة، آية (٤، ٥).
(٢) سورة الجمعة، آية (٢).
(٣) سورة البقرة، آية (٢).
(٤) سورة العنكبوت، آية (٥١).
(٥) لطائف المعارف (ص٨٥).

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً في شرح حديث: «مثل الإسلام»[(١)]:

«... لما كانت النفس والهوى داعيين إلى فتح أبواب المحارم وكشف ستورهما وارتكابها جعل الله عزّ وجلّ لها داعيين يزجران من يريد ارتكاب المحارم وكشف ستورهما، أحدهما: داعي القرآن وهو الدّاعي على رأس الصراط يدعو الناس كلهم إلى الدخول في الصّراط والاستقامة عليه وأن لا يعوجوا عنه يمنة ويسرة، ولا يفتحوا شيئاً من تلك الأبواب التي عليها الستور المرخاة، قال الله عزّ وجلّ حاكياً عن عباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ﴾[(٢)] الآية، والمراد به القرآن عند أكثر السلف، وقال حاكياً عن الجن الذين سمعوا القرآن أنّهم لما رجعوا إلى قومهم، قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾[(٣)]...»[(٤)].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً عن القرآن: «وهو أشرف الكتب وأفضلها وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق، وقد كان رسول الله ﷺ هذا الكتاب له خلق[(٥)] يرضى لرضاه ويسخط لسخطه،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢)، والحاكم (١/ ٧٣) من حديث النواس بن سمعان أن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، على جنبتي الصراط سوران فيها أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة...» الحديث. قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٥٢)، وعزاه لأحمد والحاكم، ورمز له بالصحة.

(٢) سورة آل عمران، آية (١٩٣).

(٣) سورة الأحقاف، آية (٣٠، ٣١).

(٤) شرح حديث مثل الإسلام ورقة (٩).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥١٣) أن سعد بن هشام بن عامر سأل عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبيّ الله ﷺ كان القرآن».

ويسارع إلى ما حثّ عليه ويمتنع ممّا زجر عنه»[١].

وبهذا يتبيّن لنا أهميّة العناية بهذا القرآن والحرص على قراءته والعمل بما فيه لما يترتّب على ذلك من حصول الهداية والسعادة والنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

  

(١) لطائف المعارف (ص١٧٥).

المبحث الثاني
تعريف النبيّ والرسول لغة وشرعاً

أولاً: تعريف النبيّ والرسول لغة:

النبيّ لغة مشتق من النبأ وهو الخبر؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾[١].

وقيل: أن النبيّ مأخوذ من النبوّة وهو ما ارتفع من الأرض، وسمّي النبيّ بذلك لأنه مفضّل على سائر الخلق بمكانته ورتبته العالية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾[٢].

وقيل: النبيّ هو الطريق الواضح؛ لأن العرب تطلق لفظ النبي على علم من أعلام الأرض التي يُهتدى بها، وسمّي النبيّ بذلك لأنه علم يهتدى به الخلق إلى الله تبارك وتعالىٰ[٣].

أمّا الرسول لغة، فهو مشتقّ من الإرسال ومعناه البعث والتوجيه، فإذا بعثت شخصاً في القيام بمهمة ما فهو رسولك، قال تعالىٰ حكاية عن ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾[٤]،

---

(١) سورة النبأ، آية (١، ٢).

(٢) سورة مريم، آية (٥٧).

(٣) الصحاح للجوهري (١/ ٧٤ و٦/ ٢٥٠٠)، والمفردات للراغب الأصفهاني (ص٤٨١، ٤٨٢)، ولسان العرب (١/ ٣٠٢) و (٥/ ١٦٢، ١٦٣).

(٤) سورة النمل، آية (٣٥).

ويجمع رسول على أرْسُل ورُسُل ورُسْل ورُسَلاء، وسمّوا الرسل بذلك لأنهم مبعوثون وموجّهون من قبل الله عزّ وجلّ لتبليغ الخلق أمر الله ووحيه(١).

ثانياً: تعريف النبيّ والرسول شرعاً:

تعدّدت الأقوال في تعريف النبيّ والرسول والقول المشهور في تعريف النبيّ والرسول.

أن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبيّ من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه(٢).

ولكن بعض أهل العلم يرى أن هذا التعريف الشائع تعريف فيه بعد، يقول العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ: «وآية الحجّ تبيّن أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أن النبيّ هو من أوحى إليه وحي ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحي إليه غير صحيح؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾(٣)، يدلّ على أن كلاً منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير، واستظهر بعضهم أن النبيّ الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقلّ مع المعجزة التي ثبتت بها نبوّته، وأن النبيّ المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أُوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة؛ كما بيّنه تعالىٰ بقوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا

(١) الصحاح للجوهري (١٧٠٩/٤)، والمفردات للراغب الأصفهاني (ص١٩٥)، ولسان العرب (١١/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص١٦٧)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٤٩).

(٣) سورة الحج، آية (٥٢).

ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾(١)...»(٢).

ولعلّ الشنقيطي رحمه الله يشير إلى ما قرّره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ، حيث قال: «فالنبيّ هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأمّا إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله فهو نبي وليس برسول»... إلى أن قال: «فقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾(٣)، دليل على أن النبيّ مرسل، ولا يسمّى رسولاً عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق»(٤).

  

---

(١) سورة المائدة، آية (٤٤).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).
(٣) سورة الحج، آية (٥٢).
(٤) النبوات (ص٢٢٥، ٢٥٦).

المبحث الثالث
معنى الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصّلاة والسّلام

إن الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من الإيمان بالغيب الذي وصف الله المؤمنين بأنهم يؤمنون به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1]، وهو ركن من أركان الإيمان التي يجب الإيمان بها، كما دلّت على ذلك الأدلّة الكثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ وسنّة رسوله ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[3].

وفي حديث جبريل وسؤاله للنبيّ ﷺ عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»[4].

ومعنى الإيمان بالأنبياء والرسل هو التصديق الجازم بأن الله عزّ وجلّ

---

(١) سورة البقرة، آية (١ ـ ٣).
(٢) سورة البقرة، آية (٢٨٥).
(٣) سورة البقرة، آية (١٧٧).
(٤) تقدم تخريجه (ص٥٢٨).

رسلاً أرسلهم لإرشاد الخلق إلى ما فيه خيرهم في معاشهم ومعادهم، فيجب الإيمان بمن سمّى الله منهم في كتابه على التفصيل والإيمان جملة بأن لله رسلاً غيرهم وأنبياء لا يعلمهم إلاّ هو سبحانه وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾(١).

والواجب الإيمان بجميع رسل الله تعالىٰ دون تفريق بينهم، فمن آمن بالبعض وكفر بالبعض الآخر فقد كفر بالجميع؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾(٢).

قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: «يتوعد تبارك وتعالىٰ الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرّد التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإن لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرّد الهوى والعصبية، فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلاّ عيسى ومحمّداً عليهما الصّلاة والسّلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ... والمقصود أن من كفر بنبيّ من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبيّ بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن ردّ نبوّته للحسد أو العصبية أو التشهّي تبيّن أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية»(٣).

---

(١) سورة غافر، آية (٧٨).
(٢) سورة النساء، آية (١٥٠، ١٥١).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٢).

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالىٰ إلى وجوب الإيمان بالرسل وبكل ما أخبروا به بقوله: «والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به، وغير ذلك من صفات الله وصفات اليوم الآخر كالصراط والميزان، والجنّة والنار»[1].



(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٠).

المبحث الرابع
الغرض من بعثة الرسل عليهم الصّلاة والسّلام

بعث الله سبحانه وتعالىٰ الرسل عليهم الصّلاة والسّلام وكلّفهم بالدعوة إلى عبادته وإقامة دينه، وإفراده بجميع أنواع العبادة، والتحذير من الشرك والبدع ونبذ كل ما يعبد من دون الله، وعلى هذا اتّفق جميع الأنبياء والرسل عليهم الصّلاة والسلام، فما من نبيّ أرسله الله إلاّ وكان أوّل ما يدعو قومه إليه هو عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[3].

وقال ﷺ: «الأنبياء إخوة من علات، أمّهاتهم شتّى، ودينهم واحد»[4].

---

(١) سورة الأنبياء، آية (٢٥).

(٢) سورة النحل، آية (٣٦).

(٣) سورة الشورى، آية (١٣).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب قول الله: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾ (٤/ ١٤٢)، ومسلم: كتاب الفضائل ـ فضائل عيسى عليه السلام (٤/ ١٨٣٧).

وقد اهتمّ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ ببيان هذه المسألة، فقال رحمه الله تعالىٰ: «بعث الله الرسل مبشّرين ومنذرين مبشّرين بالجنّة من آمن وعمل صالحاً ومنذرين بالنار من كفر وعصى، وأقام أدلّة وبراهين دلّت على صدق رسله فيما أخبروا به عن ربهم»(١).

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وقوله ﷺ: «حتى يعبد الله وحده لا شريك له»(٢)، هذا هو المقصود الأعظم من بعثته ﷺ، بل من بعثة الرسل من قبله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾(٣)، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(٤).

بل هذا هو المقصود من خلق الخلق وإيجادهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٥)، فما خلقهم إلاّ ليأمرهم بعبادته، وأخذ عليهم العهد لما استخرجهم من صلب آدم على ذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾(٦) الآية.

وقد تكاثرت الأحاديث المرفوعة، والآثار الموقوفة في تفسير(٧) هذه

---

(١) البشارة العظمى ورقة (٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند حديث رقم (٥١١٤).

(٣) سورة الأنبياء، آية (٢٥).

(٤) سورة النحل، آية (٣٦).

(٥) سورة الذاريات، آية (٥٦).

(٦) سورة الأعراف، آية (١٧٢).

(٧) انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٦٥)، وما بعدها فقد ذكر فيها الشارح رحمه الله تعالىٰ أقوال العلماء في تفسير هذه الآية، والأحاديث الواردة في ذلك.

الآية أنه تعالىٰ استنطقهم حينئذ، فأقرّوا كلهم بوحدانيّته، وأشهدهم على أنفسهم وأشهد عليهم أباهم آدم والملائكة.

ثم أنه تعالىٰ هداهم في كل زمان بإرسال رسله، وإنزال الكتب يذكّرهم بالعهد الأوّل، ويجدّد عليهم العهد والميثاق على أن يوحّدوه ويعبدون ولا يشركوا به شيئاً، وأشار في خطاب آدم وحوّاء عند هبوطهما من الجنّة إلى هذا المعنى في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[١]، وفي سورة طه[٢] نحو هذا، فما وفى بنو آدم كلهم بهذا العهد المأخوذ عليهم، بل نقضه أكثرهم وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، فبعث الله الرسل تجدّد ذلك العهد الأوّل وتدعوا إلى تجديد الإقرار بالوحدانيّة»[٣].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «فالجهاد في سبيل الله دعاء الخلق إلى الإيمان بالله ورسوله بالسيف واللّسان بعد دعائهم إليه بالحجّة والبرهان، وقد كان النبيّ ﷺ في أوّل الأمر لا يقاتل قوماً حتى يدعوهم، فالجهاد به تعلو كلمة الإيمان وتتّسع به رقعة الإسلام، ويكثر الداخلون فيه، وهو وظيفة الرسل وأتباعهم، وبه تصير كلمة الله هي العليا، والمقصود منه أن يكون الدين كلّه لله، والطاعة له؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٤]...»[٥].

---

(١) سورة البقرة، آية (٣٨، ٣٩).

(٢) وهي قوله تعالىٰ: ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً...﴾ الآية، سورة طه، آية (١٢٣، ١٢٤).

(٣) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص٢١، ٢٢).

(٤) سورة الأنفال، آية (٣٩).

(٥) لطائف المعارف (ص٢٤١).

المبحث الخامس
التفاضل بين الأنبياء

ورد في القرآن الكريم ما يدلّ على أن الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام متفاضلون، وأن بعضهم أفضل من بعض؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾[2].

فهذه الآيات تدلّ على المفاضلة بين الرّسل والأنبياء، وأن بعضهم أفضل من بعض.

وقد أجمعت الأمّة على أن الرسل أفضل من الأنبياء وأفضل الرّسل والأنبياء هم أُولو العزم، وقد ذكر كثير من العلماء أن أُولي العزم من الرسل عددهم خمسة، وهم: محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم الصّلاة والسّلام، وهؤلاء الرسل خصّهم الله سبحانه وتعالىٰ بالذكر في آيتين من كتابه، قال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء، آية (٥٥).

(٢) سورة البقرة، آية (٢٥٣).

(٣) سورة الشورى، آية (١٣).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾[(١)].

وقد أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيّنا محمداً ﷺ أن يصبر ويتحمّل الأذى كما صبر أولو العزم من الرسل؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[(٢)].

قال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: «خواص الرسل أولو العزم وهم خمسة، وهم أفضل الرسل»[(٣)].

كما خصّ الله تبارك وتعالىٰ نبيّنا محمداً وإبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام بالخلّة دون بقية الرسل والأنبياء، عليهم الصّلاة والسّلام.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالىٰ إلى هذا، فقال: «وقد أشار ﷺ إلى سبب براءته من خلّة المخلوقين وهو أن الله اتّخذه خليلاً لنفسه كما اتّخذ إبراهيم خليلاً، ومن كان خليلاً لله فلا ينبغي له أن يخالل بشراً»[(٤)].

ونبيّنا محمد ﷺ هو أفضل الرسل عليهم الصّلاة والسلام وهو خاتمهم، قال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في ذلك: «... فإنه أشرف المخلوقين وأفضلهم وحقّه على الأمّة أوجب من سائر الخلق لأن هدايتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة كانت على يديه بتعليمه وإرشاده صلّى الله عليه وسلّم تسليماً وجزاه عنّا أفضل ما جزى نبيّاً عن أمّته»[(٥)].

---

(١) سورة الأحزاب، آية (٧).
(٢) سورة الأحقاف، آية (٣٥).
(٣) شرح حديث شداد بن أوس ورقة (٥).
(٤) فتح الباري ورقة (٢/ ٥٥٣).
(٥) المصدر السابق (٥/ ١٧٧).

المبحث السادس
بعض خصائص الرسل عليهم الصّلاة والسّلام

خصّ الله تبارك وتعالىٰ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام بأمور انفردوا بها دون بقيّة البشر، وسأقتصر على ذكر الأمور التي تكلّم فيها ابن رجب رحمه الله تعالىٰ، ومنها:

١ ـ أنهم يخيّرون عند الموت بين الدنيا والآخرة، يدلّ على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلاّ خيّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بُحة(١) شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(٢)، فعلمت أنه خيّر»(٣).

يقول ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في هذا: «وأمّا الأنبياء فلا يقبضون حتى يخيّروا»(٤).

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «لما كان الموت مكروهاً بالطبع لما فيه من الشدّة والمشقّة العظيمة لم يمت نبيّ من الأنبياء حتي يخيّر»(٥).

---

(١) البُحّة: بالضم غلظة في الصوت، يقال بَحَّ يَبَحّ بُحُوحاً، وإن كان من داء فهو البُحاح. النهاية لابن الأثير (١/ ٩٩).

(٢) سورة النساء، آية (٦٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التفسير ـ باب «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين» (٥/ ١٨١).

(٤) جامع العلوم والحكم (٣/ ١٧٩).

(٥) لطائف المعارف (ص١٠٣).

٢ ـ أنهم لا يورثون، ودلّ على ثبوت ذلك جملة من الأحاديث الواردة عن النبيّ ﷺ، ومنها حديث عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: إن أزواج النبيّ ﷺ حين توفّي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر، فيسألنه ميراثهن من النبيّ ﷺ، قالت عائشة لهن: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة»(١).

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّا معشر الأنبياء لا نورث ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة»(٢).

ومنها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»(٣).

فهذه الأحاديث تدلّ على أن الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام لا يورثون.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة ـ باب ما يكره من التعمّق والتنازع في العلم والغلوّ في الدين (٨/ ١٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير ـ باب قول النبيّ ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» (٣/ ١٣٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود: كتاب العلم ـ باب الحثّ على العلم (٤/ ٥٨)، والترمذي: كتاب العلم ـ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٥/ ٤٨)، وابن ماجه: المقدمة ـ باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم (١/ ٨١)، والحاكم (١/ ٧٩) من حديث أبي هريرة.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٦٠): أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم مصححاً من حديث أبي الدرداء وحسّنه حمزة الكناني وضعف عندهم مسنده، لكن له شواهد يتقوّى بها.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالىٰ إلى هذه المسألة عند شرحه لحديث أبي ذرّ السابق، فقال: «فقوله ﷺ: «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر».

المراد بهذا أن العلماء ورثوا الأنبياء فيما خلفوه، وأن الذي خلف الأنبياء هو العلم النافع فمن أخذ العلم وحصل له فقد حصّل الحظ العظيم الوافر الذي يغبط به صاحبه، ورأى ابن مسعود قوماً في المسجد يتعلّمون، فقال رجل: علام اجتمع هؤلاء؟ فقال: على ميراث محمد ﷺ يقتسمونه.

وخرج أبو هريرة إلى السوق، فقال لأهله: «تركتم ميراث محمد ﷺ يقتسم في المسجد وأنتم هاهنا؟»[١].

فتركته ﷺ وميراثه هو هذا الكتاب الذي جاء به مع السنّة المفسّرة له المبيّنة لمعانيه، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أنه سئل: أترك النبيّ ﷺ من شيء؟ قال: «ما ترك إلاّ ما بين الدفتين»[٢]، يعني المصحف»[٣].

وقال رحمه الله تعالىٰ: «فقوله ﷺ: «إنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم»، يريد أنهم لم يورث عنهم سوى العلم. وهذا يبيّن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٤]، وقوله عن زكريا:

---

(١) قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٠٣): رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن، وكذا قال الهيثمي أيضاً في المجمع (١/ ١٢٣).

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن ـ باب من قال لم يترك النبيّ ﷺ إلاّ ما بين الدفتين (٦/ ١٥٦).

(٣) شرح حديث أبي الدرداء (ص١٣٥ ـ ١٣٦).

(٤) سورة النمل، آية (١٦).

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ﴾[(١)]، إنما أريد به ميراث العلم والنبوّة لا المال، فإن الأنبياء لا يجمعون مالاً يتركونه.

قال عليه السّلام: «ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة عيالي، فهو صدقة»[(٢)]. وما ترك إلاّ درعه وسلاحه وبغلته البيضاء وأرضاً جعلها صدقة[(٣)]. فلم يخلف سوى آله بعده، والأرض التي كان يقتات منها هو وعياله ردّها صدقة على المسلمين.

وكل هذا إشارة إلى أن الرسل لم تبعث بجمع الدنيا وتوريثها لأهليهم، وإنما بعثوا بالدّعوة إلى الله والجهاد في سبيله والعلم النافع وتوريثه لأممهم، وفي مراسيل أبي مسلم الخولاني عن النبيّ ﷺ قال: «ما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إليّ أنْ سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»، خرّجه أبو نعيم[(٤)].

وفي الترمذي وغيره أن النبيّ ﷺ قال: «ما لي وللدنيا إنما مثلي

---

(١) سورة مريم، آية (٥، ٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس ـ باب نفقة نساء النبيّ ﷺ بعد وفاته (٤/ ٤٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير باب قول النبيّ ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة (٣/ ١٣٨٢).

(٣) يدلّ على ذلك ما أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤/ ٤٥) من حديث عمرو بن الحارث، قال: «ما ترك النبيّ ﷺ إلاّ سلاحه وبغلته البيضاء وأرضاً تركها صدقة».

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٣١) من طريق جبير بن نفير عن أبي مسلم مرسلاً، والبغوي في تفسيره (٣/ ٦٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٠٥)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر، والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي.

ومثل الدنيا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»[١]، فقوله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»، إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن العالم الذي هو وارث الرسول حقيقة، كما أنه ورث علمه ينبغي أن يورث العلم كما ورّث الرسول العلم، وتوريث العالم العلم هو أن يخلفه بعده بتعليم أو تصنيف، ونحو ذلك مما ينتفع به بعده، والعالم إذا علّم من يقوم به بعده فقد خلّف علماً نافعاً وصدقة جارية، لأن تعليم العلم صدقة، والذين علّمهم بمنزلة أولاده الصالحين يدعون له، فيجتمع له بتخليف علمه الخصال الثلاثة.

وأمّا الأمر الثاني: فهو أن من كمال ميراث العالم للرسول أن لا يخلف الدنيا كما لم يخلفها الرّسول، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول وبسنّته في زهده في الدنيا، وتقلّله منها واجتزائه منها باليسير[٢].



---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد (٤/ ٥٨٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه: كتاب الزهد ـ باب مثل الدنيا (٢/ ١٣٧٦)، وأحمد (١/ ٣٩١)، والحاكم (٤/ ٣١٠)، وقال: هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي.

(٢) شرح حديث أبي الدرداء (ص١٣٧ ـ ١٤١).




المبحث السابع
الإيمان بنبوّة نبيّنا محمد ﷺ

الإيمان بنبوّة محمد ﷺ وأنّ الله أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وأنه عبد الله وصفيّه من خلقه أصل عظيم من أصول الإيمان، إذ لا يحصل لأحد الإيمان الصحيح حتى يؤمن بمحمد ﷺ رسول ربّ العالمين وسيّد الأوّلين والآخرين وخاتم النبيّين.

فيجب على كل عبد الاعتقاد الجازم بأنه عليه الصّلاة والسّلام إمام المتّقين الذي يقتدى به في الخير كلّه، وأنه وحده الذي تجب طاعته والاقتداء به دون سواه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[1].

ويجب الإيمان بأنه خليل الرحمٰن، وأن له أعلا مراتب محبّة الله عزّ وجلّ؛ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لو كنت متّخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي وقد اتّخذ الله عزّ وجلّ صاحبكم خليلاً»[2].

وكما في حديثه الآخر رضي الله عنه أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أبرأ إلى كل خليل من خلّته، ولو كنت متّخذاً

(١) سورة آل عمران، آية (٣١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣/١٣).

خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً، إن صاحبكم خليل الله»[١].

ويجب أن نعتقد أنه عليه الصّلاة والسّلام مبعوث إلى عامّة الجن والإنس بالحق والهدى والنور.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٤].

وقد حكى الله سبحانه وتعالىٰ عن الجنّ أنّهم قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾[٦].

وقال ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى الناس عامّة»[٧].

قال ابن أبي العزّ رحمه الله تعالىٰ: «وكونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس

---

(١) أخرجه ابن ماجه: المقدمة ـ باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١/ ٣٦).
(٢) سورة الأعراف، آية (١٥٨).
(٣) سورة الفرقان، آية (١).
(٤) سورة سبأ، آية (٢٨).
(٥) سورة الأحقاف آية (٣١).
(٦) سورة الجن، آية (١، ٢).
(٧) أخرجه البخاري: كتاب التيمّم (١/ ٨٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١/ ٣٧١).

كافّة معلوم من دين الإسلام بالضرورة»[١].

ويجب علينا أن نقدّم محبّته ﷺ على الوالد والولد والنفس والناس أجمعين؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢].

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله عزّ وجلّ قد أيّده بالمعجزات الباهرات والآيات البيّنات الدالّة على صدقه في كل ما جاء به ﷺ، وهي كثيرة جداً، وقد أُلّفت فيها مؤلّفات مستقلة، وذكر كثيراً منها العلماء رحمهم الله تعالىٰ في كتب التفسير والحديث والعقيدة ودلائل النبوّة والتاريخ وغيرها.

وقد تكلّم ابن رجب رحمه الله تعالىٰ عن هذه المسائل كلّها.

فقال عن وجوب الإيمان بما جاء به النبيّ ﷺ والتسليم له في ذلك: «والرّضا بمحمد رسولاً يتضمّن الرضا بجميع ما جاء به من عند الله، وقبول ذلك بالتسليم والانشراح؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾[٣] الآية.

وفي الصحيحين عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[٤]...»[٥].

وقال عن ما قام به النبيّ ﷺ من تبليغ رسالة ربّه والدعوة إليها: «وقد بلّغ رسول الله ﷺ رسالات ربّه وعلّم أمّته مناسكهم وعباداتهم

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص١٧٨).
(٢) تقدم تخريجه (ص٣٧٢).
(٣) سورة النساء، آية (٦٥).
(٤) تقدم تخريجه (ص٣٧٢).
(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٥، ٧٦).

وتركهم على البيضاء ليلها كنهارها. . .»[١].

وقال عن كمال ما جاء به من الهدى والخير مما يدلّ على وجوب محبّته وطاعته: «. . . ما أعطيت أمّة ما أعطيت هذه الأمة ببركة متابعة نبيّها ﷺ حيث كان أفضل الخلق، وهديه أكمل هدي مع ما يسّر الله على يديه من دينه ووضع به من الآصار والأغلال عن أمّته، فمن أطاعه فقد أطاع الله، وأحبّه الله، واهتدى بهدي الله»[٢].

وقال عن أوصاف النبيّ ﷺ: «سمّاه الله مبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

فقيل سراجاً للمؤمنين ومنيراً للمذنبين يوم القيامة بالشفاعة»[٣].

وقال أيضاً: «وقد وصف الله نبيّه ﷺ بأنه يدعو الخلق بالكتاب إلى الصّراط المستقيم؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾[٥].

وقد كان النبيّ ﷺ يدعو الخلق بالقرآن إلى الدخول في الإسلام الذي هو الصّراط المستقيم، وبذلك استجاب له خواص المؤمنين كأكابر المهاجرين والأنصار، ولهذا المعنى قال مالك: «فتحت المدينة بالقرآن»، يعني أن أهلها إنما دخلوا الإسلام بسماع القرآن كما بعث النبيّ ﷺ مصعب بن عمير قبل أن يهاجر إلى المدينة، فدعا أهل المدينة إلى

---

(١) تفسير سورة النصر (ص٧٦).
(٢) المحجة في سير الدلجة (ص٥٧).
(٣) لطائف المعارف (ص١٠).
(٤) سورة إبراهيم، آية (١).
(٥) سورة المؤمنون، آية (٧٣، ٧٤).

الإسلام بتلاوة القرآن عليهم فأسلم كثير منهم»[١].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالىٰ أن المخالفين لأمر الرسول ﷺ ينقسمون إلى قسمين: قسم يردّون ما جاء به ولا يعتقدون وجوب طاعته، فهؤلاء خارجون عن الملّة.

وقسم يعتقدون وجوب طاعته ولكنهم يخالفون أمره تهاوناً وكسلاً، فهؤلاء لهم نصيب من الهوان والذلّة بحسب ما هم عليه.

فقال رحمه الله تعالىٰ: «ومخالفة الرسول على قسمين:

أحدهما: مخالفة من لا يعتقد طاعة أمره كمخالفة الكفار، وأهل الكتاب الذين لا يرون طاعة الرسول، فهم تحت الذلّة والصغار، ولهذا أمر الله بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وعلى اليهود الذلّة والمسكنة لأن كفرهم بالرسول كفر عناد.

والثاني: من اعتقد طاعته ثم يخالف أمره بالمعاصي التي يعتقد أنها معصية، فله نصيب من الذلّة والصغار.

وقال الحسن: إنهم إن طقطقت[٢] بهم البغال، وهملجت[٣] بهم البراذين[٤]، فإن ذلّ المعصية في رقابهم، أبى الله أن يذلّ إلاّ من عصاه.

وكان الإمام أحمد يدعو: «اللّهمّ أعزّنا بالطاعة ولا تذلّنا بالمعصية»...[٥].

---

(١) شرح حديث مثل الإسلام ورقة (٩، ١٠).
(٢) الطقطقة: هي صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة ـ لسان العرب (١٠/ ٢٢٥).
(٣) الهملجة: هي مشية البراذين ـ لسان العرب (٢/ ٣٩٣).
(٤) البراذين: جمع برذون، وهو يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، والأنثى منه يقال لها: برذونة، لسان العرب (١٣/ ٥١)، المعجم الوسيط (ص٤٨).
(٥) الحكم الجديرة بالإذاعة (٤٢، ٤٣).

المبحث الثامن
كلامه في دعوة نبيّنا محمد ﷺ

قال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: «طبق الشرك الأرض بعد المسيح، فإن قومه الذين ادّعوا اتّباعه والإيمان به أشركوا غاية الشرك فجعلوا المسيح هو الله أو ابن الله، وجعلوا أمّه ثالث ثلاثة.

أمّا اليهود، فإنهم وإن تبرّأوا من الشرك، فالشرك فيهم موجود، فإنه كان فيهم من عبد العجل في حياة موسى عليه السلام، وقال فيه: إنه الله، وأن موسى نسي ربّه وذهب يطلبه.

ولا شرك أعظم من هذا، وطائفة قالوا: العزير ابن الله، وهذا من أعظم الشّرك، وأكثرهم اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فأحلّوا لهم الحرام، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إيّاهم، لأن من أطاع مخلوقاً في معصية الخالق واعتقد جواز طاعته أو وجوبها فقد أشرك بهذا الاعتبار حين جعل التحليل والتحريم لغير الله.

وأما المجوس فشركهم ظاهر، فإنهم يقولون بإلٰهين قديمين أحدهما: نور، والآخر: ظلمة، فالنور خالق الخير، والظلمة خالق الشر، وكانوا يعبدون النيران.

وأمّا العرب والهند وغيرهم من الأُمم، فكانوا أظهر الناس شركاً يعبدون مع الله آلهة كثيرة، ويزعمون أنها تقرب إلى الله زلفى.

فلما طبق الشرك أقطار الأرض، واستطار شرره من المشرق إلى المغرب بعث الله محمّداً ﷺ بالحنيفية المحضة، والتوحيد الخالص دين إبراهيم عليه السّلام، وأمره أن يدعو الخلق كلهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فكان يدعو سرّاً إلى ذلك نحواً من ثلاث سنين، فاستجاب له طائفة من الناس، ثم أمره بإعلان الدعوة وإظهارها، وقيل له: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾(١)، فدعا إلى الله وإلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له جهراً وأعلن الدعوة، وذمّ الآلهة التي تعبد من دون الله، وذمّ من عبدها وأخبر أنه من أهل النار، فثارعليه المشركون واجتهدوا في إيصال الأذى إليه وإلى أتباعه، وفي إطفاء نور الله الذي بعثه به، وهو لا يزداد إلاّ إعلاناً بالدعوة وتصميماً على إظهارها وإشهارها والنداء بها في مجامع الناس...»(٢).

ثم استطرد ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في بيان موقف الرسول ﷺ من هذه الدعوة، وكيف أنه عليه الصّلاة والسّلام بذل كل ما يستطيع لنشر هذا الدين وتبليغه إلى الناس لتكون كلمة الله هي العليا، قال رحمه الله: «... وكان يخرج بنفسه في مواسم الحجّ إلى من يقدم إلى مكّة من قبائل العرب فيعرض نفسه عليهم ويدعوهم إلى التوحيد، وهم لا يستجيبون له، بل يردّون عليه ويسمعونه ما يكره، وربما نالوه بالأذى، وبقي عشر سنين على ذلك... وكان يشقّ أسواقهم بالمواسم وهم مزدحمون بها كسوق ذي المجاز ينادي: «يا أيها الناس قولوا لا إلٰه إلاّ الله تفلحوا»، ووراءه أبو لهب يؤذيه ويردّ عليه وينهى الناس عن اتباعه...»(٣).

---

(١) سورة الحجر، آية (٩٤).
(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة (٢٤ ـ ٢٦).
(٣) المصدر السابق (ص٢٦، ٢٧).

وقال رحمه الله تعالىٰ يصف حال النبيّ ﷺ بعد وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها وعمّه أبي طالب، وما لاقاه من أذى قريش: «ثم إن أبا طالب لما توفّي وتوفيت بعده خديجة اشتدّ المشركون على رسول الله ﷺ حتى اضطرّوه إلى أن خرج من مكّة إلى الطائف، فدعاهم إلى عباده الله وحده لا شريك له، فلم يجيبوه وقابلوه بغاية الأذى وأمروه بالخروج من أرضهم، وأغروا به سفهاءهم فاصطفوا له صفّين، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموه، فخرج معه مولاه زيد بن حارثة فلم يمكنه دخول مكّة إلاّ بجوار، وطلب من جماعة من رؤساء قريش أن يجيروه حتى يدخل مكّة، فلم يفعلوا حتى أجاره المطعم بن عدي فدخل إلى جواره، وعاد إلى ما كان عليه من الدعاء إلى توحيد الله وعبادته...

وكان ﷺ ينادي من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلّغ رسالة ربّي وله الجنّة، فلا يجيبه أحد حتى بعث له الأنصار من المدينة فبايعوه، هذا كلّه وهو صابر على الدعوة إلى الله عزّ وجلّ على هذا الوجه راضٍ بما يحصل له فيها من الأذى، منشرح الصدر بذلك غير متضجّر منه، ولاَ جزع...

وفي الصحيح عن عاشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل مرّ عليك يوم كان أشدّ من يوم أُحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم وجهي، فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعالب[1]، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني، فنظرت فإذا

---

(١) فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعالب: أي لم أفطن لنفسي وأنتبه لحالي، وللموضع الذي أنا ذاهب إليه إلاّ وأنا عند قرن الثعالب، وقرن الثعالب: هو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكّة، وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير.

لسان العرب (١٠/ ٣٢١)، ومعجم البلدان (٤/ ٣٣٢).

فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع كلام قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثم قال: إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك وما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين(١)، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»(٢).

ما مقصود الرسول ﷺ إلاّ أن يعبد الله ولا يشرك به شيء، وما يبالي إذا حصل ذلك ما أصابه في الدعوة إليه إذا وحّد معبوده، حصل مقصوده...، إلى أن قال رحمه الله: «فلم يزل ﷺ يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له حتى ظهر دين الله وأعلن ذكره وتوحيده في المشارق والمغارب، وصارت كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر، وتوحيده هو الشائع، وصار الدين كلّه لله، والطاعة كلها لله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فجعل ذلك علامة على اقتراب أجله وأُمر حينئذ بالتهيّؤ للقاء الله والنقلة إلى دار البقاء...»(٣).



(١) الأخشبان: تثنية الأخشب، والمراد بهما هنا جبلان بمكة هما جبل أبي قبيس وجبل قعيقعان.
معجم البلدان (١/ ١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق (٤/ ٨٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير (٣/ ١٤٢٠).

(٣) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص٢٨ ـ ٣٣).

المبحث التاسع

بيانه فضل إرسال النبيّ ﷺ

يقول ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: «فليس لله نعمة أعظم من إرسال محمد ﷺ يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم»(١).

ويقول أيضاً: «وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢)، إشارة إلى ما كان الناس عليه قبل إنزال هذا الكتاب من الضلال، فإن الله نظر حينئذ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب تمسّكوا بدينهم الذي لم يبدّل ولم يغيّر، وكانوا قليلاً جداً، فأمّا عامة أهل الكتاب فكانوا قد بدّلوا كتبهم وغيّروها وحرّفوها وأدخلوا في دينهم ما ليس منه فضلّوا وأضلّوا، وأمّا غير أهل الكتاب فكانوا على ضلال مبين، فالأمّيون أهل شرك يعبدون الأوثان، والمجوس يعبدون النيران ويقولون بإلٰهين اثنين، وكذلك غيرهم من أهل الأرض منهم من كان يعبد النجوم، ومنهم من كان يعبد الشمس أو القمر، فهدى الله المؤمنين بإرسال محمد ﷺ إلى ما جاء به من الهدى والدين الحق، وأظهر الله دينه حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، فظهرت فيه كلمة التوحيد والعمل بالعدل بعد أن كانت الأرض كلّها ممتلئة من الشرك والظلم، فالأمّيون هم العرب والآخرون الذين لم يلحقوا بهم هم أهل

---

(١) لطائف المعارف (ص٨٤).

(٢) سورة الجمعة، آية (٢).

فارس والرّوم، فكانت فارس مجوساً والروم نصارى، فهدى الله جميع هؤلاء برسالة محمد ﷺ إلى التوحيد... فمن حصل له نصيب من دين الإسلام فقد حصل له الفضل العظيم، وقد عظمت عليه نعمة الله فما أحوجه إلى القيام بشكر هذه النعمة وسؤاله دوامها والثبات عليها إلى الممات والموت عليها...»[(١)].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «... فإن أعظم نعمة الله على هذه الأمّة إظهار محمد ﷺ لهم وبعثته وإرساله إليهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[(٢)]، فإن النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة بإيجاد السماء والأرض والشمس والقمر والرياح والليل والنهار وإنزال المطر وإخراج النبات وغير ذلك، فإن هذه النعم كلها قد عمّت خلقاً من بني آدم كفروا بالله ورسله وبلقائه فبدّلوا نعمة الله كفراً.

فأمّا النعمة بإرسال محمد ﷺ فإن بها تمّت مصالح الدنيا والآخرة وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم»[(٣)].



(١) لطائف المعارف (ص٨٦).
(٢) سورة آل عمران، آية (١٦٤).
(٣) لطائف المعارف (ص٩٨).

المبحث العاشر
النجاة والسعادة في طاعة الرسول ﷺ واتباعه

بيّن ابن رجب رحمه الله تعالىٰ أنه لا فلاح ولا سعادة ولا نجاة للعبد إلاّ باتباع ما جاء به الرسول ﷺ، فمن أطاعه فيما جاء به من الحق المبين فقد نجا وزحزح نفسه عن النار، ومن أبى وتكبّر وعصى ولم يتبّع الرسول ﷺ فيما جاء به فقد خسر خسراناً مبيناً، وعرض نفسه لعذاب الله عزّ وجلّ، فإنه ما من خير يوصل إلى الجنّة إلاّ ودلّنا عليه، وما من شرّ يوصل إلى النار إلاّ وحذّرنا منه عليه الصّلاة والسّلام.

قال ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: «وفي الجملة: فمن امتثل ما أمر به النبيّ ﷺ في هذا الحديث[1] وانتهى عمّا نهى عنه، وكان مشتغلاً بذلك عن غيره حصل له النجاة في الدنيا والآخرة، ومن خالف ذلك واشتغل بخواطره وما يستحسنه وقع فيما حذّر منه النبيّ ﷺ من حال أهل الكتاب الذين هلكوا بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم وعدم انقيادهم وطاعتهم لرسلهم»[2].

---

(١) هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم».
أخرجه مسلم: كتاب الفضائل ـ باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عمّا لا ضرورة إليه (٤/ ١٨٣٠).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٣١).

الفصل الثالث

الإيمان بالقضاء والقدر

ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأوّل: تعريف القضاء والقدر.

المبحث الثاني: معنى الإيمان بالقضاء والقدر والأدلّة على ذلك.

المبحث الثالث: مراتب الإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الرابع: النهي عن الخوض في القدر.

المبحث الخامس: الرضا بالقضاء والقدر.

المبحث السادس: حكم تمنّي الموت خشية الفتنة وعلاقته بالقضاء والقدر.

المبحث السابع: القضاء والقدر وفعل الأسباب.

المبحث الثامن: الاحتجاج بالقدر على المعاصي وبيان معنى حديث: «فحاج آدم موسى».

المبحث الأول
تعريف القضاء والقدر

١ ـ تعريف القضاء لغة:

قال الجوهري: القضاء: الحكم، وأصله قضاي، لأنه من قضيت إلاّ أن الياء لما جاءت بعد الألف همزت، والجمع أقضية.

والقضية مثله، والجمع قضايا على فعالى وأصله فعائل.

وقضى أي حكم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[(١)]، وقد يكون بمعنى الفراغ، تقول: قضيت حاجتي، وضربه فقضى عليه، أي قتله كأنه فرغ منه.

وسُمٌّ قاض، أي قاتل.

وقضى نحبه قضاء أي مات، وقد يكون بمعنى الأداء والإنهاء، تقول: قضيت ديني، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾[(٣)]، أي أنهيناه وإبلغناه ذلك.

(١) سورة الإسراء، آية (٢٣).
(٢) سورة الإسراء، آية (٤).
(٣) سورة الحجر، آية (٦٦).

وقد يكون بمعنى الصنع والتقدير، يقال: قضاه أي صنعه وقدّره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[١]، ومنه القضاء والقدر[٢].

وقال ابن الأثير: تكرّر ذلك القضاء، وأصله القطع والفصل، يقال: قضى يقضي قضاء فهو قاض، إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق[٣].

وقال الراغب الأصفهاني: القضاء فعل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً، وكل واحد منهما على وجهين: إلٰهي وبشري، فمن القول الإلهي قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٤]، أي: أمر بذلك.

وقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[٥]، فهذا قضاء بالإعلام والفصل في الحكم، أي أعلمناهم وأوحينا إليهم وحياً جزماً، وعلى هذا: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾[٦].

ومن الفعل الإلهي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾[٧].

وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[٨].

---

(١) سورة فصلت، آية (١٢).
(٢) الصحاح (٦/٢٤٦٣، ٢٤٦٤).
(٣) النهاية لابن الأثير (٤/٧٨).
(٤) سورة الإسراء، آية (٢٣).
(٥) سورة الإسراء، آية (٤).
(٦) سورة الحجر، آية (٦٦).
(٧) سورة غافر، آية (٢٠).
(٨) سورة فصلت، آية (١٢).

إشارة إلى إيجاده الإبداعي والفراغ منه ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[(٢)]، أي الفصل.

ومن القول البشري نحو قضى الحاكم بكذا، فإن حكم الحاكم يكون بالقول، ومن الفصل البشري: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾[(٣)]، ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾[(٤)]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾[(٥)]، وقال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾[(٦)]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[(٧)]، أي: أفرغوا من أمركم...[(٨)].

٢ ـ تعريف القدر لغة:

قال الراغب: القَدْرُ والتقدير تبيين كمية الشيء يقال قَدَرْته وقدرته، وقدّره بالتشديد أعطاه القدرة، يقال: قدّرني الله على كذا وقوّاني عليه...

والقَدَر: وقت الشيء المقدّر له والمكان المقدّر له، قال تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾[(٩)]، وقال: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[(١٠)]، أي بقدر المكان المقدّر لأن يسعها[(١١)].

---

(١) سورة البقرة، آية (١١٧).
(٢) سورة الشورى، آية (١٤).
(٣) سورة البقرة، آية (٢٠٠).
(٤) سورة الحج، آية (٢٩).
(٥) سورة القصص، آية (٢٨).
(٦) سورة الأحزاب، آية (٣٧).
(٧) سورة يونس، آية (٧١).
(٨) المفردات للراغب الأصفهاني (ص٤٠٦).
(٩) سورة المرسلات، آية (٢٢).
(١٠) سورة الرعد، آية (١٧).
(١١) المفردات (ص٣٩٦).

وقال الجوهري: قَدْرُ الشيء: مبلغه، وقدر الله وقَدْرُه بمعنىً، وهو في الأصل مصدر، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[١]، أي ما عظّموا الله حقّ تعظيمه. . .

وقَدَرْت الشيء أَقْدُره وأَقْدِره قَدْراً من التقدير، وفي الحديث: «إذا غمّ عليكم الهلال فاقدروا له»[٢]، أي أتمّوا الثلاثين[٣].

٣ ـ تعريف القضاء والقدر اصطلاحاً:

اختلف عبارات العلماء رحمهم الله تعالىٰ في تعريف القضاء والقدر، فقال النووي رحمه الله تعالىٰ: «واعلم أن مذهب أهل الحقّ إثبات القدر، ومعناه: أن الله تبارك وتعالىٰ قدّر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالىٰ، وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدّرها سبحانه وتعالىٰ»[٤].

وقال الجرجاني[٥]: «القدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحداً بعد واحد مطابقاً للقضاء. . .

والقضاء: عبارة عن الحكم الإلهي في أعيان الموجودات على ما

---

(١) سورة الأنعام، آية (٩١).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الصوم (٢/ ٢٢٩)، ومسلم في كتاب الصيام (٢/ ٧٥٩) من حديث ابن عمر عن النبيّ ﷺ أنه ذكر رمضان، فقال: «لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه، فإن غمّ عليكم فاقدروا له».

(٣) الصحاح (٢/ ٧٨٦، ٧٨٧).

(٤) شرح مسلم للنووي (١/ ١٥٤).

(٥) علي بن محمد بن علي أبو الحسن الحسيني الحنفي المعروف بالشريف الجرجاني، من كبار العلماء بالعربية، له مؤلّفات كثيرة منها «كتاب التعريفات»، توفّي سنة ٨١٦هـ.

بغية الوعاة (٢/ ١٩٦)، والضوء اللامع (٥/ ٣٢٨)، والبدر الطالع (١/ ٤٨٨).

هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد[١].

وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ «أن بعض العلماء عرّف القضاء: بأنه الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر: الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل»[٢].

وقال السفاريني: «القضاء إرادة الله الأزلية المتعلّقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال»[٣].

وخلاصة القول في هذا ما قاله الإمام الخطابي رحمه الله تعالىٰ، حيث قال: «أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»[٤].

ويقول الراغب الأصفهاني: «والقضاء من الله تعالىٰ أخصّ من القدر لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل والقضاء بمنزلة الكيل، وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما لما أراد الفرار من الطاعون بالشام: «أتفرّ من القضاء؟ قال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله»[٥]، تنبيهاً أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجوّ أن يدفعه الله، فإذا قضى فلا مدفع له... ويشهد لذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[٦]، وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[٧]، وقوله: ﴿وَقُضِيَ

(١) التعريفات (ص١٧٤، ١٧٧).
(٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٤٩).
(٣) لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٤٧).
(٤) معالم السنن (٤/ ٣٢٣).
(٥) تقدم تخريجه (ص٣٤٩).
(٦) سورة مريم، آية (٢١).
(٧) سورة مريم، آية (٧١).

ٱلۡأَمۡرُۚ﴾[(١)]، أي فصل تنبيهاً أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه»[(٢)].

وقد أجاب الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ حين سئل عن القدر، فقال: «القدر قدرة الله على العباد»[(٣)].

وقد علّق العلامة ابن القيّم رحمه الله تعالىٰ على تعريف الإمام أحمد، فقال: «واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جداً، وقال: هذا يدلّ على دقّة علم أحمد وتبحّره في معرفة أصول الدين وهو كما قال أبو الوفاء، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الله على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتّفق سلف الأمة على تكفيرهم»[(٤)].

وفي الحقيقة أن تعريف الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ السابق تعريف جامع مانع، فالإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ يبيّن أن القدر هو ما قرّره الله سبحانه وتعالىٰ في كثير من الآيات، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾[(٥)]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾[(٦)]، وقوله تعالىٰ: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[(٧)].

إلى غير ذلك من الآيات التي تدلّ على أن الأمور كلّها بيد الله سبحانه وتعالىٰ، وأنه لا يحدث شيء في هذا الكون إلاّ بإرادته ومشيئته تعالىٰ.

---

(١) سورة البقرة، آية (٢١٠).
(٢) المفردات (ص٤٠٧).
(٣) انظر: مسائل ابن هانئ (٢/ ١٥٥).
(٤) شفاء العليل (ص٢٨). لكن هو طبعة دار الحرم
(٥) سورة آل عمران، آية (١٥٤).
(٦) سورة يونس، آية (٣).
(٧) سورة يس، آية (٨٣).

المبحث الثاني
معنى الإيمان بالقضاء والقدر والأدلّة على ذلك

الإيمان بالقضاء والقدر أصل من أصول أهل السنة والجماعة وركن من أركان الإيمان الستّة التي لا يتمّ الإيمان إلاّ بها وهي الواردة في حديث جبريل الذي رواه مسلم وغيره، وفيه أن الإيمان هو: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»[(١)].

ومعنى الإيمان بالقدر هو التصديق الجازم بأن كل خير وشرّ فهو بقضاء الله وقدره، وأنه تعالىٰ الفعّال لما يريد، لا يكون شيء إلاّ بإرادته ولا يخرج شيء عن مشيئته، وإن كل أمر مخطوط في اللّوح المحفوظ، وأنه تعالىٰ خالق أفعال العباد، وعالم بجميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، وأنه سبحانه وتعالىٰ يهدي من يشاء برحمته ويضلّ من يشاء بحكمته، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

والإيمان بالقدر من الإيمان بالأمور الغيبية التي يجب على المسلم الإيمان بها.

والإيمان بالقدر سعادة في الدنيا والآخرة، لأن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه اطمأنّ قلبه وتعلّق بربه وصرف أمره إليه هذا مع ما في

---

(١) تقدّم تخريجه (ص٥٢٧).

الإيمان بالقدر من تحقيق العبودية لله تعالىٰ واستشعار عظمته وقدرته جلّ وعلا.

وقد دلّ على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر أدلّة كثيرة في كتاب الله تعالىٰ وسنّة رسوله ﷺ؛ فمن الآيات قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[2]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[3]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[4]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[5].

وأما الأحاديث في هذا الباب فكثيرة جداً، ومنها:

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشرّه، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[6].

وحديث عليّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلاّ الله وأني محمد رسول الله

---

(١) سورة الحجر، آية (٢١).
(٢) سورة القمر، آية (٤٩).
(٣) سورة الرعد، آية (٨).
(٤) سورة الأحزاب، آية (٣٨).
(٥) سورة التغابن، آية (١١).
(٦) أخرجه الترمذي: كتاب القدر ـ باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشرّه (٤/ ٤٥١)، وأحمد حديث رقم (٦٧٠٣ و٦٩٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو، وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.
وقال أحمد شاكر في كلٍّ منهما: إسناده صحيح.

بعثني بالحق، ويؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»[(١)].

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[(٢)].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان»[(٣)].

وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة: اللّهمّ متّعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي، أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: «إنك سألت الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يُعَجِّل شيئاً منها قبل حلّه، ولا يؤخّر منها شيئاً قبل حلّه، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار وعذاب في القبر لكان خيراً لك»[(٤)].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ: «وفي هذه الأحاديث كلّها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنّة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب القدر- باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره (٤/ ٤٥٢)، وابن ماجه: المقدمة - باب في القدر (١/ ٣٢)، والحاكم (١/ ٣٢)، وقال: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر - باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٥).

(٣) تقدم تخريجه (ص٣٦١).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب القدر - باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عمّا سبق به القدر (٤/ ٢٠٥١).

بقضاء الله تعالىٰ وقدره خيرها وشرّها ونفعها وضرّها»[١].

وقد تكلّم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ عن مسألة القضاء والقدر، ووجوب الإيمان بذلك.

فقال رحمه الله تعالىٰ في معرض كلامه عن حديث وصيّة النبيّ ﷺ لابن عباس، قال: «... ثم ذكر بعد هذا كلّه الأصل الجامع الذي يبنى عليه هذه المطالب وهو تفرّد الله سبحانه وتعالىٰ بالضرّ والنفع والعطاء والمنع، وأنه لا يصيب العبد من ذلك كلّه إلاّ ما سبق تقديره وقضاه له، وأن الخلق كلهم عاجزون عن إيصال نفع أو دفع ضرّ غير مقدّر في الكتاب السابق»[٢].

وقال رحمه الله تعالىٰ: وقوله ﷺ: «جفّ القلم بما هو كائن»، وفي الرواية الأخرى: «رفعت الأقلام وجفّت الكتب»، وفي الرواية الأخرى: «وجفّت الصحف»[٣]، كلّه كناية عن نفوذ المقادير وكتابتها جميعها في كتاب جامع من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا كتب وفرغ من كتابته وبَعُد عهده فقد رفعت الأقلام عنه التي كتبت بها من مدادها وجفّت الصحيفة المكتوبة فيها بالمداد المكتوب به فيها، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها، وقد دلّ الكتاب والسنن الصحيحة على مثل هذا المعنى، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[٤].

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٦/ ١٩٥، ١٩٦).

(٢) نور الاقتباس (ص٨٠).

(٣) وردت هذه الروايات كلّها في حديث وصية النبيّ ﷺ لابن عباس، وقد سبق تخريجه (ص١٤١).

(٤) سورة الحديد، آية (٢٢).

وخرّج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت، قال: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»[١].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[٢].

وخرّج الإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان»؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلاّ أن تخبرنا، فقال للّذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل الجنّة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً»، ثم قال للّذي في شماله: «هذا كتاب ربّ العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على أخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً»، فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمره قد فرغ منه؟ فقال: «سدّدوا وقاربوا فإن صاحب الجنّة يختم له بعمل أهل الجنّة وإن عمل أيّ عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيّ عمل»، ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما، ثم قال: «فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنّة، وفريق في السعير»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧). وأبو داود: كتاب السنة ـ باب في القدر (٥/ ٧٦)، والترمذي: كتاب القدر (٤/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر ـ باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٧)، والترمذي: كتاب القدر (٤/ ٤٤٩) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف (٦/ ٢٤٣).

وخرّج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ قال: «فرغ الله إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقيّ أو سعيد»(١).

وخرّج الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن مسعود عن النبيّ ﷺ، قال: «خلق الله كل نفس وكتب حياتها ورزقها ومصائبها»(٢).

وخرّج مسلم من حديث جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيما العمل اليوم أفيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير»، قال: ففيم العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسّر»(٣).

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة جداً، وكذلك الآثار الموقوفة»(٤).

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وقوله ﷺ: «فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه»(٥)، يريد بذلك أن ما يصيب العبد مما يضرّه أو ينفعه في دنياه فكلّه مقدّر عليه، ولا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يقدر عليه ولو اجتهد على ذلك الخلق كلّهم جميعاً، وقد دلّ القرآن أيضاً على مثل هذا في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾(٦)، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٠)، والترمذي: كتاب القدر (٤/ ٤٥١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب القدر ـ باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... (٤/ ٢٠٤٠).

(٤) نور الاقتباس (ص٧٥ ـ ٧٧).

(٥) جزء من حديث وصية النبيّ ﷺ لابن عباس، وقد تقدم تخريجه (ص١٤١).

(٦) سورة التوبة، آية (٥١).

ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾[١]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[٢].

وخرّج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ قال: «إن لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[٣].

واعلم أن مدار جميع هذه الوصية من النبيّ ﷺ لابن عباس على هذا الأصل وما بعده وما قبله متفرّع عليه وراجع إليه، فإنه إذا علم العبد أنه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له من خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ، وأن اجتهاد الخلق كلّهم جميعاً على خلاف المقدور غير مفيد شيئاً البتّة، علم حينئذ أن الله تعالىٰ وحده هو الضارّ النافع والمعطي المانع»[٤].

بهذا يتبيّن لنا أن قول ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في مسألة قضاء الله وقدره موافق لما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنّة، وموافق لقول غيره من علماء السلف من أهل السنّة والجماعة؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ مقرّراً مذهب السلف: «مذهب أهل السنّة والجماعة أن الله تعالىٰ خالق كل شيء وربّه ومليكه لا ربّ غيره، ولا خالق سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله، منهيّ عن معصية الله ومعصية رسوله، فإن أطاع كان ذلك نعمة، وإن عصى كان مستحقاً للذمّ والعقاب وكان لله عليه الحجّة البالغة، ولا حجّة لأحد

---

(١) سورة الحديد، آية (٢٢).

(٢) سورة آل عمران، آية (١٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٥)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٧٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٧): رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

(٤) نور الاقتباس (ص٧٨، ٧٩).

على الله تعالىٰ، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته، ولكن يحبّ الطاعة ويأمر بها ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم، ويبغض المعصية وينهى عنها ويعاقب عليها ويهينهم.

وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم بها عليه، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[2]، أي ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم به عليك، وما أصابك من حزن وذلّ وشرّ فبذنوبك وخطاياك، وكل الأشياء كائنة بمشيئة الله وقدرته وخلقه، فلا بدّ أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره، وأن يوقن العبد بشرع الله وأمره»[3].

  

(١) سورة الشورى، آية (٣٠).

(٢) سورة النساء، آية (٧٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٣، ٦٤).

المبحث الثالث

مراتب الإيمان بالقضاء والقدر

مراتب الإيمان بالقضاء والقدر تتلخّص في أربعة أمور استنبطها العلماء[١] رحمهم الله تعالىٰ من الكتاب والسنّة، وهي:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله تعالىٰ السابق المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، ويدخل في ذلك أفعال العباد وجميع أحوالهم من الأرزاق والآجال والطاعات والمعاصي، فهو سبحانه وتعالىٰ عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض، ومن الأدلّة على هذه المرتبة قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ﴾[٣]، وقوله ﷺ: «ما منكم من نفس إلاّ وقد علم منزلها من الجنّة والنار»[٤].

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء في اللّوح

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم (ص٦٦) وما بعدها.
(٢) سورة التوبة، آية (٧٨).
(٣) سورة الحشر، آية (٢٢).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب القدر (٤/ ٢٠٤٠).

المحفوظ الذي لم يفرّط فيه من شيء، ومن أدلّة هذه المرتبة قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٦١﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾[4].

وقوله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة»[5].

وقوله ﷺ: «إن أوّل ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: ربّ وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[6].

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله تعالىٰ النافذة وقدرته الشاملة للكائنات وفق ما علمه وكتبه سبحانه وتعالىٰ في أوقاتها وأماكنها وعلى هيئاتها التي قدّرها لها، فكل ما شاءه الله كان وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) سورة الحديد، آية (٢٢).
(٢) سورة يونس، آية (٦١).
(٣) سورة هود، آية (٦).
(٤) سورة الأنعام، آية (٣٨).
(٥) تقدم تخريجه (ص٦٠٥).
(٦) تقدم تخريجه (ص٦٠٥).

ومن أدلّة هذه المرتبة قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[(١)]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[(٣)].

وقوله ﷺ: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»[(٤)]، وقوله ﷺ: «إن الله تعالىٰ قبض أرواحكم حين شاء وردّها حين شاء...»[(٥)].

وقد أثبت الله تعالىٰ للعبد مشيئة ولكنها لا تستقلّ بل هي تابعة لمشيئة الله تعالىٰ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(٦)]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[(٧)].

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله تعالىٰ خالق كل شيء هو خالق العباد وخالق أفعالهم ومقدّر أرزاقهم وآجالهم وسعادتهم وشقاوتهم قضى ذلك تعالىٰ وقدّره لحكم يعلمها، فما من ذرّة في السمٰوات ولا في الأرض إلاّ والله سبحانه وتعالىٰ خالقها وخالق حركتها وسكونها سبحانه لا خالق غيره ولا ربّ سواه.

---

(١) سورة آل عمران، آية (٤٠).
(٢) سورة الأنعام، آية (٣٩).
(٣) سورة يس، آية (٨٢).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب القدر ـ باب تصريف الله تعالىٰ القلوب كيف شاء (٤/ ٢٠٤٥).
(٥) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد ـ باب في المشيئة والإرادة (٨/ ١٩٢).
(٦) سورة التكوير، آية (٢٩).
(٧) سورة الإنسان، آية (٣٠).

وهذه المرتبة، أي مرتبة الوجود والخلق هي وقوع الأشياء طبقاً لما علمه وطبقاً لما كتبه ولما شاءه عزّ وجلّ، ومن أدلّة هذه المرتبة قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾[3].

وقوله ﷺ: «يا عائشة، إن الله خلق للجنّة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[4].

وقوله ﷺ: «إن الله خلق كل صانع وصنعته»[5].

قال البخاري رحمه الله تعالىٰ عقب هذا الحديث: «فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة».

هذه مراتب الإيمان بالقضاء والقدر، ومن لم يؤمن بها جميعاً لم يكن مؤمناً بالقدر.

وقد أوضح ابن رجب رحمه الله تعالىٰ هذه المراتب وبيّنها وجعلها

---

(١) سورة الزمر، آية (٦٢).

(٢) سورة فاطر، آية (٣).

(٣) سورة الفرقان، آية (٢).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب القدر (٤/ ٢٠٥٠).

(٥) أخرجه البخاري: في خلق أفعال العباد (ص٧٣)، وابن أبي عاصم في السنّة (١/ ١٥٨)، والحاكم (١/ ٣١)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٠٩) كلّهم أخرجوه من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

في درجتين كل درجة تتضمّن مرتبتين، فقال: «والإيمان بالقدر على درجتين:

إحداهما: الإيمان أن الله تعالىٰ سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشرّ وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنّة، ومن هو منهم من أهل النار، وأعدّ لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

والدرجة الثانية: أن الله خلق أفعال العباد كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان، وشاءها منهم، فهذه الدرجة يثبتها أهل السنّة والجماعة، وتنكرها القدرية، والدرجة الأولى أثبتها كثير من القدرية ونفاها غلاتهم كمعبد الجهني الذي سئل ابن عمر عن مقالته، وكعمرو بن عبيد[(١)] وغيره.

وقد قال كثير من أئمّة السلف: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقرّوا به خصموا، وإن جحدوا فقد كفروا، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله تعالىٰ قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ، فقد كذّب بالقرآن فيكفر بذلك، وإن أقرّوا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية فقد خصموا، لأن ما أقرّوا به حجّة عليهم فيما أنكروه[(٢)].

---

(١) عمرو بن عبيد بن باب أبو عثمان البصري المعتزلي القدري، قال الخطيب: «كان عمرو يسكن البصرة وجالس الحسن البصري، وحفظ عنه اشتهر بصحبته ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنّة، فقال بالقدر ودعا إليه واعتزل أصحاب الحسن، توفي سنة ١٤٤هـ، وقيل غير ذلك».
تاريخ بغداد (١٢/ ١٦٢)، ووفيات الأعيان (٣/ ٤٦٠)، وميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٣).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٠، ٦١).

المبحث الرابع
النهي عن الخوض في القدر

لقد نهى الإسلام عن التنطّع والتشدّد والبحث فيما غاب عن علم الإنسان ممّا استأثر الله بعلمه، ومن ذلك البحث في سرّ القدر والتعمّق في النظر في دقائقه، لأن ذلك من الأمور التي استأثر الله بعلمها فلم يطلع عليها أحداً من الخلق لا ملكاً مقرّباً ولا نبياً مرسلاً، ولهذا فإن التعمّق والجدل في القضاء والقدر من الخذلان، لأن المجادل فيه لا يدرك مراده، وكلّما احتجّ بحجة كسرتها أخرى، وربما أفضى به ذلك إلى الإلحاد والزيغ عن الطريق المستقيم، والخوض في القدر أوّل ظاهرة للشرك في هذه الأمّة كما يدلّ عليه ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قيل لابن عباس: إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلّوني عليه، وهو يومئذ قد عمي، قالوا: وما تصنع به يا أبا عباس؟ قال: والذي نفسي بيده، لئن استمكنت منه لأعضنّ أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنّها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات، هذا أوّل شرك هذه الأمة، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدّر خيراً كما أخرجوه أن يكون قدّر شراً»[١].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٠)، وقال أحمد شاكر: إسناده حسن على الأقل. المسند تحقيق/ أحمد شاكر (٥/ ٢٢)، حديث رقم (٣٠٥٦).

وقد جاء كفار قريش إلى النبيّ ﷺ يخاصمونه في القدر، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ في ذلك آية ترد عليهم كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش إلى النبيّ ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[1].

وقد حصل بعض الخصام بين بعض الصحابة رضي الله عنهم في القدر، فنهاهم النبيّ ﷺ عن الخوض في ذلك والتعمّق فيه لما يؤدّي إليه من نتائج سيّئة.

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلّمون في القدر، قال: «وكأنما تَفقَّأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»، وقال: «فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده»[2].

وقد كان السلف من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يكرهون الجدال في القدر ويذمّون من خاض فيه بل حذّروا من ذلك، فهذا الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: «باب شرك فتح على أهل الصّلاة: التكذيب بالقدر فلا تجادلوهم فيجري شركهم على أيديكم»[3].

---

(١) سورة القمر، آية (٤٨، ٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٧٨)، وقال أحمد شاكر، أسناده صحيح. المسند تحقيق أحمد شاكر (١٠/١٥٣)، حديث رقم (٦٦٦٨)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه: المقدمة ـ باب في القدر (١/٣٣)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٣) أخرجه الآجري في الشريعة (ص٢١٥)، واللالكائي في شرح أصول أهل السنّة (٤/ ٦٣٠).

ويقول أيضاً رضي الله عنه: ما غلا أحد في القدر إلاّ خرج من الإسلام[١].

فالسلف رحمهم الله تعالىٰ كرهوا الكلام في القدر والخوض فيه، لكن لما خاضت المبتدعة في هذا الأمر وحادوا عن الصواب رأى السلف الصالح أنه يجب عليهم أن يبيّنوا للناس الحقّ والصواب فيما ضلّ فيه هؤلاء، ذلك لأنه لم يظهر القول في القدر إلاّ بعد مضيّ نصف القرن الأول تقريباً، حيث أن معبداً الجهني[٢] هو أوّل من أثار القول في هذا الأمر.

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى يحيى بن يعمر[٣]، أنّه قال: «كان أوّل من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمٰن الحميري[٤] حاجّين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول أهل السنّة (٤/ ٦٣٢).

(٢) معبد بن عبد الله الجهني نزيل البصرة، كان داعية إلى الضلال وهو أوّل من تكلّم بالقدر في زمن الصحابة، قال ابن أبي حاتم: كان صدوقاً في الحديث وكان رأساً في القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناساً، وقد قتله عبد الملك سنة ٨٠هـ.
الجرح والتعديل (٨/ ٢٨٠)، وميزان الاعتدال (٤/ ١٤١)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).

(٣) الإمام الفقيه المقرئ أبو سليمان يحيى بن يعمر العدواني البصري، كان من أوعية العلم وحملة الحجّة. قال ابن سعد: كان نحويّاً صاحب علم بالعربية والقرآن، أتى خراسان فنزل مرو، وولي القضاء بها، وكان ثقة، توفي سنة ٨٩هـ.
طبقات ابن سعد (٧/ ٣٦٨)، وتهذيب التهذيب (١١/ ٣٠٥)، وغاية النهاية (٢/ ٣٨١).

(٤) حميد بن عبد الرحمٰن الحميري، شيخ بصري، ثقة عالم، قال العجلي: تابعي ثقة.
تاريخ الثقات للعجلي (ص١٣٤)، وتهذيب التهذيب (٣/ ٤٦).

أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عمّا يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ فقلت: أبا عبد الرحمٰن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويَتَقَفَّرون العلم[١] وذكر من شأنهم أنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»[٢].

ولقد سلك هذا المسلك العلماء من بعدهم الذين ساروا على ما سار عليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم. يقول أبو محمد البربهاري رحمه الله تعالىٰ: «والكلام والجدل والخصومة في القدر خاصّة منهيّ عنه عند جميع الفرق، لأن القدر سرّ الله، ونهى الربّ جلّ اسمه الأنبياء عن الكلام في القدر، ونهى النبيّ ﷺ عن الخصومة في القدر، وكرهه أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون، وكرهه العلماء وأهل الورع، ونهوا عن الجدال في القدر، فعليك التسليم والإقرار والإيمان واعتقاد ما قال رسول الله ﷺ في جملة الأشياء، واسكت عمّا سوى ذلك»[٣].

ويقول البغوي رحمه الله تعالىٰ: «والقدر سرّ من أسرار الله لم يطلع عليه ملكاً مقرّباً، ولا نبياً مرسلاً، لا يجوز الخوض فيه، والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله سبحانه وتعالىٰ خلق الخلق، فجعلهم

(١) يتقفرون العلم: أي يطلبونه ويتتبعونه. النهاية لابن الأثير (٤/ ٩٠).
(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان... (١/ ٣٦).
(٣) شرح السنة للبربهاري (ص٣٦).

فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل الشمال خلقهم للجحيم عدلاً»[١].

وقد تكلّم ابن رجب رحمه الله تعالىٰ عن هذه المسألة، فقال: «وقد ورد النهي عن الخوض في القدر، وفي صحيح ابن حبان والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً: «لا يزال أمر هذه الأمة موافياً ومقارباً ما لم يتكلّموا في الولدان والقدر»[٢].

... والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه، منها: ضرب كتاب الله بعضه ببعض فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى ويقع التجادل في ذلك، وهذا قد روي أنه وقع في عهد النبيّ ﷺ، وأن النبيّ ﷺ غضب من ذلك ونهى عنه[٣].

وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه، وقد نُهي عن ذلك[٤].

---

(١) شرح السنة للبغوي (١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه ابن حبان كما في موارد الظمآن (ص٤٥١)، والحاكم (١/ ٣٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا نعلم له علّة، ووافقه الذهبي.
وأخرجه أيضاً البزار كما في كشف الأستار (٣/ ٣٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٦٢)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٢): رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح.

(٣) يشير ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في هذا الكلام إلى حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: هجّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»، أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٥٣).

(٤) كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «المراء في القرآن كفر».

=

ومنها: الخوض في القدر إثباتاً ونفياً بالأقيسة العقلية؛ كقول القدرية: لو قدّر وقضى ثم عذّب كان ظالماً، وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم ونحو ذلك.

ومنها: الخوض في سرّ القدر، وقد ورد النهي عنه عن عليّ وغيره من السلف، فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك[1].



= أخرجه أحمد (٢/٢٨٦)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وأبو داود: كتاب السنة ـ باب النهي عن الجدال في القرآن (٥/٩)، والحاكم (٢/٢٢٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

والطبراني في الكبير (١٩/٢٢٣)، وقال الهيثمي (١/١٥٧): رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٣٦، ١٣٧).

المبحث الخامس
الرضا بالقضاء والقدر

الرضا بالقضاء والقدر هو التسليم وسكون القلب وطمأنينته للقضاء الذي قضى الله سبحانه وتعالىٰ به وهو الحكيم العليم، وهذا جزء لا يتجزأ من الإيمان وركن من أركانه لا يصح الإيمان إلاّ به، ولكن يجب على المؤمن ألاّ يرضى بالذنوب والعيوب ومخالفة الإسلام؛ لأن الله تعالىٰ أمره ألاّ يرضى بها وأن يحاربها ويعمل على إزالتها، ويجب عليه طاعة الله تعالىٰ والتوبة والاستغفار من الذنوب، ولا يحتجّ بأنها مقدّرة عليه لأن هذا احتجاج مردود.

أمّا الرّضا بما قدّره الله سبحانه وتعالىٰ وقضاه من المصائب والنوائب والصبر على طاعة الله تعالىٰ، والصبر عن معصيته وعلى أنواع المكاره والطمأنينة إلى حكم الله عزّ وجلّ فهذا مأمور به، وهذا أمر يخلط فيه بعض الناس فيظنّون أن العبد مأمور بالرضا بكل ما قدّره الله وقضاه سواء كانت المصائب أو الذنوب والمعاصي، ولا شكّ أن هذا غلط مجانب للصواب، لأن الحق في هذا أن العبد لا يلزمه الرضا بكل مقضيّ فضلاً عن أن يسر به، بل المعاصي والذنوب وإن كانت بقضاء الله وقدره إلاّ أن العبد يكرهها ويسخطها وتجب عليه التوبة منها والندم على اقترافها.

يقول ابن أبي العزّ رحمه الله تعالىٰ: «فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه؟

فالجواب: أن يقال أوّلاً: نحن غير مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدّره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنّة بل من المقضيّ ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويمقت، كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذمّ.

ويقال ثانياً: هنا أمران: قضاء الله وهو فعل قائم بذات الله تعالىٰ، ومقضيّ وهو المفعول المنفصل عنه، فالقضاء كلّه خير وعدل وحكمة، نرضى به كلّه، والمقضي قسمان: منه ما يرضى به، ومنه ما لا يرضى به.

ويقال ثالثاً: القضاء له وجهان، أحدهما: تعلّقه بالربّ تعالىٰ ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يرضى به.

والوجه الثاني: تعلّقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به، مثال ذلك: قتل النفس له اعتباران: فمن حيث قدّره الله وقضاه وكتبه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره يرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به[1].

ولذلك لا يلزم من الرّضا بقضاء الله وقدره ترك المطالبة بالحقوق والإنتصاف من الظلمة والمعتدين، ولا ينافي ذلك أيضاً نسبة الظلم والاعتداء إليهم؛ لأن حقيقة الظالم والمعتدي هو من فعل الظلم والاعتداء، وهذا وصف للعبد المكتسب بإرادته واختياره، فمعاقبته على هذا الفعل هو مقتضى العدل والحكمة.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالىٰ أسباباً للرضا بالقضاء، فقال: «وللرضا بالقضاء أسباب:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٨٧).

منها: يقين العبد بالله وثقته به بأنه لا يقضي للمؤمن قضاء إلاّ وهو خير له، فيصير كالمريض المستسلم للطبيب الحاذق الناصح، فإنه يرضى بما يفعله به من مؤلم وغيره لثقته به ويقينه أنه لا يريد له إلاّ الأصلح...

ومنها: النظر إلى وعد الله من ثواب الرّضا، وقد يستغرق العبد في ذلك حتى ينسى ألم المقضي به...

ومنها: وهو أعلى من ذلك كلّه الاستغراق في محبّة الله ودوام ملاحظة جلاله وجماله وعظمته وكماله الذي لا نهاية له، فإن قوّة ملاحظة ذلك يوجب الإستغراق فيه حتى لا يشعر بالألم...»[(١)].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالىٰ أن الرّضا بالقضاء والقدر ليس بواجب، بل هو مستحب مندوب إليه. يقول في إيضاح ذلك في شرح حديث وصيّة النبيّ ﷺ لابن عباس: «والمقصود أن النبيّ ﷺ أمر ابن عباس بالعمل بالرّضا إن استطاعه، ثم قال له: فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً».

وهذا يدلّ على أن الرّضا بالأقدار المؤلمة ليس بحتم واجب، وإنما هو فضل مندوب إليه، فمن لم يستطع الرّضا فليلزم الصبر، فإن الصبر واجب لا بدّ منه، وفيه خير كثير، فإن الله تعالىٰ أمر بالصبر ووعد عليه جزيل الأجر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[(٣)].

---

(١) نور الاقتباس (ص٨٦، ٨٧).
(٢) سورة الزمر، آية (١٠).
(٣) سورة البقرة، آية (١٥٥ ـ ١٥٧).

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾[١].

وحقيقة الفرق بين الصبر والرّضا أن الصبر كفّ النفس وحبسها عن التسخّط مع وجود الألم، والرّضا يوجب انشراح الصدر وسعته، وإن وجد الإحساس بأصل الألم لكن الرّضا يخفّف الإحساس بالألم لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وقد يزيل الإحساس به بالكلية[٢].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «وكما أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى كما صحّ ذلك عن النبيّ ﷺ[٣]، فالرّضا إنما يكون بعد نزول البلاء، كما كان النبيّ ﷺ يقول في دعائه: «وأسألك الرّضا بعد القضاء»[٤]، لأن العبد قد يعزم على الرّضا بالقضاء قبل وقوعه، فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة، فمن رضى بعد وقوع القضاء فهو الراضي حقيقة.

وفي الجملة فالصبر واجب لا بدّ منه، وما بعده إلاّ السخط، ومن سخط أقدار الله فله السخط مع ما يتعجّل له من الألم وشماتة الأعداء به أعظم من جزعه؛ كما قال بعضهم:

لا تجزعن من كل خطب عرا ... ولا ترى الأعداء ما يشتموا
يا قوم بالصبر تنال المنى ... إذا لقيتم فئة فاثبتوا

---

(١) سورة الحج، آية (٣٤، ٣٥).
(٢) نور الاقتباس، (ص٨٨، ٨٩).
(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٧١)، ومسلم (٢/ ٦٣٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٤) جزء من حديث أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٦٤)، والنسائي (٣/ ٥٤)، والحاكم (١/ ٥٢٤) وصححه ووافقه الذهبي.

وقال النبيّ ﷺ: «من يتصبّر يصبّره الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً ولا أوسع من الصبر...»[(١)].

والصبر الجميل هو أن يكتم العبد المصيبة ولا يخبر بها، قال طائفة من السلف في قوله تعالىٰ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[(٢)]، قالوا: «لا شكوى معه...»[(٣)].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله أن ما يصيب المسلم من المصائب والمحن والبلايا له فوائد وحكم كثيرة في الدنيا والآخرة، يقول في آخر كتاب نور الاقتباس: «ولنختم الكتاب بذكر نبذة يسيرة من لطائف البلايا وفوائدها وحكمها:

فمنها: تكفير الخطايا بها، والثواب على الصّبر عليها...

ومنها: تذكّر العبد بذنوبه، فربما تاب ورجع منها إلى الله عزّ وجلّ.

ومنها: زوال قسوة القلب وحدوث رقّتها.

ومنها: إنكسار العبد لله عزّ وجلّ وذلّه له، وذلك أحبّ إلى الله من كثير من طاعات الطائعين.

ومنها: أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله، والوقوف ببابه والتضرّع له والاستكانة، وذلك من أعظم فوائد البلاء.

وقد ذمّ الله من لا يستكين له عند الشدائد، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة ـ باب الاستعفاف في المسألة (٢/ ١٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة ـ باب فضل التعفّف والصبر (٢/ ٧٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) سورة يوسف، آية (٨٣).

(٣) نور الاقتباس (ص٩٠، ٩١).

أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾[١].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾[٢].

ومنها: أن البلاء يوصل إلى قلبه لذّة الصبر والرّضا به، وذلك مقام عظيم جداً. . .

ومنها: أن البلاء يقطع قلب المؤمن من الالتفات إلى المخلوق، ويوجب له الإقبال على الخالق وحده، وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد، فكيف بالمؤمن!

فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه، وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات. . .

ومنها: أن العبد إذا اشتدّ عليه الكرب، فإنه محتاج حينئذ إلى مجاهدة الشيطان لأنه يأتيه فيقنطه ويسخطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيكون في مجاهدة عدوّه ودفعه دفع البلاء عنه ورفعه.

ومنها: أن المؤمن إذا استبطأ الفرج ويئس منه ولا سيّما بعد كثرة الدعاء وتضرّعه، ولم يظهر له أثر الإجابة، رجع إلى نفسه باللاّئمة، ويقول لها: إنما أتيت من قبلك ولو كان فيك خير لأجبت[٣].

كما أوضح ابن رجب رحمه الله تعالىٰ ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر، فقال: «فإنه إذا علم العبد أنه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله من خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ، وأن اجتهاد الخلق كلّهم جميعاً على

---

(١) سورة المؤمنون، آية (٧٦).

(٢) سورة الأنعام، آية (٤٢).

(٣) نور الاقتباس (ص١٠٨ ـ ١١١).

خلاف المقدور غير مفيد شيئاً البتّة، علم حينئذ أن الله تعالىٰ وحده هو الضارّ النافع والمعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربّه عزّ وجلّ وإفراده بالاستعانة والسؤال والتضرّع والابتهال وإفراده أيضاً بالعبادة والطاعة؛ لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار...»[١].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «فإذا أنت أحكمت باب اليقين، فحصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يوجب رضا النفس بالقضاء والقدر وطمأنينتها به.

وقد دلّ القرآن الكريم على هذا المعنى بعينه في قوله تعالىٰ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٢].

قال الضحاك[٣]: «عزاهم لئلاّ تأسوا على ما فاتكم: لا تأسوا على شيء من أمر الدنيا فإنّا لم نقدّره لكم، ولا تفرحوا بما آتاكم: لا تفرحوا بشيء من أمر الدنيا أعطيناكموه فإنه لم يكن يزوى عنكم»[٣].

وقال سعيد بن جبير[٤] في هذه الآية: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم

(١) نور الاقتباس (ص٧٩).
(٢) سورة الحديد، آية (٢٣).
(٣) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد صاحب التفسير، قال الذهبي: كان من أوعية العلم، وليس بالمجود لحديثه، وهو صدوق في نفسه، وله باع كبير في التفسير والقصص، توفي سنة ١٠٢هـ.
سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٨)، وتهذيب التهذيب (٤/ ٤٥٣).
(٤) الإمام الحافظ المجود المقرئ المفسّر أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي، من كبار التابعين، كان ذا عبادة، وزهد ودين، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ.
طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٦)، ذكر أخبار أصبهان (١/ ٣٢٤)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢١).

من العافية والخصب إذا علمتم أنه كان مكتوباً عليكم قبل أن يخلقكم».

ومن هذا المعنى قول بعض السلف: «الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن، وقد أشار النبيّ ﷺ إلى ذلك بقوله في الحديث الصحيح عنه: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1]، فأشار في هذا الحديث إلى أن تذكير النفس بالقدر السابق عند المصائب يذهب وسواس الشيطان الموجبة للهمّ والحزن والندم على تعاطي الأسباب الدافعة لوقوعها»[2].



(١) تقدم تخريجه (ص٣٦١).
(٢) نور الاقتباس (ص٨٢، ٨٣).

المبحث السادس
حكم تمنّي الموت وعلاقته بالقضاء والقدر

تكلّم ابن رجب رحمه الله تعالىٰ عن حكم تمنّي الموت في عدة مواضع من كتبه، وبيّن أن تمنّي الموت خشية الفتنة جائز، وقد دعا به الصحابة رضي الله عنهم والصالحون من بعدهم.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: «والدعاء بالموت خشية الفتنة في الدين جائز، وقد دعا به الصحابة والصالحون بعدهم»[١].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً: «... وأمّا تمنّي الموت خوف فتنة، فإنه يجوز بلا خلاف»[٢].

وقال رحمه الله تعالىٰ أيضاً في معرض ذكر وجوه تمنّي الموت: «ومنها تمنّيه خوف الفتنة في الدين فيجوز حينئذ، وقد تمنّاه ودعا به خشية فتنة الدين خلق من الصحابة وأئمّة الإسلام»[٣].

فقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في كلامه السابق أن تمنّي الموت خشية الفتنة جائز، وما قرّره ابن رجب رحمه الله تعالىٰ في هذه المسألة قد ورد ما يدلّ عليه في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ وسنّة رسوله ﷺ، فقد أخبر الله تبارك وتعالىٰ في كتابه عن مريم أنها تمنّت

(١) اختيار الأَوْلى (ص١٠٧).
(٢) شرح حديث زيد: «لبيك اللّهمّ لبّيك» ورقة (٧).
(٣) لطائف المعارف (ص٣٠٨).

الموت؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ في تفسيره لهذه الآية: «فيه دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدّقونها في خبرها وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾، أي قبل هذا الحال ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، أي لم أخلق ولم أك شيئاً»[٢].

وقال أيضاً رحمه الله في موضع آخر: «وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت؛ كما قال الله تعالىٰ أخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدّدهم بالقتل، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٣]، وقالت مريم لما جاءها المخاض وهو الطلق إلى جذع النخلة: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٤]، لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت»[٥].

وقال القرطبي في التذكرة ـ باب جواز تمنّي الموت والدعاء به خوف ذهاب الدين ـ قال الله عزّ وجلّ مخبراً عن يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٦]، وعن مريم عليها السلام في قولها: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٤].

---

(١) سورة مريم، آية (٢٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/١١٦، ١١٧).
(٣) سورة الأعراف، آية (١٢٦).
(٤) سورة مريم، آية (٢٣).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/٤٩٢).
(٦) سورة يوسف، آية (١٠١).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»[(١)].

قلت: لا تعارض بين هذه الترجمة والتي قبلها لما نبيّنه. أمّا يوسف عليه السلام، فقال قتادة: لم يتمنّ الموت أحد نبيّ ولا غيره إلاّ يوسف عليه السلام حين تكاملت عليه النعم وجمع له الشمل اشتاق إلى لقاء ربّه عزّ وجلّ، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي﴾[(٢)]، فاشتاق إلى لقاء ربّه عزّ وجلّ، وقيل: إن يوسف عليه السلام لم يتمنّ الموت وإنما تمنّى الموافاة على الإسلام، أي إذا جاء أجلي توفّني مسلماً، وهذا القول هو المختار في تأويل الآية عند أهل التأويل، والله أعلم.

وأمّا مريم عليها السلام، فإنما تمنّت الموت لوجهين:

أحدهما: أنها خافت أن يظنّ بها السوء في دينها وتعيّر، فيفتنها ذلك.

الثاني: لئلاّ يقع قوم بسببها في البهتان والزور والنسبة إلى الزّنا، وذلك مهلك لهم... فعلى هذا الحد الذي ذكرناه... يكون تمنّي الموت في حقها جائزاً، والله أعلم.

وأمّا الحديث، فإنما هو خبر أن ذلك سيكون لشدّة ما ينزل بالناس من فساد الحال في الدين، وضعفه وخوف ذهابه، لا لضرّ ينزل بالمرء في جسمه أو غير ذلك من ذهاب ماله مما يحطّ به عنه خطاياه[(٣)].

كما دلّ على جواز تمنّي الموت خشية الفتنة في الدين أحاديث المصطفى ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن (٨/ ١٠٠)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة (٤/ ٢٢٣١).

(٢) سورة يوسف، آية (١٠١).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص١٢، ١٣).

منها: حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه الطويل، وفيه قوله ﷺ: «وإذا أردت فتنة في قوم فتوفّني غير مفتون»[١].

ومنها: قوله ﷺ: «اللّهمّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا علمت الوفاة خيراً لي...»[٢].

بهذا يتبيّن أن تمنّي الموت خشية الفتنة في الدين جائز.

وعلاقة هذه المسألة بمبحث القضاء والقدر أن تمنّي الموت خشية الفتنة في الدين ليس فيه تسخط وتضجّر مما قضاه الله سبحانه وتعالىٰ وقدّره، وإنما هو طلب خير الأمرين. وأمّا تمنّي الموت خوف الضرر ونزول المكروه، فهذا فيه تسخط وتضجّر من قضاء الله وقدره الذي سبق به الكتاب، ولأجل هذا جاء النهي عن ذلك.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالىٰ: «ووجه كراهيته في هذه الحال - أي تمنّي الموت - أن المتمنّي للموت لضرّ نزل به إنما يتمنّاه تعجيلاً للإستراحة من ضرّه، وهو لا يدري إلى ما يصير بعد الموت، فلعلّه يصير إلى أعظم من ضرّه، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار، وفي الحديث عن النبيّ ﷺ، قال: «إنما يستريح من غفر له»[٣]، فلهذا لا ينبغي له أن يدعو بالموت إلاّ أن يشترط أن يكون خيراً له عند الله عزّ وجلّ، فكذلك كل ما لا يعلم العبد فيه الخيرة له، كالغنى والفقر وغيرهما كما يشرع له استخارة الله تعالىٰ فيما يريد أن يعمله مما لا يعلم وجه الخيرة فيه، وإنما يسأل الله عزّ وجلّ الجزم والقطع مما يعلم أنه خير محض»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٦٩)، والبزار كما في كشف الأستار (٢/ ٣٧٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٣٠)، رواه البزار ورجاله ثقات.

(٤) لطائف المعارف (ص٣٠٨).

المبحث السابع
القضاء والقدر وفعل الأسباب

الإيمان بالقضاء والقدر لا يمنع من مباشرة الأسباب، لأن مباشرة الأسباب والأخذ بها مأمور به، وهي من قدر الله ولأن الله سبحانه وتعالى جعل مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم والثواب والعقاب والحل والحرمة وغير ذلك مرتبطة بالأسباب قائمة عليها، فالله سبحانه وتعالى قدر أن يكون الحرث سبباً في وجود الزرع، والنكاح سبباً في وجود الولد، وشرب الماء سبباً في الري، والدواء سبباً في الشفاء، والعمل الصالح سبباً في دخول الجنة، والعمل السيئ سبباً في دخول النار، مع الإيمان بأن الأسباب لا تعطي النتائج إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، فالذي خلق الأسباب هو الذي خلق النتائج والثمار، والأسباب والمسببات جميعها من أقدار الله تعالى، فلا بد لنا من مباشرتها للحصول على ما ربط بها من نتائج ومسببات.

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى ببذل الأسباب فقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1] وبيّن الرسول ﷺ أن الأسباب المشروعة هي من القدر كما جاء في حديث أبي خزامة عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل ترد من

---

(١) سورة الملك آية (١٥).

قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»[(١)].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه»[(٢)].

ولذا فإن دعوى أن الإيمان بقضاء الله وقدره مدعاة إلى الخمول والكسل والاتكالية كما يدعي ذلك الجهلة من أهل التصوف وغيرهم دعوى باطلة لأن قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره لا يتخذ سبيلاً إلى التواكل، ولا ذريعة إلى المعاصي، وإنما يتخذ سبيلاً إلى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال، ولهذا كان الإيمان بالقضاء والقدر سر عظمة المسلمين الأولين لأنهم أخذوا بالأسباب وبذلوا جهدهم إنفاذاً لأمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله ﷺ، وقد بيّن هذا رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فأعدوا العدة للحرب والقتال، وفكروا ودبروا وخططوا.

فالرسول ﷺ استعان بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى التي كلف بها عليه الصلاة والسلام فقام بها خير قيام فقاوم الجهل بالعلم، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد، وقاوم الفقر بالعمل، وقاوم المرض بالدواء، وكان ﷺ يستعيذ بالله من الهم والحزن والعجز والكسل.

وما غزواته المظفرة ﷺ إلا دليل على أخذه بالأسباب عليه الصلاة والسلام.

وهكذا أصحابه رضي الله عنهم حيث أنهم لما سمعوا أحاديث القدر اجتهدوا في العمل أشد مما كانوا عليه ولذا كان يقول أحدهم: ما كنت

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٤٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الاستعفاف.
ومسلم: كتاب الزكاة، باب كراهية مسألة الناس (٢/ ٧٢١).

بأشد اجتهاداً مني الآن[١] ولهذا لما خرج عمر رضي الله عنه إلى الشام لقيه أمراء الأمصار وأخبروه بانتشار الوباء فيها فاستشار المهاجرين والأنصار، ثم مهاجرة الفتح من مشايخ قريش، فاجتمع المهاجرة على الرجوع بعداً عن الوباء فأمر عمر بذلك، فقال له أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيباً في بعض حاجته ـ فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف»[٢].

فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهاداً في فعلها والقيام بها، وأعظم من قيامه في أسباب معاشه ومصالح دنياه.

وبهذا يتبين أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال بل يوجب الجد والاجتهاد والحرص على العمل الصالح مع ملاحظة أن مباشرة الأسباب لا يعني تعلق القلب بها أو الاعتقاد بأنها مفضية إلى نتائجها قطعاً بل يجب أن يكون الاعتماد في حصول النتيجة على الله وحده لا على مباشرة السبب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «... فالالتفات إلى

---

(١) انظر: شفاء العليل (ص٢٦).
(٢) تقدم تخريجه (ص٣٤٨).

الأسباب، واعتبارها مؤثرة في المسببات شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها، فهو عاجز مفرط مذموم(١).

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى هذه المسألة فقال مبيناً أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الأسباب والمسببات: «والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره»(٢).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «. . . لكن العبد مأمور بالسعي في اكتساب الخيرات والاجتهاد في الأعمال الصالحات، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة. . .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾(٣) . . .(٤).

كما أشار رحمه الله تعالى إلى أنواع الأسباب فقال: «والأسباب

(١) مجموع الفتاوى (٨/٥٢٨، ٥٢٩).
(٢) لطائف المعارف (ص٨٣).
(٣) سورة الليل آية (٥ ـ ١٠).
(٤) لطائف المعارف (ص٢٠٥).

نوعان: أحدهما: أسباب الخير فالمشروع أنه يفرح بها ويستبشر ولا يسكن إليها بل إلى خالقها ومسببها، وذلك هو تحقيق التوكل على الله والإيمان به كما قال تعالى في الإمداد بالملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[(١)].

ومن هذا الباب الاستبشار بالفأل وهو الكلمة الصالحة يسمعها طالب الحاجة، وأكثر الناس يركن بقلبه إلى الأسباب وينسى المسبب لها، وقل من فعل ذلك إلا وكل إليها وخذل، فإن جميع النعم من الله وفضله كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[(٢)]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

ولا تضاف النعم إلى الأسباب بل إلى مسببها ومقدرها كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه صلى بهم الصبح في أثر سماء ثم قال: «أتدرون ما قال ربكم الليلة، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما المؤمن فقال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما الكافر فقال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[(٤)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر»[(٥)] وهذا مما يدل على أن المراد نفي تأثير هذه الأسباب بنفسها من غير اعتقاد أنها بتقدير الله وقضائه،

---

(١) سورة آل عمران (١٢٦).
(٢) سورة النساء آية (٧٩).
(٣) سورة النحل آية (٥٣).
(٤) تقدم تخريجه (ص٤٨٦).
(٥) تقدم تخريجه (ص٤٨١).

فمن أضاف شيئاً من النعم إلى غير الله مع اعتقاده أنه ليس من الله فهو مشرك حقيقة، ومع اعتقاد أنه من الله فهو نوع شرك خفي.

والنوع الثاني: أسباب الشر فلا تضاف إلا إلى الذنوب لأن جميع المصائب إنما هي بسبب الذنوب كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2] فلا تضاف إلى شيء من الأسباب سوى الذنوب كالعدوى أو غيرها، والمشروع اجتناب ما ظهر منها واتقاؤه بقدر ما وردت به الشريعة مثل اتقاء المجذوم والمريض والقدوم على مكان الطاعون، وأما ما خفي منها فلا يشرع اتقاؤه واجتنابه فإن ذلك من الطيرة المنهى عنها[3].

بهذا يتبين لنا غلط كثير من الناس حيث توهموا أن فعل الأسباب وتعاطيها ينافي التوكل والاعتماد على الله، وينافي الإيمان بالقضاء والقدر وفهموا أن الإيمان بالقضاء والقدر يعني الخمول والكسل وترك فعل الأسباب وهذا غلط بيّن وهو ناتج عن عدم فهم الإيمان بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح، والحق في هذه المسألة ما سبق بيانه، والله أعلم.



(١) سورة النساء آية (٧٩).
(٢) سورة الشورى آية (٣٠).
(٣) لطائف المعارف (ص٨٥، ٨٦).

المبحث الثامن
الاحتجاج بالقدر على المعاصي وبيان معنى حديث «فحج آدم موسى»

لقد ضل كثير من الناس في هذه المسألة وأخذ كثير منهم ينغمس في فعل المعاصي والفواحش ثم يحتج على ذلك بالقدر وأنه لا حيلة له فيما قدر عليه، وهذا في غاية البطلان ولا يقوله إلا صاحب هوى، لأنه لا يجوز لمن عصى الله ورسوله أن يدفع عن نفسه اللوم بأن الله هو الذي قدر عليه الوقوع في المعصية وشاءها منه، فإن هذا الاحتجاج معارضة لشرع الله، وأمره، ومخاصمة له سبحانه وتعالى في أمره وشرعه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه وطعن في حكمته وعدله، ودفع له بقضائه وقدره وفي هذا إبطال للشرع وللدين كله[1].

وقد زعم المشركون أن الله سبحانه وتعالى قد رضي منهم الكفر لأنه في نظرهم يلزم من مشيئة الله لكفرهم رضاه به، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۝١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٤٩﴾[2].

فهذا جواب رب العزة لمن يحتج بقدره سبحانه على معصيته، ولله

---

(١) انظر: رسالة في الاحتجاج بالقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (٢/ ١٤٠).

(٢) سورة الأنعام آية (١٤٨، ١٤٩).

الحجة البالغة، فقد بيّن سبحانه وتعالى كذبهم في الاحتجاج بالمشيئة على ما وقعوا فيه من الشرك ونفى عنهم العلم وأثبت لهم الخرص ثم بيّن أن الحجة له سبحانه وتعالى على عباده بقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[١] ولو صح الاحتجاج بالقدر على مثل هذا لما حُدَّت الحدود وفرضت الفرائض وخلقت الجنة والنار والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٢] وهذا لا ينافي القول بأن الله سبحانه وتعالى خلق أفعال العباد كلها وقدرها عليهم[٣].

ولو كان القدر حجة للعبد فيما يقترفه من المعاصي لكان حجة لجميع الناس في كل شيء لأنهم مشتركون في القدر.

والعجيب أن من يحتج بالقدر في المعاصي لا يحتج بالقدر إذا وقع عليه ظلم بل يغضب ويلجأ إلى كل وسيلة لرفع الظلم عن نفسه ولم نسمع أحداً منهم يقول بأن الله قدر لي ذلك وكتبه علي، ولذلك لا حيلة لي، مما يدل على أن الشيطان أضلهم وزين لهم أعمالهم، وإلا فيلزم من احتج بالقدر في المعاصي أن لا يلوم من ظلمه ولا ينكر على من شتمه وأخذ ماله أو أهلك حرثه ونسله، وهو لا يقر بذلك ولذلك فإن الاحتجاج بقدر الله على معصيته مع ظهور عقابه سبحانه للعصاة، فيه نسبة الظلم إليه سبحانه وهو أمر يتنافى مع الإيمان بالله عز وجل[٤].

إضافة إلى أن المحتج بالقدر على معصيته متقول على الله بغير علم

---

(١) سورة الأنعام آية (١٤٩).

(٢) سورة النساء آية (١٦٥).

(٣) انظر: شفاء العليل (ص٣٧، ٣٨).

(٤) انظر: رسالة في القضاء والقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (٢/ ٩٠ ـ ٩٣).

إذ كيف يصح للعاصي أن يحتج بأن الله كتب عليه المعصية قبل صدور ذلك منه، وقدر الله قبل وقوعه غيب لا يعلمه إلا هو عز وجل مع أنه مخاطب قبل إقدامه على عصيان ربه بطاعته والتزام أمره، وبمثل هذه الحجة البالغة أجاب سبحانه على هؤلاء المتذرعين بقدر الله في مواضع أخرى من القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾(١).

فليس الإيمان بالقدر حجة للإنسان على فعل المعاصي أو التهاون بما أوجب الله عليه لأن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان عقلاً يتمكن به من الإرادة وأعطاه قدرة يتمكن بها من العمل، ولذلك إذا سلب عقل الإنسان لم يعاقب على معصية ولا ترك واجب وإذا سلب قدرته على الواجب لم يؤاخذ بتركه، وكذلك لا يؤاخذ الله العبد على ما فعله من محرم جاهلاً به أو ناسياً لأنه ليس مختاراً لفعله لو علم بتحريمه، فالاحتجاج بالقدر على المعاصي أو ترك الواجبات حجة داحضة باطلة لا يفعلها إلا المبطلون المكابرون.

كما أن هذه الحجة يبطلها العقل وذلك لأن المحتج بالقدر ليس عالماً بالقدر فيبني عمله عليه فكيف يحتج بما ليس له تأثير في فعله إذ لا تأثير للشيء في فعل الفاعل حتى يكون عالماً بهذا المؤثر، فالإنسان العاقل إذا تأمل الأمور بعقله ونظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ علم علماً يقيناً أنه لا حجة للإنسان بقضاء الله وقدره على فعله للمعاصي، والواجب على المسلم أن يجعل القضاء والقدر وسيلة إلى الاستعانة بالله وطلب الهداية منه لأنه سبحانه وتعالى بيده مقاليد الأمور كلها، فالصحابة رضي الله عنهم لما قالوا للنبي ﷺ: أفلا ندع العمل ونتكل على القضاء

(١) سورة الأعراف آية (٢٨).

قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء»(١) ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾(٢) . . .(٣).

والمحتجون بالقدر على المعاصي هم الجبرية(٤) من الجهمية ومن سار على نهجهم وسلك سبيلهم.

ومن أشهر الأدلة التي استدلوا بها على تسويغ تفريطهم وعصيانهم حديث احتجاج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة» فقال النبي ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٠٦).

(٢) سورة الليل آية (٥ ـ ١٠).

(٣) انظر: معارج القبول (٢/ ٣٦١).

(٤) سموا بذلك نسبة إلى الجبر وهو نفي الفعل عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، فهم يقولون: إن العبد مجبور على فعله فهو كالريشة في مهب الريح وكحركات المرتعش ليس له إرادة ولا قدرة على الفعل، وممن قال بهذا الجهم بن صفوان، وهم أصناف، فمنهم الجبرية الخالصة وهم الذين يقولون بقول جهم، ومنهم من يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة.

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٨) ومقالات الإسلاميين (١/ ٣٣٨) والملل والنحل (١/ ٨٥).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى (٧/ ٢١٤) ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٢).

وقد اختلفت الأقوال[1] تجاه هذا الحديث ويمكن حصرها فيما يأتي:

١ ـ هناك فريق كذبوا هذا الحديث وردوه وقالوا: لو صح هذا الحديث لبطلت نبوات الأنبياء، فإن القدر إذا كان حجة للعاصي بطل الأمر والنهي، وهذا هو قول القدرية من المعتزلة ومن نحا نحوهم.

٢ ـ وهناك فريق آخر جعلوا هذا الحديث حجة على فعل المعاصي فكلما عملوا معصية احتجوا بالقدر واستدلوا بهذا الحديث وهم الجبرية ومن وافقهم.

٣ ـ وهناك فريق ثالث فسروه بعدة تفسيرات فبعضهم قال: إنما حجه لأنه كان أباه، والابن لا يلوم الأب.

وقال بعضهم: إنما حجه لأن الذنب كان في شريعة، واللوم في شريعة أخرى.

وقال بعضهم: إنما حجه لأن الاحتجاج به كان في الآخرة دون الدنيا.

وقال بعضهم: إنما حجه لأن اللوم كان بعد التوبة.

وهذه الأقوال كلها لا تسلم من ضعف أو اعتراض، فمن رد الحديث وكذبه فلا عبرة بقوله لأن الحديث ثابت.

وأما من قال إنما حجه لأنه أبوه فهو قول فاسد، لأن الحق يجب المصير إليه سواء كان مع الأب أو الابن أو العبد أو السيد، وكذلك قول

---

(١) انظر: حكاية هذه الأقوال والردود والمناقشات فيها في مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥) ودرء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤١٨ ـ ٤٢٠) وشفاء العليل (ص٢٨ ـ ٣١) وفتح الباري لابن حجر (١١/ ٥٠٩ ـ ٥١١).

من قال لأن الذنب كان في شريعة والملام في أخرى فهذه الأمة تلوم الأمم المخالفة لرسلها المتقدمة عليها، وإن كانت لم تجمعهم شريعة واحدة.

وكذلك قول من قال إنه لامه في غير دار التكليف فهذا فاسد لوجهين:

١ ـ أن آدم عليه السلام إنما احتج بالقدر السابق، ولم يقل لموسى عليه السلام لم تلومني وأنا لست في دار التكليف.

٢ ـ أن هذه الحجة مبنية على أن اللوم لا يصح إلا في دار التكليف وهذا منقوض بوقوع اللوم في غير دار التكليف كما يلوم الله سبحانه بعض عباده المستحقين للذم بعد الموت في يوم القيامة كقوله تعالى للكفار يوم القيامة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾(١).

وأما من قال إن آدم حج موسى لأن موسى لامه بعد التوبة من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

فقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن هذا القول وإن كان أقرب إلى الصواب من غيره فإنه لا يصح لثلاثة وجوه:

أحدها: أن آدم لم يذكر ذلك الوجه، ولا جعله حجة على موسى، ولم يقل أتلومني على ذنب قد تبت منه.

الثاني: أن موسى أعرف بالله سبحانه وبأمره ودينه من أن يلوم على ذنب قد أخبره سبحانه أنه قد تاب على فاعله واجتباه بعد هداه، فإن هذا لا يجوز لآحاد المؤمنين أن يفعله فضلاً عن كليم الرحمن.

---

(١) سورة المؤمنون آية (١٠٥).

الثالث: أن هذا يستلزم إلغاء ما علق به النبي ﷺ وجه الحجة، واعتبار ما ألغاه، فلا يلتفت إليه[١].

وأحسن جواب فسر به هذا الحديث هو أن موسى عليه السلام إنما لام آدم على المصيبة التي أصابته وذريته وهي خروجه من الجنة ونزوله إلى الأرض، ولم يكن اللوم لأنه عصى أمر الله وأكل من الشجرة يدل على ذلك قوله في الحديث: «أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة» ولم يقل له: لماذا خالفت الأمر، ولماذا عصيت؟... فاللوم واقع على المصيبة، وهي مقدرة فحج آدم موسى، والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بالتسليم لقدر الله السابق كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[٢].

وهذا الجواب هو جواب شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] وتلميذه ابن القيم[٤] رحمهما الله تعالى.

وهو ما قال به ابن رجب رحمه الله تعالى حيث قال: «لما التقى آدم وموسى عليهما السلام عاتب موسى آدم على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فاحتج آدم بالقدر السابق، والاحتجاج بالقدر على المصائب حسن كما قال ﷺ: «إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل»[٥]...[٦] والله أعلم.

---

(١) شفاء العليل (ص٣٠، ٣١).

(٢) سورة التغابن آية (١١).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣١٩).

(٤) انظر: شفاء العليل (ص٣٨).

(٥) تقدم تخريجه (ص٣٦١).

(٦) لطائف المعارف (ص٥٥).

الفصل الرابع

الإيمان باليوم الآخر

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: أهمية الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الثاني: الإيمان بأشراط الساعة.

أولاً: العلامات الصغرى.

ثانياً: العلامات الكبرى.

المبحث الثالث: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وفتنته.

المبحث الرابع: الأعمال التي يعذب أو ينعم بها العبد في القبر.

المبحث الخامس: مستقر الأرواح.

المبحث السادس: الصراط.

المبحث السابع: بيان المراد بالورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

المبحث الثامن: الشفاعة.

المبحث التاسع: الجنة ونعيمها.

المبحث العاشر: رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة.

المبحث الحادي عشر: النار وعذابها.

المبحث الثاني عشر: خلق الجنة والنار.

المبحث الثالث عشر: الجنة والنار باقيتان لا تفنيان أبداً.

المبحث الأول
أهمية الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الستة، وعقيدة من عقائد الإسلام الأساسية، وأصل عظيم من أصول الإيمان، إذ لا يصح إيمان أحد إلا بالإيمان به.

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها التي تكون قبلها، وبالموت وما بعده من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وبالنفخ في الصور، وخروج الخلق من قبورهم، وما في موقف القيامة من الأهوال والأفزاع، وتفاصيل الحشر ونشر الصحف، ووضع الموازين، وبالصراط والحوض، والشفاعة لمن أذن الله له، وبالجنة ونعيمها، وبالنار وعذابها وغيرها من الأمور التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والصحيح من سنة المصطفى ﷺ.

وقد دل على وجوب الإيمان باليوم الآخر كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ كما يدل عليه العقل والفطرة السليمة، وقد أكثر الله سبحانه وتعالى من ذكره في كتابه، وأقام عليه الأدلة، ورد شبه المنكرين للبعث في كثير من المواضع، كما فصل أمور ذلك اليوم وحوادثه تفصيلاً كثيراً، مع أن كل رسول أرسله الله بشر قومه وأنذرهم بهذا اليوم العظيم، وكفر كل من ينكره أو يشك فيه.

والإيمان باليوم الآخر من الإيمان بالغيب الذي لا يدركه العقل ولا سبيل إلى معرفته إلا بالنص عن طريق الوحي.

وقد مدح الله المؤمنين بالغيب وأثنى عليهم ونوه بذكرهم، وذكر تعالى ما لهم من الأجر العظيم والثواب الجزيل والنعيم المقيم.

فيجب على المسلم التصديق الجازم بجميع ما جاء عن اليوم الآخر في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ لأن هذا اليوم قد دل على وقوعه النقل والعقل والفطرة كما صرحت به جميع الكتب السماوية ونادى به جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم.

فمن الآيات الدالة على وجوب الإيمان باليوم الآخر قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ...﴾[1] الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[4].

ومن الأحاديث الدالة على وجوب الإيمان باليوم الآخر قوله ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره شره»[5].

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٧).
(٢) سورة البقرة آية (٦٢).
(٣) سورة الطلاق آية (٢).
(٤) سورة النساء آية (١٣٦).
(٥) تقدم تخريجه (ص٥٢٨).

وقوله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، بعثني بالحق، ويؤمن بالموت ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره»[١].

فهذه الآيات والأحاديث تدل على وجوب الإيمان باليوم الآخر وتبين أهميته.

وقد اهتم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى بهذا الركن من أركان الإيمان اهتماماً كبيراً وتعرض له في كثير من مؤلفاته بل إنه أفرد بعض جوانبه بمؤلفات خاصة، فقد تكلم في كتابه أهوال القبور عن عذاب القبر ونعيمه وما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث كما تكلم أيضاً في كتاب التخويف من النار عن النار وعذابها وصفات أهلها، كما أنه أشار في ثنايا كتبه الأخرى عن جوانب كثيرة مما يكون بعد الموت من البعث والنشور وما يكون في يوم القيامة من ثواب وعقاب وجنة ونار، وما يكون قبل ذلك كله من علامات وأشراط مما هو دليل على ذلك اليوم العظيم.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى وجوب الإيمان بالغيب والتسليم بذلك بدون تكلف البحث عن الكيفيات التي ترد في الكتاب والسنة، لأن البحث في ذلك يؤدي إلى الحيرة والشك فقال رحمه الله تعالى مبيناً ذلك: «ومما يدخل النهي عن التعمق والبحث عنه أمور الغيب الخبرية التي أمرنا بالإيمان بها ولم يبين كيفيتها، وبعضها قد لا يكون له شاهد في هذا العالم المحسوس، فالبحث عن كيفية ذلك هو مما لا يغني، وهو مما ينهى عنه، وقد يوجب الحيرة والشك ويرتقي إلى التكذيب»[٢].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٠٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٤٢).

كما بيّن رحمه الله تعالى أن كل ما في الدنيا دليل على الآخرة ومذكر بها فقال: «كل ما في الدنيا فهو مذكر بالآخرة ودليل عليها، فنبات الأرض واخضرارها في الربيع بعد محولها ويبسها في الشتاء وإيناع الأشجار واخضرارها بعد كونها خشباً يابساً يدل على بعث الموتى من الأرض وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه في مواضع كثيرة قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[1]».

وقال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[3].

قال أبو رزين للنبي ﷺ: كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «هل مررت بواد أهلك محلاً ثم مررت به يهتز خضراً؟» قال: نعم، قال: «كذلك يخرج الله الموتى وذلك آيته في خلقه» خرجه الإمام أحمد[4].

---

(١) سورة الحج آية (٥ ـ ٧).

(٢) سورة ق آية (٩ ـ ١١).

(٣) سورة الأعراف آية (٥٧).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١١)، ورجاله ثقات إلا وكيع بن حرس وقيل عُدُس، قال ابن حجر في تقريب التهذيب (ص٣٦٩) مقبول.

وقصر مدة الزرع والثمار وعود الأرض بعد ذلك إلى يبسها والشجر إلى حالها الأول كعود ابن آدم بعد كونه حياً إلى التراب الذي خلق منه، وفصول السنة تذكر بالآخرة، فشدة حر الصيف يذكر بحر جهنم، وهو من سمومها، وشدة برد الشتاء يذكر بزمهرير جهنم وهو من زمهريرها..... وأما الربيع فهو أطيب فصول السنة وهو يذكر بنعيم الجنة وطيب عيشها، وينبغي أن يحث المؤمن على الاستعداد لطلب الجنة بالأعمال الصالحة[١].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى وجوب الاستعداد لما بعد الموت بالأعمال الصالحة فقال: «فالواجب على العبد الاستعداد للموت قبل نزوله بالأعمال الصالحة والمبادرة إلى ذلك، فإنه لا يدري المرء متى تنزل به هذه الشدة من ليل أو نهار.

وذكر الأعمال الصالحة عند الموت مما يحسن ظن المؤمن بربه، ويهون عليه شدة الموت ويقوي رجاءه[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا الموت، وما بعده أشد منه إن لم يكن مصير العبد إلى خير، فالواجب على المؤمن الاستعداد للموت وما بعده في حال الصحة بالتقوى والأعمال الصالحة، قال الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾[٣].

فمن ذكر الله في حال صحته ورخائه واستعد حينئذ للقاء الله

(١) لطائف المعارف (ص٣٢٩).
(٢) نور الاقتباس (ص٥٨).
(٣) سورة الحشر آية (١٨، ١٩).

عز وجل بالموت وما بعده ذكره الله عند هذه الشدائد فكان معه فيها، ولطف به وأعانه وتولاه وثبته على التوحيد فلقيه وهو عنه راض.

ومن نسي الله في حال صحته ورخائه، ولم يستعد حينئذ للقائه نسيه الله في هذه الشدائد، بمعنى أنه أعرض عنه فأهمله، فإذا نزل الموت بالمؤمن المستعد له أحسن الظن بربه، وجاءته البشرى من الله، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، والفاجر بعكس ذلك.

وحينئذ يفرح المؤمن ويستبشر بما قدمه مما هو قادم عليه، ويندم المفرط ويقول: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[1])[2].

كما بين ابن رجب رحمه الله تعالى أقسام الناس باليوم الآخر فمنهم المكذب والمنكر الذي لا يرجو لقاءه، ومنهم المصدق والمقر به وهؤلاء على درجات متفاوتة فقال: «انقسم بنو آدم في الدنيا إلى قسمين:

أحدهما: من أنكر أن يكون للعباد دار بعد الدنيا للثواب والعقاب وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾[3].

وهؤلاء همهم التمتع في الدنيا واغتنام لذاتها قبل الموت كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾[4].

القسم الثاني: من يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب، وهم المنتسبون إلى شرائع المرسلين، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

---

(١) سورة الزمر آية (٥٦).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٩٤، ٩٥).
(٣) سورة يونس آية (٧، ٨).
(٤) سورة محمد آية (١٢).

والظالم لنفسه هم الأكثرون منهم، وأكثرهم واقف مع زهرة الدنيا وزينتها، فأخذها من غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارت الدنيا أكبر همه، بها يرضى وبها يغضب، ولها يوالي وعليها يعادي، وهؤلاء هم أهل اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر، وكلهم لم يعرف المقصود من الدنيا، ولا أنها منزلة سفر يتزود منها لما بعدها من دار الإقامة، وإن كان أحدهم يؤمن بذلك إيماناً مجملاً فهو لا يعرفه مفصلاً، ولا ذاق ما ذاقه أهل المعرفة بالله في الدنيا، مما هو أنموذج ما ادخر لهم في الآخرة.

والمقتصد منهم أخذ الدنيا من وجوهها المباحة وأدى واجباتها وأمسك لنفسه الزائد على الواجب، يتوسع به في التمتع بشهوات الدنيا، وهؤلاء قد اختلف في دخولهم في اسم الزهاد في الدنيا... ولا عقاب عليهم في ذلك إلا أنه ينقص من درجاتهم في الآخرة بقدر توسعهم في الدنيا.

قال ابن عمر: «لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله، وإن كان عليه كريماً»(١) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد، وروي مرفوعاً من حديث عائشة بإسناد فيه نظر، ويشهد لهذا أن الله حرم على عباده أشياء من فضول شهوات الدنيا وزينتها وبهجتها حيث لم يكونوا محتاجين إليها، وادخرها لهم عنده في الآخرة، وقد وقعت الإشارة إلى هذا بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً

---

(١) أخرجه موقوفاً ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (ص١١١) وابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٣٢٣) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٦).

وأبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٢/ ٥٩٢) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٦٣): رواه ابن أبي الدنيا، وإسناده جيد، وروي عن عائشة مرفوعاً، والموقوف أصح.

لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾[1]».

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة»[2].

وقال: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة»[3].

وأما السابق بالخيرات بإذن الله فهم الذين فهموا المراد من الدنيا، وعملوا بمقتضى ذلك، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده في هذه الدار ليبلوهم أيهم أحسن عملاً كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4].

وقال بعض السلف أيهم أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة، وجعل ما في الدنيا من البهجة والنضرة محنة، لينظر من يقف منهم معه ويركن إليه، ومن ليس كذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا

(١) سورة الزخرف آية (٣٣ ـ ٣٥).
(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ١٤١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. والشطر الأول منه أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه (٧/ ٤٤).
والشطر الثاني: أخرجه مسلم: كتاب الأشربة (٤/ ١٥٨٨).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب الأكل في إناء مفضض (٦/ ٢٠٧) ومسلم: كتاب اللباس والزينة (٤/ ١٦٣٨).
(٤) سورة هود آية (٧).

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾[(١)] ثم بيّن انقطاعه وإنفاده فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾[(٢)].

فلما فهموا أن هذا هو المقصود من الدنيا جعلوا همهم التزود منها للآخرة التي هي دار القرار، فاكتفوا من الدنيا بما يكتفي به المسافر في سفره كما كان النبي ﷺ يقول: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح عنها وتركها»[(٣)]...

وأهل هذه الدرجة على قسمين:

منهم من يقتصر من الدنيا على قدر ما يسد الرمق فقط، وهو حال كثير من الزهاد.

ومنهم من يفسح لنفسه أحياناً في تناول بعض شهواتها المباحة لتقوى النفس بذلك وتنشط للعمل كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حبب إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[(٤)]...

ومتى نوى من تناول شهواته المباحة التقوي على طاعة الله كانت شهواته له طاعة يثاب عليها[(٥)].

---

(١) سورة الكهف آية (٧).

(٢) سورة الكهف آية (٨).

(٣) تقدم تخريجه (ص٥٧٩).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨) والنسائي: كتاب عشرة النساء (٧/ ٦١) والحاكم (٢/ ١٦٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
قال العراقي: إسناده جيد. تخريج الإحياء (٢/ ٣٠).
وقال ابن حجر: إسناده حسن. التلخيص الحبير (٣/ ١١٦).

(٥) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٧).

المبحث الثاني
الإيمان بأشراط الساعة

إن الله سبحانه وتعالى قد أخفى عن عباده وقت وقوع الساعة فلا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا هو سبحانه وتعالى كما دلت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فمن الآيات قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾[٢].

فالله سبحانه وتعالى يأمر نبينا محمداً ﷺ أن يخبر الناس أن علم الساعة عند الله وحده فلا يعلم أحد متى قيام الساعة إلا الله وحده.

ومن الأحاديث النبوية الدالة على أنه لا يعلم متى الساعة إلا الله وحده حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن الساعة؟ وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة»[٣].

---

(١) سورة الأعراف آية (١٨٧).

(٢) سورة الأحزاب آية (٦٣).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب بيان معنى قوله ﷺ على رأس مائة سنة لا يبقى نفس منفوسة (٤/ ١٩٦٦).

وحديث جبريل المشهور وفيه سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن وقت الساعة فقال عليه الصلاة والسلام: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»(١)، فجبريل عليه السلام لا يعلم متى تقوم الساعة، وكذلك نبينا محمد ﷺ، ومن زعم أن النبي ﷺ يعلم متى قيام الساعة فهو جاهل لا علم عنده، لأن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة السابقة ترد عليه وعلى من قال بقوله، فعلم قيام الساعة مما استأثر الله سبحانه وتعالى به فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً إلا أن هناك آيات وأحاديث تدل على قرب قيام الساعة ودنوها من ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾(٣).

ومن ذلك قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى»(٤) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على قرب قيام الساعة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أخفى وقت وقوع الساعة عن عباده فإنه سبحانه وتعالى قد جعل لها أمارات وعلامات تدل على قرب وقوعها، وقد سمى الله سبحانه وتعالى هذه الأمارات والعلامات بأشراط الساعة قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾(٥).

وأشراط الساعة هي العلامات الدالة على قربها قال ابن حجر

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٢٨).
(٢) سورة الأنبياء آية (١).
(٣) سورة القمر (١).
(٤) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: بعثت أنا والساعة كهاتين (٧/ ١٩١) ومسلم: كتاب الفتن، باب قرب الساعة (٤/ ٢٢٦٩).
(٥) سورة محمد آية (١٨).

رحمه الله تعالى: «المراد بالأشراط: العلامات التي يعقبها قيام الساعة»[١].

وقد ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة المصطفى ﷺ كثير من أشراط الساعة وعلاماتها وقد قسمها العلماء رحمهم الله تعالى إلى قسمين:

١ ـ علامات صغرى.

٢ ـ علامات كبرى.

وقد تناول ابن رجب رحمه الله تعالى جملة من أشراط الساعة وعلاماتها الصغرى والكبرى في ثنايا مؤلفاته، وسأذكر أمثلة لكل قسم مع ذكر كلام ابن رجب رحمه الله تعالى في ذلك:

أولاً: العلامات الصغرى:

١ ـ بعثة النبي ﷺ:

أخبر النبي ﷺ أن بعثته دليل على قرب قيام الساعة كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له...»[٢] الحديث.

وكما في حديث سهل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى»[٣].

قال ابن رجب رحمه الله تعالى شارحاً للحديث الأول: قوله ﷺ: «بين يدي الساعة» يعني أمامها، ومراده أنه بعث قدام الساعة قريباً منها،

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٧٩).
(٢) تقدم تخريجه (ص٥٧١).
(٣) تقدم تخريجه (ص٦٥٧).

ومن أسمائه ﷺ الحاشر، والعاقب كما صح عنه ﷺ أنه قال: «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، والعاقب الذي ليس بعدي نبي»[(١)]...

وخرج الإمام أحمد من حديث بريدة: «بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت تسبقني»[(٢)].

وللترمذي: «بعثت في نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه هذه - لأصبعيه السبابة والوسطى - ليس بينهما أصبع أخرى»[(٣)].

والصحيح أنه يدل من ذلك على القرب من الساعة، ومما يدل على أن بعثة محمد ﷺ من علامات الساعة أنه أخبر عن خروج الدجال في حديث الجساسة»[(٤)] ا.هـ[(٥)].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً شارحاً للحديث الثاني: وقد فسر قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» فقرن بين السبابة والوسطى بقرب زمانه من الساعة كقرب السبابة من الوسطى وبأن زمن بعثته يعقبه الساعة من غير تخلل نبي آخر بينه وبين الساعة كما قال في الحديث الصحيح:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٤/ ١٦٢) ومسلم: كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (٤/ ١٨٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» (٤/ ٤٩٦).

(٤) حديث الجساسة حديث طويل أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة (٤/ ٢٢٦١). والجساسة: هي دابة كثيرة الشعر حتى إنه لا يعرف قبلها من دبرها من كثرة شعرها كما جاء وصفها في هذا الحديث، وسميت بالجساسة لأنها تجس الأخبار للدجال.
النهاية لابن الأثير (١/ ٢٧٢).

(٥) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص١٩ - ٢١).

«أنا الحاشر يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، فالحاشر الذي يحشر الناس لبعثهم يوم القيامة على قدمه يعني أن بعثهم وحشرهم يكون عقب رسالته، فهو مبعوث بالرسالة وعقيبه يجمع الناس لحشرهم، والعاقب الذي جاء عقيب الأنبياء كلهم وليس بعده نبي، فكان إرساله ﷺ من علامات الساعة»[١] ا.هـ.

٢ - ظهور الفتن:

أخبر الرسول ﷺ أن من أشراط الساعة ظهور الفتن العظيمة التي يلتبس فيها الحق بالباطل حتى إنه من شدة الفتن يتزلزل الإيمان فيصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة، منها حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا»[٢].

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[٣].

ومنها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح

---

(١) فتح الباري (٣/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم (٤/ ٤٨٧) والحاكم (٤/ ٤٣٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١/ ١١٠).

الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فَكَسِّروا قِسيَّكم، وقطِّعوا أوتاركم، واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دُخل على أحدكم، فليكن كخير ابني آدم»[١].

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تشير إلى وقوع الفتن العظيمة والتي من شدتها بأن المؤمن يمر بصاحب القبر ويتمنى أنه مكانه كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدِّين إلا البلاء»[٢].

وقد حذر نبينا محمد ﷺ أمته من الفتن وأمر بالتعوذ منها فقال ﷺ: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»[٣] نعوذ بالله العظيم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه لا عاصم من الفتن إلا الإيمان بالله عز وجل ولزوم جماعة المسلمين وهم أهل السنة والجماعة الذين يسيرون على نهج الكتاب والسنة وإن كانوا قلة ففي صحيح البخاري عن حذيفة قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٠٨) وأبو داود: كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن (٤/٤٥٧) وابن ماجه: كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة (٢/١٣١٠) والحاكم (٤/٤٤٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٤/٢٢٣١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (١٧/٢٠٣).

الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله: صفهم لنا؟ قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[(١)].

وقد تكلم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذه العلامة من علامات الساعة وبين أن أول ما ظهر من الفتن بعد قتل عمر ثم عثمان رضي الله عنهما وما تلى ذلك من الفتن في الدين كظهور الخوارج على علي رضي الله عنه وفتنة الروافض وفتنة القول بخلق القرآن وغيرها من الفتن العظيمة التي كانت سبباً في تفرق المسلمين وظهور الشر العظيم فقال رحمه الله تعالى: قوله ﷺ: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»[(٢)] المقصود بهذا الدعاء سلامة العبد من فتن الدنيا مدة حياته فإن قدر الله عز وجل على عباده فتنة قبض عبده إليه قبل وقوعها، وهذا من أهم الأدعية، فإن المؤمن إذا عاش سليماً من الفتن ثم قبضه الله تعالى إليه قبل وقوعها وحصول الناس فيها كان في ذلك نجاة له من الشر كله، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يتعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وفي حديث آخر: «وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[(٣)]، وكان يخص

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٧).

(٢) هذا قطعة من حديث سبق تخريجه (ص٣٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب التشهد (١/ ٥٩٢) والحاكم (١/ ٢٦٥) وقال: هذا حديث صحيح.

بعض الفتن العظيمة بالذكر، وكان يتعوذ بالله في صلاته من أربع ويأمر بالتعوذ منها: «أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[(١)] ففتنة المحيا تدخل فيها فتن الدين والدنيا كلها كالكفر والبدع والفسوق والعصيان، وفتنة الممات يدخل فيها سوء الخاتمة، وفتنة الملكين في القبر، فإن الناس يفتنون في قبورهم مثل أو قريباً من فتنة الدجال، ثم خص فتنة الدجال بالذكر لعظيم موقعها، فإنه لم يكن في الدنيا فتنة قبل يوم القيامة أعظم منها، وكلما قرب الزمان من الساعة كثرت الفتن.

وفي حديث معاوية عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة»[(٢)].

وأخبر النبي ﷺ عن الفتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا.

وكان أول هذه الفتن ما حدث بعد مقتل عمر رضي الله عنه، ونشأ من تلك الفتن مقتل عثمان رضي الله عنه، وما ترتب عليه من إراقة الدماء، وتفرق القلوب وظهور الفتن في الدين كبدع الخوارج المارقين، وإظهارهم ما أظهروا، ثم ظهور بدع أهل القدر والرفض ونحوهم، وهذه هي الفتنة التي تموج كموج البحر المذكورة في حديث حذيفة[(٣)]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر (٣/ ١٩٢) ومسلم: كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٤/ ٤١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٩٤) وابن ماجه: كتاب الفتن، باب شدة الزمان (٢/ ١٣٣٩).
وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٩٥): إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٣) يقصد ابن رجب رحمه الله تعالى بهذا الحديث الذي أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة (١/ ١٣٣)، ومسلم: كتاب الفتن، باب في =

رضي الله عنه المشهور حين سأله عنها عمر رضي الله عنه، وكان حذيفة رضي الله عنه من أكثر الناس سؤالاً للنبي ﷺ عن الفتن خوفاً من الوقوع فيها، ولما حضره الموت قال: «حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، الحمد لله الذي سبقت بي الفتنة قادتها وعُلُوجها»[(١)] وكان موته قبل قتل عثمان رضي الله عنه بنحو أربعين يوماً، وقيل: بل مات بعد قتل عثمان وكان في تلك الأيام رجل من الصحابة نائماً فأتاه آت في منامه، فقال له: قم فاسأل الله أن يعيذك من الفتنة التي أعاذ منها صالح عباده، فقام فتوضأ وصلى، ثم اشتكى ومات بعد قليل.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لرجل: «إذا مت أنا وأبو بكر وعمر وعثمان، فإن استطعت أن تموت فمت»[(٢)] وهذه إشارة إلى هذه

= الفتنة التي تموج كموج البحر (٤/ ٢٢١٨) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقلت: أنا أحفظه كما قال، قال: هات، إنك لجريء، وكيف قال؟ قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر، قال: قلت: ما لك ولها يا أمير المؤمنين؟ إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: فيكسر الباب أو يفتح؟ قال: قلت: لا بل يكسر، قال: ذاك أحرى أن لا يغْلق أبداً، قال: فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، قال: فهبنا أن نسأل حذيفة: من الباب؟ فقلنا لمسروق: سله فسأله فقال: عمر».

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٨٢) وذكره الحافظ الذهبي في ترجمة حذيفة في سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٨) وذكره أيضاً صاحب كنز العمال (١٣/ ٣٤٦) وعزاه لابن عساكر.
والعُلُوج: جمع عِلج، وهو الرجل من كفار العجم وغيرهم.
النهاية لابن الأثير (٣/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه ابن حبان في المجروحين (١/ ٣٤٥) وابن عدي في الكامل (٣/ ١١٧٥) =

الفتن التي وقعت بمقتل عثمان رضي الله عنه... إلى أن قال رحمه الله: «ثم إن المؤمن لا بد أن يفتن بشيء من الفتن المؤلمة الشاقة عليه ليمتحن إيمانه كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾﴾[1].

ولكن الله يلطف بعباده المؤمنين في هذه الفتنة، ويصبرهم عليها ويثيبهم فيها، ولا يلقيهم في فتنة مضلة مهلكة، تذهب بدينهم، بل تمر عليهم وهم منها في عافية... والفتن الصغار التي يبتلى بها المرء في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الطاعات من الصلاة والصيام والصدقة.

كذا جاء في حديث حذيفة[2] رضي الله عنه... وأما الفتن المضلة التي يخشى منها فساد الدين فهي التي يستعاذ منها ويسأل الموت قبلها،

= والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ١٦٥) كلهم في ترجمة سلم بن ميمون الخواص قال ابن حبان فيه: غلب عليه الصلاح حتى غفل عن حفظ الحديث واتقانه فربما ذكر الشيء بعد الشيء ويقلبه توهماً لا تعمداً فبطل الاحتجاج بما يروي إذا لم يوافق الثقات.

وقال ابن عدي: ولسلم غير ما ذكرت أحاديث مقلوبة الإسناد والمتن وهو في عداد المتصوفة الكبار، وليس الحديث من عمله، ولعله كان يقصد أن يصيب، فيخطئ في الإسناد والمتن لأنه لم يكن عمله.

وقال العقيلي: حديث بمناكير لا يتابع عليها.

وقال أبو حاتم في الجرح والتعديل (٤/ ٢٨٤): أدركته ولم أكتب عنه، روى عن أبي خالد الأحمر حديثاً منكراً شبه الموضوع.

قلت: ولعله هذا الحديث لأنه من روايته عن أبي خالد الأحمر.

ولمزيد من الإيضاح انظر: ترجمة سلم بن ميمون الخواص في ميزان الاعتدال (٢/ ١٨٩) ولسان الميزان (٣/ ٦٦).

(١) سورة العنكبوت آية (١ ـ ٢).

(٢) سبق ذكر هذا الحديث وتخريجه (ص٣٨٧).

فمن مات قبل وقوعه في شيء من هذه الفتن فقد حفظه الله تعالى وحماه[1].

٣ ـ انشقاق القمر:

جاء في أحاديث صحيحة أن القمر قد انشق في زمن النبي ﷺ منها حديث أنس رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر»[2].

ومنها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد»[3].

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى أن انشقاق القمر من علامات الساعة حيث قال: «وقد جعل الله انشقاق القمر من علامات اقتراب الساعة كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[4]، وكان انشقاقه بمكة قبل الهجرة[5].

٤ ـ ظهور نار بالحجاز:

وردت أحاديث عن النبي ﷺ تذكر أن ناراً عظيمة تخرج في أرض الحجاز تشاهد أعناق الإبل ببُصرى[6] في ضوئها.

---

(١) اختيار الأولى (ص١٠٤ ـ ١١٢).

(٢)(٣) أخرجهما مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر (٤/ ٢١٥٩).

(٤) سورة القمر آية (١).

(٥) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص١٩).

(٦) بُصرى: بضم الباء آخرها ألف مقصورة، مدينة معروفة بالشام ويقال لها: حوران وبينها وبين دمشق ثلاث مراحل، فتحها المسلمون سنة ١٣هـ.
معجم البلدان (١/ ٤٤١) وشرح مسلم للنووي (١٨/ ٣٠) وفتح الباري (١٣/ ٨٠).

قال النووي رحمه الله تعالى: «خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة وكانت ناراً عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة»(١) ا.هـ.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هذه النار وإلى بعض ما ورد فيها من الأحاديث فقال: «وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»(٢)، وقد خرجت هذه النار بالحجاز بقرب المدينة ورؤيت أعناق الإبل من ضوئها ببصرى في سنة أربع وخمسين وستمائة»(٣).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «... وأخبر النبي ﷺ أنه لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»(٤).

وهذه النار خرجت من وادي بقرب مدينة النبي ﷺ سنة أربع وخمسين وستمائة، واشتهر أمرها، وشوهد من ضوئها بالليل أعناق الإبل ببصرى واستفاض(٥).

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٨/٢٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب خروج النار (٨/ ١٠٠) ومسلم: كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج النار من أرض الحجاز (٤/ ٢٢٢٧).

(٣) لطائف المعارف (ص٩٠).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) فضائل الشام ورقة (٢٨/ب).

٥ ـ ولادة الأمة لربتها وتطاول الحفاة العراة في البنيان:

جاء في حديث جبريل أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال عليه الصلاة والسلام: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان»[(١)].

وفي رواية عند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: «فحدثني متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ سبحان الله في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا هو... ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك» قال: أجل يا رسول الله فحدثني، قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها ورأيت أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس فذلك من معالم الساعة وأشراطها» قال: يا رسول الله ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال: «العرب»[(٢)].

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى هاتين العلامتين في شرحه لحديث جبريل فقال: «وقد ذكر النبي ﷺ للساعة علامتين:

الأولى: «أن تلد الأمة ربتها» والمراد بربتها سيدتها ومالكتها وفي حديث[(٣)] أبي هريرة رضي الله عنه «ربها» وهذه إشارة إلى فتح البلاد وكثرة جلب الرقيق حتى تكثر السراري وتكثر أولادهن، فتكون الأمة رقيقة

---

(١) حديث جبريل تقدم تخريجه (ص٥٢٨).

(٢) مسند أحمد (٤/ ٣٣٢) حديث رقم (٢٩٢٦) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) حديث أبي هريرة هو إحدى روايات الحديث المعروف بحديث جبريل وفيه يقول الرسول ﷺ: «إذا رأيت الأمة تلد ربها فذاك من أشراطها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها وإذا رأيت رعاء البهم يتطاولون في البنيان فذاك من أشراطها...» الحديث.
أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان... (١/ ٤٠).

لسيدها، وأولاده منها بمنزلته، فإن ولد السيد بمنزلة السيد فيصير ولد الأمة بمنزلة ربها وسيدها. . .

والعلامة الثانية: «أن ترى الحفاة العراة العالة» والمراد بالعالة الفقراء كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾[1].

وقوله: «رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» هكذا في حديث عمر رضي الله عنه، والمراد أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم، وتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان وزخرفته واتقانه.

وفي حديث[2] أبي هريرة رضي الله عنه ذكر ثلاث علامات:

منها: أن تكون الحفاة العراء رؤساء الناس.

ومنها: أن يتطاول رعاة البهم في البنيان. . . فإنه إذا صار الحفاة العراة رعاء الشاء وهم أهل الجهل والجفاء رؤساء الناس وأصحاب الثروة والأموال حتى يتطاولوا في البنيان فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا فإنه إذا كان رؤوس الناس من كان فقيراً عائلاً فصار ملكاً على الناس سواء كان ملكه عاماً أو خاصاً في بعض الأشياء فإنه لا يكاد يعطي الناس حقوقهم بل يستأثر عليهم بما استولى عليه من المال. . . وإذا كان مع هذا جاهلاً جافياً فسد بذلك الدين لأنه لا يكون له همة في إصلاح دين الناس، ولا تعليمهم بل همته في حيازة المال وإكثاره، ولا يبالي بما أفسد من دين الناس ولا بمن أضاع من أهل حاجاتهم. . . وإذا كان ملوك الناس ورؤوسهم على هذه الحال انعكست سائر الأحوال فصدق الكاذب، وكذب الصادق، وائتمن الخائن، وخون الأمين، وتكلم الجاهل، وسكت العالم أو عدم بالكلية كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من أشراط

---

(١) سورة الضحى آية (٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٦٨).

الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل»[١].

وأخبر «أنه يقبض العلم بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[٢].

وفي صحيح الحاكم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «إن من أشراط الساعة أن توضع الأخيار وترفع الأشرار»[٣].

وفي قوله: «يتطاولون في البنيان» دليل على ذم التباهي والتفاخر خصوصاً بالتطاول في البنيان ولم يكن إطالة البناء معروفاً في زمن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بل كان بنيانهم بقدر الحاجة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان» خرجه البخاري[٤]. . .[٥].

٦ ـ خراب البيت ورفع القرآن وبعث ريح طيبة لقبض أرواح المؤمنين:

روى الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن سمعان[٦] قال: سمعت أبا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (١/ ٢٨) ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٤/ ٢٠٥٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٥٦).

(٣) مستدرك الحاكم (٤/ ٥٥٤) وفيه: «أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار» وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الفتن (٨/ ١٠١).

(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٩٤ ـ ٩٩).

(٦) سعيد بن سمعان الأنصاري الزرقي، قال العجلي: مدني تابعي ثقة، وقال النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات.
تاريخ الثقات (ص١٨٥) والثقات لابن حبان (٤/ ٢٧٨) وتهذيب التهذيب (٤/ ٤٥).

هريرة يخبر أبا قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «يبايع لرجل ما بين الركن والمقام ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا يسأل عن هلكة العرب ثم تأتي الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه»(١).

وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرب الكعبة ذو السُّوَيْقَتين(٢) من الحبشة، ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ولكأني أنظر إليه أصليع(٣) أفيدع(٤) يضرب عليها بمسحاته(٥) ومعوله»(٦)(٧).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله في ليلة، فلا يبقى

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٥٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.
وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٩٨): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢) ذو السُّوَيْقَتَين قال ابن الأثير: السويقة تصغير ساق وهي مؤنثة فلذلك ظهرت التاء في تصغيرها، وإنما صغر الساق لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة والحموشة.
النهاية لابن الأثير (٢/ ٤٢٣).

(٣) أصيلع: هو تصغير الأصلع، وهو الذي انحسر الشعر عن رأسه.
النهاية لابن الأثير (٣/ ٤٧).

(٤) أفيدع: تصغير أفدع والفدع بالتحريك زيغ بين القدم وبين عظم الساق، وكذلك يكون في اليد وهو أن تزول المفاصل عن أماكنها.
النهاية لابن الأثير (٣/ ٤٢٠).

(٥) المسحاة هي المجرفة من الحديد.
النهاية لابن الأثير (٤/ ٤٢٨).

(٦) المعول: الفأس العظيم التي ينقر بها الصخر.
النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٤٤).

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) وقال ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٢٠٤): وهذا إسناد جيد قوي.

في الأرض منه آية، وتبقى طوائف الناس الشيخ الكبير والعجوز ويقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة «لا إله إلا الله» فنحن نقولها[(١)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يخرج الدجال فذكر الحديث وفيه: «فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»[(٣)].

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت»[(٤)].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «ولا منافاة بين الروايتين لأن الكعبة يحجها الناس ويعتمرون بها بعد خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم وطمأنينة الناس وكثرة أرزاقهم في زمان المسيح عليه السلام، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فيقبض بها روح كل مؤمن، ويتوفى نبي الله عيسى

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم (٢/ ١٣٤٥) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩٥): إسناده صحيح، رجاله ثقات. وأخرجه الحاكم (٤/ ٤٧٣) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن (٤/ ٢٢٥٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج (٢/ ١٥٩).

(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٥٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الألباني: حديث صحيح.
صحيح الجامع (٢/ ١٢٣٧).

عليه السلام ويصلي عليه المسلمون... ثم يكون خراب الكعبة على يدي ذي السُّوَيْقَتين بعد هذا»[1] ا.هـ.

وقد يقال إن الأحاديث التي فيها استحلال البيت وهدم الكعبة وخرابها تخالف قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[2].

وقد حبس الله سبحانه وتعالى عن مكة الفيل، ولم يمكن أصحابه من تخريب الكعبة وهي لم تكن آنذاك قبلة، فكيف يسلط عليها الحبشة بعد أن صارت قبلة المسلمين؟

فالجواب على ذلك أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى جعل الكعبة البيت الحرام آمناً إلى قرب قيام الساعة، وخراب الدنيا حينما لا يبقى في الأرض من يقول الله كما جاء في حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»[3]. وليس في الآية ما يدل على استمرار الأمن المذكور فيها، وقد حدث القتال في مكة مرات عديدة وأعظم قتال وقع ما حصل من القرامطة[4] في القرن الرابع الهجري

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) سورة العنكبوت آية (٦٧).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان (١/ ١٣١).

(٤) القرامطة: هم طائفة من الباطنية أتباع حمدان القرمطي، رجل من أهل الكوفة دعا الناس إلى المذهب الباطني فضلّ بسببه خلق كثير وكان أول ظهورهم في عام ٢٨١هـ في خلافة المعتضد، ولهم أعمال شنيعة مخزية، وأعظمها ما وقع منهم سنة ٣١٧هـ حيث هاجموا الحجاج وقتلوا المسلمين في الحرم واستباحوا دماءهم وأموالهم وهدموا قبة زمزم وقلعوا باب الكعبة والحجر الأسود ونقلوه إلى بلادهم ومكث عندهم اثنتان وعشرون سنة حتى أعيد سنة ٣٣٩هـ على يد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد المزكي النيسابوري رحمه الله تعالى.

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٧٩) ومقالات الإسلاميين (١/ ١٠٠) والبداية والنهاية (١١/ ٢٥٠).

حيث قتلوا من المسلمين في المطاف من لا يحصى وقلعوا الحجر الأسود ونقلوه إلى بلادهم، وفعلوا الأفاعيل المخزية في الحرم، وقد أعيد الحجر بعد ذلك، كل هذا لا يعارض الآية لأن ذلك إنما وقع بأيدي المنتسبين إلى الإسلام، فهو موافق لقوله ﷺ: «لن يستحل هذا البيت إلا أهله»(١) فوقع ما أخبر به النبي ﷺ، وهو من علامات نبوته عليه الصلاة والسلام(٢).

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى العلامات الواردة في الأحاديث السابقة فقال: «وقد أخبر النبي ﷺ أن هذا البيت يحج ويعتمر بعد خروج يأجوج ومأجوج، ولا يزال كذلك حتى تخربه الحبشة ويلقون حجارته في البحر، وذلك بعد أن يبعث الله ريحاً طيبة تقبض أرواح المؤمنين كلهم فلا يبقى على الأرض مؤمن، ويسري بالقرآن من الصدور والمصاحف فلا يبقى في الأرض قرآن ولا إيمان ولا شيء من الخير فبعد ذلك تقوم الساعة ولا تقوم إلا على شرار الناس»(٣)ا.هـ.

ثانياً: العلامات الكبرى:

١ ـ طلوع الشمس من مغربها:

طلوع الشمس من مغربها من علامات الساعة الكبرى كما هو ثابت بالكتاب والسنة.

وطلوع الشمس من مغربها من الآيات العظام التي تحدث على خلاف ما نعهده الآن من طلوعها من المشرق، وذلك بقدرة القدير الذي

---

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه (ص٦٧١).

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي (١٨/ ٣٥) وفتح الباري (٣/ ٤٦١، ٤٦٢) و(٤/ ٣٤١).

(٣) لطائف المعارف (ص٩٧).

يقول للشيء كن فيكون، فالذي أطلعها من المشرق قادر على تغيير مسارها وإخراجها من المغرب فهو خالقها ومدبر أمرها سبحانه وتعالى.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى بعض نصوص الكتاب والسنة الواردة في طلوع الشمس من مغربها في معرض ذكره لأحاديث أشراط الساعة فقال: «وبعض هذه الأمور العامة لا ينفع بعدها عمل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[(١)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»...[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال، ودابة الأرض»[(٣)].

وفيه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه»[(٤)].

وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء

---

(١) سورة الأنعام آية (١٥٨).
(٢) صحيح البخاري: كتاب الرقاق (٧/ ١٩١) وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١/ ١٣٨).
(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١/ ١٣٩).
(٤) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والذكر (٤/ ٢٠٧٦).

الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[١].

وخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه من حديث صفوان بن عسال عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله فتح باباً قبل المغرب، عرضه سبعون عاماً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه»[٢].

وفي المسند عن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن عمر ومعاوية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلبٍ بما فيه وكفى الناس العمل»[٣].

فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها، ويحال بينها وبينه، إما بمرض أو موت أو بأن يدركه بعض هذه الآيات التي لا يقبل معها عمل[٤].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٤/ ٢١١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٠) والترمذي: كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده (٥/ ٥٤٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها (٢/ ١٣٥٣) والطبراني في الكبير (٨/ ٦٧) وقال الألباني: حديث حسن.
صحيح الجامع (١/ ٤٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٣) حديث رقم (١٦٧١) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٢٢١): وهذا إسناد جيد قوي. وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/ ٣٠٤) والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٦٩) والكبير (١٩/ ٣٨١) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٥٠): رواه أحمد والطبراني في الأوسط والصغير.. والبزار.. ورجال أحمد ثقات ولم أجده في المعجم الصغير للطبراني المطبوع.

(٤) جامع العلوم والحكم (٣/ ٢١٥، ٢١٦).

فقد دلت الأحاديث السابقة التي ساقها ابن رجب رحمه الله تعالى على أن طلوع الشمس من مغربها من علامات الساعة الكبرى وأن المراد ببعض آيات الله في الآية هو طلوع الشمس من مغربها كما دل على ذلك حديث الصحيحين، ففي ذلك الوقت لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت قبل، لأن باب التوبة مغلق فلا يقبل توبة أحد، فمن أحدث توبة بعد هذا الوقت فتوبته مردودة عليه.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن ساق بعض الأحاديث السابقة: فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أحدث إيماناً أو توبة بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل منه، وإنما كذلك ـ والله أعلم ـ لأن ذلك من أكبر أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ودنوها، فعومل ذلك معاملة يوم القيامة[١].

٢ ـ فتنة المسيح الدجال:

فتنة المسيح الدجال إحدى أشراط الساعة الكبرى، وفتنته من أعظم الفتن والمحن التي تمر على الناس.

وسمي مسيحاً لأن إحدى عينيه ممسوحة أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يوماً[٢].

وهو مسيح الضلالة يفتن الناس بما يعطاه من الآيات كإنزال المطر وإحياء الأرض، وبما يظهر على يديه من عجائب وخوارق للعادات.

أما مسيح الهدى فهو عيسى عليه السلام حيث يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله.

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٢٢٢).
(٢) انظر: النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٢٦) ولسان العرب (٢/ ٥٩٤).

فالله سبحانه وتعالى خلق مسيحين أحدهما ضد الآخر.

وسمي الدجال دجالاً لأنه يغطي الحق بالباطل أو لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتلبيسه وتمويهه عليهم[1]. ولفظة الدجال أصبحت علماً على المسيح الأعور الكذاب، فإذا قيل الدجال فلا يتبادر إلى الذهن غيره.

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في ذكر خروج الدجال في آخر الزمان، والتحذير منه حيث أنه ﷺ وصفه لأمته وصفاً لا يخفى على ذي بصر كما حذر منه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله أممهم وصفوه لهم أوصافاً ظاهرة.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه ك.ف.ر»[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه إنه أعور وإن الله ليس بأعور»[3].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن الدجال حديثاً ما حدثه نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٩١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٨/ ١٠٣)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال (٤/ ٢٢٤٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال (٨/ ١٠٢).

يقول إنها الجنة هي النار وإني أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه»[١].

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما رُحْنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أَخْوَفُنِي عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قَطَط[٢] عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق[٣]، فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم[٤] أطول ما كانت

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال (٤/ ٢٢٥٠).

(٢) قطط: أي شديد جعودة الشعر.
النهاية لابن الأثير (٤/ ٨١).

(٣) خلة بين الشام، والعراق: أي في طريق بينهما، وقيل للطريق والسبيل خلة لأنه خل ما بين البلدين: أي أخذ مخيط ما بينهما ورواه بعضهم بالحاء المهملة من الحلول: أي سمت ذلك وقبالته.
النهاية لابن الأثير (٢/ ٧٣، ٧٤).

(٤) «فتروح عليهم سارحتهم» تروح ترجع آخر النهار، والسارحة هي الماشية التي تسرح أي تذهب أول النهار إلى المرعى.
النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٥٧).

ذُراً[١] وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين[٢] ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل[٣] ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جَزلتين[٤] رمية الغرض[٥] ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين[٦]، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان[٧] كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا

---

(١) ذرا: الذرى جمع ذروة بضم الذال وكسرها، وذروة الشيء أعلاه، والذرى الأعالي والأسنمة.
لسان العرب (١٤/ ٢٨٤).

(٢) ممحلين: المحل على وزن فحل: القحط والجدب، يقال: أمحل البلد إذا أجدب.
الصحاح (٥/ ١٨١٧).

(٣) كيعاسيب النحل: اليعاسيب جمع عيسوب، وهي ذكور النحل، والمراد أن كنوز الأرض تظهر وتجتمع عنده كما تجتمع النحل على يعاسيبها.
النهاية لابن الأثير (٣/ ٢٣٥).

(٤) جزلتين: بفتح الجيم وقيل بكسرها، والجزل: القطع يقال: جزلت الشيء جزلتين أي قطعته قطعتين. الصحاح (٤/ ١٦٥٥).

(٥) معنى رمية الغرض أي إنه يجعل بين الجزلتين مقدار رمية السهم إلى الهدف.
النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٦٠).

(٦) المهروتان: روى بالدال والذال، مفردها مهرود وهو الثوب الذي صبغ والمعنى أنه لابس ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران.
لسان العرب (٣/ ٤٣٥).

(٧) الجمان: حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار، والمعنى أنه يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفائه.
النهاية لابن الأثير (١/ ٣٠١).

مات، ونُفُسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه بباب لد[١] فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة»[٢].

والأحاديث الواردة في الدجال كثيرة جداً. قال النووي رحمه الله تعالى: «قال القاضي: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره ونهريه واتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى ﷺ ويثبت الله الذين آمنوا.هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة... في أنه صحيح الوجود ولكن الذي يدعي مخارف وخيالات لا حقائق لها، وزعموا أنه لو كان حقاً لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له وإنما يدعي الإلهية وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه.

---

(١) باب لد: بضم اللام وتشديد الدال، وهو بلدة قريبة من بيت المقدس. معجم البلدان (٥/ ١٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال (٤/ ٢٢٥١، ٢٢٥٢).

ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفاً من أذاه لأن فتنته عظيمة جداً تدهش العقول وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأمر فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة، ولهذا حذرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله، وأما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله(١).

وقد أشار الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى إلى فتنة الدجال فقال في معرض كلامه عنه: «فإن الناس يفتنون في قبورهم مثل أو قريباً من فتنة الدجال، ثم خص فتنة الدجال بالذكر لعظم موقعها فإنه لم يكن في الدنيا فتنة قبل يوم القيامة أعظم منها»(٢).

٣ - نزول عيسى بن مريم عليه السلام:

من أمارات الساعة العظام وأشراطها نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أنه ينزل قبل قيام الساعة فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويحكم بالقسط ويقضي بشريعة النبي ﷺ، ويحيي من شأنها ما تركه الناس، ثم يمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يموت ويصلى عليه ويدفن.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آيتين تدلان على نزول عيسى عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾(٣)

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٨/٥٨، ٥٩).
(٢) اختيار الأولى (ص١٠٥).
(٣) سورة النساء آية (١٥٩).

أي قبل موت عيسى عليه السلام وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أن هذا هو قول ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم ثم قال: «هذا القول هو الحق»[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[٢] أي أن نزول عيسى عليه السلام قبل القيامة علامة على قرب الساعة ويدل على ذلك القراءة الأخرى (وإنه لعَلَم للساعة) بفتح العين واللام. أي علامة وأمارة على قيام الساعة.

قال البغوي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية (وإنه) يعني عيسى عليه السلام (لعلم للساعة) يعني نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة: (وإنه لعَلَم للساعة) بفتح اللام والعين أي أمارة وعلامة»[٣].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: (وإنه لعلم للساعة) تقدم تفسير ابن إسحاق[٤] أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسقام وفي هذا نظر، وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٦).

(٢) سورة الزخرف آية (٦١).

(٣) معالم التنزيل (٤/ ١٤٣).

(٤) أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار القرشي المطلبي العلامة الحافظ الأخباري صاحب السيرة النبوية، قال ابن سعد: كان ثقة، ومنهم من يتكلم فيه، وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق، توفي سنة ١٥٠هـ، وقيل غير ذلك.

طبقات ابن سعد (٧/ ٣٢١) ووفيات الأعيان (٤/ ٢٧٦) وسير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣).

وسعيد بن جبير أن الضمير في وإنه عائد إلى القرآن بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة... ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى (وإنه لعَلَم للساعة) أي أمارة ودليل على وقوعها.

قال مجاهد: (وإنه لعلم للساعة) أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة.

وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وقتادة والضحاك وغيرهم[١].

وأما الأدلة من السنة على نزول عيسى عليه السلام فهي كثيرة جداً منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»[٢] ثم يقول أبو هريرة واقرأوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[٣].

ومنها حديثه الآخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام (٤/ ١٤٣) ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٥).

(٣) سورة النساء آية (١٥٩).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام (٤/ ١٤٣) ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٦).

ومنها حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراءَ تِكرَمة الله لهذه الأمة»[1].

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء أخوة لعلات[2] أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأني أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان مُمَصَّران[3] كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»[4] إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٧).

(٢) العلات: جمع علة، والعلة هي الضرة، والمراد الأخوة من أمهات مختلفة وأبوهم واحد.
لسان العرب (١١/ ٤٧٠).

(٣) الممصران تثنية ممصر، والممصر من الثياب الذي فيه صفرة خفيفة.
النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٣٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٦) وقال أحمد شاكر: حديث صحيح عمدة التفسير (٤/ ٣٦) وأبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال (٤/ ٤٩٨) والحاكم (٢/ ٥٩٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٨٨): وهذا إسناد جيد قوي.

وقد أجمعت الأمة على نزول عيسى عليه السلام قبل قيام الساعة قال السفاريني رحمه الله تعالى: «أجمعت الأمة على نزوله ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه، وقد انعقد إجماع الأمة على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء وإن كانت قائمة به وهو متصف بها»(١) ا.هـ.

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى نزول عيسى عليه السلام وما يقدم به بعد نزوله فقال: «وبالشام ينزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان وهو المبشر بمحمد ﷺ ويحكم به ولا يقبل من أحد غير دينه فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويصلي خلف إمام المسلمين ويقول: إن هذه الأمة أئمة بعضهم لبعض»(٢) ا.هـ.

كما أشار إلى نزول عيسى عليه السلام وقتله للدجال في كتاب فضائل الشام فقد عقد فصلاً بعنوان: الفصل الرابع فيما ورد في نزول عيسى بن مريم عليهما السلام في آخر الزمان عند دمشق.

وقد ذكر فيه جملة من الأحاديث الدالة على نزول عيسى عليه السلام ومكان نزوله، وقد سبق ذكر بعضها.

ثم قال رحمه الله تعالى: «وقد جاء من حديث أبي أمامة وغيره ما قد يشعر بأن عيسى ينزل ببيت المقدس، وليست أسانيدها بالقوية، ويتعين حملها على تقدير صحتها على أنه يأتي بمن معه من المؤمنين إلى بيت المقدس من دمشق كما قاله ابن عباس وكعب، جمعاً بينها وبين حديث النواس المخرج في الصحيح، وظاهر ما تقدم من الأحاديث والآثار يدل

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ٩٤، ٩٥).
(٢) لطائف المعارف (ص٩٠).

على أن عيسى عليه السلام ينزل عند باب مدينة دمشق الشرقي...»[(١)].

٤ ـ خروج نار تحشر الناس:

جاء في الأحاديث الصحيحة أن آخر الآيات خروجاً قبل قيام الساعة نار عظيمة تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى محشرهم، وتبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا.

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذه العلامة وذكر بعض الأحاديث الواردة في ذكرها فقال: «وقد تكاثرت الأحاديث والآثار بذكر هذه النار» ففي صحيح البخاري عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أول أشراط الساعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب»[(٢)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا»[(٣)].

فهذه الثلاث المذكورة في هذا الحديث:

أحدها: من يحشر راغباً هو من يهاجر إلى الشام طوعاً.

والثاني: من يحشر رهبة وخوفاً على نفسه لظهور الفتن في أرضه.

---

(١) فضائل الشام ورقة (٥٠/أ).

(٢) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء (٤/١٠١).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (٧/١٩٤)، وصحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٤/٢١٩٥).

والثالث: من تحشره النار قسراً وهو شر الثلاثة...

وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال: «إن الساعة لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى عليه السلام ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

وفي رواية له: «ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس»[١].

وخرّجه الترمذي وعنده: «ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس فتبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا»[٢].

وخرّج الحاكم من حديث واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ نحوه قال: «ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تحشر الذرة والنمل» وقال: صحيح الإسناد...[٣].

وخرّج أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «تبعث نار على أهل المشرق فتحشرهم إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا، يكون لها ما سقط منهم وتخلف، فتسوقهم سوق الجمل الكبير»[٤].

إلى أن قال رحمه الله تعالى: «فقد تضمنت هذه الأحاديث أمرين:

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفتن، باب الآيات التي تكون قبل الساعة (٤/٢٢٢٦).

(٢) سنن الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من قبل الحجاز (٤/٤٩٨) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٣) المستدرك (٤/٤٢٨).

(٤) المستدرك (٤/٥٤٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

أحدهما: أن الناس تحشرهم النار إلى المحشر، وفي حديث أنس وعبد الله بن عمرو أنهم يحشرون إلى المغرب، والظاهر أنه أريد بالمغرب مغرب المدينة وهو الشام...

الثاني: أن في بعض الأحاديث خروج النار من اليمن، وفي بعضها من المشرق، وفي بعضها ما يدل على خروجها من قرب المدينة، وكله حق.

وقد ذكرنا في هذه الآثار أنها تخرج من أماكن متعددة...[١].

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى أيضاً: «... فأما شرار الخلق فتخرج نار في آخر الزمان تسوقهم إلى الشام قهراً حتى تجمع الناس كلهم بالشام قبل قيام الساعة»[٢].

والجمع بين ما جاء في أن هذه النار هي آخر أشراط الساعة وما جاء في بعض الروايات أنها أول أشراط الساعة أن يقال أن المقصود أن هذه العلامة آخر أشراط الساعة باعتبار ما ذكر معها من الآيات الواردة في حديث حذيفة.

وهي أول أشراط الساعة باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً بل يقع بانتهاء هذه الآيات النفخ في الصور، بخلاف ما ذكر معها من الآيات الواردة في حديث حذيفة فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا»[٣].

وهناك علامات أخرى للساعة ورد ذكر بعضها فيما سبق من الأحاديث كخروج الدابة ويأجوج ومأجوج والدخان وغيرها مما وردت به

---

(١) فضائل الشام من ورقة (٣٢/أ) إلى ورقة (٣٥/أ).

(٢) لطائف المعارف (ص٩٠).

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨٢).

الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ وإنما اقتصرت على ما ذكرت لأني وجدت فيها لابن رجب رحمه الله تعالى كلاماً، ومن أراد الاطلاع على علامات الساعة الكثيرة فليراجع الكتب المصنفة في ذلك مثل كتاب النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي، وكتاب الإشاعة للبرزنجي، وكتاب الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة لصديق حسن خان، وكتاب إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة لفضيلة الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، وغيرها من الكتب الأخرى.



المبحث الثالث
الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وفتنته

من أصول أهل السنة والجماعة التي يجب الإيمان بها الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، فمن نجا من عذاب القبر فما بعده أيسر منه، ومن لم ينج منه فما بعده أشر منه لقوله ﷺ: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج فما بعده أشر منه»(١).

أعاذنا الله من فتنة القبر وعذابه.

وقد دلت الآيات في كتاب الله سبحانه وتعالى والأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ على إثبات عذاب القبر ونعيمه، وسيأتي ذكر هذه الأدلة في معرض كلام ابن رجب رحمه الله تعالى حيث أنه قد ذكر هذه المسألة وما يدل على ثبوتها من أدلة الكتاب والسنة.

فقد جعل رحمه الله تعالى: الباب الأول من كتابه أهوال القبور في ذكر حال الميت عند نزوله القبر وسؤال الملائكة له، وما يفسح له في قبره أو يضيق عليه، وما يرى من منزله في الجنة أو النار.

والباب الخامس في عرض منازل أهل القبور عليهم من الجنة أو النار بكرة وعشياً.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد (٤/ ٥٥٣) وقال: هذا حديث حسن غريب وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٢/ ١٤٢٦) والحاكم (٤/ ٣٣٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وأما الباب السادس فقد جعل عنوانه نصاً في المسألة فقال: الباب السادس في ذكر عذاب القبر ونعيمه.

حيث قال رحمه الله تعالى: «وقد دل القرآن على عذاب القبر في مواضع كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[١].

ثم ساق رحمه الله تعالى بعد ذلك بعض تفسيرات الصحابة رضي الله عنهم للآيات التي تدل على عذاب القبر منها قوله: «وروى البراء في قوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[٢] قال: عذاب القبر»[٣].

وكذا روي عن ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾[٤].

وكذا قال قتادة والربيع بن أنس[٥] في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[٦] أحدهما في الدنيا والأخرى هي عذاب القبر»[٧]...[٨].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وأما نعيم القبر فقد دل عليه قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام آية (٩٣).

(٢) سورة الطور آية (٤٧).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٧/ ٣٦) والآجري في الشريعة (ص٣٥٨).

(٤) سورة السجدة آية (٢١).

(٥) الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني، كان عالم مرو في زمانه، توفي سنة ١٣٩هـ.
سير أعلام النبلاء (٦/ ١٦٩) وتهذيب التهذيب (٣/ ٢٣٨).

(٦) سورة التوبة آية (١٠١).

(٧) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ١١).

(٨) أهوال القبور (ص٤٣).

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩)﴾[١]...»[٢].

كما أنه أورد رحمه الله تعالى تحت بقية الأبواب الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة التي تدل على ثبوت عذاب القبر ونعيمه وفتنته، فمن الآيات التي أوردها قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (٢٧)﴾[٣].

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى عقب هذه الآية تفسير النبي ﷺ للآية فقال: «وخرجا في الصحيحين[٤] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ نزلت في عذاب القبر... زاد مسلم: «يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ونبي محمد»، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.

وفي رواية البخاري قال: «إذا أقعد العبد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾...»[٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦)﴾[٦].

---

(١) سورة الواقعة رقم (٨٩).

(٢) أهوال القبور (ص٥٨).

(٣) سورة إبراهيم آية (٢٧).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (٢/ ١٠١) وصحيح مسلم: كتاب صفة الجنة، باب عرض مقعد الميت (٤/ ٢٢٠١).

(٥) انظر: أهوال القبور (ص٦) وما بعدها.

(٦) سورة غافر آية (٤٦).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «قال قتادة في هذه الآية يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً وصغاراً ونقيصة»[١].

وقال ابن سيرين[٢]: كان أبو هريرة يأتينا بعد صلاة العصر فيقول: عرجت الملائكة، وهبطت الملائكة، وعرض آل فرعون على النار فلا يسمعه أحد إلا يتعوذ بالله من النار»[٣]...[٤].

وأما الأحاديث الدالة على عذاب القبر ونعيمه فهي كثيرة جداً بلغت حد التواتر.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في عذاب القبر والتعوذ منه»[٥].

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى كثيراً من الأحاديث الدالة على عذاب القبر ونعيمه.

منها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى أصحابه أنه يسمع قرع نعالهم آتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ - محمد ﷺ - فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله ﷺ فيقال له: انظر إلى

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٩١) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) أبو بكر محمد بن سيرين، أبوه مولى أنس بن مالك، كان من سبي عين التمر فاشتراه أنس وكاتبه، قال هشام بن حسان: «هو أصدق من أدركت من البشر» وقال ابن سعد: «وكان ثقة مأموناً عالياً رفيعاً فقهياً إماماً كثير العلم ورعاً»، توفي رحمه الله تعالى سنة ١١٠هـ.
طبقات ابن سعد (٧/ ١٩٣) والبداية والنهاية (٩/ ٢٦٧).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٩١).

(٤) أهوال القبور (ص٣٩).

(٥) المصدر السابق (ص٤٣).

مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال: فيراهما جميعاً، وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، فيضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»(١).

ومنها حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»(٢).

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ قال: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة: «فما رأيت رسول الله ﷺ بعد ذلك صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر»(٣).

ومنها حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (٢/ ١٠٢) ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه (٤/ ٢٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي (٢/ ١٠٣) ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت عليه (٤/ ٢١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (٢/ ١٠٢).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (١/ ٤١٣).

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال»(١).

ومنها حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في حائط بني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به، فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل أنا: قال: متى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك، فقال: «وإن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه» ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «تعوذوا بالله من عذاب النار» قالوا: نعوذ بالله من النار قال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر» قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن» قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «تعوذوا بالله من فتنة الدجال» قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال(٢).

ومنها حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال: «يهود تعذب في قبورها»(٣).

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تدل على أن إثبات عذاب القبر ونعيمه وفتنته كما هو قول أهل السنة والجماعة وخلافاً للخوارج

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر (٢/ ١٠٣) ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١/ ٤١٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صفة الجنة، باب عرض مقعد الميت عليه (٤/ ٢٩٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صفة الجنة، باب عرض مقعد الميت عليه (٤/ ٢٢٠٠).

ومعظم المعتزلة وبعض المرجئة الذين نفوا ذلك وخالفوا بذلك دلائل الكتاب والسنة التي تظافرت على إثباته[١].

وقد بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أن العذاب أو النعيم يحصل لروح الميت وبدنه وهو قول أهل السنة والجماعة فقال: «ومما يدل على وقوع العذاب على الأجساد الأحاديث الكثيرة في تضييق القبر حتى تختلف أضلاعه، ولأنه لو كان العذاب على الروح خاصة لم يختص العذاب بالقبر ولم ينسب إليه»[٢].

كما رد رحمه الله تعالى على الذين يقولون إن العذاب على الروح فقط فقال وهو يتكلم عن إعادة الروح للجسد «وأنكر ذلك طائفة منهم ابن حزم وغيره، وذكر أن السؤال للروح خاصة، وكذلك سماع الخطاب وأنكر ألا تعاد الروح إلى الجسد في القبر للعذاب وغيره، وقالوا: لو كان ذلك حقاً للزم الإنسان أن يموت ثلاث مرات ويحيى ثلاث مرات، والقرآن دل على أنهما موتتان وحياتان، وهذا ضعيف جداً، فإن حياة الروح ليست حياة تامة مستقلة كحياة الدنيا وكحياة الآخرة بعد البعث، وإنما فيها نوع اتصال الروح في البدن بحيث يحصل بذلك شعور البدن وإحساس بالنعيم والعذاب وغيرهما، وليس هو حياة تامة حتى يكون انفصال الروح به موتاً تاماً وإنما هو شبيه بانفصال روح النائم عنه ورجوعها إليه فإن ذلك يسمى موتاً وحياة كما كان يقول رسول الله ﷺ إذا استيقظ: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور»[٣]

---

(١) انظر: شرح مسلم للنووي (١٧/ ٢٠١) ولوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٤، ٢٥).

(٢) أهوال القبور (ص٨١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ماذا يقول إذا نام (٧/ ١٤٧) ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ماذا يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/ ٢٠٨٢).

وسماه الله تعالى وفاة لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[١] الآية. ومع هذا فلا ينافي ذلك أن يكون النائم حياً، وكذلك اتصال روح الميت ببدنه وانفصالها عنه لا توجب أن يصير حياً حياة مطلقة»[٢].

فما قاله ابن رجب رحمه الله تعالى في هذه المسألة هو ما عليه أهل السنة والجماعة وهو الحق والصواب، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً فيحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها، وقاموا من قبورهم لرب العالمين»[٣].

وقد أشار ابن رجب رحمه الله إلى أنواع عذاب القبر التي يعذب بها الميت في قبره فقال: «وقد ورد في عذاب القبر أنواع منها الضرب بمطراق من حديد وغيره...».

ومنها تسليط الحيات والعقارب...

ومنها تضييق القبر على الميت حتى تختلف أضلاعه...»[٤].

  

(١) سورة الزمر آية (٤٢).
(٢) أهوال القبور (ص٧٩، ٨٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٤).
(٤) أهوال القبور (ص٥٠، ٥١، ٥٤).

المبحث الرابع
الأعمال التي يعذب أو ينعم بها العبد في القبر

أشار الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى إلى بعض الأعمال التي يعذب الميت بسببها في قبره وذكر على ذلك الأحاديث الدالة عليها فقال: «وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» ثم أخذ جريدة رطبة فشقها باثنتين ثم غرز على كل قبر منهما واحدة، قالوا: لِمَ فعلت هذا يا رسول الله؟ قال: «لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا»[(١)].

وقد روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من وجوه متعددة خرّجه ابن ماجه[(٢)] من حديث أبي بكرة وفي حديثه: «وأما الآخر فيعذب في الغيبة». . .

وقد ذكر بعضهم السر في تخصيص البول والنميمة والغيبة بعذاب القبر وهو أن القبر أول منازل الآخرة وفيه أنموذج ما يقع في يوم القيامة من العقاب والثواب، والمعاصي التي يعاقب عليها يوم القيامة نوعان:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول (١/ ٦٠) وصحيح مسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (١/ ٢٤٠).

(٢) ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب التشديد في البول (١/ ١٢٥).

حق لله، وحق للعباد، وأول ما يقضي فيه يوم القيامة من حقوق الله الصلاة، ومن حقوق العباد الدماء، وأما البرزخ فيقضي فيه في مقدمات هذين الحقين ووسائلهما فمقدمة الصلاة: الطهارة من الحدث والخبث، ومقدمة الدماء النميمة والغيبة والوقيعة في الأعراض وهما أيسر أنواع الأذى فيبدأ في البرزخ بالمحاسبة والعقاب عليهما[١].

كما أشار رحمه الله تعالى إلى بعض الأعمال التي تكون سبباً في النجاة من عذاب القبر فقال: «إن الطهارة من الحدث تنجي من عذاب القبر، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينجي من عذاب القبر.... لأن فيه غاية النفع للناس في دينهم، وكذلك الجهاد والرباط فإن المجاهد والمرابط في سبيل الله كل منهما بذل نفسه وسمح بنفسه لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر وليذب عن إخوانه المؤمنين عدوهم[٢].



(١) أهوال القبور (ص٤٦، ٤٨).
(٢) المصدر السابق (ص٤٩).

المبحث الخامس
مستقر الأرواح

تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذه المسألة في كتاب أهوال القبور وعقد لذلك باباً قال فيه: الباب التاسع في ذكر محل أرواح الموتى في البرزخ.

ثم بيّن أن الأرواح تتفاوت وقسّمها إلى الأقسام التالية:

١ ـ أرواح الأنبياء قال فيها: أما الأنبياء عليهم السلام فليس فيهم شك أن أرواحهم عند الله في أعلى عليين.

وقد ثبت في الصحيح أن آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ عند موته: «اللهم الرفيق الأعلى»[١] وكررها حتى قبض.

٢ ـ أرواح الشهداء قال فيها: وأما الشهداء فأكثر العلماء على أنهم في الجنة وقد تكاثرت بذلك الأحاديث ففي صحيح مسلم عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[٢]. قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٧/ ١٩٢).

(٢) سورة آل عمران آية (١٦٩).

إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»(١).

وخرّج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ عنا إخواننا أنّا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا في الجهاد قال: فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾(٢)...(٣).

وخرّج ابن منده من طريق يحيى بن صالح(٤) عن سعيد بن سويد(٥)

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٧٩).

(٢) سورة آل عمران آية (١٦٩).

(٣) مسند أحمد (١/ ٢٦٦).
وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة (٣/ ٣٣) والحاكم (٢/ ٢٩٧) وقال: هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي.

(٤) الإمام العالم الحافظ يحيى بن صالح الدمشقي أبو زكريا الحمصي وثقه يحيى بن معين وابن عدي وابن حبان، توفي سنة ٢٢٢هـ.
الجرح والتعديل (٩/ ١٥٨) وطبقات الحنابلة (١/ ٤٠٢) وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٥٣).

(٥) سعيد بن سويد الكلبي الشامي، ذكره ابن حبان في الثقات.
الثقات لابن حبان (٦/ ٣٦١) والجرح والتعديل (٤/ ٢٩) وتعجيل المنفعة (ص١٥٢).

أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين قال: «بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو ثم تروح إلى رياض الجنة تأتي ربها سبحانه كل يوم تسلم عليه».

وكذا قال الضحاك وإبراهيم التيمي[١] وغيرهما من السلف في أرواح الشهداء.

وقد ذكر ابن رجب كثيراً من الأحاديث الدالة على أن أرواح الشهداء في الجنة، ثم قسّم بقية الناس غير الأنبياء والشهداء إلى قسمين فقال: «وأما بقية المؤمنين سوى الشهداء فينقسمون إلى أهل تكليف، وغير أهل تكليف فهذان قسمان:

أحدهما: غير أهل التكليف كأطفال المؤمنين فالجمهور على أنهم في الجنة، وقد حكى الإمام أحمد على ذلك الإجماع...

وكذلك نص الشافعي على أن أطفال المسلمين في الجنة، وجاء صريحاً عن السلف على أن أرواحهم في الجنة».

ثم ساق ابن رجب رحمه الله تعالى الأدلة على أن أرواح أطفال المسلمين في الجنة ومنها قوله: «ومما يستدل لهذا أيضاً ما خرّجه البخاري عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله ﷺ أنه رأى في منامه جبرائيل وميكائيل أتيا به فانطلقا به وذكر حديثاً طويلاً وفيه: «فانطلقا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني داراً لم أرقط أحسن منها فيها رجال وشيوخ وشباب ونساء وصبيان ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن

---

(١) إبراهيم بن يزيد التيمي أبو أسماء عابد الكوفة، قال الذهبي: كان شاباً صالحاً قانتاً لله عالماً فقيهاً كبير القدر، واعظاً، توفي سنة ٩٢هـ، وقيل غير ذلك.
سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٠) وتهذيب التهذيب (١/ ١٧٦).

وأفضل فيها شيوخ وشباب» وذكر الحديث وفيه قالا: «والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام، والصبيان حوله فأولاد الناس» وفي رواية: «فكل مولود مات على الفطرة» وفي رواية: «ولد على الفطرة» والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين وأما هذه الدار فدار الشهداء»(١).

ثم ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى قولين في حكم أطفال المسلمين فوجه الأول منها، واستبعد الثاني فقال: «وذهبت طائفة إلى أنه يشهد لأطفال المسلمين عموماً أنهم في الجنة ولا يشهد لآحادهم وهو قول ابن راهويه نقله عنه إسحاق بن منصور(٢)، وحرب في مسائلهما. ولعل هذا يرجع إلى الطفل المعين لا يشهد لأبيه بالإيمان فلا يشهد له حينئذ أنه من أطفال المؤمنين فيكون الوقف في آحادهم كالوقف في إيمان آبائهم.

وحكى ابن عبد البر(٣) عن طائفة من السلف القول بالوقف في أطفال المؤمنين وحماد بن زيد وحماد بن سلمة(٤) وابن المبارك وإسحاق، وهو بعيد جداً، ولعله أخذ ذلك من عمومات كلام لهم وإنهم أرادوا بها أطفال المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز (٢/ ١٠٥).

(٢) إسحاق بن منصور بن بهرام المروزي أبو يعقوب الكوسج، الإمام الفقيه الحافظ، وهو أحد الأئمة، من أصحاب الحديث الزهاد المتمسكين بالسنة، وهو صاحب المسائل عن أحمد بن حنبل، توفي سنة ٢٥١هـ.
تاريخ بغداد (٦/ ٣٦٢) وطبقات الحنابلة (١/ ١١٣) وتهذيب التهذيب (١/ ٢٤٩).

(٣) انظر: التمهيد (١٨/ ١١١، ١١٢).

(٤) حماد بن سلمة بن دينار أبو سلمة البصري، الإمام الحافظ، كان عابداً زاهداً، وكان بحراً من بحور العلم، قال أحمد بن حنبل: حماد بن سلمة عندنا من الثقات، ما تزداد فيه كل يوم إلا بصيرة، توفي سنة ١٦٧هـ.
مشاهير علماء الأمصار (ص١٥٧) وسير أعلام النبلاء (٧/ ٤٤٤) وتهذيب التهذيب (٣/ ١١).

وكذلك اختار القول بالوقف طائفة منهم الأثرم[(١)] والبيهقي.

وذكر أن ابن عباس رجع إليه، والإمام أحمد ذكر أن ابن عباس إنما قال ذلك في أطفال المشركين، وإنما أخذه البيهقي من عموم لفظ روى عنه كما أنه روى في بعض ألفاظ حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل عن الأطفال فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» ولكن الحفاظ الثقات ذكروا أنه سئل عن أطفال المشركين. واستدل القائل بالموقف بما أخرجه مسلم[(٢)] من حديث عائشة أم المؤمنين قالت: توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ لا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً»...[(٢)].

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «ما من الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»[(٣)].

ولهذا قال الإمام أحمد: هو يرجى لأبويه فكيف يشك فيه ـ يعني أن يرجى لأبويه دخول الجنة بسببه ـ ولعل النبي ﷺ نهى أولاً عن الشهادة لأطفال المسلمين بالجنة قبل أن يطلع على ذلك لأن الشهادة على ذلك تحتاج إلى علم به ثم أطلع على ذلك فأخبر به والله أعلم[(٤)].

ثم ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى بعد ذلك القسم الثاني فقال:

---

(١) أبو بكر أحمد بن محمد بن هانئ الطائي، صاحب الإمام أحمد، كان رحمه الله جليل القدر، إماماً حافظاً، تفقه على الإمام أحمد رحمه الله تعالى، ونقل عنه مسائل كثيرة، توفي سنة ٢٦١هـ.

طبقات الحنابلة (١/ ٦٦) وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٢٣) وتهذيب التهذيب (١/ ٧٨).

(٢) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤/ ٢٠٥٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب فضل من مات وله ولد فاحتسب (٢/ ٧٢).

(٤) أهوال القبور (ص١٠٤ ـ ١٠٥).

«القسم الثاني: أهل التكليف من المؤمنين وغيرهم سوى الشهداء، وقد اختلف فيهم العلماء قديماً وحديثاً...

ثم ساق ابن رجب رحمه الله تعالى تلك الأقوال في هذه المسألة وأدلة كل قول ورد على بعضها وتتلخص الأقوال التي ذكرها فيما يلي:

١ - القول الأول: أن أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكفار في النار، وهذا يروي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى وغيره من العلماء.

٢ - القول الثاني: أن الأرواح كلها في الأرض وهؤلاء اختلفوا:

أ - فمنهم من قال: الأرواح تستقر على أفنية القبور.

ب - ومنهم من قال: تجتمع في موضع من الأرض، فأرواح المؤمنين تجتمع بالجابية[١] وأما أرواح الكفار فتجمع بسبخة[٢] بحضرموت يقال له بَرهُوْت[٣].

٣ - القول الثالث: أن الأرواح عند الله عز وجل.

٤ - القول الرابع: أن أرواح بني آدم عند أبيهم آدم عن يمينه وشماله.

---

(١) الجابية: بكسر الباء وياء مخففة، وهي قرية من أعمال دمشق، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع.
معجم البلدان (٢/ ٩١).

(٢) السبخة: بفتح الباء هي الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر.
النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٣٣).

(٣) برهوت: بضم الهاء وسكون الواو واد أو بئر بحضرموت، وقيل: اسم البلد الذي فيه هذه البئر.
معجم البلدان (١/ ٤٠٥).

٥ ـ القول الخامس: أن الله خلق الأرواح جملة قبل الأجساد وأنه جعلها في برزخ، وذلك البرزخ عند منقطع العناصر ـ يعني لا ماء ولا هواء ولا نار ـ وأنه إذا خلق الأجساد أدخل فيها تلك الأرواح ثم يعيدها عند قبضها إلى ذلك البرزخ وهذا قول ابن حزم.

وقد رد ابن رجب على هذا القول واستبعد أن يكون ذلك من قول أهل الإسلام فقال: «وليس هذا من جنس كلام المسلمين بل من جنس كلام المتفلسفة».

٦ ـ القول السادس: كما ساقه ابن رجب ورد عليه «وقد ذهب طائفة من المتكلمين إلى أن الروح عرض لا تبقى بعد الموت وحملوا ما ورد من عذاب الأرواح ونعيمها بعد الموت على أحد أمرين: أما أن العرض الذي هو الحياة يعاد إلى جزء من البدن أو على أن يخلق في بدن آخر، وهذا الثاني باطل قطعاً لأنه يلزم منه أن يعذب بدن غير بدن الميت مع روح غير روحه فلا يعذب حينئذ بدن الميت ولا روحه ولا ينعمان أيضاً وهذا باطل قطعاً، والأول باطل أيضاً بالنصوص الدالة على بقاء الروح منفردة عن البدن بعد مفارقتها له، وهي كثيرة جداً.

وقد اتضح لي أن ابن رجب رحمه الله تعالى يميل إلى القول الأول وهو قول الإمام أحمد رحمه الله تعالى حيث قال عنه:

«والمنصوص عن الإمام أحمد: أن أرواح المؤمنين في الجنة ذكره الخلال في كتاب السنة عن غير واحد عن حنبل قال: سمعت أبا عبد الله يقول: أرواح المؤمنين في الجنة، وقال حنبل في موضع آخر: هي أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكفار في النار، والأبدان في الدنيا يعذب الله من يشاء ويرحم من يشاء...

وقد حكى القاضي أبو يعلى[١] في كتاب المعتمد ومن اتبعه من الأصحاب هذا الكلام عن عبد الله بن أحمد[٢] عن أبيه، ولم ينقله عبد الله إنما نقله حنبل، وأما ما نقله عبد الله عن أبيه فقال الخلال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي عن أرواح الموتى: أتكون في أفنية قبورهم أم في حواصل طير أم تموت كما تموت الأجساد؟ قال: روي عن النبي ﷺ قال: نسمة المؤمن إذا مات طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى إلى جسده فيبعثه الله» . . .[٣].

وهذا الكلام أيضاً تدل على أن أرواح المؤمنين عند الله في الجنة إلا أنه ذكر في جوابه الأحاديث الدالة على ذلك المرفوعة والموقوفة ولم يذكر سوى ذلك، ففي رواية حنبل: جزم بأن أرواح المؤمنين في الجنة، وفي رواية عبد الله ذكر الأدلة على ذلك. . .

---

(١) الإمام القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف البغدادي الحنبلي ابن الفراء، شيخ الحنابلة وعالم العراق في زمانه، وكان ذا عبادة وتهجد وملازمة للتصنيف، مع الجلالة والورع، من مؤلفاته: العمدة في أصول الفقه، أحكام القرآن، وإبطال التأويل، توفي سنة ٤٥٨هـ.
طبقات الحنابلة (٢/ ١٩٣) وتاريخ بغداد (٢/ ٢٥٦) وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٨٩) والبداية والنهاية (١٢/ ١٠٢).

(٢) الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي، قال البغدادي: كان ثقة ثبتاً فهماً، وقال الذهبي: الإمام الحافظ الناقد محدث بغداد، له مؤلفات مفيدة منها: كتاب السنة، توفي سنة ٢٩٠هـ.
تاريخ بغداد (٩/ ٣٧٥) وطبقات الحنابلة (١/ ١٨٠) وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٥١٦).

(٣) تقدم تخريجه (ص٤٧٩).

إلى أن قال رحمه الله تعالى: «وقد يستدل للقول بأن أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكفار في النار من القرآن بأدلة منها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾[1] هو دخول النار مع إحراقها وإنضاجها فجعل هذا كله متعقباً للاحتضار والموت، وكذلك قوله تعالى في قصة المؤمن في سورة يس: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[2]، وإنما قال هذا بعد ما قتلوه ورأى ما أعد الله له: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[3] على تأويل من تأول ذلك عند الاحتضار، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾[4] الآية. ونظير هذه الآية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[5].

---

(١) سورة الواقعة آية (٨٢ ـ ٩٥).

(٢) سورة يس آية (٢٦، ٢٧).

(٣) سورة الفجر آية (٢٧، ٢٨).

(٤) سورة الأعراف آية (٣٧، ٣٨).

(٥) سورة النحل آية (٢٨).

ومما يستدل به أيضاً لذلك ما رواه مجالد[١] عن الشعبي[٢] عن جابر أن النبي ﷺ سئل عن خديجة قال: «أبصرتها على نهر من أنهار الجنة في بيت من قصب لا لغو فيه ولا نصب»[٣].

وخرّج أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ لما رجم الأسلمي الذي اعترف عنده بالزنا قال: «والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[٤] وإنما تدخل أرواح المؤمنين والشهداء الجنة إذا لم يمنع من ذلك مانع من كبائر تستوجب العقوبة أو حقوق آدميين حتى يبرأ منها[٥].

ولعل القول بأن أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكفار في النار هو أرجح الأقوال في هذه المسألة لأن أدلته كثيرة وصحيحة وصريحة والله أعلم.

---

(١) مجالد بن سعيد بن بسطام الهمداني أبو عمرو الكوفي وهو من صغار التابعين، وفي حديثه لين، توفي سنة ١٤٤هـ.
سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٨٤) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٣٩).

(٢) عامر بن شراحيل بن عبد الله الشعبي الإمام الحافظ، أبو عمرو الهمداني، حدث عن عدد من الصحابة، وكان فقيهاً محدثاً، أثر عنه قوله: «ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته، ولا أحببت أن يعيده علي»، توفي سنة ١٠٤هـ.
الجرح والتعديل (٦/ ٣٢٢) ووفيات الأعيان (٣/ ١٢) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٩٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٨) والأوسط (٢/ ١٣١/ أ) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٣): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، ورجالهما رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد، وقد وثق وخاصة في أحاديث جابر.
وهذا الحديث أخرجه البخاري (٤/ ٢٣١) ومسلم (٤/ ١٨٨٦) من حديث أبي هريرة وغيره بنحوه.

(٤) سنن أبي داود: كتاب الحدود (٤/ ٥٨١).

(٥) أهوال القبور (ص١١١ ـ ١١٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار، تنعم أرواح المؤمنين وتعذب أرواح الكافرين إلى أن تعاد إلى الأبدان»[١].

وقد أشار الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى إلى الفرق بين حياة الشهداء في الجنة وحياة غيرهم من المؤمنين فقال: «والفرق بين حياة الشهداء وغيرهم من المؤمنين الذين أرواحهم في الجنة من وجهين:

أحدهما: أن أرواح الشهداء يخلق لها أجساد أو هي الطير التي تكون في حواصلها ليكمل بذلك نعيمها، ويكون أكمل من نعيم الأرواح المجردة عن الأجساد، فإن الشهداء بذلوا أجسادهم للقتل في سبيل الله فعوضوا عنها بهذه الأجساد في البرزخ.

والثاني: أنهم يرزقون من الجنة وغيرهم لم يثبت له في حقه مثل ذلك فإنه جاء أنهم يعلقون في شجر الجنة، وروي يعلقون بفتح اللام وضمها فقيل: إنهما بمعنى، وأن المراد الأكل من الشجر، قال ابن عبد البر وقيل: رواية الضم معناها الأكل، ورواية الفتح معناها التعلق، ذكره ابن الجوزي، وبكل حال فلا يلزم مساواتهم للشهداء في كمال تنعمهم في الأكل والله أعلم[٢].



(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣١١).
(٢) أهوال القبور (ص١٢٥، ١٢٦).

المبحث السادس
الصراط

الصراط جسر منصوب على متن جهنم ويمر الناس عليه إلى الجنة على قدر أعمالهم فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم، فمن مر على الصراط دخل الجنة.

وقد وردت أحاديث كثيرة فيها ذكر الصراط وصفته وصفة المرور عليه وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى هذه الأحاديث في كتاب التخويف من النار حيث عقد باباً قال فيه: الباب السادس والعشرون في ضرب الصراط على متن جهنم ومرور الموحدين عليه[١].

ثم شرع في ذكر الأحاديث الواردة في ذكر الصراط وصفته وصفة المرور عليه.

ومنها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث طويل قال فيه: «. . . ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون: اللهم سلم سلم» قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «دحض

(١) التخويف من النار (ص٢٢٨).

مَزِلة»[١] فيه خطاطيف وكلاليب وحسك[٢] تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمن كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب[٣]، فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس[٤] على وجهه في النار»[٥].

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فذكر الحديث وفيه قال: «ويضرب الجسر بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيزه ولا يتكلم في ذلك اليوم إلا الرسل، ودعوة الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان؟» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم المُوْبَق[٦] بعمله، ومنهم المجازي حين يُنَجّى...»[٧].

---

(١) مَزِلة: بفتح الميم وكسر الزاي، والدحض والمزلة بمعنى واحد وهو المكان الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر.
النهاية لابن الأثير (٢/ ٣١٠) والمصباح المنير (١/ ٢٥٤).

(٢) حسك: جمع حسكة وهي شوكة صلبة.
النهاية لابن الأثير (١/ ٣٨٦).

(٣) الأجاويد: جمع أجواد وهو جمع جواد، وهو الجيد الجري من المطي.
والركاب: هي الإبل.
النهاية لابن الأثير (١/ ٣١٢).

(٤) مكدوس: الكدس الدفع، وتكدس الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط.
النهاية لابن الأثير (٤/ ١٥٥).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد (٨/ ١٨١) ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧).

(٦) الموبق: المهلك، يقال: وَبَق يَبِق، ووَبِق يَوْبَق فهو وَبِق إذا هلك.
النهاية لابن الأثير (٥/ ١٤٦).

(٧) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم (٧/ ٢٠٥) ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الرؤية (١/ ١٦٤).

ومنها حديث حذيفة عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه قال: «... فيأتون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم ويؤذن له وترسل معه الأمانة والرحم، فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم» ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول: «رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً» قال: «وفي حافتي الصراط كلاليب مُعَلَّقَةٌ مأمورة بأخذ من أُمِرت بأخذه، فمخدوش ناج ومكدوس في النار»[١].

ومنها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ فذكر حديثاً طويلاً وفيه قال: «والصراط كحد السيف دحض مَزِلة، قال: فيقولون: انجو على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأشد الرجال، ويرمل رملاً، فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدميه تخرّ يد وتتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل فتصيب جوانبه النار»[٢].

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في ذكر الصراط وصفته وصفة المرور عليه، وما ذكرته من الأحاديث هو طرف من الأحاديث التي ذكرها الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى.

وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة فهم عندما يعرضون للكلام عن

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٧).
(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٦) وقال: هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي.

الصراط يذكرون هذه الأحاديث التي فيها ذكر الصراط وصفته وكيفية المرور عليه ويؤمنون بها.

وصفة الصراط والمرور عليه لم يخالف فيها إلا أهل البدع والأهواء الذين فسروا هذه الأحاديث بتفسيرات باطلة تخالف دلالات هذه النصوص وما قرره علماء أهل السنة والجماعة.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى أن المشركين يتبعون آلهتهم التي عبدوها من دون الله فتسير بهم تلك الآلهة حتى تهوى بهم في نار جهنم، ولا يمر على الصراط إلا المؤمنون وفيهم المنافقون وعصاة المؤمنين.

قال رحمه الله تعالى: «واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط، ويدل على ذلك ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع الشمس من يعبدها، ويتبع القمر من يعبد القمر، ويتبع الطواغيت من يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقون» فذكر الحديث إلى أن قال: «ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزه»[(١)].

وفيهما أيضاً عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب، فيدعى

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٨).

اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ثم يدعي النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر آتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فما تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفون بها؟ فيقولون: نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، ثم يضرب الجسر على جهنم...»[١].

فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالمسيح والعزير من أهل الكتاب فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٨).

من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا، فترد النار مع معبودها أولاً، وقد دل القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾[1] وأما من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب فإنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء ثم يردون النار بعد ذلك.

وقد ورد في حديث آخر: أن من كان يعبد المسيح يمثل له شيطان المسيح فيتبعونه، وكذلك من كان يعبد العزير، وفي حديث الصور أنه يمثل لهم ملك على صورة المسيح وملك على صورة العزير، ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر سواء كان صادقاً أو منافقاً من هذه الأمة وغيرها، ثم يتميز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم من السجود، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين»[2].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أن من استقام على الطريق المستقيم سلم من النار واستقام سيره على الصراط المنصوب على متن جهنم قال رحمه الله: «إن الإيمان والعمل الصالح في الدنيا هو الصراط المستقيم في الدنيا الذي أمر الله العباد بسلوكه والاستقامة عليه، وأمرهم بسؤال الهداية إليه، فمن استقام سيره على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ظاهراً وباطناً استقام مشيه على ذلك الصراط المنصوب على متن جهنم ومن لم يستقم سيره على هذا الصراط المستقيم في الدنيا بل انحرف عنه إما إلى فتنة الشبهات أو إلى فتنة الشهوات كان اختطاف الكلاليب له على صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات له عن هذا

---

(١) سورة هود آية (٩٨).

(٢) التخويف من النار (ص١٨٦) وما بعدها.

الصراط المستقيم كما في حديث أبي هريرة: «إنها تخطف الناس بأعمالهم»[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وإذا طهر المؤمن من ذنوبه، لم يجد حر النار إذا مر عليها يوم القيامة لأن وجدان الناس لحرها عند المرور عليها بحسب ذنوبهم، فمن طهر من الذنوب ونقى منها في الدنيا جاز على الصراط كالبرق الخاطف والريح لم يجد شيئاً من حر النار ولم يحس بها...»[٢].



(١) التخويف من النار (ص٧٤).
(٢) لطائف المعارف (ص٣٤٠).

المبحث السابع
بيان المراد بالورود في قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾

ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى الخلاف في المراد بالورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[(١)] وعقد له فصلاً في كتاب التخويف من النار بعنوان «الباب السابع والعشرون في ذكر ورود النار» قال فيه:

اختلف الصحابة ومن بعدهم في تفسير الورود ثم ذكر بعد ذلك أقوال العلماء في ذلك على النحو التالي:

١ ـ قول الذين قالوا إن المراد بالورود المرور على الصراط، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «قالت طائفة: الورود هو المرور على الصراط وهذا قول ابن مسعود وجابر والحسن وقتادة وغيرهم..».

٢ ـ القول الثاني: قول ابن عباس رضي الله عنهما ومن وافقه من الصحابة وغيرهم في أن المقصود من الورود في الآية هو الدخول في النار، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقالت طائفة: الورود هو الدخول، وهذا هو المعروف عن ابن عباس، روي عنه من غير وجه، وكان يستدل لذلك بقول الله تعالى في فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[(٢)] وبقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾[(٣)]

---

(١) سورة مريم آية (٧١).

(٢) سورة هود آية (٩٨).

(٣) سورة مريم آية (٨٦).

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[١]...»[٢].

٣ ـ القول الثالث: قول الذين قالوا إن المراد بالورود هو ما يصيب المؤمن في الدنيا من حمى ومرض، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقد فسر بعضهم الورود بالحمى في الدنيا»، روي عن مجاهد وعثمان بن الأسود[٣]، وفيه حديث مرفوع: «الحمى حظ المؤمن من النار»[٤] وإسناده ضعيف.

٤ ـ القول الرابع: قول الذين قالوا إن الورود ليس عاماً وإنما هو

---

(١) سورة الأنبياء آية (٩٩).

(٢) التخويف من النار (ص١٩٣).

(٣) عثمان بن الأسود بن موسى المكي، وثقه يحيى القطان وابن أبي حاتم وابن سعد وغيرهم، توفي سنة ١٥٠هـ، وقيل غير ذلك.
الجرح والتعديل (٦/ ١٤٤) وسير أعلام النبلاء (٦/ ٣٣٩) تهذيب التهذيب (٧/ ١٠٧).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٧١) من حديث عبد الله بن مسعود، وفي سنده صالح بن أحمد الهروي قال أبو أحمد الحاكم: فيه نظر، وفي سنده أيضاً أحمد بن راشد الهلالي قال الذهبي: أتى بخبر باطل.
ميزان الاعتدال (٢/ ٢٨٨) و(١/ ٩٧) ولسان الميزان (٣/ ١٦٥)، (١/ ١٧١).
وأخرجه أحمد (٥/ ٢٦٤) والبزار كما في كشف الأستار (١/ ٣٦٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٩٣).
وهو عند أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة بلفظ: «الحمى كير من جهنم، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار».
قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٥٥): رواه أحمد بإسناد لا بأس به، والبزار بإسناد حسن، وكذا قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠٦).
وانظر: ألفاظ هذا الحديث وشواهده في الجامع الصغير للسيوطي (١/ ١٥٢) وشرحه فيض القدير (٣/ ٤١٩ ـ ٤٢١) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/ ٤٣٥) وما بعدها.

خاص بالمحضرين حول جهنم، قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقالت طائفة: الورود ليس عاماً وإنما هو خاص بالمحضرين حول جهنم المذكورين في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1] كأنه يقال لهؤلاء الموصوفين: «وإن منكم إلا واردها» روى هذا التأويل عن زيد بن أسلم[2] وهو بعيد جداً»[3].

ويبدو لي أن ابن رجب رحمه الله تعالى يرجح القول الأول الذي يقول أن المراد بالورود هو المرور على الصراط، ويدل على ذلك ما يأتي:

١ ـ عند ذكره للقول الأول قال: «ومما يستدل به على أن الورود ليس هو الدخول ما خرّجه مسلم من حديث جابر قال: أخبرتني أم بشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[4] فقال النبي ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[5]......[6]»[7]. فهذا يشعر برده للقول الثاني...

---

(١) سورة مريم الآيات (٦٨ ـ ٧١).

(٢) زيد بن أسلم أبو عبد الله العدوي العمري مولاهم الإمام الحافظ الفقيه، كان من العلماء العاملين وكان عالماً بتفسير القرآن الكريم، توفي سنة ١٣٦هـ.
سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١٦) وتهذيب التهذيب (٣/ ٣٩٥) وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ١٨٢).

(٣) التخويف من النار (ص٢٠٠).

(٤) سورة مريم آية (٧١).

(٥) سورة مريم آية (٧٢).

(٦) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب الشجرة (٤/ ١٩٤٢).

(٧) التخويف من النار (ص١٩٤).

٢ ـ أنه بعد أن ذكر بعض الآثار التي تدل على القول الثاني رد عليها بقوله: «ولكن هذا والذي قبله قد يدلان على أن الورود هو المرور على الصراط كالقول الأول»[١].

٣ ـ أنه صدر به الأقوال.

والقول بأن الورود في هذه الآية هو المرور على الصراط ذهب إليه كثير من المفسرين والعلماء.

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالى: «اختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٢] ما هو؟ والأظهر الأقوى أنه المرور على الصراط»[٣].

وقال الشوكاني: «وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود وحمله على ظاهره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ...﴾[٤] ولا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط... فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة فينبغي حمل الآية على ذلك»[٥].



(١) التخويف من النار (ص١٩٧).
(٢) سورة مريم آية (٧١).
(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٧١).
(٤) سورة الأنبياء آية (١٠١).
(٥) فتح القدير (٣/ ٣٤٤).

المبحث الثامن
الشفــاعــة

قال ابن الأثير: تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: «شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمشفِّع الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع الذي تقبل شفاعته»(١).

وقال الراغب الأصفهاني: «الشفاعة الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى...»(٢).

وقال الحافظ ابن حجر: الاستشفاع طلب الشفاعة وهي انضمام الأدنى إلى الأعلى ليستعين به على ما يرومه(٣).

فالشفاعة هي طلب وسؤال الخير للغير.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بكل ما جاءهم عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ في الشفاعة، ويثبتون جميع الشفاعات التي وردت الأدلة في الكتاب والسنة بإثباتها كشفاعته ﷺ لأهل الموقف وأهل الكبائر من أمته وغير ذلك من أنواع شفاعاته ﷺ التي ستأتي،

---

(١) النهاية لابن الأثير (٢/ ٤٥٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص٢٦٣).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٣٣).

وشفاعات غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وينفون الشفاعة التي نفتها الأدلة من الكتاب والسنة.

والشفاعة ملك لله وحده لا يشفع أحد لأحد إلا بعد إذنه سبحانه وتعالى للشافع أن يشفع ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾[3] وغير ذلك من الآيات الواردة في الشفاعة.

ومن الأدلة الواردة في السنة في الشفاعة حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[4].

ومنها حديثه الآخر رضي الله عنه وهو حديث طويل وفيه ذكر الشفاعة العظمى حيث يقول الرسول ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بمَ ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفدهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم

---

(١) سورة الزمر آية (٤٤).
(٢) سورة النجم آية (٢٦).
(٣) سورة طه آية (١٠٩).
(٤) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات (٧/ ١٤٥) ومسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٨٨).

إلى ربكم...» فذكر في الحديث أنهم يأتون آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وكلهم يتبرأ ويقول: اذهبوا إلى غيري حتى يأتوا النبي ﷺ كما جاء في الحديث: «فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فانطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع...»[١] الحديث.

ومنها حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إن الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة»[٢].

ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً»[٣].

فالشفاعة حق، وهي ثابتة للرسول ﷺ ولمن يأذن الله له عز وجل من النبيين والملائكة والمؤمنين، والشفاعات[٤] الثابتة على سبيل البسط ثمانية أنواع هي:

١ ـ الشفاعة العظمى وهي شفاعته ﷺ في الخلائق كلهم ليخلصوا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء (٤/ ١٠٦) ومسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٧٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٨٨).

(٤) انظر: ذكر هذه الأنواع في كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/ ٥٨٨) وشرح مسلم للنووي (٣/ ٣٥) والتذكرة للقرطبي (ص٣٠١) والنهاية في الفتن والملاحم (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٤٨) وشرح العقيدة الطحاوية (ص٢٥٣ ـ ٢٦٠) وفتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩) ولوامع الأنوار (٢/ ٢١١).

من هول الموقف يوم القيامة، وليعجل الله حسابهم بعد طول الموقف، ويقضي بينهم في اليوم الذي تقف فيه الخلائق خاضعين أمام خالقهم لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً حيث تنتهي إليه ﷺ بعد مراجعتهم الأنبياء للقيام بها، فيقول عليه الصلاة والسلام: «أنا لها» وقد سبق ذكر دليل هذا النوع[١].

٢ - شفاعته ﷺ لأهل الجنة في دخولها بعد الفراغ من حسابهم. وقد تقدم دليل هذا النوع[٢].

٣ - شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه لأنه كان يحميه من أذى كفار قريش فيخفف عنه العذاب فيجعل في ضحضاح[٣] من النار بشفاعة النبي ﷺ لا بعمله الذي عمله لأن الله سبحانه وتعالى أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وإنما الشفاعة لأهل التوحيد خاصة، ولكن شفاعته لعمه أبي طالب خاصة به، وخاصة لأبي طالب، ويدل على هذا النوع حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»[٤].

وهذه الأنواع الثلاثة السابقة من أنواع الشفاعة خاصة بنبينا محمد ﷺ.

٤ - شفاعته ﷺ لقوم من عصاة الموحدين استحقوا دخول النار أن

---

(١) انظر (ص٧٢٥).
(٢) انظر (ص٧٢٥).
(٣) الضحضاح في الأصل: ما رق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين واستعاره هنا للنار.
النهاية لابن الأثير (٣/ ٧٥).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٩٥).

لا يدخلوها، وقد استدل ابن حجر[1] رحمه الله تعالى لهذا النوع بقوله ﷺ: «ونبيكم قائم على الصراط يقول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد»[2].

٥ ـ شفاعته ﷺ في العصاة من أهل التوحيد الذين دخلوا النار بذنوبهم أن يخرجوا منها، وقد تقدم دليل هذا النوع[3].

٦ ـ شفاعته ﷺ في رفع درجات بعض أهل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم يدل على ذلك حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ دعا لأبي سلمة بعدما توفي فقال: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين. . .»[4].

وحديث أبي موسى الأشعري أنه لما أصيب عمه أبو عامر في غزوة أوطاس دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس»[5].

٧ ـ شفاعته ﷺ في قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة، وقد استدل ابن حجر رحمه الله تعالى لهذا النوع بما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد برحمة الله، والظالم لنفسه، وأصحاب الأعراف يدخلونها بشفاعة النبي ﷺ ثم ذكر الحافظ ابن حجر أن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم[6].

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٢٨).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٨٧).
(٣) انظر (ص٧٢٥).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز (٢/ ٦٣٤).
(٥) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة (٤/ ١٩٤٤).
(٦) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٢٨) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٦ ـ ٢١٨).

٨ ـ شفاعته ﷺ في دخول بعض المؤمنين الجنة بغير حساب ولا عذاب كشفاعته ﷺ في عكاشة بن محصن رضي الله عنه حيث دعا له النبي ﷺ أن يكون من السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، فقال رجل: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عكاشة»(١).

وهذه الأنواع الخمسة الأخيرة يشارك النبي ﷺ فيها غيره من الأنبياء والملائكة والصديقين والشهداء. وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعات كلها ويثبتونها لثبوتها في الكتاب والسنة مع إيمانهم أن هذه الشفاعات لا تتحقق إلا بعد تمام شروطها وهي:

١ ـ إذن الله سبحانه وتعالى للشافع أن يشفع، فإنه لا يشفع أحد حتى يأذن الله له كما قال عز وجل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾(٣) وقال سبحانه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾(٤) وأمثال ذلك من الآيات التي تدل بوضوح على انتفاء الشفاعة قبل الإذن من المولى عز وجل.

٢ ـ رضي الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له كما قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ

(١) تقدم تخريجه (ص٣٥٨).
(٢) سورة البقرة آية (٢٥٥).
(٣) سورة سبأ آية (٢٣).
(٤) سورة يونس آية (٣).

لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾[١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[٢].

ففي هاتين الآيتين قيد الله عز وجل الشفاعة برضاه عن المشفوع له وهو لا يرضى إلا لأهل التوحيد الخاص.

وقد خالفت الجهميةُ، والمعتزلةُ والخوارجُ أهلَ السنة والجماعة في الشفاعة فأنكروا[٣] بعض أنواع الشفاعات السابقة كشفاعته ﷺ وشفاعة غيره في أهل الكبائر واحتجوا على ذلك بالآيات التي فيها نفي الشفاعة كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾[٦].

وأمثال ذلك من الآيات التي تتضمن نفي الشفاعة.

والحقيقة أن هذا استدلال غير صحيح لأن الشفاعة المنفية هنا هي الشفاعة في أهل الشرك، فهم الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وأما المؤمنون فهم الذين تنفعهم الشفاعة بشروطها لثبوت الأدلة عليها من الكتاب والسنة، وهي التي وفّق الله سبحانه وتعالى أهل السنة والجماعة إلى القول بها، ولا عبرة بمخالفة أهل الزيغ والضلال.

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن الشفاعة وبين أنواعها فقد

(١) سورة النجم آية (٢٦).
(٢) سورة الأنبياء آية (٢٨).
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٦٠).
(٤) سورة المدثر آية (٤٨).
(٥) سورة غافر آية (١٨).
(٦) سورة البقرة آية (١٢٣).

ذكر في كتاب التخويف من النار في باب ضرب الصراط على متن جهنم الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا محمد ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فقال: أخرج مسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة كلاهما عن النبي ﷺ فذكر حديث الشفاعة وفيه قال: «فيأتون محمداً ﷺ فيقوم ويؤذن له...»[1] الحديث.

وفي الباب الثامن والعشرين في ذكر حال الموحدين وخروجهم منها برحمة أرحم الراحمين وشفاعة الشافعين ذكر نوعاً آخر من أنواع الشفاعة وهي شفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أمته ممن يدخلون النار ويخرجون منها فيقول:

وفي الصحيحين... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة» فذكر الحديث بطوله، وفيه ذكر جواز الناس على الصراط ثم قال: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل الكبائر من النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن دخل النار يعرفون بأثر السجود، تأكل النار ما من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا[2] فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحِبَّة[3] في حَمِيل السيل...»[4] وذكر

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٧).

(٢) امتحشوا: احترقوا، والمحش: احتراق الجلد وظهور العظم.
النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٠٢).

(٣) الحبة: بكسر الحاء هي بزر ما لا يقتات من البقول مثل بزور الرياحين.
المصباح المنير (١/ ١١٧).

(٤) حميل السيل: بفتح الحاء وكسر الميم وهو ما جاء به السيل من طين أو غثاء، ومعناه محمول السيل.
النهاية لابن الأثير (١/ ٤٤٢).

بقية الحديث[١].

وخرج مسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ قال: «إن قوماً يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات[٢] وجوههم حتى يدخلوا الجنة»[٣].

وخرج أيضاً.. عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال بخطاياهم ـ فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم ضَبائِر[٤] ضبائِر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل لأهل الجنة: أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبَّة في حَمِيل السيل»[٥]...[٦].

وقال رحمه الله تعالى عند قوله ﷺ: «حلت له شفاعتي»[٧] معناه

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق (٧/ ٢٠٢) وصحيح مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٦٥).

(٢) دارات: جمع دارة وهي ما يحيط بالوجه من جوانبه، ومعناه أن النار لا تأكل دارة الوجه لكونه محل السجود.
النهاية لابن الأثير (٢/ ١٣٩).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٧٨).

(٤) ضبائر: جمع ضبارة بفتح الضاد وكسرها، أشهرها الكسر، ومعنى ضبائر جماعات متفرقة.
النهاية لابن الأثير (٣/ ٧١).

(٥) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (١/ ١٧٢، ١٧٣).

(٦) التخويف من النار (ص٢٠٧، ٢٠٨).

(٧) هذا جزء من حديث فضل إجابة المؤذن أخرجه البخاري: كتاب الآذان (١/ ١٥٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
ومسلم: كتاب الصلاة (١/ ٢٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

نالته وحصلت له ووجبت، وليس المراد بهذه الشفاعة الشفاعة في فصل القضاء فإن تلك عامة لكل أحد ولا الشفاعة في الخروج من النار ولا بد، فإنه قد يقول ذلك ممن لا يدخل النار، وإنما المراد والله أعلم أنه يصير في عناية رسول الله ﷺ بحيث تتحتم له شفاعته، فإن كان ممن يدخل النار بذنوبه شفع له بإخراجه منها أو في منعه من دخولها وإن لم يكن من أهل النار فيشفع له في دخوله الجنة بغير حساب أو في رفع درجته في الجنة»(١).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «... وأما الشفاعة التي اختص بها النبي ﷺ من بين الأنبياء فليست هي الشفاعة في خروج العصاة من النار، فإن هذه الشفاعة شاركه فيها الأنبياء والمؤمنون أيضاً كما تواترت بذلك النصوص، وإنما الشفاعة التي يختص بها دون الأنبياء أربعة أنواع:

١ ـ أحدها: شفاعته للخلق في فصل القضاء بينهم.

٢ ـ والثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخول الجنة.

٣ ـ الثالث: شفاعته في أهل الكبائر من أهل النار، فقد قيل إن هذه يختص هو بها.

٤ ـ الرابع: كثرة من يشفع له من أمته، فإنه وفر شفاعته وأدخرها إلى يوم القيامة، وقد ورد التصريح بهذه الشفاعة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة يدعو بها، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»(٢).

وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة

---

(١) فتح الباري (٣/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

(٢) صحيح البخاري: الدعوات (٧/ ١٤٥) وصحيح مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٨٩).

قد دعا بها في أمته، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»...[١].

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى أيقظني فقال: يا محمد إني لم أبعث نبياً ولا رسولاً إلا وقد سألني مسألة أعطيتها إياه فاسأل يا محمد تعط، فقلت: مسألتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فقال أبو بكر: يا رسول الله، وما الشفاعة؟ قال: أقول يا رب شفاعتي التي اختبأت عندك، فيقول الرب تبارك وتعالى: نعم فيخرج ربي تبارك وتعالى بقية أمتي من النار فينبذهم في الجنة»[٢].

والمراد من هذه الأحاديث والله أعلم أن كل نبي أعطي دعوة عامة شاملة لأمته فمنهم من دعا على أمته المكذبين له فهلكوا، ومنهم من سأل في الدنيا ملكاً له كسليمان عليه السلام، واختص النبي ﷺ بأن أدخر تلك الدعوة العامة الشاملة لأمته شفاعة لهم يوم القيامة.

وقد ذكر بعضهم شفاعة خامسة خاصة بالنبي ﷺ وهي شفاعته في تخفيف عذاب بعض المشركين كما شفع لعمه أبي طالب، وجعل هذا من الشفاعة المختص بها ﷺ.

وزاد بعضهم شفاعة سادسة خاصة بالنبي ﷺ وهي شفاعته في سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب...[٣].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أن هناك أعمالاً تشفع لصاحبها يوم القيامة ومنها الصيام وقراءة القرآن فقال: «الصيام يشفع لمن منعه الطعام والشهوات المحرمة كلها سواء كان تحريمها يختص بالصيام كشهوة الطعام والشراب والنكاح ومقدماتها، أو لا يختص به كشهوة فضول

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٢٦).

(٣) فتح الباري (٢/ ٢٢ ـ ٢٥).

الكلام المحرم والسماع المحرم والنظر المحرم والكسب المحرم، فإذا منعه الصيام من هذه المحرمات كلها، فإنه يشفع له عند الله يوم القيامة، ويقول: يا رب منعته شهواته فشفعني فيه، فهذا لمن حفظ صيامه، ومنعه من شهواته، فأما من ضيع صيامه، ولم يمنعه عما حرمه الله عليه، فإنه جدير أن يضرب به وجه صاحبه، ويقول له: ضيعك الله كما ضيعتني... وكذلك القرآن إنما يشفع لمن منعه من النوم بالليل فإن من قرأ القرآن وقام به فقد قام بحقه فيشفع له...

كما في المسند عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان»[1]...[2].



(١) مسند أحمد (٢/ ١٧٤) وأخرجه الحاكم (١/ ٥٥٤) وقال: هذا حديث صحيح ووافقه الذهبي.
وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٨٤): رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله محتج بهم في الصحيح، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع وغيره بإسناد حسن.

(٢) لطائف المعارف (ص١٨٢).

المبحث التاسع
الجنة ونعيمها

الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين الأبرار المشتملة على أصناف النعيم والبهجة والسرور، والحور، والقصور، وكل ما لذ وطاب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾[3].

ولقد رغب الله سبحانه وتعالى في الجنة وحث المؤمنين على العمل

---

(١) سورة الدخان الآيات (٥١ ـ ٥٧).
(٢) سورة محمد آية (١٥).
(٣) سورة الحجر آية (٤٥ ـ ٤٨).

من أجلها فقال عز وجل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾(١).

وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾(٢).

وأما الأحاديث الدالة على نعيم الجنة وما فيها من الفضل العظيم فكثيرة جداً منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)(٣) قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾(٤).

ومنها حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون ولا يتغوطون، ولا يتمخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاء كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما يلهمون النفس»(٥).

وقد أشار ابن رجب رحمه الله تعالى إلى الجنة وما أعد الله فيها

---

(١) سورة الحديد آية (٢١).

(٢) سورة آل عمران آية (١٣٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التفسير (٦/ ٢١) ومسلم: كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾** (٤/ ٢١٧٤).

(٤) سورة السجدة آية (١٧).

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفات أهل الجنة (٤/ ٢١٨٠).

لأوليائه وذكر كثيراً من الأحاديث الدالة على أوصاف نعيمها ومنها قوله: «وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه سأل موسى ربه قال: يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: أدخل الجنة فيقول: يا رب كيف، وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم، فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا، فيقول: رضيت يا رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة: رضيت يا رب فيقال: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها فلم ترَ عين، ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر»[١] . . .[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «ومن عرف الآخرة وعظمتها رغب فيها، عباد الله هلموا إلى دار لا يموت سكانها ولا يخرب بنيانها ولا يهرم شبابها ولا يتغير حسنها وأحسانها هواؤها النسيم وماؤها التسنيم يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين ويتمتعون بالنظر إلى وجهه كل حين (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)[٣] . . .»[٤].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «قال الله تعالى: (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[٥]، الجنة ضيافة الله أعدها

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٧٦).
(٢) لطائف المعارف (ص٢٢، ٢٣).
(٣) سورة يونس آية (١٠).
(٤) سورة يونس آية (٢٥).
(٥) لطائف المعارف (ص٢٨).

للمؤمنين نزلاً، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فبعث رسول الله ﷺ يدعو إليها بالإيمان والإسلام والإحسان، فمن أجابه دخل الجنة، وأكل من تلك الضيافة ومن لم يجب حرم»[١].

نسأل الله العظيم أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه وأن يجعلنا من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وقد حث ابن رجب رحمه تعالى على سلوك الصراط المستقيم والاجتهاد في الأعمال والأسباب الموصلة إلى الجنة ونعيمها وإلى مرضاة الله ومغفرته ورحمته سبحانه وتعالى فقال: «يتعين على العبد المؤمن الطالب للنجاة من النار ولدخول الجنة، وللقرب من مولاه والنظر إليه في دار كرامته أن يطلب ذلك بالأسباب الموصلة إلى رحمة الله وعفوه ومغفرته ورضاه ومحبته، فبها ينال ما عند الله من الكرامة، إذ الله سبحانه وتعالى قد جعل للوصول إلى ذلك أسباباً من الأعمال التي جعلها موصلة إليه، وليس ذلك موجوداً إلا فيما شرعه الله لعباده على لسان رسوله، وأخبر عنه رسوله أنه يقرب إلى الله، ويوجب رضوانه ومغفرته، وأنه مما يحبه الله، أو أنه من أحب الأعمال إلى الله عز وجل فقد قال تعالى: ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾[٣]، فالواجب على العبد البحث عن خصال التقوى وخصال الإحسان التي شرعها الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، والتقرب بذلك إلى الله عز وجل، فإنه لا طريق للعبد يوصله إلى رضى مولاه وقربه ورحمته وعفوه ومغفرته سوى ذلك[٤].

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٠٦).
(٢) سورة الأعراف آية (٥٦).
(٣) سورة الأعراف آية (١٥٦).
(٤) المحجة في سير الدلجة (ص٤٤ ـ ٤٥).

كما بيّن رحمه الله تعالى بعض أوصاف أهل الجنة فقال رحمه الله تعالى: «وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال في خطبته: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى» ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال...»[١] ففي هذا الحديث جعل النبي ﷺ أهل الجنة ثلاثة أصناف:

أحدهم: ذو السلطان المقسط المتصدق، وهو من كان له سلطان على الناس فسار في سلطانه بالعدل، ثم ارتقى درجة الفضل.

والثاني: الرحيم الرقيق القلب الذي لا يخص برحمته قرابته، بل يرحم المسلمين عموماً، فتبين أن القسمين أهل الفضل والإحسان.

والثالث: العفيف المتعفف ذو العيال، وهو من يحتاج إلى ما عند الناس فيتعفف عنهم، وهذا أحد نوعي الجود، أعني العفة عما في أيدي الناس لا سيما مع الحاجة.

وقد وصف الله في كتابه أهل الجنة ببذل الندى وكف الأذى ولو كان الأذى بحق فقال: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤﴾[٢].

فهذا حال معاملتهم للخلق، ثم وصف قيامهم بحق الحق فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾[٣].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٤/٢١٩٨).
(٢) سورة آل عمران آية (١٣٣، ١٣٤).
(٣) سورة آل عمران آية (١٣٥ ـ ١٣٦).

فوصفهم الله عند الذنوب بالاستغفار، وعدم الإصرار وهو حقيقة التوبة النصوح.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾[١].

والعقبة قد فسرها ابن عباس بالنار، وفسرها ابن عمر بعقبة في النار، فأخبر سبحانه أن اقتحامها وهو قطعها ومجاوزتها يحصل بالإحسان إلى الخلق إما بعتق الرقبة وإما بالإطعام في المجاعة، والمطعم إما يتيم من ذوي القربى أو مسكين قد لصق بالتراب فلم يبق له شيء، ولا بد مع الإحسان أن يكون من أهل الإيمان، والأمر لغيره بالعدل والإحسان وهو التواصي بالصبر والتواصي بالرحمة، وأخبر سبحانه أن هذه الأوصاف أوصاف أصحاب الميمنة»[٢].



(١) سورة البلد آية (١١ ـ ١٨).
(٢) التخويف من النار (ص٢٧٧، ٢٧٨).

المبحث العاشر
رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة

إن رؤية المؤمنين لربهم عز وجل بأبصارهم يوم القيامة ثابتة بالكتاب والسنة المتواترة، واتفق على القول بها جميع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على تتابع القرون[١].

ورؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة هي أعلى مراتب نعيم الجنة وغاية مطلوبهم.

وقد قرر ابن رجب رحمه الله تعالى هذه المسألة واستدل لها بعدة أدلة من الكتاب والسنة فقال رحمه الله تعالى عند شرحه لحديث: «أنكم سترون ربكم...»[٢] هذا الحديث نص في ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾[٣]، ومفهوم قوله في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾[٤] قال الشافعي وغيره: لما حجب أعداءه بالسخط دل على أن أولياءه يرونه في الرضا.

والأحاديث في ذلك كثيرة جداً، وقد ذكر البخاري بعضها في أواخر الصحيح في كتاب التوحيد.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٥٤٨) ومجموع الفتاوى (٢/ ٣٣٧).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢١٧).
(٣) سورة القيامة آية (٢٢، ٢٣).
(٤) سورة المطففين آية (١٥).

وقد أجمع على ذلك السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من الأئمة واتباعهم[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «... واتفق السلف الصالح على تلقي هذا الحديث بالقبول والتصديق قال يزيد بن هارون[٢]: من كذّب بهذا الحديث فهو بريء من الله ورسوله».

وقال وكيع: «من رد هذا الحديث فاحسبوه من الجهمية...»[٣].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله عز وجل وإبعادهم عنه وإعراضه عنهم وسخطه عليهم كما أن رضوان الله على أهل الجنة أفضل من كل نعيم الجنة، وتجليه لهم ورؤيتهم إياه أعظم من جميع أنواع نعيم الجنة قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾[٤] فذكر الله تعالى ثلاثة أنواع من العذاب حجابهم عنه، ثم صليهم الجحيم، ثم توبيخه بتكذيبهم به في الدنيا، ووصفهم بالران على قلوبهم، وهو صدأ الذنوب الذي سود قلوبهم فلم يصل إليها بعد ذلك في الدنيا، من معرفة الله ولا من إجلاله ومهابته وخشيته ومحبته فكما حجبت قلوبهم في الدنيا عن الله

---

(١) فتح الباري (٣/ ١٣٣).

(٢) يزيد بن هارون بن زاذي السلمي أبو خالد الواسطي الإمام الحافظ قال أحمد بن حنبل: كان يزيد حافظاً متقناً.
وقال ابن أبي حاتم: يزيد ثقة إمام، لا يسأل عن مثله، توفي سنة ٢٠٦هـ.
الجرح والتعديل (٩/ ٢٩٥) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٣٧) وسير أعلام النبلاء (٩/ ٣٥٨).

(٣) فتح الباري (٣/ ١٣٤).

(٤) سورة المطففين آية (١٤ ـ ١٧).

حجبوا في الآخرة عن رؤيته، وهذا بخلاف حال أهل الجنة قال الله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾[(١)] والذين أحسنوا هم أهل الإحسان، والإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه كما فسره النبي ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام، فجعل جزاء الإحسان الحسنى وهو الجنة والزيادة وهي النظر إلى وجه الله عز وجل كما فسره بذلك رسول الله ﷺ في حديث صهيب وغيره»[(٢)].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان، لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله عياناً في الآخرة، وعكس هذا ما أخبر الله تعالى به عن جزاء الله للكفار في الآخرة: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[(٣)]، وجعل ذلك جزاء لحالهم في الدنيا وهو تراكم الران على قلوبهم حتى حجبت عن معرفته ومراقبته في الدنيا فكان جزؤاهم على ذلك أن حجبوا عن رؤيته في الآخرة»[(٤)].

كما أوضح ابن رجب رحمه الله تعالى أن أهل الجنة كلهم يشتركون في رؤية الله تبارك وتعالى إلا أنهم يتفاوتون في أوقات الرؤية ومقدارها حيث قال: «كل أهل الجنة يشتركون في الرؤية لكن يتفاوتون في القرب في حال الرؤية، وفي أوقات الرؤية، عموم أهل الجنة يرون يوم المزيد

---

(١) سورة يونس آية (٢٦).
(٢) التخويف من النار (ص١٥٣).
(٣) سورة المطففين آية (١٥).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٨٣).

وهو يوم الجمعة، وخواصهم ينظرون إلى وجه الله في كل يوم مرتين بكرة وعشياً»(١).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «... أما المقصود الثاني فحاصل لأهل الجنة على أكمل الوجوه وأتمها، ولا نسبة لما حصل لقلوبهم في الدنيا من لطائف القرب، والأنس والاتصال إلى ما يشاهدونه في الآخرة عياناً، فتنعم قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم بقرب الله ورؤيته وسماع كلامه، لا سيما في أوقات الصلاة في الدنيا كالجمع والأعياد، والمقربون منهم يحصل ذلك لهم كل يوم مرتين بكرة وعشياً في وقت صلاة الصبح، وصلاة العصر، ولهذا لما ذكر النبي ﷺ أن أهل الجنة يرون ربهم، حض عقب ذلك على المحافظة على صلاة العصر، وصلاة الفجر لأن وقت هاتين الصلاتين وقت لرؤية خواص أهل الجنة ربهم وزيارتهم له...»(٢).

كما أوضح ابن رجب رحمه الله تعالى أن رؤية الله تبارك وتعالى هو أعظم نعيم أهل الجنة، وأنهم يحقرون كل نعيم أمام نعيم رؤية ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى حيث قال: «إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة واستدعاهم الرب سبحانه إلى زيارته ومشاهدته ومحاضرته يوم المزيد، فإنهم ينسون عند ذلك كل نعيم عاينوه في الجنة قبل ذلك، ولا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من نعيم الجنة حتى يحتجب عنهم سبحانه، ويحقرون كل نعيم في الجنة حين ينظرون إلى وجهه جل جلاله كما جاء في أحاديث يوم المزيد»(٣).

---

(١) المحجة في سير الدلجة (ص٨٢).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٧٨).
(٣) التخويف من النار (ص١٩٦).

فقد أوضح ابن رجب رحمه الله تعالى في كلامه السابق أن رؤية المؤمنين لربهم عز وجل عياناً بأبصارهم يوم القيامة حق لا مرية فيه، وهو ما عليه سلف هذه الأمة وأئمتها رحمهم الله تعالى.

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله في معرض كلامه السابق بعض الأدلة التي استدل بها أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة.

وهناك أدلة أخرى تدل على ثبوت الرؤية لم يتعرض لها ابن رجب رحمه الله تعالى.

منها قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾(٢).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «أجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع، اقتضى المعاينة والرؤية»(٣).

أما الأحاديث الدالة على رؤية الله تبارك وتعالى ولقائه فهي كثيرة جداً تصل إلى حد التواتر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ثبت بالسنة المتواترة واتفاق سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة أهل الإسلام الذين ائتموا بهم في دينهم أن الله سبحانه وتعالى يرى في الدار الآخرة بالأبصار عياناً، وقد دل على ذلك القرآن في مواضع كما ذلك مذكور في مواضعه، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة متواترة في

---

(١) سورة الأحزاب آية (٤٤).

(٢) سورة البقرة آية (٢٢٣).

(٣) حادي الأرواح (ص٢٠٤).

الصحاح والسنن والمسانيد[١].

ومنها حديث أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون[٢] في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً؟ قلنا: لا، قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ، إلا كما تضارون في رؤيتهما»[٣] متفق عليه.

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك...» الحديث[٤].

والمراد من التشبيه في الأحاديث السابقة كما فسره علماء السلف رحمهم الله تعالى هو تشبيه الرؤية بالرؤية من حيث الوضوح والحقيقة

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٤٨).

(٢) تضارون: يروى بالتشديد والتخفيف للراء، فالتشديد بمعنى لا تتخالفون ولا تتجادلون في صحة النظر إليه لوضوحه وظهوره، يقال: ضاره يضاره مثل ضره يضره.
يقول الجوهري: «يقال أضرَّني فلان إذا دنا مني دنواً شديداً» فأراد بالمضارة الاجتماع والازدحام عند النظر إليه.
وأما التخفيف فهو من الضير لغة في الضرة والمعنى فيه كالأول.
الصحاح (٢/ ٧٢١) والنهاية لابن الأثير (٣/ ٨٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ (٨/ ١٨١) ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١/ ١٦٧).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد (٨/ ١٧٩) ومسلم: كتاب الإيمان (١/ ١٦٣).

وعدم التكلف والتزاحم حال الرؤية، لا تشبيه المرئى بالمرئي لأن الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١].

ومنها حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتُنَجِّنَا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[٢].

هذه الآيات والأحاديث التي ذكرتها وغيرها مما لم أذكره فيها دلالة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من ثبوت رؤية الله تعالى حقيقة يوم القيامة.

ولا عبرة بمن خالف ذلك من الفرق الأخرى ممن حادوا عن الصواب وخالفوا نصوص الكتاب والسنة.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في معرض الرد على المخالفين: «وإنما خالف فيه طوائف من أهل البدع من الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن يرد النصوص الصحيحة لخيالات فاسدة، وشبهات باطلة، يخيلها لهم الشيطان فيسرعون إلى قبولها منه، ويوهمهم أن هذه النصوص الصحيحة تستلزم باطلاً، وتسميته تشبيهاً أو تجسيماً فينفرون منه، كما خيل إلى المشركين قبلهم أن عبادة الأوثان ونحوها تعظيم لجناب الرب وإنه لا يتوصل إليه من غير وسائط تعبد فتقرب إليه زلفاً وأن ذلك أبلغ في التعظيم والاحترام، وقاسه لهم على ملوك بني آدم فاستجابوا لذلك وقبلوه منه.

---

(١) سورة الشورى آية (١١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١/ ١٦٣).

وإنما بعث الله الرسل وأنزل الكتب لإبطال ذلك كله، فمن اتبع ما جاءوا به فقد اهتدى، ومن أعرض عنه أو عن شيء منه واعترض فقد ضل... وقد ظن المريسي ونحوه ممن ضل وافترى على الله أن هذا الحديث يرد لما يتضمن من التشبيه فضل وأضل»[١].

والحقيقة أن المتأمل لكلام النفاة للرؤية واستدلالاتهم يجد أن ذلك منهم مبني على التعسف وتحريف الكلم عن مواضعه، لأنه لا يشهد لمذهبهم سمع ولا عقل بل كل ذلك يرد عليهم.

وسأذكر أشهر أدلتهم التي استدلوا بها من القرآن والرد عليها:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾[٢].

قالوا: إن الله مدح نفسه بأنه لا يرى بالأبصار، وما كان نفيه تمدحاً راجعاً إلى ذاته كان إثباته نقصاً، والنقائص غير جائزة على الله تعالى في حال من الأحوال[٣].

والجواب عن ذلك أن يقال: إن الآية تدل على كمال عظمة الله تعالى وأنه أكبر من كل شيء وأنه لكمال عظمته لا يدرك، وهذا ما مدح الله به سبحانه وتعالى نفسه ولم يذكر أنه لا يرى، والإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾[٤] فلم ينف موسى عليه السلام الرؤية، وإنما نفى الإدراك ولا

---

(١) فتح الباري (٣/ ١٣٤).

(٢) سورة الأنعام آية (١٠٣).

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص٢٣٣) والإبانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ص٧٩).

(٤) سورة الشعراء آية (٦١، ٦٢).

يمكن أن يقال إن موسى عليه السلام نفى الرؤية لأن الله تعالى سبحانه وتعالى صرح بإثبات الرؤية بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾.

فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، والرب تبارك وتعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به علماً، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من هذه الآية(١).

ومما يدل على أن الإدراك قدر زائد على الرؤية أن هذه الشمس وهذه السماء المخلوقتان يتمكن كل إنسان من رؤيتهما ولا يتمكن أن يدركهما على ما هما عليه(٢).

الدليل الثاني: استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ الآية(٣).

قالوا: إن «لن» كلمة تدل على التأبيد فقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ نفى فيه أن يكون مرئياً البتة، وهذا يدل على استحالة الرؤية عليه(٤).

والجواب عن ذلك: أن هذه الآية كالآية السابقة لا حجة لهم بها، وادعاؤهم بأن لن تفيد النفي المؤبد غير صحيح لأن غاية ما تدل عليه «لن» النفي في المستقبل، ولا تفيد التأبيد حتى ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت. والدليل قوله تعالى عن الكفار: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾(٥) ومع ذلك أخبر سبحانه وتعالى أنهم يتمنونه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾(٦).

---

(١) انظر: حادي الأرواح لابن القيم (ص٢٠٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٦٠).
(٢) انظر: الشريعة للآجري (ص٢٧٦) وحادي الأرواح (ص٢١٠).
(٣) سورة الأعراف آية (١٤٣).
(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص٢٦٤).
(٥) سورة البقرة آية (٩٥).
(٦) سورة الزخرف آية (٧٧).

ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾[١].

ولأنها لو كانت للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[٢].

فثبت أن لن لا تقتضي النفي المؤبد[٣].

إضافة إلى أن أئمة هذا الشأن وهم النحاة قالوا إن (لن) لا تفيد النفي المؤبد، قال ابن مالك[٤] في الكافية:

ومن رأى النفي بـ (لن) مؤبداً فقوله أردد وخلافه أعضدا

ثم يقول في الشرح: ثم أشرت إلى ضعف قول من رأى تأبيد النفي بلن وهو الزمخشري في «أنموذجه» وحامله على ذلك اعتقاد أن الله تعالى لا يرى، وهو اعتقاد باطل بصحة ذلك عن رسول الله ﷺ - أعني ثبوت الرؤية - جعلنا الله من أهلها وأعاذنا من عدم الإيمان بها»[٥].

وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة ووافقهم عليه ابن رجب رحمه الله تعالى في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما أخبر الله عز وجل ورسوله ﷺ عنها هو الحق الذي لا يجوز اعتقاد غيره لوضوح الأدلة عليه من الكتاب والسنة،وإجماع السلف عليه.

---

(١) سورة يوسف آية (٨٠).

(٢) سورة مريم آية (٢٦).

(٣) انظر: حادي الأرواح (ص٢٠٥) وشرح العقيدة الطحاوية (ص٢٠٨).

(٤) جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي النحوي صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، ومنها الكافية الشافية وشرحها، كان إماماً في اللغة والنحو والقراءات، توفي سنة ٦٧٢هـ.
البداية والنهاية (١٣/ ٢٥٤) وبغية الوعاة (١/ ١٣٠).

(٥) شرح الكافية الشافية (٣/ ١٥١٥، ١٥٣١).

المبحث الحادي عشر
النار وعذابها

النار دار أعدها الله سبحانه وتعالى لأعدائه ولمن عصاه وخالف أمره، وهي دارالعقوبة في الآخرة، ودار الذل والهوان والعذاب، دار أهلها أهل البؤس والشقاء، شرابهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ومأكلهم الزقوم كالمهل يغلي في البطون.

والآيات والأحاديث الواردة في النار ووصفها ووصف عذابها وصفات أهلها أكثر من أن تحصى، أعاذنا الله من النار ومن عذابها.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[(1)].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[(2)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[(3)].

---

(١) سورة التحريم آية (٦).

(٢) سورة الحجر آية (٤٣، ٤٤).

(٣) سورة النبأ، الآيات (٢١ ـ ٢٦).

وقال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها»[3].

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران، وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين»[4].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث»[5].

---

(١) سورة الصافات الآيات (٦٢ ـ ٦٧).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب صفة النار، باب ذكر أزمة النار (٤/ ٢١٨٤).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب صفة النار، باب في بعد قعر جهنم (٤/ ٢١٨٤).
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٦) والترمذي: كتاب صفة جهنم (٤/ ٧٠٢) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.
(٥) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون... (٤/ ٢١٨٩).

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى كلاماً كثيراً عن النار وأهلها ووصف عذابها في كتاب التخويف من النار، وساق في هذا الكتاب أبواباً عديدة يذكر في كل باب كثيراً من الآيات والأحاديث المتعلقة بها.

قال في مقدمته: «وقد استخرت الله تعالى في جمع كتاب أذكر فيه صفة النار، وما أعد الله فيها لأعدائه من الخزي والنكال والبوار، ليكون بمشيئة الله قامعاً للنفوس عن غيها وفسادها، وباعثاً لها على المسارعة إلى فلاحها ورشادها...»[١].

وقال في الباب السادس عشر في ذكر حجارة النار: ومن جملة أنواع عذاب أهل النار فيها تلاعنهم وتباغضهم، وتبرأ بعضهم من بعض، ودعاء بعضهم على بعض بمضاعفة العذاب كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ...﴾[٣] الآية.

وقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾[٤]، وحينئذ فلا يبعد أن يقرن كل كافر بشيطانه الذي أضله وبصورة من عبده من دون الله من الحجارة[٥].

وفي الباب الثامن عشر في ذكر طعام أهل النار وشرابهم فيها قال:

---

(١) التخويف من النار (ص٩).

(٢) سورة الأعراف آية (٣٨).

(٣) سورة غافر آية (٤٧).

(٤) سورة صٓ آية (٥٩ ـ ٦٤).

(٥) التخويف من النار (ص١٣٥).

«قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦)﴾[١]... ثم قال: وقد دل القرآن على أنهم يأكلون منها حتى تمتلئ منها بطونهم فتغلي في بطونهم كما يغلي الحميم وهو الماء الذي قد انتهى حره ثم بعد أكلهم منها يشربون عليه من الحميم شرب الهيم»[٢].

وفي الباب الحادي والعشرين في ذكر أنواع عذاب أهل النار وتفاوتهم في العذاب بحسب أعمالهم قال: «واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي دخلوا بها النار كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا (٢٦)﴾[٤] قال ابن عباس: «وافق أعمالهم»[٥].

فليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد في الأرض ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ (٨٨)﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦)﴾[٧].

---

(١) سورة الدخان آية (٤٣ ـ ٤٦).
(٢) التخويف من النار (ص١٤٢، ١٤٤).
(٣) سورة الأنعام آية (١٣٢).
(٤) سورة النبأ آية (٢٦).
(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٥).
(٦) سورة النحل آية (٨٨).
(٧) سورة غافر آية (٤٦).

وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين في النار بحسب أعمالهم، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أصحاب الصغائر، وقد يخفف عن بعضهم العذاب بحسنات أخر له أو بماء شاء الله من الأسباب...»[(١)].

وقال في هذا الباب أيضاً عن أنواع عذابهم: «ومن أنواع عذابهم الصهر قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾[(٢)]...

ومن أنواع عذابهم سحبهم في النار على وجوههم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾[(٣)]...

ومنهم من يعذب بالصعود إلى أعلى النار ثم يهوي فيها كذلك أبداً، ومنهم من يكلف صعود جبل في النار والتردي منه...

ومنهم من يدور في النار ويجر أمعاءه معه، وقد رأى النبي ﷺ عمرو بن لحي يجر قُصْبَه[(٤)] في النار...[(٥)].

---

(١) التخويف من النار (ص١٨١، ١٨٢).
(٢) سورة الحج آية (١٩ ـ ٢١).
(٣) سورة القمر آية (٤٧، ٤٨).
(٤) قُصْبَه: بضم القاف الأمعاء، وقيل: هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء. النهاية لابن الأثير (٤/ ٦٧).
(٥) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٠) ومسلم (٤/ ٢١٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر لحيي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب» والسوائب جمع سائبة وهي الناقة التي تترك فلا تحلب ولا تركب، ولا تمنع من ماء ولا مرعى، إما للآلهة وإما لأجل نذر أو شفاء من مرض.
لسان العرب (١/ ٤٧٨).

ومنهم من يلقى في مكان ضيق لا يتمكن فيه من الحركة الضيقة قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾[(١)].

وربما يبتلى أهل النار بأنواع من الأمراض الحادثة عليهم... ومن أهل النار من يتأذى أهل النار بعذابه إما من نتن ريحه أو غيره...[(٢)].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى أن أعظم عذاب أهل النار هو حجابهم عن الله عز وجل وعدم تمكنهم من رؤيته تبارك وتعالى فقال: «وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله عز وجل وإبعادهم عنه وإعراضه عنهم وسخطه عليهم كما أن رضوان الله على أهل الجنة أفضل من كل نعيم الجنة، وتجليه لهم ورؤيتهم إياه أعظم من جميع أنواع نعيم الجنة» قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾[(٣)].

فذكر الله تعالى لهم ثلاثة أنواع من العذاب: حجابهم عنه، ثم صليهم الجحيم، ثم توبيخهم بتكذيبهم به في الدنيا، ووصفهم بالران على قلوبهم، وهو صدأ الذنوب الذي سوّد قلوبهم، فلم يصل إليها بعد ذلك في الدنيا شيء من معرفة الله ولا من إجلاله ومهابته وخشيته ومحبته، فكما حجبت قلوبهم في الدنيا عن الله حجبوا في الآخرة عن رؤيته»[(٤)].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى بعض أهل النار الذين يدخلونها

---

(١) سورة الفرقان آية (١٣).
(٢) التخويف من النار (ص١٨٤) وما بعدها.
(٣) سورة المطففين آية (١٤ ـ ١٧).
(٤) التخويف من النار (ص١٩٥ ـ ١٩٦).

فقال: «وفي صحيح مسلم[١] عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال في خطبته: «... وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له[٢] الذين هم فيكم تبعاً لا يبغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك» وذكر البخل أو الكذب والشِّنْظِير[٣]: الفحاش... أهل النار... قسمهم النبي ﷺ في هذا الحديث إلى خمسة أصناف:

الصنف الأول: الضعيف الذي لا زبر له، ويعني بالزبر القوة والحرص على ما ينتفع به صاحبه في الآخرة من التقوى والعمل الصالح ولما حدث مطرف بن عبد الله[٤] بحديث عياض بن حمار هذا وبلغ قوله: «الضعيف الذي لا زبر له» فقيل له: أوَ يكون هذا؟ قال: نعم، والله لقد أدركتهم في الجاهلية، وإن الرجل ليرعى على الحي ما به إلا وليدتهم يطؤها.

وهذا القسم شر أقسام الناس ونفوسهم ساقطة لأنهم ليس لهم همم في طلب الدنيا ولا الآخرة، وإنما همة أحدهم شهوة بطنه وفرجه كيف

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا وأهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٨).

(٢) قال في النهاية: لا زَبْر له: أي لا عقل له يزبره وينهاه عن الإقدام على ما لا ينبغي.
النهاية لابن الأثير (٢/ ٢٩٣).

(٣) الشِّنْظِير: فسره بالحديث بأنه الفحاش وهو السيئ الخلق.
النهاية لابن الأثير (٢/ ٥٠٥).

(٤) مطرف بن عبد الله الشخير العامري أبو عبد الله البصري الإمام الحافظ من كبار التابعين. قال ابن سعد: كان ثقة له فضل وورع وعقل وأدب، توفي سنة ٨٦هـ، وقيل بعد ذلك.
طبقات ابن سعد (٧/ ١٤١) وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٧٣).

اتفق له، وهو تبع للناس خادم لهم أو طواف عليهم سائل لهم.

والصنف الثاني: الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه أي يعني لا يقدر على خيانة ولو كانت حقيرة يسيرة إلا بادر إليها واغتنمها، ويدخل في ذلك التطفيف في المكيال والميزان، وكذلك الخيانة في الأمانات القليلة كالودائع وأموال اليتامى وغير ذلك، وهو خصلة من خصال النفاق وربما يدخل الخيانة من خان الله ورسوله في ارتكاب المحارم سراً مع إظهار اجتنابها.

الصنف الثالث: المخادع الذي دأبه صباحاً ومساءً مخادعة الناس على أهليهم وأموالهم، والخداع من أوصاف المنافقين كما وصفهم الله تعالى بذلك، والخداع معناه إظهار الخير وإضمار الشر لقصد التوصل إلى أموال الناس وأهاليهم والانتفاع بذلك، وهو من جملة المكر والحيل المحرمة.

الصنف الرابع: الكذب والبخل... والكذب والبخل كلاهما ينشأ عن الشح كما جاء ذلك في الأحاديث، والشح هو شدة حرص الإنسان على ما ليس له من الوجوه المحرمة، وينشأ عنه البخل، وهو إمساك الإنسان ما في يده والامتناع من إخراجه في وجوهه التي أمر بها، فالمخادع الذي سبق ذكره هو الصحيح، وهذا الصنف هو البخيل، فالشحيح أخذ المال بغير حقه، والبخيل منعه من حقه.

وينشأ عن الشح أيضاً الكذب والمخادعة والتحيل على ما لا يستحقه الإنسان بالطرق الباطلة المحرمة، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»[1].

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾** (٧/ ٢٠٠) ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٤/ ٢٠١٢).

الصنف الخامس: الشنظير وقد فسر بالسيئ الخلق، والفحاش هو الفاحش المتفحش، وفي الصحيحين[(١)] عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه».

وفي الترمذي[(٢)] عن النبي ﷺ قال: «إن الله يبغض الفاحش البذيء» والبذيء الذي يجري لسانه بالسفه ونحوه من لغو الكلام... والفاحش هو الذي يفحش في منطقه ويستقبل الرجال بقبيح الكلام من السب ونحوه، ويأتي في كلامه بالسخف وما يفحش ذكره[(٣)].

كما بيّن ابن رجب رحمه الله تعالى بعض الأعمال التي تنجي العبد من نار جهنم أعاذنا الله منها فقال: «قد تكاثرت النصوص في أن البكاء من خشية الله يقتضي النجاة منها، والبكاء خوفاً من نار جهنم هو البكاء من خشية الله لأنه بكاء من خشية عقاب الله وسخطه والبعد عند وعن رحمته وجواره ودار كرامته»[(٤)].



(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب (٧/ ٨٦) وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة، باب مدارة من يتقي فحشه (٤/ ٢٠٠٢).

(٢) سنن الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٤/ ٣٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) التخويف من النار (ص٢٧٧) وما بعدها.

(٤) المصدر السابق (ص٥٥).

المبحث الثاني عشر
خلق الجنة والنار

الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن فالجنة معدة للمتقين والنار معدة للكافرين كما جاء ذلك في كتاب الله عز وجل وسنة رسولنا ﷺ، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة:

فمن الأدلة في القرآن على خلقهما ووجودهما:

قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾[3].

وقال تعالى عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران آية (١٣٣).
(٢) سورة الحديد آية (٢١).
(٣) سورة النجم آية (١٣ ـ ١٥).
(٤) سورة البقرة آية (٢٤) وسورة آل عمران آية (١٣١).
(٥) سورة الفرقان آية (١١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[(٢)].

ومن الأدلة التي وردت في السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره، فقال: اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: ولما خلق الله النار قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فلما رجع قال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها[(٣)].

ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً» قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «رأيت الجنة والنار»[(٤)].

---

(١) سورة النبأ آية (٢١، ٢٢).
(٢) سورة الفتح آية (٦).
(٣) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار (٤٧٤٤) والترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله تعالى (٧/٣) والحاكم (١/٢٧) وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بالركوع أو سجود ونحوهما (١/ ٣٢٠).

ومنها حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»(١).

ومنها حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فقال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عليه يوم القيامة»(٢).

فهذه النصوص وغيرها من الآيات والأحاديث تدل على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن.

وقد تكلم ابن رجب رحمه الله تعالى عن مسألة وجود الجنة والنار وأنهما موجودتان الآن معدتان وقرر ذلك بما يوافق معتقد أهل السنة والجماعة فقال رحمه الله تعالى: «إن الله تعالى خلق لعباده دارين يجزيهم فيها بأعمالهم مع البقاء في الدارين مع غير موت، وخلق داراً معجلة للأعمال وجعل فيها موتاً وحياة وابتلى عباده فيها بما أمرهم به ونهاهم عنه وكلفهم فيها بالإيمان بالغيب ومنه الإيمان بالجزاء، والداران المخلوقتان له وأنزل بذلك الكتب وأرسل به الرسل وأقام الأدلة الواضحة على الغيب الذي أمر بالإيمان به وأقام علامات وأمارات تدل على وجود داري الجزاء فإن إحدى الدارين المخلوقتين للجزاء دار نعيم محض لا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٧/ ١٧٩) ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٤/ ٢٠٩٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (٢/ ١٢٤) ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه (٨/ ١٦٠).

يشوبه آلم، والأخرى دار عذاب محض لا يشوبه راحة، وهذه الدار الفانية ممزوجة بالنعيم والألم، فما فيها من النعيم يذكر بنعيم الجنة، وما فيها من الألم يذكر بألم النار، وجعل الله تعالى في هذه الدار أشياء كثيرة تذكر بدار الغيب المؤجلة الباقية فمنها ما يذكر بالجنة من زمان ومكان، أما الأماكن فخلق الله بعض البلدان كالشام وغيرها فيها من المطاعم والمشارب والملابس وغير ذلك من نعيم الدنيا ما يذكر بنعيم الجنة، وأما الأزمان فكز من الربيع فإنه يذكر طيبه بنعيم الجنة وطيبها، وكأوقات الأسحار فإن بردها يذكر ببرد الجنة...

ومنها ما يذكر بالنار فإن الله تعالى جعل في الدنيا أشياء كثيرة تذكر بالنار المعدة لمن عصاه وما فيها من الآلام والعقوبات من أماكن وأزمان وأجسام وغير ذلك، أما الأماكن فكثير من البلدان مفرطة الحر أو البرد، فبردها يذكر بزمهرير جهنم، وحرها يذكر بحر جهنم وسمومها... وأما الأزمان فشدة الحر والبرد يذكر بما في جهنم من الحر والزمهرير...

وأما الأجسام المشاهدة في الدنيا المذكرة بالنار فكثيرة منها الشمس عند اشتداد حرها[١].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «... وقد خلقت الجنة وما فيها وخلقت النار وما فيها خلقهما الله عز وجل وخلق الخلق لهما»[٢].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: «اعلم أن الله خلق الجنة والنار ثم خلق بني آدم وجعل لكل واحدة من الدارين أهلاً منهم... وأشهد عباده في هذه الدار آثاراً من الجنة وآثاراً من النار»[٣].

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٣٣، ٣٣٤).

(٢) أهوال القبور (١٩).

(٣) البشارة العظمى ورقة (٣).

وقال رحمه الله تعالى وهو يذكر فوائد حديث الكسوف الذي رأى فيه النبي ﷺ الجنة والنار قال:

«ومنها أنه يدل على وجود الجنة والنار كما هو مذهب أهل السنة والجماعة»(١).

فخلق الجنة والنار وأنهما موجودتان الآن من عقيدة أهل السنة والجماعة وهي من المسائل التي أجمعوا عليها، وقد حكى الإجماع غير واحد منهم، ومن ذلك قول الآجري رحمه الله تعالى في الشريعة: «اعلموا رحمنا الله وإياكم أن القرآن شاهد أن الله خلق الجنة والنار قبل أن يخلق آدم عليه السلام، وخلق للجنة أهلاً وللنار أهلاً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا لا يختلف في هذا من شمله الإسلام وذاق حلاوة طعم الإيمان، دل على ذلك القرآن والسنة فنعوذ بالله ممن كذب بهذا»(٢).

فأهل السنة والجماعة اتفقوا على القول بخلق الجنة والنار، وقالوا: إنهما موجودتان الآن، خلاف ما قالته المبتدعة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ممن خالفوا الأدلة الواردة في ذلك، وحادوا عن طريق الصواب وقالوا: إن الجنة والنار غير موجودتين الآن بل ينشئهما الله يوم القيامة وقالوا: إنهما لو كانتا مخلوقتين الآن لوجب أن تفنيا يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت لعموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ...﴾(٣).

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالى: «وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا

(١) فتح الباري ورقة (١٣٦/أ).
(٢) الشريعة للآجري (ص٢٢٥).
(٣) سورة القصص آية (٨٨).

ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث، لأنها تصير معطلة مدداً متطاولة فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم[(١)].

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[(١)] فلا حجة لهم فيه.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «... فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[(١)] وبنحو هذا من متشابه القرآن، قيل له: كل شيء مما كتب الله عز وجل عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقهما الله للبقاء لا للفناء ولا للهلاك وهما في الآخرة لا من الدنيا»[(٢)].

وقال ابن أبي العز رحمه الله تعالى: «.... وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[(٣)] فأتيتم من سوء فهمكم بمعنى الآية واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما، فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام، فمن كلامهم أن المراد ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء[(٤)].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٧٦).
(٢) طبقات الحنابلة (١/٢٨).
(٣) سورة القصص آية (٨٨).
(٤) شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٧٩ ـ ٤٨٠).

المبحث الثالث عشر
الجنة والنار باقيتان لا تفنيان

خلود الجنة والنار ودوامهما وبقاؤهما بإبقاء الله لهما وأنهما لا تفنيان أبداً ولا يفنى ما فيهما ثابت بالكتاب والسنة والأدلة عليهما كثيرة جداً.

قال الله تعالى عن الجنة وأهلها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ

(١) سورة النساء آية (٥٧).
(٢) سورة التوبة آية (٢٠ ـ ٢٢).
(٣) سورة النساء آية (١٦٨، ١٦٩).

فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[(١)].

ومن الأحاديث الدالة على أبدية الجنة والنار وخلود أهلهما فيهما حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الله أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه»[(٢)].

فهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي سأذكرها في معرض كلام ابن رجب رحمه الله تعالى كلها تدل على أبدية الجنة والنار ودوامهما وخلود أهلهما فيهما لا إلى غاية ولا إلى أمد، فأهل الجنة ينعمون بما فيها تنعما دائماً لا آخر له ولا انقطاع أبداً، وأهل النار أعاذنا الله منها خالدين فيها من غير موت ولا حياة ولا نجاة من عذاب الله.

وقد تكلم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى عن هذا كله وذكر الأدلة عليه فقال عن النار وعذابها: «وعذاب الكفار في النار لا يفتر عنهم ولا ينقطع ولا يخفف بل هو متواصل أبداً قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ ﴿٣٦﴾﴾[(٤)].

---

(١) سورة الأحزاب آية (٦٤، ٦٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألف بغير حساب (٧/ ١٩٩) ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٩).

(٣) سورة الزخرف آية (٧٤، ٧٥).

(٤) سورة فاطر آية (٣٦).

وقال تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾(٢)...»(٣).

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: ولا يزال أهل جهنم في رجاء الفرج إلى أن يذبح الموت، فحينئذ يقع منهم الإياس وتعظم عليهم الحسرة والحزن، وفي الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون(٤) وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون فيقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»(٥) ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾(٦)...»(٧).

وقال عن الجنة: قوله ﷺ: «من يدخلها ينعم ولا يباس، ويخلد

---

(١) سورة البقرة آية (٨٦).
(٢) سورة غافر آية (٤٩، ٥٠).
(٣) التخويف من النار (ص١٩٤).
(٤) يشرئبون: أي يرفعون رؤوسهم لينظروا إليه، وكل رافع رأسه مشرئب. النهاية لابن الأثير (٢/ ٤٥٥).
(٥) صحيح البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة مريم، باب قوله تعالى: **﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾** (٤/ ٣١٦) وصحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٨).
(٦) سورة مريم آية (٣٩).
(٧) التخويف من النار (ص٢٠٨، ٢٠٩).

ولا يموت ولا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم» إشارة إلى بقاء الجنة وبقاء جميع ما فيها من النعيم، وإن صفات أهلها كاملة من الشباب لا تتغير أبداً، وملابسهم التي عليهم من الثياب لا تبلى أبداً.

وقد دل القرآن على مثل هذا في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٢﴾﴾[٣] في مواضع كثيرة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»[٤].

وفيه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد أن لكم أن تنعموا ولا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥]. . .»[٦].

وفي رواية لغيره زيادة: «وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً»[٧]. . .[٨].

وهذه المسألة من المسائل التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة ولا عبرة بمن خالف ذلك من أهل البدع والأهواء.

---

(١) سورة التوبة آية (٢١).
(٢) سورة الرعد آية (٣٥).
(٣) سورة التوبة آية (٢٢).
(٤) صحيح مسلم: كتاب صفة الجنة، باب في دوام نعيم أهل الجنة (٤/ ٢١٨١).
(٥) سورة الأعراف آية (٤٣).
(٦) صحيح مسلم: كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة (٤/ ٢١٨٢).
(٧) وهي في مسلم أيضاً (٤/ ٢١٨٢).
(٨) لطائف المعارف (ص٢٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها، وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية، كالجنة والنار والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين كجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع سلف الأمة وأئمتها»(١).

وقد خالف أهلَ السنة والجماعة في هذه المسألة الجهميةُ ومن تبعهم من المعتزلة والخوارج وقالوا: الجنة والنار تفنيان وتبيدان ليس لهما بقاء ولا خلود، وقالوا: إن الجنة إذا دخلها أهلها ولبثوا فيها زمناً طويلاً فتبيد الجنة وأهلها ويبيد نعيمها، وإن أهل النار إذا دخلوا النار ومكثوا فيها زمناً طويلاً تهلك النار ويبيد عذابها ثم يبقى الله سبحانه آخراً لا شيء معه كما كان أولاً لا شيء معه وهو قوله الأول والآخر(٢).

وشبهتهم في ذلك أصلهم الفاسد الذي أصلوه وجعلوه أساساً لرد النصوص الصحيحة هو امتناع وجود ما لا نهاية له من الحوادث واستدلوا بها على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يحل من الحوادث فقالوا: إن الجنة والنار تفنيان لأنهما كانتا معدومتين في الماضي، ويخلقهما الله يوم البعث والجزاء، فكل ما كان في الماضي معدوماً فهو حادث، وكل حادث لا بد له من الفناء، فالجنة والنار تفنيان وليس لهما بقاء.

وهذه شبهة باطلة تعارض الأدلة القطعية والنصوص الشرعية(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٠٧).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين (٢/ ١٤٨) والفصل في الملل والنحل (٢/ ٨٣) والفرق بين الفرق (ص٣١٩) والملل والنحل (١/ ٨٧).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٠٧).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع، لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين، والذين قالوه إنما تلقوه عن قياس فاسد كما اشتبه أصله على كثير من الناس فاعتقدوه حقاً...»[١].

وقال ابن أبي العز رحمه الله تعالى: «وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان أمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به، وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث»[٢].



(١) حادي الأرواح (ص٣٥٣).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٨٠).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد انتهيت بعون الله وتوفيقه من إتمام هذا البحث وإكماله وقد استفدت فوائد كثيرة وخرجت بنتائج طيبة، وذلك من خلال قراءتي لكثير من كتب العقيدة والسنة والتفسير والتراجم وغيرها من مختلف العلوم المتعلقة بهذا البحث، وخاصة كتب العقيدة فقد استفدت منها فائدة عظيمة لأن قراءتي لها لم تكن مقصورة على أبواب معينة منها، وإنما شملت جميع أبوابها فالحمد لله الذي وفقني إلى ذلك.

هذا ويمكن أن أجمل أهم النتائج والفوائد التي توصلت إليها في النقاط التالية:

١ ـ أن ابن رجب رحمه الله تعالى عاش في القرن الثامن الهجري وهو قرن كثر فيه العلم والعلماء خصوصاً في بلاد الشام ومصر مما كان له الأثر البالغ في ثقافته وعلومه.

٢ ـ أن الصواب في ولادة ابن رجب هو سنة ٧٣٦هـ وما عداها فهو خطأ للأسباب التي ذكرتها في ترجمته.

٣ ـ أن ابن رجب نشأ في بيت علم، وبدأ حياته العلمية منذ الصغر

وتتلمذ على عدد كبير من مشاهير علماء عصره، وكان أكثرهم تأثيراً فيه شيخه الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى الذي لازمه حتى الممات.

٤ - أن ابن رجب قد خلف عدداً كبيراً من المؤلفات والرسائل القيمة في مختلف العلوم، ولم يزل بعض هذا التراث مخطوطاً أو في حكم المخطوط، وتجدر العناية بتحقيقه ودراسته.

٥ - أن ابن رجب وافق السلف في التوحيد وما يتعلق به ولم يتبين لي من خلال هذا البحث أية مخالفة لهم في ذلك، بل هو أوضحه وبيّنه ودعا إليه.

٦ - إن ابن رجب رحمه الله تعالى وافق السلف في أن الإيمان قول وعمل واعتقاد وأنه يزيد وينقص وأن هذا هو الحق الذي دلت عليه الأدلة كما وافق السلف في الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر واليوم الآخر مما يدل دلالة واضحة على أن ابن رجب رحمه الله تعالى من أئمة أهل السنة والجماعة الذين كان لهم أثر واضح في توضيح العقيدة السلفية.

وأخيراً أحمد الله تعالى وأشكره الذي أعانني على إتمام هذا البحث وإخراجه بهذه الصورة التي أرجو أن أكون وفقت في عرضه وبيان أهم جوانبه على الوجه المطلوب، ولا شك أن الإنسان معرض للخطأ في عمله والكمال لله وحده.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: «ويأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه، والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه»[١].

(١) القواعد الفقهية (ص٣).

وإنني معترف هنا بالتقصير، فإن كان ما ذكرته في بحثي هذا وما عرضته فيه حق وصواب، فهذا من فضل الله وحده فله الحمد والشكر أولاً وآخراً، وما كان فيه من خطأ وزلل فهو مني ومن الشيطان، واستغفر الله من ذلك وأتوب إليه.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا اتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ اتباعاً سليماً نقياً خالياً من البدع والأهواء، كما كان عليه سلف هذه الأمة، وأن يجنبنا الزلل ومزالق الأهواء، وأن يغفر لي ولوالدي ولمشايخي ولجميع المسلمين أنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

  

الفهارس

فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا...﴾	١٥	٣٢٧ ـ ٥١٢ ـ ٥٢٨
(سورة ق)		
﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً...﴾	٩ ـ ١١	١٧٦ ـ ٦٥٠
﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه...﴾	١٦	١٦٧
﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب	٣٩	٢١٧
(سورة الذاريات)		
﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾	٢٠	١٧٩
﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت...﴾	٣٥ ـ ٣٦	٥٣٠
﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾	٤٩	٢٢٥
﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾	٥٦	٣٠٠ ـ ٣١٠ ـ ٥٧١
(سورة الطور)		
﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك...﴾	٤٧	٦٩٢
(سورة النجم)		
﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾	١٣ ـ ١٥	٧٦٠
﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً...﴾	٢٦	٧٢٤ ـ ٧٢٩
﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾	٣٢	١٦٧ ـ ٥٣٦
(سورة القمر)		
﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾	١	٦٥٧ ـ ٦٦٦
﴿إن المجرمين في ضلال وسعر. يوم يسحبون في النار...﴾	٤٧ ـ ٤٨	٦١٥ ـ ٧٥٥
﴿إن كل شيء خلقناه بقدر﴾	٤٩	٦٠٢ ـ ٦١٥
(سورة الرحمن)		
﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾	٧٨	٤٤٣

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الفرق والطوائف والمصطلحات

فهرس المصادر والمراجع

١ - الإبانة عن أصول الديانة:
لأبي الحسن الأشعري، تقديم الشيخ حمّاد الأنصاري، مطابع الجامعة الإسلامية، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٥هـ.

٢ - الإبانة عن شريعة الفرق الناجية:
لابن بطة العكبري ت (٣٨٧هـ) دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩هـ، تحقيق: رضا بن نعسان معطي.

٣ - ابن رجب الحنبلي وآثاره الفقهية:
د. أمينة محمد الجابر، دار قطري بن الفجاءة، قطر الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م.

٤ - ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه:
د. محمود بن حمود الوائلي، رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة.

٥ - أبو العتاهية أشعاره وأخباره:
تحقيق: د. شكري فيصل، دار الملاح، دمشق.

٦ - إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة:
للشيخ حمود بن عبد الله التويجري، طبع مطابع الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٤هـ.

٧ - إتحاف الورى بأخبار أم القرى:
ابن فهد المكي ت (٨٨٥هـ) تحقيق: فهيم شلتوت من منشورات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ١٤٠٤هـ.

٨ - إثبات صفة العلو:
لابن قدامة ت (٦٢٠هـ) تحقيق: بدر البدر، الدار السلفية الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٩ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية:
ابن قيم الجوزية ت (٧٥١هـ) تحقيق: د. عواد عبد الله المعتق - مطابع الفرزدق - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٠ ـ الإحتجاج بالقدر:
ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، دار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
١١ ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان:
ترتيب، الأمير علاء الدين الفاسي، تقديم وضبط، كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ.
١٢ ـ الأحكام في أصول الأحكام:
الآمدي ت (٦٣١) تعليق، عبد الرزاق عفيفي، مؤسسة النور، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ.
١٣ ـ إحياء علوم الدين:
للغزالي ت (٥٠٥هـ) مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني القاهرة.
١٤ ـ أخبار القضاة:
وكيع: القاضي محمد بن خلف (٣٠٦هـ) عالم الكتب، بيروت.
١٥ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار:
لأبي الوليد الأزرقي ت (٢٤٤هـ) تحقيق: رشدي الصالح، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.
١٦ ـ الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية:
لابن قتيبة ت (٢٧٦هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
١٧ ـ اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى:
ابن رجب ت (٧٩٥هـ) مكتبة دار الأقصى، الكويت، ١٤٠٦هـ تحقيق: جاسم فهد الدوسري.
١٨ ـ الأدب المفرد:
للبخاري ت (٢٥٦هـ) ترتيب، كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
١٩ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل:
للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
٢٠ ـ الاستخراج لأحكام الخراج:
ابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: محمود شلاش الهيتي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.

٢١ ـ استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس:
ابن رجب ت (٧٩٥هـ) مطبعة الإمام، مصر، ١٣٦٣هـ.
٢٢ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب:
ابن عبد البر ت (٤٦٣هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة، مصر.
٢٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة:
ابن الأثير ت (٦٣٠هـ) تحقيق: محمد إبراهيم البنا ومحمد عاشور ـ دار الشعب ـ القاهرة ١٣٩٠هـ.
٢٤ ـ الأسماء والصفات:
للبيهقي ت (٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٢٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة:
ابن حجر ت (٨٥٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ.
٢٦ ـ أصول الدين:
لعبد القاهر البغدادي ت (٤٢٩هـ) دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.
٢٧ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:
لمحمد الأمين الشنقيطي ت (١٣٩٢هـ) طبعة دار الإفتاء الرياض ١٤٠٣هـ.
٢٨ ـ الاعتصام:
للشاطبي ت (٧٩٧هـ) دار المعرفة، بيروت ١٤٠٢هـ.
٢٩ ـ الاعتقاد:
للبيهقي ت (٤٥٨هـ) المطبعة العربية، باكستان.
٣٠ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين:
للرازي ت (٦٠٦هـ) مراجعة وتحرير، علي سامي النشار دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٤٠٢هـ.
٣١ ـ أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري:
للخطابي ت (٣٨٨هـ) من مطبوعات مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود.
٣٢ ـ الأعلام:
للزركلي ت (١٢٩٥هـ) دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٠م.

٣٣ ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان:
ابن القيم ت (٧٥١هـ) تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة الحلبي، القاهرة ١٣٨١هـ.
٣٤ ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم:
ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) تحقيق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، مطابع العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
٣٥ ـ اقتضاء العلم العمل:
الخطيب البغدادي ت (٤٦٣هـ) تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت سنة ١٣٩٧هـ.
٣٦ ـ الإكمال:
ابن مأكولا ت (٤٧٥هـ) تعليق وتصحيح، عبد الرحمن المعلمي مصور عن طبعة حيدر آباد، الهند، الطبعة الثانية.
٣٧ ـ الأمر بالإتباع والنهي عن الإبتداع:
للسيوطي ت (٩١١هـ) مكتبة القرآن، القاهرة، تحقيق: مصطفى عاشور.
٣٨ ـ أنباء الغمر بأبناء العمر:
ابن حجر ت (٨٥٢هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦هـ.
٣٩ ـ الإنس الجليل بتاريخ القدس والخليل:
العليمي ت (٩٢٨هـ) المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٨٨هـ.
٤٠ ـ الأنساب:
السمعاني ت (٥٦٢هـ) الناشر: محمد أمين دمج، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ.
٤١ ـ أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور:
ابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٤٢ ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون:
البغدادي ت (١٣٣٩هـ) طبع استانبول ١٩٥١م.
٤٣ ـ الإيمان:
لابن أبي شيبة ت (٢٣٥هـ) تحقيق: الألباني، نشر وتوزيع دار الأرقم، الكويت.
٤٤ ـ الإيمان:
لابن منده ت (٢٩٥هـ) تحقيق: د. علي ناصر فقيهي، طبع المجلس العلمي، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٤٥ ـ الإيمان:
أبو عبيد ت (٢٢٤هـ) تحقيق: الألباني، نشر وتوزيع دار الأرقم، الكويت.
٤٦ ـ الإيمان:
ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ.
٤٧ ـ الباعث على إنكار البدع والحوادث:
لأبي شامة ت (٦٦٥هـ) مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ.
٤٨ ـ بدائع الفوائد:
ابن قيم الجوزية ت (٧٥١هـ) تصحيح وتعليق، محمود غانم غيث، نشر مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
٤٩ ـ البداية والنهاية:
ابن كثير ت (٧٧٤هـ) اعتناء، عبد العزيز النجار، مكتبة الأصمعي وغيرها، الرياض.
٥٠ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع:
الشوكاني ت (١٢٥٠هـ) مطبعة السعادة، القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٣٤٨هـ.
٥١ ـ البدع والنهي عنها:
ابن وضاح القرطبي ت (٢٨٦هـ) تحقيق: محمد أحمد دهمان دار البصائر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.
٥٢ ـ البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان:
للسكسكي ت (٦٨٣هـ) تحقيق: بسام علي العموش، مكتبة ودار المنار، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٥٣ ـ البشارة العظمى في أن حظ المؤمن من النار الحمى:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) مخطوط ويوجد له نسخة في مكتبة جامعة الملك سعود المركزية تحت رقم ٩/١٨١٧.
٥٤ ـ بصائر ذوي التمييز:
للفيروز أبادي ت (٧١٨هـ) المكتبة العلمية، بيروت.
٥٥ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس:
للضبي ت (٥٩٩هـ) دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٧م.
٥٦ ـ بغية الوعاة:
للسيوطي ت (٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

٥٧ ـ بيان تلبيس الجهمية أو نقض التأسيس:
لابن تيمية ت (٧٢٨هـ) تصحيح، محمد بن عبد الرحمن بن القاسم، مطبعة الحكومة بمكة ١٣٩٢هـ.
٥٨ ـ تاج العروس في جواهر القاموس:
لمحمد مرتضى الزبيدي ت (١٢٠٥هـ) تحقيق: مجموعة من المحققين، طبعة وزارة الإعلام الكويتية، صدر الجزء الأول عام ١٣٨٥هـ.
٥٩ ـ التاج المكلل من مآثر الطراز الآخر والأول:
لصديق حسن خان ت (١٣٠٧هـ) المطبعة الهندية العربية الطبعة الثانية سنة ١٣٨٢هـ.
٦٠ ـ تاريخ ابن قاضي شهبة:
أبو بكر أحمد بن محمد ت (٨٥١هـ) نسخه مصورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ١٦١٠.
٦١ ـ تاريخ بغداد:
الخطيب البغدادي ت (٤٦٣هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.
٦٢ ـ تاريخ الثقات:
العجلي ت (٢٦١هـ) تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ.
٦٣ ـ تاريخ جرجان:
للسهمي ت (٤٢٧هـ) عالم الكتب بيروت سنة ١٤٠١هـ.
٦٤ ـ التاريخ الصغير:
للبخاري ت (٢٥٦هـ) طبعة مصورة عن الطبعة الهندية الناشر إحياء السنة باكستان.
٦٥ ـ التاريخ الكبير:
البخاري ت (٢٥٦هـ) دار الكتب العلمية، طبعة مصورة عن طبعة الهند.
٦٦ ـ تأويل مختلف الحديث:
ابن قتيبة ت (٢٧٦هـ) تحقيق: محمد زهري النجار، دار الجيل.
٦٧ ـ تبصير المنتبه:
ابن حجر ت (٨٥٢هـ) تحقيق: محمد علي البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٦٨ ـ التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرقة الهالكة:
للإسفراييني ت (٤٧١هـ) تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ.

٦٩ ـ التبيان في شرح بديعة البيان:
لابن ناصر الدين ت (٨٤٢هـ) مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ٥٦١/ ٩٠٠.
٧٠ ـ تبيين العجب بما ورد في فضل رجب:
لابن حجر ت (٨٥٢هـ) دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ.
٧١ ـ تبيين كذب المفتري:
ابن عساكر ت (٥٧١هـ) دار الكتاب العربي، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
٧٢ ـ تحذير المسلمين من الإبتداع والبدع في الدين:
لأحمد بن حجر آل طامي، مكتبة ابن تيمية، الكويت الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ.
٧٣ ـ تحفة الأشراف:
للمزي ت (٧٤٢هـ) تحقيق: عبد الصمد شرف الدين، بومباي الهند ١٣٨٤هـ.
٧٤ ـ تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد:
للبيجوري ت (١٢٧٧هـ) دار الكتب العربية، بيروت سنة ١٤٠٣هـ.
٧٥ ـ التحفة المهدية شرح التدمرية:
للشيخ فالح بن مهدي، نشر مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٥هـ.
٧٦ ـ التخويف من النار والتعريف بحال أهل البوار:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، دمشق. بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.
٧٧ ـ تذكرة الحفاظ:
للذهبي ت (٧٤٨هـ) تصحيح، عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٧٨ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة:
للقرطبي ت (٦٧١هـ) تحقيق: أحمد حجازي، مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٤٠٠هـ.
٧٩ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك:
للقاضي عياض ت (٥٤٤هـ) تحقيق: سعيد أحمد أعرابي، طبعة وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية.

٨٠ ـ الترغيب والترهيب:
لأبي القاسم الأصبهاني ت (٥٣٥هـ) طبع بعناية، محمد السعيد بن بسيوني زغلول على نفقة أحد المحسنين، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٨١ ـ الترغيب والترهيب:
للمنذري ت (٦٥٦هـ) تحقيق: مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ.

٨٢ ـ التصوف. المنشأ والمصادر:
إحسان الهي ظهير ت(١٤٠٧هـ) إدارة ترجمان السنة باكستان، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.

٨٣ ـ تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأربعة:
لابن حجر ت (٨٥٢هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.

٨٤ ـ التعريفات:
للجرجاني ت (٨١٦هـ) دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ.

٨٥ ـ تعظيم قدر الصلاة:
لمحمد بن نصر المروزي ت (٢٩٤هـ) تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي، الناشر مكتبة الدار، بالمدينة المنورة الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.

٨٦ ـ تفسير أسماء الله الحسنى:
لأبي إسحاق الزجاج ت (٣١١هـ) تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار المأمور للتراث، بيروت. دمشق، الطبعة الخامسة سنة ١٤٠٦هـ.

٨٧ ـ تفسير البغوي:
البغوي ت (٥١٦هـ) تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.

٨٨ ـ تفسير ابن أبي حاتم:
ت (٣٢٧هـ) مكتبة الدار ودار طيبة وابن القيم الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ، الجزء الأولى تحقيق: د. أحمد عبد الله الزهراني.

٨٩ ـ تفسير سورة الإخلاص:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: محمد بن ناصر العجمي الدار السلفية، الكويت سنة ١٤٠٧هـ.

٩٠ ـ تفسير سورة النصر:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، الدار السلفية، الكويت سنة ١٤٠٧هـ.

٩١ - تفسير القرآن العظيم:
ابن كثير ت (٧٧٤هـ) دار المعرفة، بيروت سنة ١٤٠٣هـ.
٩٢ - تمام المنة في التعليق على فقه السنة للشيخ:
محمد بن ناصر الدين الألباني دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٨هـ.
٩٣ - تقريب التهذيب:
ابن حجر ت (٨٥٢هـ) دار الكتب الإسلامية، باكستان، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٣هـ.
٩٤ - التكملة لوفيات النقلة:
للمنذري ت (٦٥٦هـ) تحقيق: بشار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١هـ.
٩٥ - تلبيس إبليس:
لابن الجوزي ت (٥٩٧هـ) دار الطباعة المنيرية، مصر ١٣٩٦هـ.
٩٦ - التلخيص الحبير:
ابن حجر ت (٨٥٢هـ) نشر دار الكتب الإسلامية، باكستان سنة ١٣٨٤هـ.
٩٧ - تلخيص المستدرك على الصحيحين:
الذهبي ت (٧٤٨هـ) بذيل المستدرك للحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت.
٩٨ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد:
لابن عبد البر ت (٤٦٣هـ) طبع وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية تحقيق: جماعة من العلماء.
٩٩ - تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين:
لابن النحاس ت (٨١٤هـ) مكتبة الحرمين الرياض الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦هـ.
١٠٠ - تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي:
البقاعي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، طبع السنة المحمدية القاهرة ١٣٧٣هـ.
١٠١ - تهذيب تاريخ دمشق:
ابن بدران ت (١٣٤٦هـ) دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ.
١٠٢ - تهذيب التهذيب:
ابن حجر ت (٨٥٢هـ) مطبعة دائرة المعارف النظامية الهند، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦هـ.

١٠٣ ـ تهذيب الكمال:
المزي ت (٧٤٢هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ، تحقيق: بشار عوّاد معروف.
١٠٤ ـ تهذيب اللغة:
لأبي منصور الأزهري ت (٣٧٠هـ) تحقيق: عبد السلام هارون طبع مطبعة الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، سنة ١٩٦٦م.
١٠٥ ـ التوحيد:
لابن منده ت (٣٩٥هـ) تحقيق: د. علي ناصر فقيهي طبع مطابع الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى.
١٠٦ ـ تيسير العزيز الحميد:
سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ت (١٢٣٣هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٧هـ.
١٠٧ ـ تيسير الكريم الرحمن:
ابن سعدي ت (١٣٧٦هـ) تحقيق: محمد زهري البخاري، طبع دار الإفتاء، الرياض سنة ١٤٠٤هـ.
١٠٨ ـ الثقات:
لابن حبان ت (٣٥٤هـ) دائرة المعارف العثمانية، الهند سنة ١٣٩٨هـ.
١٠٩ ـ الجامع لأحكام القرآن:
القرطبي ت (٦٧١هـ) دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة ١٣٨٧هـ.
١١٠ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع:
الخطيب البغدادي ت (٤٦٣هـ) تحقيق: محمود الطحان دار المعارف، الرياض.
١١١ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله:
لابن عبد البر ت (٤٦٣هـ) راجعه وصححه، عبد الرحمن حسن، دار الكتب الحديثة، مصر.
١١٢ ـ جامع البيان في تأويل القرآن:
ابن جرير الطبري ت (٣١٠هـ) طبعة الحلبي، القاهرة الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٨هـ.
١١٣ ـ جامع التواريخ:
لرشيد الدين فضل الله الهمذاني، نقله إلى العربية جماعة من العلماء، طبع دار إحياء الكتب العربية، مصر.

١١٤ ـ الجامع الصغير:
للسيوطي ت (٩١١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة.
١١٥ ـ جامع العلوم والحكم:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) من منشورات المؤسسة السعيدية، الرياض.
١١٦ ـ جذوة المقتبس:
لابن فتوح الحميدي ت (٤٨٨هـ) نشر مكتبة الثقافة الإسلامية مصر، سنة ١٣٧٥هـ.
١١٧ ـ الجرح والتعديل:
لابن أبي حاتم ت (٣٢٧هـ) دائرة المعارف العثمانية، الهند طبع سنة ١٣٧٢هـ.
١١٨ ـ الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية:
لعبد القادر محمد القرشي ت (٧٧٥هـ) حيدر آباد، الهند ١٣٣٢هـ.
١١٩ ـ الجوهر المنضد في طبقات متأخري الإمام أحمد:
لابن عبد الهادي ت (٩٠٩هـ) تحقيق: عبد الرحمن العثيمين مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٢٠ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح:
لابن القيم ت (٧٥١هـ) مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٢هـ.
١٢١ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة:
للسيوطي ت (٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ.
١٢٢ ـ الحسنة والسيئة:
لابن تيمية ت (٧٢٨هـ) دار المعرفة، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ.
١٢٣ ـ الحكم الجديرة بالإذاعة:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تقديم الألباني، دار مرجان للطباعة، مصر.
١٢٤ ـ حلية الأولياء:
لأبي نعيم الأصبهاني ت (٤٣٠هـ) دار الفكر، بيروت.
١٢٥ ـ الخشوع في الصلاة:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: علي حسن علي عبد الحميد دار عمّار، سنة ١٤٠٦هـ.

١٢٦ ـ خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه:
للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت. دمشق، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٠هـ.
١٢٧ ـ الخطط:
للمقريزي ت (٨٤٥هـ) الناشر: دار التحرير للطبع والنشر عن طبعة بولاق، سنة ١٢٧٠هـ.
١٢٨ ـ خلق أفعال العباد:
للبخاري ت (٢٥٦هـ) تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار عكاظ للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية.
١٢٩ ـ درء تعارض العقل والنقل:
لشيخ الإسلام ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) تحقيق: محمد رشاد سالم مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١هـ.
١٣٠ ـ الدارس في تاريخ المدارس:
للنعيمي ت (٩٢٧هـ) عني بنشره، جعفر الحسيني، مطبعة الترقي، دمشق سنة ١٣٧٠هـ.
١٣١ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور:
للسيوطي ت (٩١١هـ) دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ.
١٣٢ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة:
لابن حجر ت (٨٥٢هـ) تحقيق: محمد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٥هـ.
١٣٣ ـ درة الحجال في أسماء الرجال:
لابن القاضي ت (١٠٢٥هـ) تحقيق: محمد أبو النور، دار التراث، مصر ١٩٧٠م.
١٣٤ ـ دعوة التوحيد:
د. محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
١٣٥ ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي:
لابن تغري بردي ت (٨٧٤هـ) تحقيق: فهيم شلتوت، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٣٩٩هـ.
١٣٦ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب:
لابن فرحون ت (٧٩٩هـ) القاهرة ١٣٥١هـ، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور.

١٣٧ ـ ذكر أخبار أصبهان:
أبو نعيم الأصبهاني ت (٤٣٠هـ) نشر الدار العلمية، الهند الطبعة الثانية سنة ١٤٠٥هـ.
١٣٨ ـ ذم التأويل:
لابن قدامة ت (٦٢٠هـ) تحقيق: بدر البدر، الدار السلفية الكويت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.
١٣٩ ـ ذم الخمر وشاربها:
لابن رجب (٧٩٥هـ) طبع المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض سنة ١٤٠٨هـ، تحقيق: الوليد بن عبد الرحمن الفريان.
١٤٠ ـ ذم الدنيا:
لابن أبي الدنيا ت (٢٨١هـ) تحقيق: مجدي إبراهيم، مكتبة ومطبعة القرآن، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
١٤١ ـ ذم الكلام وأهله:
شيخ الإسلام الأنصاري الهروي ت (٤٨١هـ) مخطوط مصور بالمكتبة المركزية، بالجامعة الإسلامية.
١٤٢ ـ ذيل تذكرة الحفاظ:
للحسيني ت (٧٦٥هـ) دمشق، ١٣٤٧هـ.
١٤٣ ـ ذيل الروضتين:
لأبي شامة ت (٦٦٥هـ) القاهرة، ١٣٦٦هـ.
١٤٤ ـ ذيل العبر:
للحسيني ت (٧٦٤هـ) تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ.
١٤٥ ـ الذيل على طبقات الحنابلة:
لابن رجب الحنبلي ت (٧٩٥هـ) تصحيح، محمد حامد الفقي مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٢هـ.
١٤٦ ـ الرحلة في طلب الحديث:
الخطيب البغدادي ت (٤٦٣هـ) تحقيق: نور الدين عتر بيروت.
١٤٧ ـ الرد على الجهمية:
الدارمي ت (٢٥٥هـ) المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٢هـ.

١٤٨ ـ الرد الوافر:
لابن ناصر الدين الدمشقي ت (٨٤٢هـ) طبعة المكتب الإسلامي دمشق، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ.
١٤٩ ـ الرسالة التدمرية:
شيخ الإسلام ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٧هـ.
١٥٠ ـ رسالة في الرد على الرافضة:
لأبي حامد المقدسي ت (٨٨٨هـ) تحقيق: عبد الوهاب خليل الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ.
١٥١ ـ الرسالة المستطرفة لبيان مشهور السنة المشرفة:
الكتاني ت (١٣٤٥هـ) دار البشائر الإسلامية، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٦هـ.
١٥٢ ـ رسالة منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز:
للعلامة الشنقيطي ت (١٣٩٢هـ) طبع في آخر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للمؤلف نفسه.
١٥٣ ـ الروح:
ابن قيم الجوزية ت (٧٥١هـ) تحقيق: بسام علي سلامة العموشي دار ابن تيمية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
١٥٤ ـ الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم:
لابن الوزير ت (٨٤٠هـ) دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩هـ.
١٥٥ ـ رياض الصالحين:
للنووي ت (٦٧٦هـ) دار المأمون، دمشق، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠هـ.
١٥٦ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد:
لابن قيم الجوزية ت (٧٥١هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ.
١٥٧ ـ الزهد:
ابن المبارك ت (١٨١هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥٨ ـ الزهد:
لوكيع بن الجراح ت (١٩٧هـ) تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي مكتبة الدار، المدينة النبوية، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.

١٥٩ - الزهد:
أحمد بن حنبل ت (٢٤١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
١٦٠ - الزهد:
هناد بن السري ت (٢٤٣هـ) تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي دار الخلفاء، الكويت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.
١٦١ - الزواجر عن اقتراف الكبائر:
ابن حجر الهيثمي ت (٩٧٤هـ) دار المعرفة، بيروت.
١٦٢ - السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة:
ابن حميد ت (١٢٩٥هـ) مكتبة الإمام أحمد، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
١٦٣ - سلسلة الأحاديث الصحيحة:
محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق بيروت، الدار السلفية، الكويت، المكتبة الإسلامية الأردن، الطبعة الأولى.
١٦٤ - سلسلة الأحاديث الضعيفة:
الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق بيروت، الطبعة الأولى.
١٦٥ - السلوك لمعرفة دول الملوك:
المقريزي ت (٨٤٥هـ) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٦م.
١٦٦ - سنن الدارمي:
الدارمي ت (٢٥٥هـ) طبعة مصورة في بيروت.
١٦٧ - سنن ابن ماجه:
ابن ماجه ت (٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت سنة ١٣٩٥هـ.
١٦٨ - سنن أبي داود:
أبو داود السجستاني ت (٢٧٥هـ) تحقيق: عزة عبيد الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، حمص، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٣هـ.
١٦٩ - سنن الترمذي:
الإمام الترمذي ت (٢٧٩هـ) تحقيق: أحمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٥هـ.
١٧٠ - سنن النسائي:
النسائي ت (٣٠٣هـ) المكتبة السلفية، لاهور، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٦هـ.

١٧١ ـ سنن الدارقطني:
الدارقطني ت (٣٨٥هـ) اعتناء عبد الله هاشم يماني المدينة ١٣٨٦هـ.

١٧٢ ـ السنن الكبرى:
النسائي (٣٠٣هـ) تحقيق: د. عبد الغفار البنداري وسيد كسروي حسن دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ.

١٧٣ ـ السنن الكبرى:
البيهقي ت (٤٥٨هـ) دار الفكر، بيروت.

١٧٤ ـ السنة:
عبد الله بن أحمد بن حنبل ت (٢٩٠هـ) تحقيق: د. محمد سعيد القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.

١٧٥ ـ السنة:
ابن أبي عاصم ت (٢٨٧هـ) تخريج الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

١٧٦ ـ السنة:
لمحمد بن نصر المروزي ت (٢٩٤هـ) دار الثقافة والنشر الرياض.

١٧٧ ـ سير أعلام النبلاء:
الذهبي ت (٧٤٨هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ، مجموعة من المحققين.

١٧٨ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية:
لمحمد مخلوف ت (١٣٦٠هـ) المطبعة السلفية سنة ١٣٤٩هـ.

١٧٩ ـ شذرات الذهب:
ابن العماد الحنبلي ت (١٠٨٩هـ) دار المسيرة، بيروت.

١٨٠ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة:
للإلكائي ت (٤١٨هـ) تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.

١٨١ ـ شرح الأصول الخمسة:
للقاضي عبد الجبار ت (٤١٥هـ) تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤هـ.

١٨٢ ـ شرح حديث أبي الدرداء:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) طبع مكتبة التراث الإسلامي ١٩٨٧م، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود.

١٨٣ ـ شرح حديث زيد: لبيك اللهم لبيك:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) مخطوط توجد له نسخة خطية بمكتبة الملك سعود المركزية، بالرياض برقم ١/١٨١٧.

١٨٤ ـ شرح حديث شداد بن أوس:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) يوجد له نسخة خطية بمكتبة جامعة الملك سعود المركزية، بالرياض تحت رقم ٨/١٨١٧.

١٨٥ ـ شرح حديث عمّار بن ياسر:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) طبع بتحقيق: إبراهيم بن محمد العرف، مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ.

١٨٦ ـ شرح حديث «ما ذئبان جائعان» ويسمى أيضاً «ذم الجاه والمال».
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) الدار السلفية، الكويت ١٤٠١هـ تحقيق: بدر البدر.

١٨٧ ـ شرح حديث «مثل الإسلام».
ابن رجب ت (٧٩٥هـ) مخطوط، وتوجد له نسخة في المكتبة السليمانية بتركيا برقم ٥٣١٨.

١٨٨ ـ شرح حديث النزول:
ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة ١٣٩٧هـ.

١٨٩ ـ شرح السنة:
للبربهاري ت (٣٢٩هـ) تحقيق: د. محمد سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الدمام، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٩٠ ـ شرح السنة:
للبغوي ت (٥١٦هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت سنة ١٩٧١م.

١٩١ ـ شرح صحيح مسلم:
النووي ت (٦٧٦هـ) القاهرة سنة ١٣٤٩هـ.

١٩٢ ـ شرح العقيدة الطحاوية:
ابن أبي العز الحنفي، حققها وراجعها جماعة من العلماء خرج أحاديثها الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ.

١٩٣ ـ شرح العقيدة الواسطية:
محمد خليل هراس، مراجعة، عبد الرزاق عفيفي، طبع مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة السابعة.

١٩٤ ـ شرح الكافية الشافعية:
لابن مالك ت (٦٧٢هـ) تحقيق: د. عبد المنعم أحمد هريدي دار المأمون للتراث.

١٩٥ ـ شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري:
للشيخ عبد الله الغنيمان، توزيع مكتبة الدار بالمدينة المنورة، طبع مكتبة المدني، جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٩٦ ـ شرح لمعة الاعتقاد:
للشيخ، محمد صالح العثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ.

١٩٧ ـ شرح سنن أبي داود:
للعلامة ابن القيم ت (٧٥١هـ) مطبوع على حاشية عون المعبود الطبعة الثانية الناشر عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية.

١٩٨ ـ الشريعة:
للآجري ت (٣٦٠هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

١٩٩ ـ شعب الإيمان:
للبيهقي ت (٤٥٨هـ) تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ.

٢٠٠ ـ الشعر والشعراء:
لابن قتيبة ت (٢٧٦هـ) القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م تحقيق: أحمد شاكر.

٢٠١ ـ شفاء العليل:
ابن قيم الجوزية ت (٧٥١هـ) تحرير الحساني حسن عبد الله مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٥م.

٢٠٢ ـ الشهادة الزكية:
لمرعي بن يوسف الكرمي ت (١٠٣٣هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف.

٢٠٣ ـ الصحاح:
للجوهري ت (٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٢هـ.

٢٠٤ ـ صحيح البخاري:
البخاري ت (٢٥٦هـ) المكتبة الإسلامية، تركيا سنة ١٩٨١م.

٢٠٥ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته:
الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٠٦ ـ صحيح ابن خزيمة:
ابن خزيمة ت (٣١١هـ) تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ.

٢٠٧ ـ صحيح مسلم:
مسلم بن الحجاج ت (٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي، بيروت سنة ١٣٧٤هـ.

٢٠٨ ـ صفة المنافق:
للفريابي ت (٣٠١هـ) تحقيق: بدر البدر، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ.

٢٠٩ ـ صلة الخلف بموصول السلف:
للروداني ت (١٠٩٤هـ) دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ.

٢١٠ ـ الصلة:
لابن بشكوال ت (٥٧٨هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦م.

٢١١ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة:
لابن القيم ت (٧٥١هـ) تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ.

٢١٢ ـ صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام:
للسيوطي ت (٩١١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، تعليق علي سامي النشار.

٢١٣ ـ الضعفاء الصغير:
للبخاري ت (٢٥٦هـ) تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦هـ.

٢١٤ ـ الضعفاء الكبير:
للعقيلي ت (٣٢٢هـ) تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.
٢١٥ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع:
السخاوي ت (٩٠٢هـ) دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢١٦ ـ طبقات الحفاظ:
السيوطي ت (٩١١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.
٢١٧ ـ طبقات الحنابلة:
ابن أبي يعلى ت (٥٢٥هـ) دار المعرفة، بيروت.
٢١٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى:
السبكي ت (٧٧١هـ) تحقيق: محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، طبعة الحلبي، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣هـ.
٢١٩ ـ طبقات الشافعية:
ابن هداية الله ت (١٠١٤هـ) تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩م.
٢٢٠ ـ طبقات فحول الشعراء:
لابن سلام ت (٢٣١هـ) تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني.
٢٢١ ـ الطبقات الكبرى:
لابن سعد ت (٢٣٠هـ) دار صادر، بيروت.
٢٢٢ ـ طبقات المفسرين:
السيوطي ت (٩١١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ.
٢٢٣ ـ طبقات المفسرين:
الداودي ت (٩٤٥هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ.
٢٢٤ ـ طرح التثريب في شرح التقريب:
لعبد الرحيم العراقي ت (٨٠٦هـ) مطبعة جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٣٥٣هـ.
٢٢٥ ـ العبر في خبر من غبر:
الذهبي ت (٧٤٨هـ) تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ.

٢٢٦ ـ العبودية:
لشيخ الإسلام ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) طبع ونشر، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

٢٢٧ ـ العصر المماليكي في مصر والشام:
تأليف د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٦م.

٢٢٨ ـ العقائد الشيعية:
لناصر الدين شاه، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ.

٢٢٩ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين:
الفاسي ت (٣٨٢هـ) مطبعة السنة المحمدية، القاهرة سنة ١٣٧٩هـ.

٢٣٠ ـ عقيدة السلف وأصحاب الحديث:
لأبي عثمان الصابوني ت (٤٤٩هـ) ضمن مجموعة الرسائل الكمالية في التوحيد، نشر مكتبة المعارف، الطائف.

٢٣١ ـ العلم:
لأبي خيثمة ت (٢٣٧هـ) تحقيق الألباني، نشر وتوزيع دار الأرقم، الكويت.

٢٣٢ ـ علماء نجد خلال ستة قرون:
لعبد الله البسام، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ.

٢٣٣ ـ علماء ومفكرون عرفتهم:
محمد المجذوب، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ.

٢٣٤ ـ العلو للعلي الغفار:
الذهبي ت (٧٤٨هـ) صححه، عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٨هـ.

٢٣٥ ـ عمل اليوم والليلة:
لابن السني ت (٣٦٤هـ) تحقيق: عبد القادر عطا، دار المعرفة، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.

٢٣٦ ـ عمل اليوم والليلة:
للنسائي ت (٣٠٣هـ) تحقيق: فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦هـ.

٢٣٧ ـ عنوان المجد في تاريخ نجد:
لعثمان بن بشر ت (١٢٩٠هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن عبد اللطيف، الطبعة الثانية سنة ١٣٩١هـ.
٢٣٨ ـ غاية النفع في شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: إبراهيم محمد العرف طبعة مكتبة السوادي، جدة سنة ١٤٠٨هـ.
٢٣٩ ـ غاية النهاية في طبقات القراء:
للجزري ت (٨٨٣هـ) تحقيق: ج، برحستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢هـ.
٢٤٠ ـ فتح الباري:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق/ طارق بن عوض الله بن محمد ـ دار ابن الجوزي ـ الطبعة الأولى.
٢٤١ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري:
ابن حجر ت (٨٥٢هـ) المكتبة السلفية ومطبعتها، القاهرة سنة ١٣٨٠هـ.
٢٤٢ ـ فتح رب البرية بتلخيص الحموية:
لابن عثيمين، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.
٢٤٣ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير:
للشوكاني ت (١٢٥٠هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ.
٢٤٤ ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد:
لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ت (١٢٨٥هـ) تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة: دار البيان، دمشق الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢هـ.
٢٤٥ ـ فتوح البلدان:
للبلاذري ت (٢٨٩هـ) تعليق، رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٣٩٨هـ.
٢٤٦ ـ الفتوى الحموية:
لشيخ الإسلام ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٨هـ.
٢٤٧ ـ الفرق بين الفرق:
لعبد القاهر البغدادي ت (٤٣٩هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة.

٢٤٨ ـ الفرق بين النصيحة والتعيير:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف دار ابن القيم الدمام.
٢٤٩ ـ الفروق اللغوية:
لأبي هلال العسكري ت (٣٨٢هـ) دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠١هـ.
٢٥٠ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل:
لابن حزم ت (٤٥٦هـ) شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢هـ، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة ود. محمد إبراهيم نصر.
٢٥١ ـ فضائل الشام:
ابن رجب ت (٧٩٥هـ) مخطوط، وتوجد منه في المكتبة البلدية بالإسكندرية نسخة برقم ١٠٨.
٢٥٢ ـ فضل علم السلف على علم الخلف:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) طبع الدار السلفية، الكويت، سنة ١٤٠٧هـ تحقيق: محمد بن ناصر العجمي.
٢٥٣ ـ فهرس الفهارس:
لعبد الحي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥٤ ـ الفهرسة الأبجدية والترتيب المعجمي:
د. محمد سليمان الأشقر، دار البحوث العلمية، الكويت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٢هـ.
٢٥٥ ـ الفوائد:
لابن القيم ت (٧٥١هـ) دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٣هـ.
٢٥٦ ـ فوات الوفيات:
لابن شاكر الكتبي ت (٧٦٤هـ) تحقيق: إحسان عباس دار صادر بيروت سنة ١٩٧٣م.
٢٥٧ ـ فيض القدير:
للمناوي ت (١٠٣١هـ) دار المعرفة، بيروت سنة ١٣٩١هـ.
٢٥٨ ـ القاموس المحيط:
للفيروز أبادي ت (٨١٧هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.

٢٥٩ ـ القضاء والقدر:
لشيخ الإسلام ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٦٠ ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية:
ابن حولون الصالحي ت (٩٥٣هـ) تحقيق: محمد أحمد دهمان، دمشق سنة ١٣٦٨هـ.
٢٦١ ـ القواعد الكبرى في الفروع:
ابن رجب ت (٧٩٥هـ) المطبعة الخيرية، القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.
٢٦٢ ـ القول المفيد في أدلة التوحيد:
لأبي إبراهيم العبدلي، مكتبة الضياء، جدة، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.
٢٦٣ ـ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة:
الذهبي ت (٧٤٨هـ) تحقيق: عزة عبيد عطية، موسى محمد الموشي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٢هـ.
٢٦٤ ـ الكامل في التاريخ:
ابن الأثير ت (٦٣٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٣هـ.
٢٦٥ ـ الكامل في ضعفاء الرجال:
ابن عدي ت (٣٦٥هـ) دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٥هـ.
٢٦٦ ـ الكبائر وتبيين المحارم:
الذهبي ت (٧٤٨هـ) تحقيق: محي الدين مستو، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.
٢٦٧ ـ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزّ وجلّ:
لابن خزيمة ت (٣١١هـ) دار الرشد، الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ، تحقيق د. عبد العزيز الشهوان.
٢٦٨ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار:
الهيثمي ت (٨٠٧هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ.
٢٦٩ ـ كشف الخفا ومزيل الألباس:
العجلوني ت (١١٦٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثالثة سنة ١٣٥١هـ.

٢٧٠ ـ كشف الظنون:
حاجي خليفة ت (١٠٦٧هـ) دار الفكر، بيروت سنة ١٤٠٢هـ.
٢٧١ ـ كشف الكربة وصف حال أهل الغربة:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: بدر البدر، دار الأرقم الكويت سنة ١٤٠٤هـ.
٢٧٢ ـ الكشاف:
للزمخشري ت (٥٣٨هـ) مطبعة الحلبي، القاهرة سنة ١٣٨٥هـ.
٢٧٣ ـ كنز العمال:
المتقي الهندي، عناية، بكري حياتي، صفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
٢٧٤ ـ اللباب في تهذيب الأنساب:
ابن الأثير ت (٦٣٠هـ) دار صادر، بيروت سنة ١٤٠٠هـ.
٢٧٥ ـ لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ:
ابن فهد المكي ت (٨٧١هـ) الناشر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٧٦ ـ لسان العرب:
ابن منظور ت (٧١١هـ) دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
٢٧٧ ـ لسان الميزان:
ابن حجر ت (٨٥٢هـ) دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ.
٢٧٨ ـ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) طبع دار الجيل، بيروت.
٢٧٩ ـ لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد:
لابن قدامة ت (٦٢٠هـ) الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى سنة تحقيق: بدر البدر.
٢٨٠ ـ لوامع الأنوار البهية:
السفاريني ت (١١٨٨هـ) طبع المنار ١٣٢٥هـ.
٢٨١ ـ المجروحين:
لابن حبان ت (٣٥٤هـ) تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب سنة ١٣٩٦هـ.
٢٨٢ ـ مجمع الزوائد:
الهيثمي ت (٨٠٧هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢هـ.

٢٨٣ ـ مجمل اللغة:
أبو الحسين بن فارس ت (٣٩٥هـ) تحقيق: زهير عبد المحسن مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.
٢٨٤ ـ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية:
ابن تيمية ت (٧٢٨هـ) جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.
٢٨٥ ـ مجموع فتاوي ومقالات متنوعة:
للعلامة الشيخ، عبد العزيز بن باز جمع وترتيب، محمد بن سعد الشويعر، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.
٢٨٦ ـ المحجة في سير الدلجة:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: مختار غراوي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
٢٨٧ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:
لابن عطية ت (٥٤٢هـ) تحقيق: المجلس العلمي بفاس، طبع وزارة الأوقاف بالمغرب.
٢٨٨ ـ مختصر سنن أبي داود:
للحافظ المنذري ت (٦٥٦هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
٢٨٩ ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة:
اختصار، محمد الموصلي، مكتبة الرياض الحديثة، بالرياض.
٢٩٠ ـ مختصر طبقات الحنابلة: للشطي:
تأليف: محمد جميل بن عمر الشطي ت (١٣٧٩هـ) مطبعة الترقي، دمشق ١٣٣٩هـ.
٢٩١ ـ المختصر في أخبار البشر:
لعماد الدين أبي الفداء ت (٧٣٢هـ) المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٥هـ.
٢٩٢ ـ مدارج السالكين:
ابن القيم ت (٧٥١هـ) عناية، محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت سنة ١٣٩٢هـ.
٢٩٣ ـ المدخل إلى السنن الكبرى:
البيهقي ت (٤٥٨هـ) تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت سنة ١٤٠٥هـ.

٢٩٤ ـ المراسيل:
لأبي داود ت (٢٧٥هـ) دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ تحقيق: يوسف المرعشلي.
٢٩٥ ـ المزهر في علوم اللغة:
للسيوطي ت (٩١١هـ) القاهرة ١٩٥٨م، تحقيق: أبو الفضل ابن إبراهيم.
٢٩٦ ـ مسائل الإمام أحمد:
لابن هانئ ت (٢٧٥هـ) تحقيق: زهير الشاويش المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ.
٢٩٧ ـ مساوئ الأخلاق:
للخرائطي ت (٣٢٧هـ) مخطوط، نسخة مصورة بقسم المخطوطات بالمكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية.
٢٩٨ ـ المستدرك على الصحيحين:
للحاكم ت (٤٠٥هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٩٩ ـ المستدرك على معجم المؤلفين:
لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.
٣٠٠ ـ المستصفى في علم الأصول:
للغزالي ت (٥٠٥هـ) المطبعة الأميرية، مصر، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤هـ.
٣٠١ ـ المستفاد من ذيل تاريخ بغداد:
لابن النجار ت (٦٤٣هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: د. قيصر أبو فرح.
٣٠٢ ـ المسند:
أحمد بن حنبل ت (٢٤١هـ) المكتب الإسلامي، بيروت، دار صادر وتحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٥٤م.
٣٠٣ ـ المسند:
للحميدي ت (٢١٩هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي عالم الكتب، بيروت.
٣٠٤ ـ المسند:
لأبي عوانة ت (٣١٦هـ) دار المعرفة بيروت.
٣٠٥ ـ مسند أبي يعلى:
لأبي يعلى الموصلي ت (٣٠٧هـ) تحقيق: حسين سليم، دار المأمون، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.

٣٠٦ ـ مسند الشهاب:
للشهاب القضاعي ت (٤٥٤هـ) تحقيق: حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ.

٣٠٧ ـ مشاهير علماء الأمصار:
لابن حبان ت (٣٥٤هـ) دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠٨ ـ المشتبه في أسماء الرجال:
للذهبي ت (٧٤٨هـ) تحقيق: علي البجاوي، القاهرة ١٩٦٢م.

٣٠٩ ـ مشكاة المصابيح:
التبريزي ت (   ) تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ.

٣١٠ ـ مشكل الآثار:
للطحاوي ت (٣٢١هـ) مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ.

٣١١ ـ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه:
البوصيري ت (٨٤٠هـ) دار المعرفة، بيروت سنة ١٤٠٣هـ.

٣١٢ ـ المصباح المنير:
الفيومي ت (٧٧٠هـ) تصحيح، مصطفى السقا، المكتبة العلمية، بيروت.
مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك:
تأليف الدكتور، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية بيروت، لبنان.

٣١٣ ـ المصنف:
عبد الرزاق الصنعاني ت (٢١١هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٣١٤ ـ المصنف:
ابن أبي شيبة ت (٢٣٥هـ) تحقيق: مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٣١٥ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد:
لحافظ حكمي ت (١٣٧٧هـ) المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة.

٣١٦ ـ معالم السنن:
للخطابي ت (٣٨٨هـ) المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ.

٣١٧ ـ معجم الأدباء:
ياقوت الحموي ت (٦٢٦هـ) دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠هـ.
٣١٨ ـ المعجم الأوسط:
للطبراني ت (٣٦٠هـ) تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ. ومخطوط نسخه مصورة بقسم المخطوطات بالمكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
٣١٩ ـ معجم البلدان:
لياقوت الحموي ت (٦٢٦هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٢٠ ـ معجم الشيوخ:
لابن فهد الهاشمي ت (٨٨٥هـ) تحقيق: محمد الزاهي، طبع دار اليمامة بالرياض، سنة ١٤٠٢هـ.
٣٢١ ـ معجم الشيوخ الكبير:
للذهبي ت (٧٤٨هـ) نشر مكتبة الصديق، الطائف الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ.
٣٢٢ ـ المعجم الصغير:
للطبراني ت (٣٦٠هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.
٣٢٣ ـ المعجم الكبير:
للطبراني ت (٣٦٠هـ) مطبعة الوطن، بغداد، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ.
٣٢٤ ـ معجم المؤرخين الدمشقيين:
لصلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
٣٢٥ ـ معجم المؤلفين:
عمر كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
معجم مقاييس اللغة:
لابن فارس ت (٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ.
٣٢٦ ـ معرفة القراء الكبار:
للذهبي ت (٧٤٨هـ) تحقيق: بشار عوّاد معروف وشعيب الأرناؤوط، وصالح مهدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.
٣٢٧ ـ المعين في طبقات المحدثين:
للذهبي ت (٧٤٨هـ) تحقيق: همّام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.

٣٢٨ ـ المغني:
ابن قدامة ت (٦٢٠هـ) مكتبة الجمهورية العربية مصر.
٣٢٩ ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار:
العراقي ت (٨٠٦هـ) مطبوع بهامش إحياء علوم الدين للغزالي، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة.
٣٣٠ ـ المغني في ضعفاء الرجال:
للذهبي ت (٧٤٨هـ) تحقيق: نور الدين عتر، دار المعارف حلب، الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ.
٣٣١ ـ مفتاح دار السعادة:
لابن القيم ت (٧٥١هـ) نشر، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض.
٣٣٢ ـ المفردات:
للراغب الأصفهاني ت (٥٠٢هـ) تحقيق: محمد سيد كيلاني طبعة الحلبي، القاهرة سنة ١٣٨١هـ.
٣٣٣ ـ المقاصد الحسنة:
للسخاوي ت (٩٠٢هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٩٩هـ.
٣٣٤ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين:
لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٩هـ.
٣٣٥ ـ مقتل الحسين وفتاوى العلماء الأعلام في تشجيع الشعائر:
لمرتضى عياد، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت.
٣٣٦ ـ المقصد الأرشد في تراجم أصحاب الإمام أحمد:
ابن مفلح الحنبلي ت (٨٨٤هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠هـ.
٣٣٧ ـ مكارم الأخلاق:
الخرائطي ت (٣٢٧هـ) تحقيق: عبد الله حجاج، مكتبة السلام العالمية، القاهرة.
٣٣٨ ـ الملل والنحل:
للشهرستاني ت (٥٤٨هـ) تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت سنة ١٤٠٢هـ.

٣٣٩ ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال:
ابن بدران ت (١٣٤٦هـ) المكتب الإسلامي، دمشق الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٢هـ.
٣٤٠ ـ مناقب الشافعي:
للبيهقي ت (٤٥٨هـ) تحقيق: أحمد صقر، مكتبة دار التراث القاهرة سنة ١٣٩١هـ.
٣٤١ ـ المنتظم:
ابن الجوزي ت (٥٩٧هـ) طبعة دائرة المعارف العثمانية الطبعة الأولى سنة ١٣٥٩هـ.
٣٤٢ ـ منهاج السنة النبوية:
٣٤٣ ـ لابن تيمية ت (٧٢٨هـ) تحقيق: محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، الطبعة الأولى سنة
٣٤٤ ـ المنهاج في شعب الإيمان:
للحليمي ت (٤٠٣هـ) تحقيق: حلمي محمد فوده، دار الفكر الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ.
٣٤٥ ـ المنهج الأحمد:
للعليمي ت (٩٢٨هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد عادل نويهض، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤هـ (مخطوط) نسخة مصورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.
٣٤٦ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي:
لابن تغردي بردي ت (٨٧٤هـ) مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.
٣٤٧ ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان:
للهيثمي ت (٨٠٧هـ) تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٤٨ ـ موسوعة التاريخ الإسلامية والحضارة الإسلامية:
د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٤م.
٣٤٩ ـ الموطأ:
مالك بن أنس ت (١٧٩هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية، الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٥٠ ـ ميزان الإعتدال:
للذهبي ت (٧٤٨هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٣٥١ ـ النبوات:
لابن تيمية ت (٧٢٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٤٠٢هـ.

النجوم للخطيب البغدادي ت (٤٦٣هـ) (مخطوط) نسخة مصورة بمكتبة المخطوطات بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

٣٥٢ ـ النجوم الزاهرة:
ابن تغري بردي ت (٧٨٤هـ) دار الكتب العربية، القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٣٤٨هـ.

٣٥٣ ـ نزهة الأسماع في مسألة السماع:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: الوليد بن عبد الرحمن الفريان الناشر، دار طيبة بالرياض سنة ١٤٠٧هـ.

٣٥٤ ـ نصب الراية:
الزيلعي ت (٧٦٢هـ) مطبوعات المجلس العلمي، توزيع المكتب الإسلامي، بيروت سنة ١٣٩٣هـ.

٣٥٥ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:
المقري ت (١٠٤٢هـ) تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م.

٣٥٦ ـ النهاية في غريب الحديث:
ابن الأثير ت (٦١٦هـ) تحقيق: محمد أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، بيروت، بدون.

٣٥٧ ـ النهاية في الفتن والملاحم:
ابن كثير ت (٧٧٤هـ) تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز دار إحياء التراث الإسلامي بالأزهر.

٣٥٨ ـ نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس:
لابن رجب ت (٧٩٥هـ) تحقيق: محمد ناصر العجمي، طبع مكتبة دار الأقصى، الكويت سنة ١٤٠٦هـ.

٣٥٩ ـ هدية العارفين:
للبغدادي ت (١٣٣٩هـ) طبع استانبول سنة ١٩٥١م.

٣٦٠ ـ هذه هي الصوفية:
لعبد الرحمن الوكيل، الكتب العلمية، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩م.
٣٦١ ـ الوابل الصيب:
لابن القيم ت (٧٥١هـ) تحقيق: إسماعيل الأنصاري، طبعة دار الإفتاء، الرياض، بدون.
٣٦٢ ـ الوافي بالوفيات:
للصفدي ت (٧٦٤هـ) عناية، س. ريد. رينغ، الطبعة الثانية.
٣٦٣ ـ الوفيات:
لابن رافع السلامي ت (٧٧٤هـ) تحقيق: صالح مهدي عباس مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٢هـ.
٣٦٤ ـ وفيات الأعيان:
لابن خلكان ت (٦٨١هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة